الجامعة المصرية

التِبيان
فى
تخطيطِ البُلدانِ

يشمل الدروس التي القاها بالجامعة المصرية

« اسماعيل رأفت بك »

أستاذ الجغرافيا وعلم الشعوب (أتنوغرافيا) بها

ومدرس التاريخ العام والجغرافيا بمدرسة دار العلوم

الجزء الاول

الطبعة الاولى

فى نهايته عدة خرائط للاستعانة بها على توضيح ما اشتمل عليه من الابحاث

القاهرة

١٣٢٩

مطبعة محمد محمد مطر الوراق بالحمزاوي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد فقد طلبت مني ادارة الجامعة المصرية تدوين ما ألقيه من الدروس على طلبة الجامعة في علم الجغرافيا والاثنوغرافيا (علم الشعوب) في كتاب ليستفيدوا منه هم وغيرهم ممن لهم ميل للتحلي بحلى هذا العلم النفيس الذي أصبح بفضل الحركة الاجتماعية الحالية صاحب العمل الكبير والأثر الخطير فيما وصل اليه العالم الآن من النهوض في الحضارة خصوصاً أهل أوربا الذين صاروا بجدهم ومساعيهم مثالاً يقتدى به بعد ان سقطت صروح الاوائل واندكت معالم الحضارة القديمة

وقد جمعته من مختلف الأسفار وشتيت أقوال السفّار متحريا صدق الرواية وصحيح الخبر قدر الاستطاعة ونبهت على اشتقاق اسماء الأعلام بما اخذته عن الثقات الأعلام بين عرب وأعجام واعتمدت بعد الله على ما رواه سيّاحو

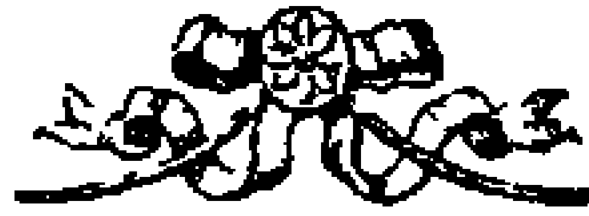
الفرنج في كتبهم وقصّوه في أسفارهم سواء منهم من روى ونقل أو ناظر أو تجشم المشاق وسافر وناقل الكفرليس بكافر وقد سمّيته (التبيان في تخطيط البلدان) هذا وقد صارت الحال الآن والأسف ملء الجوانح ان مصادرنا في كل شيء هم أولئك العاملون النشيطون المغيرون الفاتحون فقد تخلت الحضارة عن أهلها وأقاربها وطلعت الشمس من مغربها بحيث لو أراد الشرق أن تعود اليه دولته وماضي صولته فلا بدّ له من أن ينسج على منوالهم ويسير على آثارهم مع اختيار المصلح المفيد وما لا يخرج بأهله عن العادات والعقائد والرأي السديد والا فذكر الرفات لا يجلب الا الزفرات والحسرات واني لأرجو ان تصل الجامعة المصرية الى ما وصلت اليه أخواتها ببغداد وقرطبة فتكون معهد العلم والعلماء وموئل الفضل والفضلاء وان يقبل عليها طلبة العلم للعلم لا لمنفعة مادية ولا للسّعي وراء وظيفة اميرية فان بهذا تتفاضل الأمم وتعلو الهمم سيما والعصر عصر مولانا عباس الثانى وانكباب الامة فيه على تحصيل المعارف أصبح أمره مشهوراً وذكره مسطوراً بما مهده لهم من الطرق وسهله من الوسائل كما أرجو أن يعرف الناس قدر الهمة العالية والمساعي المشكورة التي يبذلها صاحب الدولة الامير الخطير الامير المحبوب أحمد فؤاد باشا فهو يدأب الليل والنهار فيما يرقى هذا المعهد العلمي ويرفع من شأنه ليضارع أمثاله بأوربا مستعيناً في بغيته ومسترشداً في طلبته بطائفة من الفضلاء اشتهروا بحب الخير للبلاد فالله اسأل أن يثيبه

ومن ساعده وسمع نداءه وعادنده خير الثواب

هـذا ولا يخفى أن هذه الجامعة بديار قوم لم ينس التاريخ فضلهم ولم يغمط حقهم فهم جديرون بأن يستردوا تلك الوديعة والعلم الضائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع اللهم الهمنا السداد في المبداء والمعاد ؟

تحريراً بالقاهرة في ٨ محرم سنة ١٣٢٩

اسماعيل رأفت



قارة افريقيه

تعريفات وأوصاف عمومية

مواقعها وامتداداتها وشكلها ـ قارة افريقيه بالنسبة لمسطحها هي الثانية أو الثالثة بين القارات اذا اعتبرنا امريقا قارة واحدة وموقعها بين بحر الروم من الشمال وبحر الظلمات من الغرب والجنوب الغربي وبحر الهند من الجنوب الشرقي والشرق والبحر الاحمر وبرزخ السويس من الشمال الشرقي وهي بين الدرجة ٣٧ والدقيقه ٢٠ من العرض الشمالي (الرأس الابيض) وبين الدرجه ٣٤ والدقيقه ٥٠ من العرض الجنوبي (رأس المسلات) وبين الدرجه ١٩ والدقيقه ٥٤ من الطول الغربي (الرأس الاخضر) وبين الدرجه ٤٨ والدقيقه ٥٦ من الطول الشرقي (رأس الاحتراس)

واعظم طول لها من الشمال الى الجنوب يبلغ ٨٠٠٠ كيلو متراً تقريباً واكبر عرض لها من الشرق الى الغرب ٧٥٤٠ كيلو متراً تقريباً ويقدرون مسطحها بثلاثين ميلونا من الكيلومترات المربعة ويدخل في ذلك الجزائر التابعة لها فهي على هذا أربعة أمثال استراليا وثلاثة أمثال أوربا اما بالنسبة لآسيا فلا تكاد تبلغ خمسة أثمان مسطح تلك القارة وافريقيه قارة مما يعرف لدى الجغرافيين بالقارة القديمة أو القارات القديم وتتصل معها

ببرزخ السويس الذي يربطها بآسيا ويظهر من بعض الدلائل الجيولوجية انها كانت تتصل قديماً بقارة أوربا بواسطة شبه جزيرة اسبانيا وبالبرزخ الذي كان يوجد فيما سبق بين صِقليه وتونس

هذا وشكل افريقيه يشبه كمثري تقريباً رأسها نحو الجنوب واذا قارناها بشكل هندسي لكانت تشبه مثلثاً أو مجسم القطع الناقص ومع ذلك فهذه التشابيه لا تنطبق عليها تماماً لاننا اذا أردنا تشبيهها تشبيهاً تاماً بشكل من الاشكال لتعين علينا دائما ان نتذكر ذلك الانتفاخ والامتداد الذي بالشمال الغربي وهو ما تمتاز به افريقيه عن بقية القارات وليس بأفريقيه اشباه جزائر حقيقية كما في القارات الاخرى وكذلك خلجانها لا تمتد طويلاً داخل أراضيها لهذا كانت في وسطها نقط تبعد عن أقرب البحار اليها بنحو ١٨٠٠ كيلو متر ويخص الكيلو متر الواحد من سواحلها نحو ١١٠٠ كيلو متر مربع من مجموع مسطحها مع ان الكيلو متر الواحد من سواحل أوربا يخصه نحو ثلثمائة كيلو متر والكيلو متر الواحد بأمريقا الشماليه يخصه نحو ٤٠٠ كيلو متر وبأمريقا الجنوبيه يخصه نحو ٧٠٠ كيلو متر مربع تقريبا

وشكل افريقيه وان كان خاصا بها الا انه يشترك معها فيه قارتان جنوبيتان هما امريقا الجنوبيه واستراليا وكما ان افريقيه قليلة الشواطئ والخلجان العميقة فهي كذلك قليلة الجزائر وتلك الجزائر على قلتها قليلة الاهمية أيضا الا اذا استثنينا من جزائرها مدغشقر التي تختلف اختلافا بينا عن بقية جزائرها ولهذا كان

يصح اعتبارها قارة صغيرة اكثر من اعتبارها جزيرة تابعة لافريقيه

وافريقيه في الشمال اعرض منها في الجنوب فهي كلما امتدت الى الجنوب اخذت في الضيق ويخترقها خط الاستواء في نحو وسطها وثلاثة ارباعها تقريبا واقع بالمنطقة المدارية ولما كان متوسط ارتفاعها عن سطح البحر عظيما في القسم الواقع منها جنوبي خط الاستواء على الخصوص كان مناخها هنالك أقل منه اختلافا في اغلب اقسام الدنيا ـ ولهذه الاسباب المختلفة بقي داخلها مجهولا زمنا طويلا ـ واطلق عليها بعضهم اسم القارة العجيبة وهي تسمية اصدق من تسميتها بالقارة السوداء

الاوصاف العمومية لقارة افريقيه ـ يصعب على الانسان جداً تكوين فكرة عمومية حقيقية جامعة مانعة تشمل الاوصاف الخارجية لقارة افريقيه اذ يتعين عليه أن يجول بفكره جيداً حتى تزول من امامه كل العوارض الثانوية بحيث لا يرى بعد ذلك الا الاشكال الخاصة المميزة لتلك القارة لهذا رأينا من المناسب في سهولة ما شرعنا في ايراده من الوصف ولتذليل الصعب منه لجعله مفيداً قريب التناول ان نتصور سياحة خيالية متبعين في سيرنا أطول قطر للقارة المذكورة من الشمال الى الجنوب مبتدئين من بحر الروم قاطعين الصحراء والسودان مارين بالمنطقه الاستوائيه مخترقين افريقيه الجنوبيه طولا حتى نصل الى رأس عشم الخير وعلى ذلك نقول(١)

---

(١) راجع خريطة افريقيه

ان الزاوية الشمالية الغربية من افريقيه عبارة عن جهات جبليه كثيرة المياه عظيمة الخصوبة جداً وتعرف بجهات اطلس وبها اطلال وخرائب مبان كثيرة مما يدل دلالة تاريخية واضحة على ما كان لها من الرقي والسعادة الغابرين ولهذا تهافت أهل أوربا وما زالوا يتهافتون على استعمارها

ومركز جبال اطلس واقع في الحدود ما بين بلاد الجزائر ومراكش تقريباً وأعلى قممها هناك يتراوح ارتفاعه بين ثلاثة آلاف واربعة آلاف وخمسمائة متر وتبتدىء الجهات الخصبة المذكورة من نحو ساحل بحر الظلمات امام جزائر قناريا وتنتهي في نهاية خليجي سُرت ويبلغ امتدادها من الغرب الى الشرق نحو ٢٨٠٠ كيلو متر واكبر عرض لها يبلغ ٣٠٠ كيلو متر وذلك في جهاتها الواقعة بين الساحل والحد الداخلي حيث تبتدىء الصحراء أما ما بقي من شاطىء بحر الروم من أول منتصف خليجي سرت حتى دلتا نهر النيل فليس الا ساحلا قاحلا غير ذي زرع الا في شريط ضيق واقع في قسم الشاطىء المشتمل على ما كان يعرف قديماً باسم سيرينائيك ويعرف الآن باسم بلاد برقه

ومتى اخترق الانسان جهات اطلس أو اذا خرج من نواحي سرت وتقدم جنوباً دخل في تلك الاصقاع والفدافد والسباسب التي سماها العرب بالصحراء وهي جهات رملية تشغل كل عرض افريقيه من أول بحر الظلمات حتى وادي النيل (اكثر من ٥٠٠٠ كيلو متر) ولا يقل عرضها من الشمال الى الجنوب

عن ١٦ درجه أو ١٨٠٠ كيلو متر من أول جهات الدرجه ٣٠ من المتوازيات حتى الدرجه ١٦ تقريبا وأراضى هـذه الصحراء وان كانت كلها مستوية الا ان هذا الاستواء يتغير في بعض جهاتها بوجود جبـال صخرية كما يغيرها أيضا وجود أراض خصبة منثورة في كل ارجائها وهي المعروفة بالواحات وقد شبهها بعض جغرافيي القدماء بالنقط التي تكون في جلد النمر واكثر ما تكون هذه الواحات في القسم الواقع منها مباشرة جنوبى سلسلة جبـال اطلس وهو الذي يعرف لدى الجغرافيين بالصحراء المراكشية والصحراء الجزائريه والصحراء التونسيه أو بلاد الجريد والصحراء الطرابلسية وعرض هذه المنطقة الاولى من الصحراء يبلغ من الشمال الى الجنوب نحو ٨٠٠ كيلو متر ويتخللهـا أماكن مسكونة كثيرة عظيمة الامتداد حتى يمكن اعتبارهـا كمنطقة اتصال أو انفصال بين أراضي اطلس الخصبة والصحراء الحقيقية أي الصحراء الكبرى ومن واحات الصحراء الكبرى المذكورة واحتان يجب التنويه بذكرهما لعظم اتساعهما ولما لهما من الاهمية التاريخيـة وهما فزان واسبين او آهير هذا وفي النهاية الشرقية تماما سلسلة واحات عظيمة تمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرق وهي امام وادي النيل وأولها واحة سيوه في نهاية الشمال ونهايتها واحة طيبة وهي الى الغرب مباشرة من عاصمة مصر العليا القديمة ثم يلي الصحراء بلاد السودان ويختلف عرضها بين ثمان درجات وعشر درجات وتبتدىء من حدود الصحراء قليلاً أو كثيراً

حتى سلسلة الجبال المسماة جبال كُنغ الممتدة على سواحل غانه وعلى جهات نهر ديوليبا الاسفل وتدخل في قلب افريقية الاستوائيـة وبين الصحراء والسودان اختلاف وتباين تام لان الاولى قفر ابدي القحُولة لعدم سقوط الامطار به أما الثانية فيرويها نهر عظيم ونهيرات كثيرة تجري في جهاتها تمدها الامطار الاستوائية لهذا كانت أراضيها مغطاة بنباتات دائمة تقريباً ومع هذا فلو نظرنا اليهما مجتمعين لكانا عبارة عن سهل واحد لا يختلف ارتفاعهما كثيراً عن سطح البحر ومع ذلك فالصحراء اعلى والسودان اوطأ وان كان الفرق بينهما في ذلك ليس بالشيء العظيم وقد ذكر السائح برت (١) ومن رافقه في رحلته ان الانسان يأخذ في الصعود التدريجي بعـد بلاد طرابلس بقليل متى اتجه نحو سهول الصحراء الرملية المقفرة وبمجرد دخوله هـذه السهول لا يجد امامه غير تلال متوسطة الارتفاع الى أن يجاوز الرمال ويقرب من أرض السودان هذا بقطع النظر عما يصادفه من الوديان والوهاد والصخور المنعزلة

---

(١) H. Berth — هـنري برت سائح الماني ولد في همبرغ سـنة (١٨٢١ — ١٨٦٥ م) ولما وجد من نفسه ميلا للسياحة خرج فجاب اغلب البلاد التي يغمر سواحلها البحر الابيض المتوسط والف في ذلك كتاباً ولكن شهرته اتت له من سياحته الكبيرة التي اجراها مع كل من أورويج Ouerweg وريشردسون Richardson وقد قام بهـا بمفرده بين سنتي ١٨٥٠ و١٨٥٥ من مدينـة طرابلس الى بحـيرة تشاد ومن برنوالي تمبكتو وسط بلاد السودان التي اظهرها لاوربا وقد نشر نتائج هذه السياحة في كتاب الفه في ذلك

المتفرقة هنا وهناك ويظهر من أقوال مسيو فوجـل (١) ان هناك بين طرابلس وشاد مرتفعات يعقب بعضها بعضاً وان الارض بين وسط بلاد فزان وبحـيرة شاد عبارة عن ضهر مائل ميـلا خفيفاً جداً نحو الجنوب يختلف متوسط ارتفاعه بين اربعمائة متر واربعمائة وعشرين مـتراً عن سطح البحر . واعظم ارتفاع شاهدوه بين تيغرّي وبلما يبلغ ٩٠٠ متر وأعظم انخفاض فيها هو منخفض بلما ويبلغ تقريبا ٣٠٠ متر ولقد تكون هذه الاختلافات الارضية عظيمة لو كانت في مسافات واسعة ولـكنها لما كانت اختلافات محلية صرفة كان لا يحدث منها الا تغير جزئي في ارتفاعها العمومي وروى السائح فوجل المذكور أيضاً ان ارتفاع بحيرة شاد عن سطح الاوقيانوس يبلغ ٢٦٠ متراً أي أقل بنحو ١٤٠ متراً تقريباً عن متوسط ارتفاع الصحراء وحوض نهر النيل عند الخرطوم واقع تقريباً تحت المتوازي الذي عليه بحيرة شاد وهو أعلى منها بنحو ١٠٠ متر

وتنقسم بلاد السودان الى قسمين طبيعيين متميزين القسم الغربي والقسم الشرقي ويمتاز القسم الشرقي منه ببحيرة شاد التي تشغل أعظم منخفض في

---

(١) E. Vogel أدورد فوجل سائح المانى ولد بمدينة ليبسيك سنة ١٨٢٩ ثم تعين مساعداً فلـكياً في احد المراصد بلندره سنة ١٨٥١ ثم قدم نفسه للحكومة الانجليزية ليذهب فيلتحق بالسائح برت في افريقية وكان سفره سنة ١٨٥٣ ووصل الى بلاد السودان من بلاد طرابلس وزار سواحل بحيرة شاد ثم اتجه شرقاً ويظهر انه لقي هناك حتفه بكيفية محزنة سنة ١٨٦٥

افريقيه الداخليه ويمتاز النصف الغربي بنهر ديوليبا وهو نهر بلاد التكرور العظيم وينبع من جبال سنغامبيا ويصب في نهاية خليج غانه

واذا نظرنا فقط الى الصفات المميزة للصحراء والسودان لحكمنا بأنهما يمتدان الى البحر الاحمر ولو انهما في وصولهما للبحر الاحمر يقطعان وادى النيل واعلم ان المتوازي الثالث عشر الذي هو الحد الفاصل تقريبا بين الصحراء والسودان هو كذلك، في حوض نهر النيل حد فاصل بين صقعين طبيعيين هما الجهات الخصبة الكثيرة المياه بالنيل الاعلى حيث قامت قديما مملكة مَرَوِى والتي شيدت فيها فيما بعد مدينة الخرطوم وصحارى بلاد النوبه القاحلة

وقد لاحظ العلماء من القديم وصدقت ملاحظاتهم ان نفس بلاد مصر أي الامتداد الشمالي من بلاد النوبه ليست الا واحة أوجدها نهر النيل أي شريط خصب بين صحراوين ومع هذا فأن هذا الشريط الطويل وان اشترك بمجموعه في الصفات والاحوال العامة التي تميز هذين الصقعين الطبيعيين المتجاورين أي السودان والصحراء الا ان حوض النيل بالنسبة لوضعه وتركيبه الطبيعي وكذا أحوال وأجناس سكانه وما كان له من الشأن في التاريخ كل ذلك لا يجعله أقل من أن يكون صقعاً طبيعياً مستقلا بذاته استقلالا تاماً عنهما ولو قطعنا النظر عن بلاد الحبشة الشامخة الجبال والتي هي كالذنب للصقع المذكور لكان ارتفاع حوض النيل كارتفاع السودان

والصحراء تقريباً (خلا منخفض بحيرة شاد) وذلك لان ارتفاع غندوكرو القريبة من خط خمسة من العرض الشمالى هو٥٧٩ متراً فقط عن سطح البحر وارتفاع الخرطوم الواقعة عند الدرجه ٥ر١٥ تقريباً لا يزيد عن ٣٦٥ متراً وارتفاع اصوان الواقعة عند الدرجه ٢٤ والدقيقه ٥ يبلغ ١٠٤ أمتار وارتفاع القاهرة القريبة من رأس الدلتا والبعيدة عن البحر بنحو ١٧٠ كيلومتراً والواقعة عند الدرجة ٣٠ والدقيقه ٢ والثانيه ٢١ تسعة أمتار فقط ويمكن للانسان أن يحصل من النظر في هذه الارقام على فكرة حقيقية على ارتفاع هذا الصقع وميله العمومي

هذا وتفصل الجبال التي لا تزال مجهولة تقريبا والواقعة في النهاية الاخرى من السودان وهي الجبال التي تحيط من الغرب والجنوب حوض ديوليبا افريقيه الوسطى عن منطقة بحرية عظيمة تبتدىء عند نهر سنغال وتمتد على هيئة انحناء عظيم حتى نهاية خليج بنين بالقرب من جزيرة فرندوبو وتشمل هذه المنطقة خلاف بلاد سنيغال وسنغمبيا كل بلاد غانه العليا وتكوّن كما كوّن حوض نهر النيل صقعاً طبيعياً متميزاً الا ان المعلومات التي وصلت الينا عنها للآن لا تزال ناقصة

ثم نستمر في السير نحو الجنوب كما رسمنا في خطتنا بعد أن نكون قد اخترقنا صقعين داخلين هما الصحراء والسودان اللذين يبقى سطحهما قليل الارتفاع عموماً عن سطح البحار التي تحيط بهما وأعم وصف طبيعى توصف

به افريقية الشمالية أي القسم الواقع منها بين بحر الروم والجهات القريبة من خط الاستواء هو قلة الارتفاع وهناك وصف آخر طبيعي يخالف ذلك ويمتاز به النصف الثاني من افريقية وهو الواقع بين خط الاستواء والنهاية الجنوبية وذلك ان الفارق هنا ليس السهول المنخفضة بل السهول المرتفعة التي هي عبارة عن نجد حقيقي يكون ارتفاعه متوسطاً اذا قابلناه بنجد أواسط آسيا ولكنه مع ذلك جسيم في مجموع جغرافيا افريقيه والمعلومات التي لدينا على الجهات الوسطى من افريقية الجنوبية وصلت الينا من السياحات المفيدة التي قام بها كل من القبطان بُرتُن [١] ورفيقه القبطان اسبك وكان ذلك ابتداء من سنة ١٨٥٨ فالفضل لهذين الرجلين اللذين حصل بواسطتهما أهل أوربا على معلومات حقيقية عن الجهات المذكورة وكان طريق اكتشاف السائحين المذكورين بين زنزبار وبحيرة تنجانيقا (وذلك عبارة عن تسع درجات أو نحو ١٠٠٠ كيلومتر) وهو يتراوح بين درجتي ٥ و٧ من العرض الجنوبي وظهر من هذه السياحات ان هناك

(١) Burton. Speke اسبك ضابط انجليزي من جبش الهند ابتدأ في سياحاته سنة ١٨٥٤ وقد رافقه الكبتين بورتون في اكتشافاته بافريقية وسافرا من ساحل زنزبار سنة ١٨٥٧ واكتشفا جهات واسعة بافريقية الوسطى ثم وصلا الى جهات البحيرات العظمى واكتشف اسبك تجانيقا ونيانزا ثم في سنة ١٨٦٠ سار اسبك مع الكبتين جرانت Grant في طريقهما الاولى واتجه نحو الشمال حتى وصل بلدة غندوكرو ثم نشر سياحته في مجلة جغرافية وكان موته بحادث اصابه اثناء صيد الوحوش

سهلا منخفضا يمتد من أول ساحل البحر ويبلغ طوله مائتي كيلومتر وبعدها يصل الانسان الى المرتقى الاول الذي يوصله الى النجد المذكور بعد أن يكون اخترق صفين متوازيين من الجبال ارتفاع قمم الاولى منهما نحو ثلثمائة متر وارتفاع قمم الثانية يختلف بين ألف متر والف ومائتي متر وبعد أن يقطع السائح السلسلة الثانية ينحدر ثانية نحو السهل الداخلي وهو سهل فوق سطحه مرتفعات كثيرة ليس بينها اختلافات فجائية وهذا هو النجد المشهور ومتوسط ارتفاعه كما ذكره السائحان المذكوران يبقى دائماً بين الف متر والف ومائتي متر تقريباً فوق سطح البحر وهو ارتفاع يزيد عن ارتفاع سهول الصحراء بنحو ثلاث أو أربع مرات ومن بحيراته بحيرة تنجانيقا ويظن السائح برتن أن لا مصرف خارجي لها وان كانت واقعة وسط منخفض عظيم يرتفع عن سطح البحر بنحو ٥٦٢ متراً وهو اكثر من ضعف ارتفاع بحيرة شاد عن سطح البحر ولم يتمكن أحد من السياحين الى الآن من اكتشاف المسافة المحصورة بين تنجانيقا وبين بحر الظلمات اكتشافاً علمياً تاماً (وهي مسافة تبلغ ضعف المسافة بين البحيرة المذكورة والساحل الشرقي)غير ان المنطقة الساحلية الغربية من أول خليج غابون الواقع تحت خط الاستواء تقريباً الى رأس نجرو والتي يقطعها خط ١٦ من العرض الجنوبي معروفة جيداً حتى يمكننا أن نقول ان الانسان يأخذ في الصعود في هذه الجهة من سواحل البحر الاحمر الى الجهات الداخلية المرتفعة ماراً بتلال يتلو بعضها بعضا وعلى

هذا كانت كل الظواهر تدل على ان الاقسام الغربية من النجد المذكور لا تختلف اختلافاً بيناً عن جهاته الشرقية كما قال ذلك برتن واسبك

ولو تابعنا السير بعض درجات نحو الجنوب لوصلنا الى أجزاء النجد الذي كان الدكتور لفنجستون أول مكتشف له سنة ١٨٥٥م وهو الواقع بين الدرجة ١٠ والدرجة ١٨ من المتوازيات الجنوبية وتشتمل هذه المسافة على نهر زمبيزي الاوسط ويظهر مما كتبه السائح المذكور أن متوسط الارتفاع في السهول التي يجري في وسطها النهر المذكور لا يختلف اختلافاً محسوسا عن متوسط الارتفاع الذي حققه السائح برتن بين الخط ٥ و٧ من درجات العرض أي انه يختلف بين الف متر والف ومائتي متروان بحيرة ديلولو الواقعة عند الدرجة ١١ والدقيقة ٣٠ من درجات العرض والتي هي أكثر ارتفاعاً عما يجاورها من البلاد هي على ١٤٤٥ متراً من سطح البحر وان نهر لنيانتي (١) القريب من الانحناء العظيم الذي يحدثه نهر زمبيزي تحت المتوازي ١٨ هو على ارتفاع ١٠٦٧ متراً من سطح البحر وان بحيرة نجامي الواقعة على بعد درجتين من جنوبي لنيانتي المذكور هي على ارتفاع ١١٣١ متراً من سطح البحر

وكل هذه المقاسات كما يظهر للمتأمل تدور حول متوسط ارتفاعي قليل الفرق ويستمر هذا المتوسط أيضاً كذلك في سهول وفيافي صحراء

(١) Linyanti

كلاهاري الممتدة جنوبي بحيرة نجامي حتى ساحل نهر أورنج على مسافة تبلغ ٧ أو ٨ درجات وتبقى هذه الاودية العديمة المياه مستوية السطح متماثلة الاجزاء كأنها البحر في حال سكونه بلا تغيير أو تبديل على ارتفاع ١١٠٠ متر تقريباً من سطح البحر ومتى وصلت الى شاطيء نهر اورنج انخفض واديه الى أن يصير على ارتفاع ٦٠٠ متر من سطح البحر اما سهول بلاد بوشيمان الواقعة على الضفة الاخرى من نهر أورنج فتأخذ في الارتفاع حتى تصل الى ١١٠٠ متر ويستمر هذا الارتفاع الى جبال نيوورلد وهي سلسلة تمتد من الغرب الى الشرق تحت المتوازي ٣٢ تقريباً ويزيد ارتفاع بعض قممها عن ثلاثة آلاف متر والسلسلة المذكورة هى القمة الجنوبية لهذا النجد الداخلي وهي واقعة امام الطرف الجنوبي من افريقيه ويبلغ طولها ١٥٠ كيلو متراً تقريبا الى الشرق من رأس عشم الخير وهناك أيضا سلسلتان منخفضتان موازيتان لسلسلة نيوورلد المذكورة يفصلهما عن بعضهما سطحان عريضان كأنهما بسطتان يعرفان باسم كارُوس وهما عبارة عن مراقي تدريجية بين الشاطيء والنجد المتقدم الذكر

وعلى هذه الصفة كان هذا الوضع ذي الارتفاع التدريجي يمتد على شكل اسطحة يعلو بعضها بعضا من ساحل البحر الى السهول العالية الداخلية وتوصف به كل سواحل أفريقية الجنوبية الا ما شذ عن ذلك وهو نادر ولكنه واحد لا يتغير في الجهة الشرقية المطلة على بحر الهند ولو نظرنا من الاسفل الى

المراقي المتراكبة وعلى الخصوص المرقاة العليا منها وهي قمة النجد المذكور لرأيناها تكوّن السلاسل المرتفعة الممتدة من الجنوب الى الشمال وهي تبتعد عن الشاطىء قليلاً أو كثيراً وتعرف المرقاة العليا المذكورة في كتب الجغرافيا القديمة التي كتبت في القرن السادس عشر باسم عمومي هو لوباتا وهو لفظ برتقالي معناه الفقرة يريدون فقرة العمود الفقري للدنيا وهذه التسمية لا تنطبق في الحقيقة الا على القمة المطلة على شاطىء موزمبيق وهي التي يمر منها نهر زمبيزي

ثم لو تابعنا السير في سياحتنا الخيالية هذه لرأينا اننا قد اجتزنا منطقة جسيمة هي المنطقة الاستوائية والمنطقة الاستوائية شريط جسيم يمتد في جهتي خط الاستواء وينبسط على كل عرض افريقيه من المحيط الى المحيط وكانت هذه المنطقة ترسم بيضاء فوق الخرائط الا انه في سنة ١٨٦٣ تمكن مكتشفان انجليزيان هما الكابتين اسبك والكابتين جرنت من اجتيازها من الجنوب الى الشمال تقريباً (على خط نصف نهار بلاد النوبه ومصر) وبذلك انتقلا من نجد الجنوب الى حوض نهر النيل ولم ينجح قبلهما أوربي في القيام بهذه السياحة في أية جهة من جهات افريقية أصلاً وفي سنة ١٨٥١ وقف برث شمالي خط الاستواء عند الدرجة ٩ ببلاد ادموا وكذلك المكتشفون الذين أرادوا اكتشاف النيل الابيض من سنة ١٨٤٠ لم يتمكنوا من اجتياز غندكرو الواقعة جنوبي الدرجة ٥ بقليل وكذلك لم يتمكن مسيو انتوان[1]

(١) Antoine Abbadi

أبادي في سنتي ١٨٤٣ و١٨٦٤ م من أن يجاوز بلاد كافا الواقعة في الجنوب الغربي لبلاد الحبشة بالقرب من الدرجة الثامنة

هذا أما في جنوب خط الاستواء فقد تمكن اثنان من المرسلين هما كريف[١] وريبمان سنة ١٨٤٩ من الاقتراب من الجبل المتوج بالثلوج الدائمة المسمى كليمانجارو الواقع جنوبي خط الاستواء في نحو الدرجة الثانية من خطوط العرض وعلى بضعة أيام من ساحل منبسة وتقدم كل من برتن واسبك في سياحتهما الى بحيرة تنجانيقا سنة ١٨٥٨ حتى بلغا الدرجة الرابعة وبعد قليل تمكن اسبك بمفرده من الوصول الى الدرجة الثانية ونصف في أول سياحة قام بها لا كتشاف بحيرة نياسا وبقي كل شيء مجهولا بين هاتين النقطتين المتباعدتين والتي يبلغ أقل بعد بينهما من سبع الى ثمان درجات الا في الخط الذي سار فيه اسبك في سياحته الثانية مع الكابتين جرنت بين نياسا وغندوكرو وربما لا يكون بأفريقية جهات أكثر أهمية للجغرافيين في دراستها من هذه الجهة ويظهر من كل الاحتمالات الطبيعية ان هذه المنطقة يجب أن تكون أعلى كل جهات افريقيه لان من هناك ينبع النيل وأنهار أخرى عظيمة تجري في اتجاهات تخالفه مثل نهر بنوى غرباً ونهر الزائر بالجنوب الغربي وربما كان نهر زمبيزي أيضاً وبهذه الجهة الاستوائيه أرفع جبال أفريقيه وهو جبل كليمانجارو ويزيد ارتفاعه عن ستة

(١) Krapf et Rebmann

آلاف متر وقد حقق اسبك وجود قمة بجوار بحيرة نياسا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة آلاف متر ونفس بحيرة نياسا التى تنصب فيها مياه كل ما يجاورها من الاراضي والتى ظنها اسبك انها المصدر الاصلي للنيل الابيض واقعة على نحو ١٠٦٧ متراً من سطح البحر

وللعلماء في تسميتها بأفريقيه أقوال منها ان لفظ أفريقيه آت من اسم قبيلة بربرية يقال لها أفرى كانت تنزل قديماً أراضي قرطاجنه وكان الرومان يطلقون هذا اللفظ على بلاد تونس وجرى على ذلك العرب من بعدهم وقال آخرون ان هذه اللفظه آتية من اللغة اليونانية وذلك أن لفظ آ A يفيد النفي وفريكا معناه البرد أي البلاد التي لا برد فيها وقال الطبري في تاريخه سميت أفريقيه لنزول افريقش من ولد حام بن نوح بها وافريقش هـذا هو أبو البرر فالبرر كلهم من ولد حام بن نوح خلا صنهاجه فانهم يرجعون الى حمير اه ولم يكن لفظ افريقيه يطلق قديما الا على بلاد تونس أو القسم الشمالي منهـا خاصة ثم أطلقوه بعد ذلك على جميع القارة فهو من باب اطـلاق الخـاص على العام

هذا وقد رأينا من الواجب ان نعرّف الصفات العظيمة الشهيرة لشكل قارة افريقية عموماً تعريفاً جيداً لانه لا شيء اكثر من ذلك مساعدةً للوقوف على أحوال الحياة العضوية بها وقوفاً جيداً وللحكم أيضاً على الاحوال التاريخية لقارة من القارات وسنقتصر على ذكر بعض الاوصاف الطبيعية لزيادة تخصيص

الموضوع لهذا نرى ان قارة افريقيه تشمل ما يأتي

أولاً ـ سبع سلاسل أو مجموع جبال شهيرة هي سلسلة جبال اطلس بالشمال الغربي وجبال كُنغ غربا بين غانه وحوض نهر ديوليبا والنيجر وجبال الحبشة شرقاً وبالوسط مجموع سلاسل لا تزال مجهولة تقريباً واقعة بجهات خط الاستواء وعنها تنفصل القمتان الثلجيتان الشهيرتان أي كينيا وكليمانجارو وسلسلة جبال لوپاتا وهي سلسلة ساحلية طويلة شرقاً تكون المرتقى الشرقي لنجد الجنوب ومن السلاسل أيضاً نيوو ولد جنوبا وهي سلاسل متوازية تمتد في جهات الكاب ثم سلسلة جبال كُنغو وانجولا غرباً وهي تمتد طويلا وبارتفاع تدريجي من الساحل حتى نجد الوسط ومعلومات الجغرافيين عنها قليلة

١ ـ جبال اطلس ـــ منظرها العمومي ـــ هي سلسلة عظيمة بالشمال الغربي من افريقية بين خليجي سُرْت وبحر الظلمات وهي مجموعة جبال لا سلسلة واحدة ويمكن تقسيمها الى قسمين متميزين عن بعضهما تماماً هما قسمها المركزي والغربي وهو اعلاها وواقع ببلاد مرّاكُش وقسمها الشرقي وهو ببلاد الجزائر وينتهي في مملكة تونس وينطبق على الاول منها أوصاف السلاسل الحقيقية فمن قمم طويلة تمتد الى اتجاه معين ومن منحدرين متقابلين يرسلان مياها في جهتين متماكستين تخرج مياههما من منابع متقاربة الوضع أما قسمها الشرقي فيختلف في الشكل عن الاول اختلافاً بيناً فقممها تستحيل الى نجد عريض يكون في حافاته ومراقيه الذاهبة الى الشمال والجنوب فرج وثُلمات يبلغ متوسط اتساعها نحو ١٥٠ كيلو

متراً وحافتها الشمالية تنخفض بالتدريج نحو بحر الروم حتى تستحيل الى أودية جميلة خصبة تعرف هناك بالتل اما حافتها الجنوبية والتي يعلوها مجموعتان من من القمم المنعزلة وهما جبل عامور وجبل أوراس (بلاد الجزائر) فانها تنخفض تارة وتصير سفوحاً جبلية أو سفوحاً قاحلة وكل ذلك نحو الصحراء ثم ان هـذا النجد يضيق ثانية في نهايته الشرقية ويصغر حتى يصير سلسلة ضيقة ذات شعاب تمتد ببلاد تونس من الشمال الى الشرق الى أن تتلاشى عند رأس بون امام صقليه بينما ينعزل عنها جبلان يختلفان في الارتفاع ويمتدان الى الجنوب الشرقي حتى يتلاشيا في نهاية خليج قابس هذا هو الوصف العمومي لهـذه الجبال وبه تمكن الاحاطة باشهر صفاتها ولو ان الكثير من أقسامها الوسطى والغربية لا تزال الي الآن اخبارها غير محققة تماماً ويبلغ امتدادها من رأس نون على بحر الظلمات الى رأس بون على بحر الروم ٢٣٠٠ كيلو متر تقريباً من ذلك ١١٠٠ كيلو متر في مراكش و٩٠٠ كيلو متر في الجزائر و٣٠٠ كيلو متر في تونس

وأعلا جبال هذه المجموعة واقع بالوسط والغرب أى فيما خص مراكش منها ويصل ارتفاع قممها العظيمـة هناك الى الارتفاع الذي تكون به الثلوج الدائمة وبذلك يظنون ان ارتفاعها يزيد عن ٣٥٠٠ متر اما متوسط ارتفاع نجد بلاد الجزائر فيتراوح ويستمر بين ١٠٠٠ متر و١١٠٠ متر وأعلا قمة تطل على الحافة الجنوبية من هذا النجد هي قمة جبل أوراس (تحت خط نصف

نهار قسطنطينه) ويبلغ ارتفاعها ٢٣٢٨ متراً بينما قمتها تكون ٢٠٨٥ متراً في السلسلة الثلجية بجبال اطلس الاصلية بين فاس وتافيلالت (بالجبل الذي ينبع منه ملويه وسبو وام الربيع) على ما قدره جرهارد رولفس الذي اخترقها سنة ١٨٦٤ وقد زار الجهات الواقعة الى الجنوب والغرب من الجبال المذكورة عالم انجليزي من علماء المواليد الثلاثة يسمى بول [1] سنة ١٨٧٢ فوجد ان أحد المضايق الكبرى وهو مضيق تاغزت واقع على ارتفاع ٣٦٥٧ متراً ووجد أيضاً ان قمة جبل نزه القريبة من المضيق المذكور تزيد ارتفاعها عن ٣٥٠٠ متر ويقول مستر بول المذكور ان أغلب القمم الكبيرة في القسم الجنوبي من جبال اطلس تزيد ارتفاعها عن ٤٠٠٠ متر عن سطح البحر

ومما يجب التنبيه اليه ان ابعد القمم عن البحر بجبال اطلس هي في بلاد مراكش وان الحوض الساحلي الذي تنصب مياهه في بحر الظلمات يختلف عرضه ما بين ٢٥٠ و٣٠٠ كيلومتر اما في بلاد الجزائر فعرض المنطقة الساحلية يبلغ ١٦٠ كيلومتراً على الاكثر وكلما تقدم الانسان نحو المشرق ضاقت تلك المنطقة حتى تبلغ النصف من ذلك (هذا فيما عدا وادي شلف ووادي ملج الذي يصب في مجرده) اما أشهر الاحواض النهرية التي تتعاقب على هذا الشاطئ الطويل فهي على بحر الظلمات وادي سوس ووادي تنسفت ووادي أم الربيع وأبو الرقراق ووادي سبو أما على البحر المتوسط الابيض فهي وادي ملوية

(١) Ball

ووادي تفنا ووادي حبرا ووادي شلِف ووادي الساحل والوادي الكبير ووادي سيبوس ووادي مجرده وغيرها ويخرج في الجنوب من جبال اطلس أيضاً مجاري مياه عديدة الا ان أغلبها لا يجري الا في فصل من السنة وقت نزول الامطار ويذهب أغلبها فيضيع في الرمال أو الوهاد حيث تكون المستنقعات الطبيعية الملحة وتصل مياه اثنان منها فقط الى بحر الظلمات وهما وادي نون ووادي درعه (وذلك جنوبي أحواض المنحدر الساحلي) وهنالك مجاري مياه أخرى في الصحراء المراكشية مثل وادي زيز (أو نهر تافيلالت) ووادي غير ووادي السعورة وغيرها

اسم هذه الجبال — اعلم ان القسم الواقع ببلاد الجزائر من جبال اطلس لا يسمى الآن بما كان يسمى به قديماً لدى الاهالي الاصليين والظاهر انهم نسوا تلك الاسماء ولكن هنالك اسم لا يزال يستعمل الى الآن في اطلس المراكشية وقد أطلق عليها منذ الازمنة الغابرة وهو ادرارن أو درَنْ وهذا اللفظ صيغة جمع لكلمة ادرار بالبربرية ومعناها جبل وقد سماه بهذا الاسم كل من استرابون(١) وبلين(٢) وفعل كذلك جغرافيو العرب ومؤلفوا البلاد

(١) Strabon مؤلف شهير اغريقي ولد بمدينة اماسيه في نحو سنة ٦٠ ق م ومات في أول حكم الامبراطور طيباريوس وقد أدرك باكرا الفائدة التي تعود من وجود كتاب جغرافي كبير لمجال في قسم من الدولة الرومانية ولما عاد الى اماسيه شرع في تأليف كتابين احدهما تاريخي ويشتمل على ٤٣ كتاباً ولم يصل الينا منه شيء والثاني جغرافي ويشتمل على ١٧ كتاباً وقد ذكر فيه أسماء الاماكن ومواقعها وتفاصيل كثيرة وتحقيقات تاريخية واخلاقية ونظامية للامم التي ذكرها وذكر أيضاً أصولها وتقاليدها والنسخة التي وصلت الى المتأخرين من هذا الكتاب بها نقص وتشويش وقد ترجم الى عدة لغات (٢) Pline مؤلف روماني

المغربية أخذوا ذلك عن البربر سكان اطلس الاصليين قال البكري(وهومن جغرافي القرن الحادي عشر الميلادي)يقال ان دَرَنْ هو أعلاجبال الارض ويمتد من جبال السوس الى جبل اوراس وجبل نَفُوسه (عند مدخل بلاد طرابلس) اه وقال ابن خالدون أيضاً ان جبال دَرَنْ تمتد (في قاعدتها) على كل بلاد المغرب الاقصى من أول آسفي حتى بلاد تازه

اطلس الكبير واطلس الصغير — لقد أصبح هذان اللقبان لدى أهل أوربا دارجين في الاستعمال وقد أطلقوهما عموماً على القمتين المتوازيتين بنجد بلاد الجزائر لان القمة الداخلية أو الجنوبية لما كانت ذات طرفين شامخين هما جبل اوراس وجبل عامور كان ينطبق عليها لقب اطلس الكبير أما اطلس الصغير فقاصر على القمة التي تبعد عن ساحل البحر بنحو ثمانين أو مائة كيلومتر وعلى الشعبات الساحلية المتصلة بها ومع ذلك فهذه التسمية حديثة وتخالف

ويلقب بالقديم وبالطبيعي أيضاً كان مولده سنة ٢٣ من الميلاد بمدينة كوم وقد أدى بالدولة الرومانية عدة وظائف اشتهر فيها سيما لما كان يشتغل بالمحاماة وقد أراد أن يشاهد من قرب ثوران بركان ويزوف سنة ١٧٩ الا انه مات مخنوقاً بالابخرة المحرقة التي كانت تتصاعد من البركان المذكور وله عدة مؤلفات لم يصل الينا منها الا كتابه في التاريخ الطبيعي وهو يتألف من ٣٧ كتاباً وفضل بلين هو في انه نقل الينا أقوالا وعبارات أخذها عنه أكثر من الفي مؤلف وكاتب وتاريخه المذكور يشبه موسوعا ويمكن تقسيمه الى ثلاثة أقسام قسم في الهيئة والمتيورولوجيا (الاحداث الجوية) والثاني في الجغرافيا والثالث في التاريخ الطبيعي

قول بطليموس[١] الجغرافي الذي هو الوحيد بين مؤلفي القدماء في ذكرها واسم اطلس عنده ينحصر فقط في الواقع منها ببلاد موريتانيا[٢] واطلس الكبير أو اطلس ماجور هو القسم الاصلي من الجبل الذي ينتهي حسب قوله (ومعلوماته في هذا الخصوص مضبوطة جداً) عند رأس أسادئوم المسمى رأس غير في الجغرافيا الحديثة الا انه في ذكره اطلس الصغير كان أقل حظاً أو أقل تحقيقاً

والجبل الذي كان يطلق عليه هذا الاسم هو شعبة تمتد الى الشمال وهي لا وجود لها في الحقيقة وربما كان الاصح اطلاق هذا الاسم على الفرع الجنوبي من جبال اطلس وهو الذي ينتهي عند رأس نون على نحو درجة ونصف من رأس غير جنوباً وهي التي ذكرها المؤرخ بوليب[٣] الذي اكتشف

(١) Ptolémée فلكي وجغرافي اغريقي كان في النصف الاول من القرن الثاني من الميلاد اشتهر بتأليفه في علم الرياضة وهو ذلك الكتاب الذي يسميه العرب بالمجسطي وفيه يقول بدوران الشمس والسيارات حول الارض وبالرغم عما في هذا الكتاب من الاغلاط الفاحشة فانه قد أفاد العلم الحديث فوائد ذات قيمة وله كتاب آخر في الموسيقا وآخر في التنجيم وغير ذلك من المؤلفات أما كتابه في الجغرافيا فيتألف من ثمانية كتب وغالب ما أورده به ذكر الاماكن وأطوالها وعروضها وله أيضاً كتاب في الفلسفة

(٢) Mauritanie اسم كان يطلق قديماً على بلاد مراكش الحالية

(٣) Polybe مؤرخ اغريقي شهير لم يبق لنا من تأليفه الا كتابه في التاريخ العمومي وأهمية هذا الكتاب فيما اشتمل عليه من ذكر نظامات الامم ووصف الاخلاق وتصورها وذكر الاسباب والنتائج المتعلقة بالحوادث وهو يتألف من اربعين كتاباً بعضها غير تام وكان مولده سنة ٢١٠ وموته سنة ١٢٨ ق م

هذا الساحل (١٤٥ ق م) وقال عنها انها ابتداء سلسلة اطلس العظيمة

واعلم ان أهل أوربا أخذوا هذه التسمية من خرافات الاغريق واطلقوها على هذه الجبال أما الاهالي سكان البلاد فأنهم يجهلون هذه التسمية تماماً وليس لديهم اسم عام يطلق عليها بأجمعها

ملخص تاريخي — اعلم ان الاغريق عرفوا اسم اطلس قبل سياحاتهم الاولى ببلاد المغرب بزمن طويل ولا بد أن يكون هذا الاسم وصل اليهم من الفينيقيين الذين كانوا يترددون على البلاد الواقعة في الجهة الغربيـة من بحر الروم من أول القرن الثاني عشر قبل الميلاد وكان لهـم على شواطئه نزلات تجارية كثيرة وقد شاعت سريعاً أقاصيص كثيرة عن هذه الجهات البعيدة حاصلها وجود جبل شاهق جداً واقع في نهاية الدنيا وان واجهته البيضاء تذهب صعداً حتى تضيع في السحاب وان هنالك فوق هذا الجبل مارداً يعرف لديهم باسم تيتان يحمل فوق كتفيه القويتين قبة السماء وعلى هـذه الـكيفية وصفه هوميروس [١] وهزيود[٢] وايشيل [٣] وقالوا عنه تلك الاقوال ولـكن الشعراء

(١) Homère هو أكبر شعراء الاغريق ولد في نحو سنة ٣٠٠ ق م اشتهر بقصيدتين هما الالياذة واوديسي وقد ترجم الياذه الى العربية حضرة الفاضل سليمان افندي البستاني وطبعت منذ سنوات

(٢) Hésiode هو من أكبر شعراء الاغريق يقول بعضهم انه كان قبل هوميروس ويقول آخرون انه كان معاصراً له وقد وصلت الينـا من أشعاره ثلاث قصائد معتبرة لدى العلماء

(٣) Eschyle شاعر اغريقي كبير ولد سنة ٥٢٥ ق م ومات سنة ٤٥٦ وله عـدة

الذين أتوا بعد هؤلاء توسعوا في هذه الاعتقادات القديمة منهم ڤيرچيل (١) وأوڤيد (٢) وڤاليريوس ڤلاكّوس (٣) ولُوكانْ (٤) قال پلين ان اطلس بقي الجبل القصصي الحقيقي في رواية الشعر وهيرودوت أول من ذكر روايات تاريخية وجغرافية حقيقية عن هذا الجبل ولكنها لا تزال الى الآن مبهمة وهو قد تلقاها من القورينيين الذين كانت لهم بسبب تجارتهم علاقات مع القوافل التي تتردد على داخل أفريقيه ومما علمه هذا المؤرخ أيضاً ان جبل اطلس يبتدىء على نحو عشرين يوماً من فزان ثم يمتد حتى أعمدة هرقل وقال أيضاً ان هذا الجبل شاخ جداً حتى يستحيل رؤية قمته التي لا تفارقها السحب لا في الصيف ولا في الشتاء وروى أيضاً ان أهالي البلاد يقولون عنه انه عمود السماء

مؤلفات معتبرة

(١) Virgile شاعر روماني شهير ولد سنة ٧٠ ومات سنة ١٩ ق م وله مؤلفات عدة منها قصيدة وطنية كبيرة وقد ساح في بلاد الاغريق وآسيا وشعره من أجود الشعر اللاتيني كما يقولون

(٢) Ovide شاعر كبير من شعراء الرومان ولد سنة ٤٨ ق م ومات منفياً سنة ١٨م وقد ترك عدة مؤلفات معتبرة

(٣) Valerius Flaccus شاعر لاتيني شهير كان في نهاية القرن الاول من الميلاد وكان صاحب بلين العالم الطبيعي المتقدم الذكر ومما تركه قصيدة حماسية شهيرة

(٤) Lucain شاعر روماني شهير تقلب في عدة وظائف كبيرة مدة الامبراطور نيرون وقد ترك قصائد شعرية لها اعتبار لدى العلماء وكان مولده في قرطبه سنة ٣٩ ومات سنة ٦٥ م

معرفة الناس بجهات اطلس

تبتدىء المدة الحقيقية في معرفة جغرافيا الشمال الغربي من أفريقيه من استيلاء الرومان أي من منتصف القرن الثانى قبل الميلاد (١٤٦) فقط ولو كانت كل مؤلفات پوليب المؤرخ وصلت الينا لـكنا وجدنا فيها بلاشك معـلومات أوسع من المعلومات التي رواها پلين فى المختصر الناقص الذي وصل الينا من كتبه أما المعلومات التي تلقيناها عن سَلُوسْتْ [١] الذي كان يمكنه الحصول على معلومات جيدة بسبب توليته وظيفة الحكم ببلاد نوميديا [٢] (٤٥ ق م) فقد اعتمد فيهـا على حسن الانشاء والتشابيه اكثر من اعتماده على المعلومات الجغرافيـة حتى انه لم يذكر اسم اطلس في تاريخه الذي ألفه على جيغورتا [٣] والـكلمات القليلة الذي ذكر بها استرابون هذا الجبل (٢٠ ب م) تدل مع ذلك على معلومات جديدة كان الناس قد علموها اذ ذاك على جهات

(١) Salluste حاكم روماني تقلب في عدة وظائف كبيرة ولد سنة ٨٦ ومات سنة ٣٤ ق م وقد اشتهر في حرب افريقيه وتعين حاكماً على بلاد نوميديا حيث الخش في المظالم وكان فاسد الاخلاق مرتشيا وبعد أن ترك وظيفته هذه ذهب الى روميه وأقام متمتعاً في بساتينه وقصوره البديعة

(٢) Numédie اسم بلاد الجزائر من افريقيه الشمالية قديماً

(٣) Jugurtha ملك من ملوك بلاد نوميديا وهو حفيد مسينسا ولد في سنة ١٥٤ (ق ـ م) وقد هزم الرومان في عدة وقائع ثم ان ماريوس الروماني تغلب عليه وبعد مدة قبض عليه الرومان وقتلوه سنة ١٠٤ (ق ـ م)

اطلس وهو أول من ذكر لفظ ديرين Dyrin وقال انه هو الاسم الحقيقي لجبال اطلس لدى الاهالي وان الجسم الاصلي لجبال اطلس واقع ببلاد موريتانيا ويمتد شرقاً مخترقاً بلاد نوميديا الى أن يصل الى جهات سرت وقال دان ميلا[١] (بعد استرابون بعشرين سنة) ان اطلس يظهر للرائي كأنه جبل منعزل يرتفع وسط الرمال وهو كتلة شامخة صعبة المرتقى كثير الصخور الناتئة وينتهي بقمة شامخة صاعدة الى قدر ما يمتد النظر ثم تغوص في السحاب وقال انهم يقولون ان قمته لا تلامس السماء فقط بل انها هي التي تحمل السماء ولما اخترقت الجنود الرومانية لأول مرة الكتلة المركزية من هذه الجبال تحت قيادة سويتونيوس بولينوس[٢] سنة ٤٢ من الميلاد حصل الناس من ذلك على معلومات حقيقية استفاد منها بلين حيث قال ان سويتونيوس بولينوس هو أول من اخترق من القواد الرومانيين جبال اطلس وجاوزه الى ما بعده ببضعة أميال وانه ذكر ارتفاعه كما ذكره الآخرون وان اجزاءه الداخلية مغطاة بغابات كثيفة طويلة لا تعلم انواع اشجارها وان قمته تغطى حتى في الصيف بقدر جسيم من الثلج وانه وصل اليه بعد عشر مراحل وان خلفه نهر يدعى غير يجري وسط فيافي

(١) Dans Méla جغرافي لاتيني ترك مؤلفاً نفيساً عن المعلومات الجغرافية المعروفة في زمنه وكان شروعه في تأليف هذا الكتاب سنة ٤٢ م

(٢) Suetonius Paulinus قائد روماني تغلب على ثورة ببلاد موريتانيا مدة الامبراطور كلوديوس وقهر مملكة بلاد برطانيه مدة الامبراطور نيرون وقد تعين قنصلا في الدوله سنة ٦٦ م

يغطيها تراب اسود ويبرز منها هنا وهناك صخور يظهر ان النيران قدسودتها اه

وتنقسم المعلومات التي حصلنا عليها بعدانقضاء عهد الرومان الى مدتين هما المدة العربيـة (من القرن السابع الى الخامس عشر من الميلاد) ومـدة الاكتشافات الحديثة (من منتصف القرن الماضي) وفي أقوال العلامة ابن خلدون وهو من أشهر الذين كتبوا على الجغرافيا التاريخية لبـلاد المغرب تتلخص أقوال من سبقه منهم وقوله في ذلك صحيح لا غبار عليه قال

«هذهالجبال بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور بما أعرق في الثرى أصلها وذهبت في السماء فروعها ومدت في الجو هيا كلهـا ومثلت سياجا على ريف المغرب صدورها تبتدىء من ساحل البحر المحيط عند آسفي وما اليهـا وتذهب في المشرق الى غير نهاية ويقال انها تنتهي الى قبلة برنيق من أرض برقه وهي في الجانب مما يلي مراكش قد ركب بعضها بعضاً متتالية على نسق من الصحراء الى التل يسيرالراكب فيه متعرضاً من نامسنا وسواحل مراكش الى بلاد السوس ودرعه من القبلة ثمان مراحل وأزيد تفجرت فيها الانهـار وجلل الارض حمراء الشعراء وتطابقت بينها ظلال الادواح وزكت فيهامواد الزرع والضرع وانفسحت مسارح الحيوان ومراتع الصيد وطابت منابت الشجر ودرت أفاويق الجباية يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيهم الا خالقها قد اتخذوا المعاقل والحصون وشيدوا المباني والقصور واستغنوابقطرهم عن سائر أقطار العالم فرحل اليهم التجر من الآفاق واختلفت اليهم أهـل

النواحي والامصار ولم يزالوا من أول الاسلام وما قبله معتمرين بتلك الجبال قد أوطنوا منها أقاليم تعددت فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم وافترقت أسماؤها بافتراق أجيالهم تنتهي ديارهم من هذه الجبال الى بنية المعروفة بني فازان حيث تبتدىء مواطن صنهاجه اه أما ليون الافريقي [1] فلم يذكر عن جبال اطلس ما يستحق الالتفات اليه

واعلم ان القسم الشرقي من جبال اطلس أي القسم الواقع منها ببلاد الجزائر قد أصبح الآن معروفاً لدى الجغرافيين أكثر من القسم المراكشي منه أو بتعبير أوفى قد أصبح لدينا على الجغرافيا الطبيعية لهذا القسم فقط معلومات تامة تقريباً وانه من منذ أن استولى الفرنسيون على بلاد الجزائر صار المهندسون وعلماء المواليد الثلاثة وعلماء طبقات الارض وخلق كثير من السياحين يتردد الكل على نجد اطلس ومنحدريه هذا يقيس وذلك يصف حتى أصبحت معلوماتنا عليه جديرة بالثقة بخلاف بلاد مراكش فأنها مازالت

(١) Léon l'Africain جغرافي عربي شهير ويسمى حسن بن محمد الوزان ولد بغرناطه في اول القرن الحادي عشر الهجري وساح بكل جهات افريقية الشمالية واسيا الغربية ثم أخذه قرصان النصارى أسيراً وارسلوه لرومية مدة البابا ليون العاشر الذي نصره وسماه ليوناً وتعلم الطليانية واللاتينية وكان يعلم اللغة العربية والف كتاباً بالعربية فيما شاهده في سياحته المذكورة وقد ترجم هو هذا الكتاب الى اللغة الطليانية (١٥٢٦ م) ولا يزال كتابه من أنفس المؤلفات في وصف افريقية الشمالية و بلاد السودان وقد ترجم الى كل لغات أوربا أما ليون المذكور فانه تمكن من العودة الى تونس وأقام بها حتى مات على دين الاسلام

مقفلة الابواب في أوجه السياحين بحيث لم يتمكن من اجتياز نجدها الاوسط الا واحداً أو اثنان من أهل أوربا كذلك لم يتمكن أحد من المكتشفين الى الآن من دراسة شكل وتركيب ذلك النجد وان ما يرسم منه على الخرائط لا يصح أن يؤخذ الا من قبيل الفرض والتخمين بني بعضه على معلومات مبهمة جداً وبعضه على روايات يكون الصحيح منها قليلا يوم يتمكن العلماء من دراسته دراسة حقيقية وبلا واسطة

ب ـ جبال كُنغ ـ هي سلسلة جبال لم تكتشف الى الآن تماماً وتغطى شمال بلاد غانه العليا وتفصلها عن حوض نهر ديوليبا أو النيجر الاعلى وهي أقل في الامتداد بكثير عما كانت ترسم عليه على الخرائط القديمة وكذلك أقل أهمية مما كان يظن سابقاً وقسمها الشرقي فاصل لخط تقسيم المياه هنالك أما من مدينة كنغ الواقعة على سفوحها الجنوبية أو من لفظ كنغ كادو وهو صقع تكلم عليه منجو پرك [1] في سياحته قال مسيو تسفيفل [2] وموستييه اللذان اكتشفا منابع النيجر ان لفظ كنغ أطلقه عليها أهالي بلاد كِسّي الواقعة بالجبال التى تفصل بلاد كونو عن بلاد كورانكو

(١) Mungo Park اسكتلندي ولد سنة ١٧٧١ وقد ساح بجهات افريقية الغربية حيث يجرى غمبياً والنيجر ثم عاد الى أوربا سنة ١٧٩٧ وكلفته الحكومة الانجليزية باكتشاف نهر النيجر فسافر سنة ١٨٠٥ ونوغل في تلك الاطراف ثم انقطعت أخباره ويقال انه هلك ببلاد حوصا (١٨٠٦)

(٢) Zweifel et Moustier

وغاية ما يقال في وصف هذه الجبال انها صف من الهضاب والمرتفعات موازية لخط الاستواء وتمتد من الشرق الى الغرب ويتجه مركزها نحو خط نصف نهار بلدة كاب كاستل على مسافة طولها بين ٨٠٠ كيلومتر والف كيلومتر وفي قسمها الغربى التواء نحو الشمال خلف رأس بلماس وتتبع ساحل البحر في امتدادها أما في نهايتها الشمالية الغربية وأمام مستعمرة سيرّاليون فتنقسم الى عدة مرتفعات تتصل بجبال سنغاميا وجبال فوطاجالون والمياه المنحدرة من جهاتها الشمالية تذهب الى نهر النيجر الذي يخرج منها اما المياه التي تنبع من جهاتها الجنوبية فتصب في أنهار بلاد غانه

ويحتمل أن تكون هذه السلسلة قاعدة للسلسلة الكبرى ببلاد التكرور الكبرى ويظهر ان متوسط ارتفاعها عن سطح البحر قليل ويظن البعض ان قمة دارو الواقعة الى الشرق من سيرّاليون هي أعلا قممها ارتفاعا قال كلابرتن (١) الذي اخترق هذه الجبال الى الشمال من لاغوس ان ارتفاعها لا يزيد هناك عن ٧٥٠ متراً عن سطح البحر ثم ان هذه السلسلة معروفة في النقطة التي يقطعها فيها نهر النيجر الاسفل (امام بلدة إدات) ولكننا نجهل اذا كانت هذه السلسلة تمتد بعد ذلك الى الشرق أم لا

(١) H. Clapperton اسكتلندي ولد سنة ١٧٨٨ وخدم في البحرية الانجليزية ورافق السائح دنهام في سياحته الى بلاد السودان سنة ١٨٢٠ ثم نشر أخبارا كتشافاته هناك سنة ١٨٢٦ ثم عاد فسافر الى السودان ثانية ولكنه مات في سكتو سنة ١٨٢٧

ويؤخذ من بعض الاوصاف المختلفة ان هذه السلسلة مكونة من الجرانيت الازرق الذي يكوّن قاعدة شبه جزيرة سيراليون وساحل الذهب وربما كان ممزوجاً بأحجار السماق ويقول الكابتين بُرْتُن انه يجب أن يكون بها كثير من أحجار الكوارتز كما يؤيد ذلك الرمال الذهبية التى تكون في نهيرات بلاد غانه

ج ـ جبال الحبشه ـ يغطي نجد بلاد الحبشة سلسلتان من الجبال هما جبال سيمين بين وهدة تكازه وبحيرة دمبيه وسلسلة كوجام وهي الى الجنوب من دمبيه بقليل داخل الشكل الحلزونى الذي يرسمه نهير أبائى فى سيره ومنها ينبع هذا النهر على ارتفاع يزيد عن ٢٨٠٠ متر ولا تصل السلسلتان المذكورتان تماماً الى حيث تكون الثلوج الدائمية بل يصلان فقط الى حدودها الجنوبية وأعلى ذروة فى جبال سيمين هي ذروة دِتجيمْ وارتفاعها نحو ٤٠٠٠ متر عن سطح البحر قال مسيو جالينيه (١) انها تبلغ ارتفاع الجبل الابيض بأوربا تقريباً هذا وأعلى القمم في السلسلة المذكورة بعد تجيم السابقة هي سِلْكي وأبا يارد وأمباراس

د ـ جبلا كينيا وكليمانجارو ـ اما كينيا فهو قمة ثلجية بأفريقية الاستوائية جنوبي خط الاستواء بقليل (١٠ دقائق و٥ ثوان من العرض الجنوبي و٣٤ درجه و٢٥ دقيقه من الطول الشرقي) وهي على نحو ٤٠٠ كيلومتر الى الشمال

(١) Galinier

الغربي لبلاد الساحل (عند منبع نهيرتانا) وعلى نحو ٣٠٠ كيلومتر الى الشرق من الساحل الشمالي الشرقي لبحيرة فكتوريا ويقدر أهل العلم ان ارتفاع هذا الجبل عن سطح البحر يتراوح بين ٥٤٠٠ متر و٥٥٠٠ متر وهو قسم من السلسلة الممتدة من الشمال الى الجنوب والتي نهايتها هضبة كليمانجارو الجسيمة الواقعة على نحو ٣٠٠ كيلومتر من جبل كينيا وأول من شاهد من الاوربيين ذراها الثلجية هو الدكتور كرپف[١] الالماني سنة ١٨٤٩ قال نظرت بعد الظهر منظراً بديعاً بجبل كينيا رأيته يمتد من الشرق الى الشمال الغربي ونظرت على انحنائه قمتين ذاهبتين نحو السماء وفهمت حينئذ قول دليلي لماذا ان كينيا اكبر من كليمانجارو وذلك لأن الثلج يغطي القمتين المذكورتين التي يسيل من جوانبهما ثلاثة نهيرات خلاف نهيرتانا اه ومنذ التاريخ المذكور لم يتمكن أحد من رؤية هذا الجبل غير الدكتور هلدبرندت[٢] سنة ١٨٧٧ ومع ذلك فانه لم يتمكن من رؤيته الا على بعد ١١٠ كيلومترات ثم انه في سنة ١٨٨٣

(١) J. Krapf مبشر ديني وسائح الماني ولد سنة ١٨١٠ ومات سنة ١٨٨١ دخل في خدمة جمعية التبشير بالدين المسيحي الانجليزية وسافر الى بلاد الحبشة وأسس ببلاد شوا أول مكان للمبشرين الانجليز سنة ١٨٤٢ وقد سافر عدة مرات الى داخلية البلاد المذكورة للاكتشاف فاكتشف جبل كينيا سنة ١٨٤٩ ثم عاد الى المانيا وأقام بها زمناً وكان مع ذلك يميل للاسفار البعيدة ولهذا فانه انضم الى الحملة الانجليزية التي أرسلت ضد الملك تيودور الحبشي بصفة ترجمان وقد أفاد العلوم بما حصل عليه اذ ذاك ثم نشر سياحته بافريقيه الشرقية بين سنتي ١٨٣٧ و١٨٥٥ وله قاموس في اللغة السواحلية

(٢) Hildebrandt

وصل السائح الانجليزي تُمْسُن (١) حتى قاعدة كينيا وعبر مركزها بالضبط ووصفها بقـوله انها مخروط قائم بمفرده بركاني التركيب ينتهي بقمة حادة تغطيها الثلوج اما كليمانجارو فهو جبل بأفريقية الشرقيـة بركانى التركيب تغطيه الثلوج الدائمة أيضاً مع قربه من خط الاستواء وهـو هضبة منعزلة هي النهاية الجنوبية من سلسلة جبال ومنها جبل كينيا الواقع الى الشمال من هذه الهضبة كما سبق وكليمانجارو واقع بين الدرجة ٣ والدقيقة ٦ من العرض الجنوبى والدرجة ٣٥ والدقيقة ٣ من الطول الشرقي وهو على بعد ٣٠٠ كيلومتر الى الشمال الغربى من مدينة مَنْبَسة وأول من شاهده من الاوربيين المرسـلان ريمانـ وكريف ولـكنهما شاهـداه على بعد وشاهدا عليه الثلوج الدائمـة وكان ذلك في شهر مايو سنة ١٨٤٨ وقد أيد ذلك وأثبتـه السائح الالمانى فون ديردِكِّن وقد قام هذا السائح بسياحتين الواحدة بعد الاخرى من الشاطئ الى الجَبل المذكور في سنتي ١٨٦١ و١٨٦٢ وتوصل الى الصعود بهذا الجبل حتى وصل الى ٤١٣٦ متراً وحقق بحساب دقيق ان قمته الغربية ارتفاعها ٥٦٩٤ متراً وارتفاع قمته الشرقية ٤٩٥٤ متراً عن سطح البحر وان الثلج يغطي ارفع القمتين حتى يصل الى ٣٦٠٠ متر عن سطح البحر وتنعدم كل أنواع النباتات فوق هذا الجبل بين ٣٦٠٠ متر و٣٧٠٠ متر وفي سنة ١٨٧٧ شاهد هلدبرندت المتقدم الذكر جبل كليمانجارو ثانية وكان قريباً منه

(١) Thomson

وتمكن من قياس بعض ابعاده ثم انه في سنة ١٨٨٣ عند سياحة تمسن في جهات بحيرة فكتوريا نيانزا اكتشف هضبة كليمانجارو في جهاتها الجنوبية الغربية وجهاتها الشرقية وصعد فوقها من عدة جهات مختلفة فكان بذلك أول من عين موقع هـذه الهضبة بالضبط كما عين حدودها والاختلاف قليل بينه وبين البارون فون ديردكن في المقاسات التي اجراها كل منهما

هـ ـ جبال نيووولد ـ هي سلسلة وسط مستعمرة الكاب واستطالة لسلسلة رجيوولذ الواقعة الى الغرب ونيووولد المذكورة هي خط تقسيم المياه بين النهيرات التي تذهب شمالا وتصب في نهر أورنج والتي تجرى جنوباً وتصب في المحيط الهندي ويبلغ متوسط ارتفاعها نحو ١٥٠٠ متر وأعلى أقسامها في شمال مقاطعة بوفوروست ولهـا هناك قمم كثيرة واحـدة منها غربا تسمى بولب هودرس بنك (Bulbhouders Bank) وارتفاعها ٢٢٠٠متر وأخرى شمالي بوفوروست وتسمى نلس بورت (Nels Poort) وارتفاعها ٢٢٢٦ متراً والسفح الجنوبى لهـذه السلسلة قائم صعب المرتقى ينحـدر حتى يصل الى سهل كرّو الكبير وسفحها الشمالي يخالف الاول لانه يميل الى منحدرات سهلة نحو السهول الداخلية هذا والاشجار قليلة الوجود جداً بهذه الجبال الا ان منحدراتها الشمالية بها مراعي نضرة كثيرة

ثانياً ـ سبعة أحواض أصلية أربعة منها في الشمال وثلاثة في الجنوب

أما التي في الشمال فهي حوض النيل [١] وحوض ديوليبا أو نيل السودان وحوض نهر سنغال وحوض بحيرة شاد وهو بالوسط وليس بينه وبين بحار افريقية اتصال أما أحواض الجنوب فحوض نهر الزائر وحوض نهر زمبيزي ثم حوض نهر غَرْيب أو أورنج وليس بهذا النهر من المياه ما يجعله قابلا للملاحة مع طوله فهو لذلك لا يستحق أن يذكر قريباً بين الانهار العظيمة بأفريقية ومما يجب التنبيه اليه في أنهار أفريقية أن أغلبها وحتى الكثير من أنهارها الثانوية يقطعها جنادل وشلالات تكون عائقاً للملاحة على مسافة قليلة أو كثيرة من الشواطئ وسبب ذلك وجود النجود الداخلية التي تنخفض بالتدريج وتنتهي بسفوح وتلال

١ ــ نهر النيجر ويسمى أيضاً ديوليبا أو كوارا وهو من اكبر انهار افريقية الغربية ويصب في بحر الظلمات من خليج غانه ويسكن على شواطئه مثل كل أنهار افريقية أمم مختلفة الاسماء والاجناس وقد سماه العرب باسم نيل العبيد قبل وربما كان ذلك من باب التحقير له اما اسم نجر أو نيل السودان فقد اطلقه عليه كله الجغرافيون ولا وجود في الحقيقة لتسمية تشمله باجمعه في لغة الامم النازلة على شواطئه

وقد زادت معرفة الجغرافيين بأحوال هذا النهر زيادة كبيرة من منذ

---

(١) قد رأينا من المناسب تأخير الكلام على نهر النيل هنا لان الكلام سيأتي عنه مفصلا عند ذكر الديار المصرية

ان استتب للفرنسويين الاستيلاء على جهاته أي منذ سنة ١٨٨٧ فقد علم مجراه وكذا النهيرات التى تصب فيه ودرست دراسة دقيقة فى كل جهاته العليا ومن الذين اكتشفوه اكتشافاً جيداً ضابط بحري فرنسوي سار فيه فى مدفعية من بلدة بما كو الى تمبكتو فكان أول من اكتشف هذا القسم من بعد السائح كَيِّيه(١) واقتفى طريقه غيره من بعده وكلهم أتموا دراسة مناطقه المائية كما عينوا خلجانه وبحيراته فبينما كان الضابط الفرنسوي توتيه(٢) يخرج من داهومي صاعداً فيه الى ما بعد بوصا مخترقاً الشلالات التي هلك فيها منجوپرك سنة ١٨٠٦ كان ضابط بحري آخر يقود ارسالية خرجت من تمبكتو وانحدرت في النهر حتى البحر وبذلك تم اكتشاف النهر بأجمعه لهذا كتب أحد الضباط الفرنسويين سنة ١٨٩٨ يقول ان نهر النيجر قد أصبح معروفاً الآن في كل اجزائه كما يعرف الفرنسويون مثلاً نهر لوار من منبعه الى مصبه اه

وقد صار هذا النهر من ذلك الوقت أعظم شريان في جسم الدولة الفرنسوية السودانية لان اكثر من ثلاثة ارباع مجراه أي من منابعه حتى على نحو ٨٥٠

(١) R. Caillié (١٧٩٩ ـ ١٨٣٨) سائح فرنسوي ذهب الى بلاد سنغال وادعى انه مسلم مصري من مدينة الاسكندرية (١٨٢٧) ثم توغل في البلاد حتى وصل الى نهر النيجر ومدينة تمبكتو ومن هناك انضم الى قافلة واخترق بلاد الصحراء ثم عاد الى أوروبا من مراكش وقد طبعت سياحته سنة ١٨٣٠ في ثلاثة أجزاء وبها كثير من الغرائب

(٢) Toutée

كيلومتراً من ساحل البحر تابع لفرنسا لخوضاه الاعلا والمتوسط في دائرة النفوذ الفرنسي لا غير

ويبلغ طول مجراه نحو أربعة آلاف كيلومتر مع ان المسافة بين منبعه ومصبه لا تزيد عن ١٨١٠ كيلومترات بسبب تعاريجه وانحناآته وهو ونهر الكنغو تنطبق عليهما صفات انهار افريقية وتظهر فيهما اكثر من غيرهما ما عدا نهر النيل وذلك بجريانهما أولا نحو الشمال ثم نحو الجنوب (مثل سنغال وأغوي ولمبوبو وبعض زمبيزي) ويقدرون ما يغطيه من الاراضي بنحو مليونين و٦٠٠ الف كيلومترا مربعاً

والنيجر هو الثالث في افريقية بطول مجراه والثاني بكمية المياه التي تجري فيه ويمكن تقسيم مجراه الى خمسة أقسام ذات أوصاف طبيعية متميزة تماماً الاول من منابعه الى بلدة بماكو وبه شلالات وحواجز صخرية كثيرة ولا يمكن ان تسير فيه الا السفن الصغيرة فقط والثانى من بماكو الى تمبكتو وبهذا القسم تكون الفيضانات الدورية ويمتاز بما يخرج منه ويصب فيه من النهيرات والجداول والترع والبحيرات الكثيرة وهو قابل لسير السفن الكبيرة في كل وقت الثالث من تمبكتو الى أنسنجو وهو كذلك قابل للملاحة ولكن في قسم من السنة فقط الرابع من انسنجو المذكورة الى ليباباوبه في هذا القسم جنادل خطرة يفصلها عن بعضها مجاز قصيرة الخامس من ليابا المذكورة الى البحر

وينبع نهر النيجر من جبال بلاد كورَنكو بالقرب من حدود سيرّاليون

وليبيريا ومنبعه مرتفع عن سطح البحر بنحو ٨٦٠ متراً وقد اكتشفوا منبعه فقط سنة ١٨٩٣ وفيضاناته من أمطار غزيرة تسقط عند منبعه من فبراير الى يوليه

ويشبه هذا النهر نهر النيل في مجراه وتعاريجه وشواطئه وشكله والجهات التي يخترقها وبه كثير من الشلالات والصخور والجنادل مما يعيق الملاحة كما سبق كما يوجد في أغلب جهاته كثير من الجزر بين كبيرة وصغيرة ويخترق مجراه عدة بحيرات ومستنقعات

وبعد أن يفارق النيجر منبعه بنحو ١٤٠ كيلومتراً متجهاً الى الشمال يصب فيه نهيرات يطلق عليها بعد اجتماعها اسم ديوليبا ومعناه الماء الكبير وأكبر نهر بعد النيجر هو نهر بنوى ويأتى من الشرق ويقذف فيه كمية كبيرة من الماء وهو لمنافعه الاقتصادية يمكن أن يعادل نهر النيجر لأنه يضرب كثيراً في قلب افريقية في جهات اكثر خصوبة وسكانا على العموم من الجهات التي يمر فيها نهر النيجر ومنابع بنوى الى الشمال في بلاد اداموا ويظن انه يتصل في فصل الامطار بحوض بحيرة شاد ومتى وصل الى بلدة لكوجا أصبح كبحيرة محصورة داخل دائرة من الجبال ويبلغ فيضانه اعلاه في شهري أغسطس وسبتمبر وينخفض كثيراً في مارس وابريل

ودلتا نهر النيجر تتألف من فروع لا يحصى عددها ويبلغ محيطها الخارجي نحو ٣٥٠ كيلومتراً تقريباً وبها جزائر يبلغ مسطحها نحو خمسة وعشرين الف

كيلومتراً مربعاً وله من المصبات نحو ١٦ مصباً والرياح الغالبة عند مصباته تهب في اتجاهات معاكسة لتيارات هذا النهر وتكون في الغالب شديدة الهبوب حتى لا يمكن للسفن الشراعية أن تصعد فيه في وجه التيار وتدخل هذه الرياح الموسمية بانتظام في وادية مدة عشرة شهور من السنة وخصوصاً من مايو الى نوفمبر وفي نحو أواخر نوفمبر يبتدئ فصل الضباب وهو ضباب جاف ينتشر حتى يخفى الشاطئ على مسافة قليلة منه ويهب بعد الزوال نسيم يلاشي ذلك الضباب وربما ثارت بعض العواصف فأخذته معها ومزقته تمزيقاً

شيء من تاريخ النيجر ـ قد تحقق لأهل النظر ان قد قامت على شواطئ نهر النيجر من أزمنة طويلة مضت أمم شهيرة في التجارة والصناعة وكان واديه كما كان وادي النيل مركز حضارة وكان لمدنه أيضاً شهرة في كل القسم الشمالي من افريقية بل كانت شهرتها تجاوز ذلك وكان من ممالكه مملكة غانه المعروفة لتجار البنادقة قبل أن يتمكن أهل أوربا من السياحة في ارجائه بزمن طويل وبقيت مدينة تمبكتو يعرفها الناس على بعد مدة قرون كانها الباب لافريقية الا ان هذه الحضارة والرقى كانا في حوضه الاوسط لا في جهات مصباته التي بقيت في حالة همجية تامة ولما أصبح الفرنسويون أصحاب النفوذ الاعلا بتلك الاطراف طمعوا في أن يربطوا جهاتها العليا ببحر الروم مباشرة بطريق حديدي يخترق الصحراء الكبرى

وأقدم من اكتشف نهر النيجر من الاورباويين منجوبرك وهو طبيب

اسكتلندي توصل بعد اقتحام آلاف المخاطر من الوصول الى شواطئ النيجر الاعلا وكان هذا بين سنتي ١٧٩٥ و١٧٩٧ وكانوا من قبله يجهلون مصبه بالمرة حتى انهم كانوا يعتبرونه فرعاً من نيل مصر ولما كان منجوبرك ليس بالرجل الذي يكتفي بالتخمينات والاوهام الباطلة ساح بجهاته سياحة ثانية تمكن فيها من اكتشاف مصبه وقد كافأته الحكومة الانجليزية على عمله ثم مات غرقاً عند شلال بلدة بوصا ويقال أن الاهالي قتلوه وذلك بعد أن مات كل من رافقه من الاوربيين تقريباً وكانوا أربعين شخصاً (١٨٠٦)

وسعى كثيرون بعد منجوبرك في اكتشاف هذا النهر فلم ينجحوا ثم قام من بعدهم فرنسوي يدعى رينيه كَلّيه وكان أسعدهم حظاً وهو بعد أن درس لسان البربر وعوائدهم سافر على مصاريفه متظاهراً بأنه عربي الاصل وان الفرنسويين كانوا أسروه في مصر فتمكن بذلك وبعد مشاق طويلة من الوصول الى النيجر في يناير سنة ١٨٢٨ ثم عاد مخترقا الصحراء ومراكش وتعاقب بعده كثيرون من أمم مختلفة فأفادوا في هذا الموضوع بما شاهدوه ورسموه هذا والفضل أيضاً للارساليات العسكرية الفرنسوية وللشركات التجارية بين فرنسوية وانجليزية وفي سنة ١٨٨٧ أضيفت كل جهات حوضي النيجر وبنوى السفلى للدولة الانجليزية نهائياً وقد أخذت التجارة الاوربية تتقدم وتترقى في تلك الانحاء بدرجة عظيمة جداً قال سائح انجليزي يسمى تومسُن لا توجد بكل الجهات الواسعة من افريقية الاستوائية جهات

اكثر قابلية للتجارة من الجهات التي يمر بها هـذا النهر والتي هي عبارة عن مركز حوضه اهـ

ج ـ الكنغو ـ هو نهر بأفريقية الغربية أطلق عليه البرتقاليون اسم زائر واستحسن استانلي تسميته باسم لڤنجستون تعظيما للمكتشف الانجليزي الشهير وكان أول من اكتشف مصبه ملاح برتقالي اسمه ديجوكام [(١)] سنة ١٤٨٤ وسماه ريوپادرو ولما كان البرتقاليون اذ ذاك يبحثون عن طريق بلاد الهند اجتهدوا في اكتشاف هـذا النهر المجهول المجرى ثم لما استقر مبشروهم الدينيون فيما بعد ببلدة سلوادور القريبة منه لم يتمكنوا مع كل ذلك من الحصول على معلومات مهمة وبقي الحال هكذا حتى القرن الماضي حيث حصلت المساعي الاولى الجدية لاكتشافه

ففي سنة ١٨١٦ سعى الماجور توكي [(٢)] في الصعود فيه ولكنه عاد ادراجه بعد أن قطع نحو ٣٠٠ كيلومتر وكذلك خاب مسعى كل من أراد

---

(١) Diego Cam ملاح برتقالي كان في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي والمعروف عنه فقط ان ملك البرتقال الفونس الخامس كلفه سنة ١٤٨٤ باكتشاف سواحل أفريقية فتوغل في السواحل الغربية اكثر ممن سبقه الى ان اكتشف خليجاً كبيراً يسميه الاهالى الزائر وقد أطلق عليه هو اسم ريوپادرو لانه كان ركز به عموداً من الحجر كالعمد التي كان البرتقال يعلمون بها الاراضي التي كانوا يستولون عليها وحاول ان يوجد مع أمراء تلك الجهات مواصلات ثم عاد الى بلاده وبعد ذلك لا يعلم من أمره شيء

(٢) Tucky

اكتشاف هذا النهر ممن أتو بعده وكان سبب خيبة بعضهم الشلالات التي في قسمه الاسفل والبعض الآخر بما حدث بينهم وبين الحمالين والأدلاء من المشاكل والصعوبات التي لم يجدوا لها حلا وقد توصلوا لاكتشاف مجراه من داخل القارة فهو مثل الانهار الكبيرة بأفريقية في ذلك أي أن اكتشافه لم يحصل من مصبه بل حدث بعكس ذلك

وأول من ساح بالجهات التي يتكون فيها نهر الكنغو هو لفنجستون وقد وجد نجداً عريضاً تكثر به الامطار والبحيرات والنقائع والنهيرات تمتد بين منابع زمبيزى وبحيرة تنجانيقا وكان اسم بعض هذه الانهار معروفاً نقلاً عن تجار الرقيق من البرتقاليين ولكنهم لم يكونوا يعرفون اتجاهاتها بالضبط وذلك لانه يوجد بهذه البلاد مجاري مياه لاعداد لها حتى قال لفنجستون انه قطع منها في يوم واحد أربعة عشر مجرى وأراضي الغابات هناك تغطيها الاوحال وتمكث مياه الامطار شهوراً بتمامها راكدة في آثار أقدام الفيلة وتتباعد هذه المستنقعات الطويلة عن بعضها غالباً بنظام عجيب ويختلف عرضها ما بين ٢٠٠ متر والف متر وعلى شواطئها غابات وتنتشر على سطحها حشائش شبهها لفنجستون بالاسفنج لان الماء يتساقط منها حتى في زمن الجفاف وقد ظن لفنجستون انها منابع للنيل وبما حصل عليه من الاستعلامات من الاهالي وبما نقله له الرواة من الاخبار ظن ان هذه النهيرات تصل الى تنجانيقا وان مياه هذه البحيرة تسيل من حافتها الشمالية نحو خط

الاستواء أي نحو النيل وقد أمضى لفنجستون السنين الاخيرة من عمره في تحقيق هذه الفروض والاقوال

ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى تمكن من الوقوف على ان نهري شمبزي ولوَابولا بعد اتحادهما بواسطة بحيرة بَنجويلو يمتدان كلاهما وكذا نهر لُوَالابا وتجري كلها فوق سطح اكثر انخفاضاً من سطح تنجانيقا (وعلى ذلك لا يمكن أن تكون تنجانيقا مما يمد نهر النيل) أما من خصوص معرفة ما اذا كانت هذه البحيرة المذكورة تذهب مياهها الى الشمال فان اكتشافه الذي قام به هنالك سنة ١٨٧١ برفقة استانلي الذي اكتسب شهرة عمومية بسياحاته في افريقية اقنعه بأن تنجانيقا ليس لها منصب نحو الشمال أصلا وعلى ذلك كانت تلك النهيرات التي شاهدها لفنجستون ليست منابع للنيل بل يتعين أن تكون منابع لنهر آخر ومن هذا الوقت أخذ لفنجستون يفكر فيما اذا كانت تلك الانهر منابع لذلك النهر العظيم العجيب الذي يصب في بحر الظلمات المعروف بالكنغو ولقد صدق ظنه في هذه المرة الا انه لم يتحقق من ذلك بنفسه لان منيته عاجلته في سياحاته هذه سنة ١٨٧٣

وقام بعده سائح يدعى كَمِرون(١) الا انه لم يكن اكثر حظاً من مواطنه لفنجستون وقد تمكن في سياحته من اكتشاف مصب مياه تنجانيقا في لوالابا ولكنه لم يمكنه السياحة في هذا النهر الى ابعد مما وصل اليه لفنجستون وعند

(١) Kameron

ذلك انحدر نحو الجنوب الغربي مخترقاً الجهات الكثيرة المياه التي يذهب قسم من مياهها الى نهر زمبيزي وما بقي يذهب نحو الشمال الى أن وصل الى ساحل المحيط الاطلسي (١٨٧٣-١٨٧٥) وبذلك اخترق قسماً من النهيرات التى تمد نهر الكنغو ولكنه لم يحصل على معلومات صحيحة عن هذا النهر أصلا

هذا والى استانلي السائح الشهير يرجع حل هذه المسألة فأنه في سياحته الثانية بافريقيه (١٨٧٤ - ١٨٧٧) وصل بعد ان أقام في جهات البحيرات العظمى هو أيضاً الي بلدة نيانجوى وهناك ساعده الحظ أكثر من سبقه فتمكن من الحصول على حراس بواسطة تبوتيب تاجر الرقيق العربي الشهير وحصل أيضاً على سفن انحدر بها في الكنغو ولكنهم تركوه بعد قليل وعادوا بسبب تفشي الامراض فيما بينهم وبما صادفوه من المشاق في اختراق الغابات الا ان ذلك لم يثن استانلي عن عزمه فاظهر همة فائقة واستمر في طريقه وكان بصحبته نحو ١٥٠ رجلا من أهالي زنزبار معهم ٢٣ زورقاً

وبعد زمن وصل الى جهات يجهلها حتى نفس تجار الرقيق واضطر للدوران حول شلالات اعترضته في طريقه (شلالات استانلي) بينما كان الاهالي يهاجمونه ويغيرون عليه ولما وصل الى ملتقى نهير أرويمي بالكنغو هاجمه الاهالي أيضاً وهم في زوارق طويلة واجتهدوا في صده ومنعه من الانحدار في النهر الا انهم لم ينجحوا وكان النهر يأخذ في الاتساع ثم انحرف فجأة نحو الغرب أي نحو بحر الظلمات وعلم استانلي أخيراً من بعض الاهالي

هناك ان هذا النهر يسمى كنغو كما علم أيضاً ان النهر الذي سار فيهمن أول بلدة نيانجوى وكذا النهر الذي سعى السائح توكي من قبل في الصعود فيه كلاهما نهر واحد هو الكنغو فالكنغو نهر واحد رغماً عن تعددأسمائهالتي يسمعها السائح في طريقه ولا يخفى أن لا شيء أصعب على المكتشف من أسماء عديدة تطلق على مسمى واحد ولما تشجع استانلي بما حصل عليهاستمرفي الانحدار في النهر المذكور الذي لكثرة جزائره أصبح عرضه بين ٤٠ و٥٠ كيلومتر ولهذا فانه لم يشاهد الانهارالتي تصب فيههناك كما انه لم يكن يشاهد شاطئيهغالباًوقد قطع خطالاستواءمرة أخرى وصارت أصوات البنادقالتي يسمعها تدل على قربه من المحيطوالنزلات التجاريةالبرتقالية وبعدأن تمتدمياه هذا النهر وتنتشر كثيراً على هيئة بحيرة(استانلي بول)تنحصر ثانية بين شاطئيه ويعترض مجراه شلالات جديدة هلك فيها كثيرون من اتباعه ثم وصل أخيراً الى مدينة بوما الواقعة عند مصبه وكان ذلك ما يبغيه بعد أن قاسى من العذاب ألواناً وبعد أن اشتبك في اثنتين وثلاثين موقعة مع الاهالي في طريقه

وعلى ذلك كان كل من نهيري لوابولا ولوالابا أكبر فروع نهر الكنغو ولقد حل أقدام استانلي وهمته مسألة من أصعب المسائل في أنهار افريقيه وذلك لان نهراً طوله ٤٦٠٠ كيلومتر يماثل أمازون تقريباً في طوله وكمية مياهه قد أصبح الجغرافيون يعرفون مجراه وأحواله دفعة واحدة ولم يكونوا يعرفون عنه قبل ذلك الا وجوده فقط

النهيرات التي تمد نهر الكنغو ـ نهيرات الضفة اليسرى ـ اعلم انه بينما كان استانلي يقوم بالاكتشاف الذي أوصله لمعرفة الكنغو كان هناك سياحون آخرون يسعون في معرفة هذه النهيرات التي كان اخترقها السائح كمرون وهي التي تسير نحو الشمال وقد سعي كثير من المكتشفين في معرفة هذه النهيرات وفي الوصول الى بلدة نيانجوى مبتدئين من ساحل المحيط الاطلسي ومن هؤلاء الضابط الالماني ويسمان[1] وقد نجح في ثلاث سياحات اجراها الواحدة بعد الاخرى للوقوف على أحوال النهيرات التى تصب في الكنغو من شاطئه الايسر وقد سعى كثيرون غيره هذا المسعى فلم يوفقوا

(١) H. Wissmann سياح الماني ولد سنة ١٨٥٣ وكان من ضباط الجيش الالماني ثم اتفق هو والمكتشف بوج (Pogge) على اجراء سياحة بداخل أفريقية تحت رعاية الجمعية الافريقية ببرلين فسافرا من لوانده سنة ١٨٨١ ووصلا الى نهر كسّاي ثم اتجها شرقاً واخترقا نهر لوبيلاش ولُوكَسِّي ولُوامى وبعد ان وصلا الى بلدة نيانجوى أخذ ويسمان في العودة عن طريق الساحل الشرقي (سعدني) اما بوج فانه عاد عن طريق الساحل الغربي (١٨٨٢) وفي سنة ١٨٨٤ ترأس ويسمان ارسالية على مصاريف ملك بلجيكا كانت غايتها اكتشاف الجهات المجهولة الواقعة عند الانحناء العظيم من نهر الكنغو ولما وصلت الى لُولوا أسست محطة لُولوابُرج ثم وصلت سنة ١٨٨٥ على سفينة الى ملتقى كسّاي بالكنغو ثم الى استانلي بول وقد ظهر من هذا الاكتشاف ان كساي قابل للملاحة بلا عائق حتى قلب أفريقية ثم تجول ويسمان في تلك الارجاء مكتشفاً حتى بلغ تنجانيقا (١٨٨٧) ثم نياسا ومن هناك قصد موزمبيق ثم زنزبار هذا ولما امتلكت المانيا سنة ١٨٨٩ الاراضي التي لها بساحل أفريقية الشرقي عينته مندوبا امبراطوريا وقد أظهر شدة في المعاملة وكانت له مع العرب هناك حروب دموية

وخرج ويسمان هو وسائح آخر يدعى بوج في سياحته الاولى من مملكة لوانده وكانت اذ ذاك آخذة في الضعف والانحلال واستقل كثير من عمالها في عمالاتهم ولحسن حظ هذه الارسالية ساعدها أحد أولئك العمال مساعدة عظيمة حتى تمكنت من الوصول الى مكان أبعد من المكان الذي وصل اليه من سبقها وبعد أن عبر السائحان المذكوران نهيرات كسّائي ولُوبيلاش ولُومامي وصلا الى نيانجوى وبعد ذلك واصل ويسمان سيره بمفرده بمساعدة أحد رؤساء الاهالى هناك الى أن تمكن من الوصول الى ساحل زنزبار ماراً ببلدة طابوره (١٨٨١ - ١٨٨٣) وسياحة ويسمان الثانية (١٨٨٤ - ١٨٨٥) كانت أهم من الأولى بما حصل عليه من النتائج وكان يصحبه اثنان من المكتشفين هما الدكتور ولف وفون فرنسوا[١] وقد ساعده بعض أمراء البلاد هناك وأمدوه بالزوارق والحراس فانحدر في نهير لُولوَا بعد أن أسس هناك محطة سماها لولوابُرج حتى وصل الى كسائي وانحدر فيه أيضاً ووجده عريضاً ويصب فيه نهيرات عديدة أشهرها من اليمين لوبيلاش ويسمى هناك سنكورو ثم ما زال ويسمان ينحدر في كسائي حتى وجده ينحرف نحو الغرب ويصب فيه تقريباً كل النهيرات التي كان اخترق سابقاً مجاريها العليا ثم انها تجتمع كلها الى نهر واحد كبير هو كسائي وأخيراً وصل بزوارقه الى نهر عريض كان هو نهر الكنغو

---

(١) Wolf et Von François

هذا أما الدكتور ولف فأنه صعد في تَسنكورو ثم في نهير بمده يسمى لُو بيفو الى أن أصبح على بعد ٤٠٠ كيلو متر فقط من بلدة نيانجوى وعلى ذلك كان كسائي وسنكورو ولوبيفو كلها طريق اقصر بكثير عن الكنغو بين المحيط الاطلسي وبلدة نيانجوى

ثم تعاقبت السياحات بعد هذه السياحة العظيمة الاهمية فساعدت كثيراً بل أتمت اكتشاف النهيرات التي تصب في الكنغو من اليسار أو على الاقل الى حيث تكون الشلالات وقلة عمق المياه من الموانع في ذهاب السفن الى أبعد من ذلك

نهيرات الضفة اليمنى — يصب في الكنغو من ضفته اليمنى نهيران مهمان هما أُرُويمي وأُوبَنجي واوبنجي أعظم من ارويمي بكثير وقد اكتشفه المكتشفون قبله واوبنجي المذكور هو المجرى الاسفل لنهر أُولِّي وقال السائح شُوَنيفُرت(١) ان نهر أُولِّي المذكور الذي يجري في جنوب بلاد نيام نيام هو المجرى الاعلا لنهر شاري الذي يصب في بحيرة شاد

غير انه في سنة ١٨٨٤ و١٨٨٥ لما صعد أحد المرسلين الدينيين المسمى غرنفيل في أوبنجي أكد ان هذا النهير هو وأُولِّي ليسا الا نهراً واحداً وقد صادقه على ذلك الضابط البلجيكي المسمى فان جيل(٢) في سياحته سنة ١٨٨٧

---

(١) Schweinfurth

(٢) Van Gele

وبذلك صار اتحاد النهرين ببعضهما مما لاشك فيه

ونهر اولى اوبنجي هو أعظم النهيرات التي تصب في الكنغو من يمينه أي من الشمال وكان السائح توكي فرض وجوده وقال به فهو الذي يجلب للكنغو مياه الامطار التي تنصب اليه بينما تكون الجهات التي في جنوب خط الاستواء في فصل الجفاف ومن هذه التغذية المضاعفة المتعاقبة يبقى مقدار تصريف نهر الكنغو على حالة واحدة تقريباً أما نهير اروبمي الذي كاد استانلي يظن انه المنصب لبحيرة موتنزيجا أي بحيرة البرت نيانزا فقد اكتشفه في سياحته الاخيرة بينما كان يبحث عن أمين باشا (١٨٨٧ ـ ١٨٩٠) وقال عنه انه كثير الجنادل يخترق الجهات العظيمة الكثيرة الغابات بأفريقيه وانه يخرج من نجد البحيرات ولا يتصل بموتنزيجا التي تجري مياهها الى جهات النيل الاعلى

فها هي ملخص أهم الاكتشافات والسياحات التي علمنا منها في السنين الاخيرة أحوال نهر الكنغو وأكبر الانهار التي تصب فيه فأصبحت ترسم الآن في المكان الذي كان يترك خالياً الى زمن قريب على الخرائط الجغرافية بأفريقيه الوسطى وأصبح الآن ترسم فيه نهيرات هي من أطول وأغزر نهيرات العالم ماء وقد تم في هذا القسم من قارة أفريقيه عدة اكتشافات عظيمة الاهمية جداً بسرعة تعد من المعجزات وذلك بالرغم عن الموانع التي بقيت زمنا طويلا قائمة في وجه المكتشفين وبالرغم أيضا عن الخرافات والاباطيل

الجغرافية التى ربما كان التغلب عليها أصعب من الموانع الاولى

د — نهر زمبيزي — زمبيزي نهر عظيم بأفريقيه الجنوبية يصب فى بحر الهند من خليج موزمبيق ومعنى اسمه النهر الكبير وهو لطول مجراه واتساع حوضه وكمية مياهه وسرعتها يعتبر الرابع بين أنهار أفريقيه أي بعد الكنغو والنيجر والنيل ويبلغ طوله نحو ٣٠٠٠ كيلومتر ويخرج من الجهات الكثيرة المياه والمستنقعات التي يخرج منها نهر يوالابا المنبع الغربي لنهر الكنغو كما سبق وبحيرة ديلولو تنصب مياهها فى فصل الامطار فى نهر الكنغو بواسطة نهير كسائي وفى نهير زمبيزي فى آن واحد

واعلم ان الفضل فى اكتشاف نهر زمبيزي يرجع على الخصوص الى داود لفنجستون وهو مرسل ديني جسور أمضى جزءاً عظيما من حياته فى افريقيه الجنوبية وبعد أن وصل الى بحيرة نيامي(١٨٤٩) واخترق بحيرة شوبي وصل أخيراً الى شاطىء نهر عظيم يسميه الاهالى ليامبي (١٨٥١) ولما أعلن سياحته هذه ظن الناس من هذا الوقت ان هذا النهر هو مجرى زمبيزي الاعلا وقد كان البرتقاليون اذ ذاك ينزلون واديه الاسفل فاهتم لفنجستون لتحقيق صحة هذا القول وفى سنة ١٨٥٣ صعد فى نهر ليامبي المذكور ثم فى ليبا المتمم له واكتشف بحيرة ديلولو وقد ظن انها هى منبع زمبيزي ثم وصل الى مدينة سن بول لواندهسنة ١٨٥٤ ثم غادرها بعدقليل سائراً فى نفس الطريق الذي أتى منه وانحدر فى نهر ليامبي واكتشف ذلك الشلال البديع المسمى

لدى الاهالى بما معناه الدخان الراعد وأطلق عليه اسم شلال فكتوريا ثم ترك النهر من هنالك واستمر فى السير حتى بلدة كليمان الواقعة على ساحل المحيط الهندي وهذه كانت أول سياحة قام بها أوربي بأفريقيه من ساحل الى آخر (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦) وقد تحقق الناس من ذلك الوقت جيداً ان النهر الذي يجتاز شلالات فكتوريا ونهر زمبيزي ليسا الا نهراً واحداً وقد تأكد لفنجستون من ذلك سنة ١٨٦٠ اثناء اكتشافه القسم الاوسط من نهر زمبيزي وفى نفس هذا التاريخ تقريبا كان كل من اسبك وجرنت قد اكتشفا ان بحيرة فكتوريا هى احدى منابع النيل وبهذا وذاك انحلت مسألتان مائيتان عظيمتان بأفريقيه فى زمن واحد

ثم قام السياحون وأتموا اكتشاف أجزاء نهر زمبيزي الذي اكتشفه لفنجستون كما سبق وروى كل من كابلّو وإيفنس وأرنوت[1] ان منبع نهر زمبيزي ليس من بحيرة ديلولو بل يجب أن يكون منبعه نهر ليبا المذكور لان بحيرة ديلولو تنصب مياهها في هذا النهير الذي تغزر مياهه بذلك ويدخل نهر زمبيزي في الجهات الكثيرة الحشائش ويسمى ليبا في أوله وليامبي في آخره ولكنه بعدان يجري فوق أراضي كثيرة المستنقعات يحفر له مجرى عميقا محصورا داخل النجد ثم يجتاز شلالات فكتوريا من ثلمة جسيمة فتحها وسط أحجار من البازلت تتكون منها قاعدة ذلك الجبل وذلك أنه بعدان يكون عرضه نحو

(١) Capello, Ivens, Arnot

١٦٠٠متر ينقض في اخدود عميق من ارتفاع يبلغ ١٢٠ متراً ويسمع له اذ ذاك دوي كدوى الرعد ومنظره هناك من أجمل المناظر الطبيعية في الدنيا ثم يضيق مجراه الظاهري بحيث يصير ٢٧ متراً فقط ويرتفع فوقه أعمدة من البخار يشاهدها الناس على بعد ٣٢ كيلو متراً والى الشرق من هذه الشلالات يصب فيه نهير شوبي ويبقى مجراه فى جهة الغرب كثير المرتفعات والمنخفضات ثم يترك شلال فكتوريا منحدراً فوق عدة شلالات أخرى وارتفاعه عن سطح البحر عند شلالات فكتوريا ٧٠٠ متر وعند محطة زومبو ٣٦٠ متراً وعند بلدة تيي ١٦٠ متراً ثم يصب فيه من شاطئه الايسر نهير كافوى الذي يخترق بلاد بارتسي ونهير لوانجو هو الذي يجلب اليه مياه بحيرة نياسا وغيرها وتصب هذه البحيرة ايضا فى نهر زمبيزي بنهير شيري وهو نهير جميل واسع قابل للملاحة الا حيث تكون شلالات مرتشيسون واعلم ان نهر شيري المذكور من أجمل الطرق للدخول فى افريقيه الوسطى والى الامام من ملتقى شيري بزمبيزي يدخل زمبيزي فى المنطقة التى تكونت من طميه وينقسم فيها الى فروع عديدة منها فرع يسمى شندي وهو قابل لسير السفن البخارية المتوسطة القدر وعلى فرع آخر من فروعه مدينة كليمان وهي احدى المحطات البرتقالية ببلاد موزمبيق

أشهر بحيرات افريقيه ـ بافريقيه سبع بحيرات شهيرة كلها محصورة بين المدارين ففي شمال خط الاستواء بحيرة شاد ببلاد التكرور وبحيرة سانا أودمبيه ببلاد الحبشة وبحيرة نيانزا أو فيكتوريا نيانزا وقد اكتشفها اسبك

سنة ١٨٥٨ ثم زارها مرة أخرى في سياحته الثانية سنة ١٨٦٢ والي الغرب قليلاً منها بحيرة البرت نيانزا وقد اكتشفها السائح بيكر سنة ١٨٦٥ والى الجنوب من ذلك أي في حدود النجد الجنوبي بحيرة تنجانيقا وأول من زارها من سياحي أوربا بورتن واسبك وكان ذلك في سنة ١٨٥٨ وبحيرة نياسا (أو مَرَوِي) وأول من زاراها لفنجستون سنة ١٨٥٩ ثم بحيرة نيامي وقد اكتشفت سنة ١٨٤٩ وهي الى الشمال من صحراء كلاهاري ومن التواريخ التي ذكرناها يظهر مقدار حداثة معرفتنا بالجغرافيا الطبيعية لقارة افريقيه

ثالثاً سبع بحيرات ـ بحيرة شاد ـ هي بحيرة عظيمة ببلاد التكرور على نحو ١٧٠٠ كيلومتر الى الغرب من وادي النيل وعلى نحو ٢٠٠٠ كيلومتر جنوبي بحر الروم وعلى نحو ١٠٠٠ كيلومتر الى الشمال والشرق من نهاية خليج غانه وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٧٠ متراً فقط وتنصب فيها مياه بلاد برنو وباقرمي وقسم من مياه بلاد وداي ودارفور ولما كان السائح هورنمان(١) ببلاد مرزوق سنة ١٧٩٨ سمع الناس يذكرون هذه البحيرة ثم بقي أمرها مجهولا الى أن تمكن كل من السائح دنهام(٢) وكلبرتون واُدني(٣) من رؤيتها لاول مرة (١٨٢٢ـ١٨٢٤)

(١) Hornemann (١٧٧٢ ـ ١٨٠٠) سائح الماني مات بينا كان في سياحة ببلاد مصر والسودان وقد ترك كتاباً بالالمانية اسمه الوقائع اليومية لسائح من القاهرة الى مرزوق. Tagbuch einer Reiser von Cairo nach Murzuck.

(٢) Le Majore Dixon Denham (١٧٨٥ ـ ١٨٢٨) سائح انجليزي زار مع كلابرتون بلاد برنو وبحيرة شاد ومملكة الفلاتة (١٨٢٢ ـ ١٨٢٥)

(٣) Clapperton, Oudney

وهذه البحيرة مثلثة الشكل ويبلغ متوسط سطحها الذي يختلف في فصل الجفاف عنه في فصل الامطار نحو ٢٧٠٠٠ من الكيلومترات المربعة أي انها تبلغ تقريباً مسطح جزيرة صقلية ولا يزيد عمقها عن بعض أمتار وبها عدة جزائر ينبت بها القصب الفارسي والبَردي يلتجىء اليها قطعان كثيرة من فرس النهر ولذلك يصعب جداً تعيين خط سواحلها وهي واقعة في جهات أمطار الصيف السنوية التي تسقط من أواخر يونيه الى أواخر سبتمبر ويصل ماؤها الى أعلاه بين شهري اكتوبر ويناير ثم يأخذ في الانخفاض في فصل الجفاف بحيث يتصل أغلب جزائرها بالقارة بواسطة مستغدرات قليلة العمق

ويظهر ان هذه البحيرة كانت قديماً أوسع مما هي الآن وقد احدثت مياهها اذ ذاك مجرى دائم الجفاف تقريباً الآن هو مجرى بحر الغزال وكانت مياهه تصل الى وهدتي بوديلي وأيجي او أجابي الواقعين في مكان أكثر منها انخفاضاً ولا تزال بحيرة شاد تتصل الى اليوم فى فصل الامطار بالمجرى والوهدتين المذكورتين سابقاً وبسبب ذلك سهل وجود المياه فى باطن الارض بجهات بلاد كانم وبُرقو وتجلب اليها النهيرات التي تمدها نحو مائة كيلومتر مكعب من الماء سنوياً ولا نفقد منه بالتبخر الا نحو ٧٠ كيلومتراً

ويسكن جزائر شادامة تشتغل على الاكثر بصيد السمك تعرف باسم بُدُوما ولهم سفن مسطحة وهم يبيعون ما يصطادونه من السمك ببلاد برنو

وفي مدينتها كوكا الواقعة قرب الساحل الغربي ولهم أيضاً عناية بتربية البقر يرسلونها الى بلاد كانم لترعى هناك حينما تغطي الامطار أرض تلك الجزائر ويقدر الجغرافيون أمة بدوما المذكورة بنحو ١٥ الف نفس

ويمد بحيرة شاد نهيرات أشهرها نهر شاري ويمده نهر لوجون وهو عائله في القدر وبعد أن يسير شاري المذكور ببلاد باقرمى يصب فيها من شاطئها الجنوبي وله دلتا عند مصبه ويبتدىء الفيضان بنهر شاري من نهاية شهر مارس ولذلك يظن انه يأتي من جهات بعيدة جداً الى الجنوب ولا يزال مجرى نهر شاري غير معروف تماماً وقد ظن السائح شوَنيفرت (1) ان نهري شاري وأولّي يتحدان ببعضهما وعلى ذلك يكون أولّي هو أوبنجي بعينه الذي يصب في الكنغو ولا يزال مجرى شاري الاعلى غير مكتشف للآن

وبحيرة شاد هى أكبر البحيرات القليلة العمق التي تحدث من الامطار

(١) G. Schweinfurth عالم من علماء الطبيعيات وسائح ألماني ولد سنة ١٨٣٦ وقد أفاد دار آثار برلين بما جمعه فيها من أنواع النباتات والحيوانات والاحجار المختلفة ولما كان بمدينة القاهرة في سنتي ١٨٧٤ ـ ١٨٧٥ دعاه الجناب الخديوي فأسس الجمعية الجغرافية بها ومن ذلك الوقت استمر على الاقامة بالقاهرة وقد اهتم كثيراً بالسياحة والاكتشاف في الصحراء التي بين النيل والبحر الاحمر (١٨٧٦ ـ ١٨٨٦) وجلب منها أشياء نفيسة كثيرة اضافها الى التي جلبها من قبل بدار آثار المعادن ببرلين وكان بالاسكندرية عام ١٨٨١ حينما اطلق عليها الانجليز المدافع وكاد الاهالي يوقعون به ثم سافر الى سقطري سنة ١٨٨١ مكتشفاً ومن ذلك الوقت أخذ يسعى في حمل ألمانيا على أن يكون لها مستعمرات بجهات افريقية الاستوائية وقد استفاد من ذلك كثيراً

الغزيرة التي تسقط في تلك الجهات ثم انها تجف تماماً تقريباً في فصل الجفاف بسبب التبخر ومن هذه البحيرات أيضاً إيرُو ببلاد باقرمي وبحيرة فترى ببلاد دارفور وهذه البحيرات المتغيرة العمق والاتساع واقعة في نصف الكرة الجنوبي وعلى الخصوص في البلاد التي تقابل افريقيه حيث السنة فصل جفاف طويل وفصل أمطار غزيرة قصير ولما كان منظر البلاد يختلف جداً في هذين الفصلين تعارضت روايات السياحين واختلفت أقوالهم عنها وبذلك يمكننا الآن تفسير تلك الاقوال وفهم معناها بسهولة

واعلم ان الجهات الداخلية من افريقية حيث تكون بحيرة شاد هي احدى البلاد التي لا تزال مواصلاتها قليلة مع بقية المعمور فهي احدى الجهات المقفلة في أوجه الروادو المكتشفين تقريباً قال اليزيه ريكلو (١) تمر السنين فوق السنين ولا يصل الى أوربا صدى الحوادث والاعمال الكبيرة التي تقوم بها الامم هناك كالاغارات والمهاجرات والحروب والفتوح فتبقى كلها مجهولة اهو كان الطريق الوحيد للمواصلة بينها وبين البلاد الخارجية في القرون الوسطى حتى القرن الماضي هو طريق الشرق المار بدارفور وودّاي ومن هذا الطريق دخل العرب ونشروا دينهم وحضارتهم أما السبب الذى ساعد على وجود الطريق التجاري الشمالي الذي بين فزان وبحر الروم فهو الاحتياج لبضائع أوربا وكذا الاحتياج لايجاد اسواق لبيع الرقيق الاسود الذي كان

(١) Elysée Réclus

يؤخذ من الامم الوثنية هناك وقدعرف هذا الطريق زمن دخول العرب تقريباً

طعم ماء شاد ـ لا يخفى أن مياه كل البحيرات التي لا مصرف لهاملحة وان الاجزاء الملحة التي تجلبها معها الانهار ينتهي أمرها لتراكمها على بعضها بجعل مياه البحيرات المذكورة ذات ملوحة ظاهرة مهما كانت تلك الاجزاء صغيرة فان بحر قزوين ومياهه عذبة تقريباً في القسم الشمالي منه حيث يصب نهرا ولغا وأورال العظيمين تكون ملحة أو مرة فيما بقي من حوضه ومما تشتهر به بحيرة شاد أن مياهها عذبة بالمرة ولولا ما يخالطها من الاجسام العضوية لكانت مياهها موافقة جداً للشرب لذيذة الطعم ومما يستلفت النظر أيضاً ويستغرب أن ينابيع البلاد التي تجاورها في الشمال والشرق وهي كانم وأباأي وبوديلي ماؤها أجاج كاه تقريباً ويوجد النطرون على سواحل بحيرة شاد وجزرها وربما كان أصح تعليل لذلك ما قاله مسيو اليزيه ريكلو حيث قال في كتابه ان السبب في بقاء مياه بحيرة شاد عذبة كونها حوض مرور فقط وان مياهها تنصب من زمن قريب في وهدة بحر الغزال حيث تتبخر تاركة فوق الارض رواسب ملحة كما هو الحال بأمريقا الجنوبية في بحيرة تيتيكاكا العظيمة التي تشبه مياهها مياه شاد في العذوبة فان حوضها الملح واقع في البحيرة الصغيرة المسماة بامپا الاّغاس فهي لها بمثابة بحر الغزال لشاداه

ب ـ بحيرة سانا ـ وتسمى أيضاً دمبعه هى بحيرة ببلاد الحبشة ولفظ سانا لا يطلق على البحيرة ولكن على البلاد الواقعة على الشواطىء

الشمالية منها ولهـذا فضل الجغرافيون تسميتها باسم تانا وهو الاسم الذي يطلقه عليها أهالي البلاد ويبلغ اكبر عرض لها من الغرب الى الشرق نحو ٦٥ كيلومتراً ومعظم طولها من الشمال الى الجنوب ٧١ كيلومتراً وقدر بعضهم مسطحها بنحو ٢٩٨٠ كيلومتراً مربعاً وارتفاعها عن سطح البحر ١٧٥٠ متراً ويصل عمقها في وسطها الى مئات من الامتار وشكلها وان اختلف على كثير من الخرائط الا انه مستدير تقريباً وبجنوبها خليج طوله ٢٠ كيلومتراً في عرض عشرة أمتار ومنه يخرج نهر أبا ي وعلى حافتها الخارجية الغربية مباشرة منخفض يرتفع عن سطح البحر الاحمر بنحو ستين متراً

وينصب فيها عدة نهيرات ومياهها غزيرة جداً تأتي اليها من أمطار الصيف ومن الثلج الذى فوق الجبال وقداوجدت هذه المياه بانحدارها أخاديد وخيران كثيرة فوق نجد بلاد الحبشة التي تجري مياهه في نهيرات ضيقة تقسمه الى عدة هضاب صخرية رأسية الجوانب تقريباً صعبـة المواصلات وبهذه البحيرة عدة جزائر بين كبيرة وصغيرة أغلبها مسكون يبلغ مسطحها جميعها نحو ٥٠ كيلومتراً ومن هذه الجزائر جزيرة (دِبْرا مريم) ولها اعتبار ديني لدى الاهالى ويقيم بها مطران الحبشة أو بطريرقها وهي في نهاية الجنوب منها بالخليج الذي يخرج منه نهر أبأي وكل هذه الجزر تقريباً قمم مخروطية بركانية بعضها مغطى بالنباتات الجميلة والاشجار الوفيرة والاديرة التي بها محترمة جداً لدى الحبشان حتى لا يسمح لأجنبي بدخولها وماء هذه البحيرة

عذب جداً نقي لذيذ الطعم كماء النيل وعلى شواطئها طيور مائية كثيرة ويسبح بها قطعان من فرس النهر والشيء الغريب ان التماسيح التي يكثر وجودها في كل النهيرات التي تمد هذه البحيرة لا وجود لها فيها

قال بعض من شاهدها من السياحين أنها تشبه بحيرات جبال الالب ولكنها اكبر منها بكثير وقد أعجب بها كل من رآها وافتتن بجمالها وجلالها قال السائح جالينيه لا شيء أجمل من بحيرة سانا والبلاد الواقعة عليها وليس بالسويسره ولا ببلاد ايطاليا بحيرة أجمل منها وان السهل البديع الذي يحيط بها والذي يختلف في الاتساع والضيق يحده جبال جميلة جداً مكونة كلها من أحجار البازلت وغيره من الاحجار البركانية ويخرج من سفوحها ينابيع غزيرة حارة المياه كما يخرج من جوانبها اكثر من ثلاثين نهيراً كلها تحمل المياه لتلك البحيرة كما يحمل التابع الخراج لمتبوعه فتعلو وتفيض في فصل الامطار اه

ج ـ بحيرة نياسا ـ تشغل هذه البحيرة وهدة طويلة بالقسم الشرقي من نجد افريقيه ويحيط بها تلال وجبال تنحدر وتنبسط في بعض جهاتها حتى تصل الى ساحلها لا تترك بين سفوحها وشاطىء البحيرة غير شريط ضيق من الارض وقد اكتشفها لفنجستون سنة ١٨٥٩ وزارها بعده بقليل السائح روشير (١) ذهب اليها عن طريق كِلْوه ثم زارها لفنجستون أيضاً مرتين

(١) Rocher

سنة ١٨٦١و١٨٦٣ واثبت أنها لا تتصل ببحيرة تنجانيقا ولكن مياهها تنصب في نهر زمبيزي بواسطة نهر شيري وهي على ارتفاع ٤٨٠ متراً من سطح البحر وتحيط بها مرتفعات من كل جهة وتثور بها زوابع شديدة تجعل الاقتراب من سواحلها لمن كان داخلها غير ميسور في عدة جهات منها وبالقرب من شواطئها أيضاً صخور قائمة واعماق متغيرة القاع وبعد موت لفنجستون اسس المرسلون الدينيون من أهل ايقوسيا مركزاً لهم بشبه جزيرة على شاطىء البحيرة المذكورة الجنوبي سموه لفنجستونيا تذكاراً لمواطنهم المذكور وأوجدوا أيضاً بالبحيرة سفينة بخارية لخدمتهم وكان ذلك سنة ١٨٧٥ هذا وتمتد بحيرة نياسا المذكورة الى الشمال اكثر مما ظنه لفنجستون ومع ذلك فانها أقل من تنجانيقا مسطحا

ولما نجح المرسلون المذكورون في عملهم أسسوا بجهات نياسا ونهر شيري نزلات أخرى أشهرها نزلة بلانتير(١) باسم المدينة التي ولد فيها لفنجستون

وتشبه نياسا بشكلها ووضعها بحيرة تنجانيقا مشابهة كبيرة فان في جهاتها أيضاً يهب في فصل الجفاف نسيم دائمي يأتي من الجنوب الشرقي تعلو بسببه أمواجها وتثور بها أيضاً عواصف ولكن لا يحدث منها زوابع مخيفة كما يكون في تنجانيقا ويظهر من المشاهدات التي أجراها المرسلون هناك مدة بضع سنين أن مياهها آخذة في الانخفاض التدريجي سنوياً والملاحة فيها عسرة بسبب قلة

---

(١) Blantyre

عمق المياه بجوار سواحلها وبسبب الصخور وغيرها مما تقدم ذكره ومياهها عذبة وحيواناتها هي حيوانات البحيرات العذبة ما عدا تنجانيقا

واعلم أن جهات نياسا كثيرة الصيد جداً فمن حيواناتها الكثيرة الفيل وفرس النهر والتمساح وهو عظيم الجسم للغاية والسمك وهو كثير متنوع

أما من جهة السكان فان الحال قد تغير الآن عما كان عليه سابقاً قال لفنجستون سنة ١٨٦١ انه لم يصادف بافريقيه سكانا أكثر منهم بشواطيء نياسا وان القرى هناك متصلة ببعضها اتصالا لا ينقطع وقال أيضاً ان الاهالي قد اجتمعوا جماعات كثيرة جداً على ساحل البحيرة ليروا الرجال البيض عند خروجهم من السفن اهأما الآن فان السواحل قد اقفرت الا في بعض اماكن قليلة ويرجع نقص السكان بهذه الكيفية الى سببين أصليين أولهما تجارة الرقيق التي قام بها عرب زنزبار وترتب عليها انعدام قرى بتمامها وثانيهما مجاورتهم لقبائل تشتغل بالسلب والنهب تسكن الجبال هناك وتتعدى على قرى سواحلها بالهدم بمجرد تشييدها

د ـ بحيرة البرت نيانزا ـ هي بحيرة عظيمة واقعة في جهات النيل العليا بالشمال الغربي منها وعلى نحو ٨٢٠ كيلومتراً تقريبا من فكتوريا نيانزا وتصل مياه فكتوريا اليها بنهير يسمى كاري ومنها يخرج نهير كبير هو نهير غندوكرو أو البحر الابيض وتسمى هذه البحيرة لدى الاهالي موتنزيجا وقد أشار اسبك الى وجودها بناء على ما علمه من الاهالي هناك

أما أول من وصل اليها وشاهدها فهو (صموبل بيكر) وذلك سنة ١٨٦٤ ومع ذلك فالذي شاهده منها بعض ساحلها الغربي فقط فلم يتمكن من اكتشافها لا من الشمال ولا من الغرب ولا من الجنوب وهذه البحيرة غائرة ومحصورة بين سواحل جرانيتيه وشكلها مستطيل وشواطئها مرتفعة خصوصاً الشرقية منها ويظهر ان مكانها حدث من تمزق بركاني وهي على ارتفاع ٧٠٠ متر من سطح البحر فهي على ذلك اخفض من بحيرة فكتوريا بنحو ٥٠٠ متر وهي واقعة في أقصى حد لأمم بانتو نحو الشمال وهناك تنعدم زراعة الحبوب ويقوم مقامها الموز والبطاطا ومنهما يكون غذاء الاهالي وقد اكتشف هذه البحيرة الضابط جسّي سنة ١٨٧٦ حينما كان في خدمة الحكومة المصرية ومع ذلك فانه لم يتمكن من الوصول الى نهايتها الجنوبية لقلة عمق مياهها وربما كان يمكنه اذ ذاك أن يرى هو وغيره من المكتشفين ان سبب هذا العمق القليل رواسب يحملها معه نهير يأتي من الجنوب تصب فيه بحيرة أخرى

ويستخرج من هذه البحيرة ملح كثير تجارته مهمة عظيمة وبسبب منع تصديره الى بعض الجهات أحياناً تقوم حروب دموية بين الاهالي

هـ ـ بحيرة فكتوريا نيانزا ـ هي اكبر بحيرات افريقية الوسطى واكبر الاحواض المائية الثلاثة التي تمد نهر النيل (الاثنان الآخران هما البرت نيانزا والبرت ادورد) واقعة في الجهات الاستوائية الشرقية على نحو

٦٦٠ كيلومتراً من بحر الهنـد (بين الدقيقة ٢٥ من العرض الشمالي والدرجة ٣ من العرض الجنوبي) ولم يعرف شكلها العمومي ببعض تحقيق وضبط الا من زمن قريب وهي تشبه مربعا مستقيم الزوايا ويبلغ أعظم طول لها من الشمال الى الجنوب ٢٢٠ كيلومتراً وأعظم عرض لها من الشرق الى الغرب ٣٣٥ كيلومتراً تقريباً ويبلغ مسطحها ٨٣٣١٠ من الـكيلومترات المربعة ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ١٢٠٠ متر وهي أعلى من بحيرة البرت أدوارد بأزيد من ٢٠٠ متر ومن بحيرة البرت نيانزا بنحو ٥٠٠ متر فهي على ذلك أعلى بكثير من الاحواض الثلاثة الـكبيرة التي يخزن فيها ماء النيل ويزيد محيطها عن ١٢٠٠ كيلومتر غير داخل في ذلك ما يجاورها من النقائع التي لا تحصى واهمية هذه البحيرة ليست فقط بالنسبة للسطح الذي تشغله بل بسبب عمقها أيضاً لانهم لما قاسوه لمعرفة قابليته للملاحة وجدوه قليلا في بعض الشواطىء وعميقاً جداً في داخلها فقد ذهب المسبار الى أزيد من ١٩٠ متراً بالقرب من ساحلها الشرقي وربما كانت أعمق من ذلك في وسطها قال اليزيه ريكلو اذا كان الحال كذلك كانت فكتوريا نيانزا اكثر البحيرات العذبة ماء اهـ

وجهاتها الشمالية الى شمالي الدرجة الاولى من العرض الجنوبي واقعة في منطقة النفوذ الانجليزي حسب الاتفاق الانجليزي الالماني الذي عقد في شهر يوليه سنة ١٨٩٠ وقسمها الجنوبي الى الجنوب من الدرجة الاولى واقع في منطقة النفوذ الالماني

وكل أمة من الامم المجاورة لها تسمى هذه البحيرة باسم يخالف مايسميه بها غيرها فالسواحلية سكان سواحل المحيط الهندي يسمونها بحر يابيلا قال السائح اشتولمان (١) ان الاهالي يسمونها نيانزا فقط وهو لفظ يطلقه البانتو من سكان افريقية الشرقية على كل ماء راكد وتسمى أيضاً أوكَرِيوِه ولكنه لا يستعمل الآن بل كان يستعمل في الوقت الذي كانت فيه أعظم طريق للتجارة تمر بساحل البحيرة الجنوبي الشرقي القريبة منه جزيرة اوكريوه احدى جزر تلك البحيرة وإسِبك هو الذي اطلق عليها فكتوريا سنة ١٨٥٨ باسم ملكة الانجليز اذ ذاك وتكثر الجزائر على شواطئها خصوصاً الشواطىء الغربية والجنوبية الغربية أما اوسطها فلا جزائر به

ومتى وقف الانسان على شواطئها شاهد بحراً عظيماً يعلو شواطئه في الاراضي الالمانية صخور تسقط رأسية نحوه بحيث لا تترك بينها وبين الماء الا شريطاً ضيقاً تغطيه رمال ناصعة البياض بخلاف شواطئه ببلاد أوغنده فانها عريضة تغطيها غابات أما شواطىء الخليج الواقع بالجنوب الغربي المسمى بخليج امين باشا وهو الذي اكتشفه استانلي سنة ١٨٨٩ فانها منبسطة تماماً وتحيط بها نقائع يعلوها نبات البردى مما يجعل الدنو منها صعباً

وتختلف جزائرها عن بعضها اختلافا بينا واكبرها جزيرة سِسِّي وهي بالشمال الغربي ويبلغ مسطحها ٢٤١٢ من الكيلومترات المربعة ويتلوها في

(١) Sthulmann

الكبر جزيرة اوكريوه التي سميت البحيرة باسمها وهي بالجنوب الشرقي منها كما سبق ويبلغ مسطحها نحو ١١٩٠ من الكيلومترات المربعة

ويثور بها من فبراير الى مايو ومن سبتمبر الى نوفمبر في الغالب زوابع وعواصف قوية وترتفع أمواجها جداً حتى يبلغ طول الموجة الواحدة منها من عشرة أمتار الى عشرين متراً وتتدفق المياه على شواطئها وتفيض عليها بقوة تجعل الملاحة خطرة في الغالب ويحصل ذلك في كل يوم ثم يهدأ الحال قليلا بعد الظهيرة ويهب على سواحلها في المساء نسيم يأتي منها وفي الصباح نسيم يأتي من البر هذا وبقطع النظر عن التغيرات التي تحصل في سطحها في فصلي الامطار والجفاف يظهر ان الحال بها كما هو في كل بحيرات افريقية الوسطى أي أنه يصيبها تغيرات من أزمنة قديمة العهد جداً يؤيد ذلك رواية الاهالي وأقوال المبشرين الدينيين لانها كلها تتفق في أن مياه هذه البحيرة آخذة في الانخفاض حتى أن الكثير من سواحلها أصبح الآن جافا وكذا الكثير من صخورها صار الآن ظاهراً وكان الماء يغمره قديما ولا يمكن أن يكون سبب هذا الانخفاض في مياهها انخفاس في قاعها لأن تكوين صخورها لا يسمح بحصول هذه النظرية كما يقول علماء الجيولوجيا بل ربما كان ذلك آت من قلة مقدار الامطار السنوية التي لا يمكن أن تنسب فقط لقطع الاشجار الذي يزداد امره كل سنة هناك ولكنه ينسب بالاحرى وعلى الخصوص للتغيرات الجوية القديمة العهد والتي يظهر

من دلائل كثيرة انها طورية هناك كما ايد ذلك البروفسور بروكنر[1] أحد أساتذة جامعة برن وقد اتحدت أقوال الاهالي الساكنين عند بحيرات فكتوريا والبرت والبرت ادوارد في القول بالزيادات والانخفاضات التعاقبية التي تحصل في مياهها وزيادة على هذه التغيرات الطورية القديمة العهد فانه يحصل بها أيضاً انخفاض متعاقب ومستمر لان السطح الذي كانت تشغله كان اعلى بلا شك في العصور السابقة مما كان عليه سنة ١٨٧٨ وهي السنة التي شاهدوا فيها ان مياهها وصلت الى اعلى ارتفاع ويؤيد ذلك القواقع الطوفانية التي وجدت في الخلجان وفي مجاري الانهر

وبحيرة فكتوريا وان كانت واقعة تحت خط الاستواء الا ان مناخ جهاتها ليس بمناخ المنطقة الحارة وسبب ذلك ارتفاعها عن سطح البحر ووجود التيارات الجوية التي تجري هناك بلا عائق وكما تنشاء والنباتات التي تسبب نزول الامطار كل ذلك يجعل مناخها معتدلا والرياح المتسلطة في جهاتها تهب من الجنوب الغربي والجنوب وبسبب تلاقي هذه الرياح الجنوبية بالرياح التي تهب من الشمال والشمال الغربي تحدث تلك الزوابع والاعاصير التي سبق الكلام عليها ولا يخلو شهر من شهور السنة من سقوط الامطار في جهاتها ومع ذلك فان شهر يوليه شهر جفاف نسبي واغزر الامطار واشدها يكون من سبتمبر الى نوفمبر ويتلو ذلك ابريل ومايو

---

(١) Brückner

وماء هذه البحيرة عذب جداً صاف كأنه البلور وهي كثيرة السمك وينبت في خلجانها الساكنة النيلوفر والقصب الفارسي وغيرهما من النباتات المائية وبالجنوب والغرب منها مستنقعات وبطائح واسعة مغطاة بنبات البردي

وشواطئها كثيرة الاشجار والنباتات والاعشاب الا ما كان منها في الاراضي الالمانية كما تقدم وذلك من اكبر الاسباب في عدم تأسيس محطة للملاحة بها لأن أخشاب الوقود هناك غير كافية الا في جزيرة أوكريوه

أمّا من جهة الحيوانات فان الزرافة والارقط أو حمار الوحش والغزلان الكبيرة والاسد والنعامة وكلها من الحيوانات التي تكثر بسهول افريقية الشرقية لاوجود لها تقريباً غربي تلك البحيرة بل الحيوانات الموجودة هناك هي حيوانات الغابات الغبياء بأفريقية الغربية مثل البيغا الازرق والقرد ذو الانف البيضاء والشّمْبانزي ويسبح في مياهها فرس النهر والتمساح وتكثر في اطرافها وجزائرها الطيور الصيادة ومنها أيضاً الفهد والضبع وابن آوى والقط البري والسنجاب وغيرها

ويعلم من أقوال المكتشفين والمرسلين الدينيين ان جهات بحيرة فكتوريا نيانزا من اكثر جهات افريقية سكاناً وأغلبهم من أصل الباتو ويتكلمون لغة جميلة سهلة غنية وبهذه البحيرة عدة سفن للاهالي وتجار العرب من أهل زنزبار وللاوربيين وتسير بها الآن أيضاً عدة سفن بخارية وهذه السفن لاتوجد فيها الآن فقط بل بكل البحيرات الكبيرة الاخرى بأفريقية

مثل نياسا وتنجانيقا ومع ذلك فالملاحة لا تأتي بالفائدة المطلوبة ولا يتسع نطاقها في بحيرة فكتوريا الا متى أصبحت المواصلات بينها وبين الساحل أسهل مما هي الآن وبحيرة فكتوريا وان كانت تمد نهر النيل الا انه يمدها هي أيضاً نهيرات كثيرة مثل نهير سيميو من الجنوب وكاجيرا من الجنوب الغربي وفي كاجيرا هذا تنصب مياه بحيرة الكسندره التي لا تزال المعلومات عنها قليلة هذا وبحيرة فكتوريا نيانزا اكبر مستودع تخزن فيه مياه النيل كما هو معلوم

(و) ـ بحيرة تنجانيقا ـ هي بحيرة عظيمة في افريقية الجنوبية الشرقية على نحو ١٠٠٠ كيلومتر من بحر الهند وشاطئها الشرقي تابع لالمانيا والغربي تابع لمملكة الكنغو البلجيكية والجنوبي تابع لانجلتره وهي مستطيلة الشكل ويبلغ طولها ٦٣٠ كيلومتر ويختلف عرضها بين ١٦ كيلومتر و ٩٠ كيلومتر ويقدرون مسطحها بنحو ٣١٤٥٠ من الكيلومترات المربعة وهي على ارتفاع نحو ٨٠٠ متر من سطح البحر أما عمقها فلم يتعين كله للآن تماما قال استانلي انه أزيد من ٦٠٠ متر في الجنوب منها وقال غيره انه ٦٤٧ متراً وماؤها ملح قليلا ومعنى تنجانيقا اجتماع المياه كما قاله برتن وقال كمرون[1] ان معناه مكان الاختلاط وهي بعد بحيرة بايكال

---

(١) V. L. Cameron ملاح وسياح انجليزي ولد سنة ١٨٤٤ ساح بافريقيه واخترقها من جانب الى آخر ثم عاد الى البحرية الانجليزية ثانية وله كتاب شهير عنوانه

التي بسيبيريا أطول البحيرات العذبة في الدنيا ويحيط بها جبال يزيد ارتفاع بعضها عن الفي متر ويصب فيها اكثر من مائة نهير تنحدر مما يجاورها من الجبال بها شلالات وجنادل كثيرة وفصول الامطار بجهات تنجانيقا تختلف كثيراً بحسب السنين ويختلف بالتبعية لذلك سطحها ومسطحها

وتؤيد الظواهر ان الغور الذي تشغله هذه البحيرة حادث من فعل البراكين والزلازل قال بذلك المكتشف برتن وهو أول من وصل اليها من الاوربيين والزلازل هناك كثيرة شديدة فقد حدث في أغسطس سنة ١٨٨٠ بجهاتها زلزلة شديدة جداً نشأ عنها حدوث شق كبير في الارض طوله عدة كيلومترات وحدث مثل ذلك أيضا سنة ١٨٨٧ والزوابع وان كانت قليلة الحصول في هذه البحيرة الا انه تهب بها رياح شديدة تنحدر من الجبال الشرقية فيثور منها الماء ويرغى ويزبد وعندتغيرفصول السنة تعظم الرياح ويتساقط المطر والبرد بشدة حتى تصير الملاحة فيها خطرة للغاية واكثر الاشهر حرارة هناك نوفبر وفبراير وأشد الاشهر برداً شهر يوليه ويمكن تقسيم السنة هناك الى قسمين متساويين فصل الامطار ويبتدىء في نحو أواخر اكتوبر وامطاره غزيرة ويبقى حتى شهر مايو وفصل الجفاف

(طريقنا في المستقبل الى الهند) تكلم فيه على الطريق الحديدي التي يجب على انجلتره مدها لتتصل براً مع مستعمرتها الكبيرة الاسيوية واستنتج من آراء كثيرة أن أفيدطريق لبلاده هي الطريق التي تمر بطرابلس وحلب ووادي الدجله وبغداد وبلاد العجم

وينتهي في اكتوبر

وشواطئها مغطاة بالنباتات الاستوائيه الكثيرة وجبالها جميلة المنظر جداً والملاحة فيها في الاوقات الموافقة سهلة لقلة الصخور والاعماق المتغيرة ومناخها على العموم أحسن وأصح من مناخ جهات الساحل المسامتة لها ويكثر بها السمك جداً وسواحلها خصبة يزرع فيها الارز والحنطة والفول السوداني والذرة والبطاطا وقصب السكر والقطن والخيار وغيرها وينبت بها أيضاً نخيل الزيت ويسكن شواطئها أقوام من السودان والزولو والاتيوبيين وغيرهم من الامم الحربية التي تنزل الجهات الغربية من فكتوريا نيانزا وتراكم هذه الاقوام على سواحلها ساعد كثيراً على ترقي الصناعة والتجارة ولولا تجارة الرقيق التي قللت من سكانها وما يتفشى بينهم من الامراض المختلفة لكان التقدم فيها اظهر مما هو فيها الآن

واعلم ان اكتشاف البحيرات العظمى بافريقية ومعرفة أحوالها حصل من الجهات الشرقية على الخصوص ونتج من هذه السياحات حل مسألة منابع النيل التي كان العلماء يهتمون بها منذ الازمنة القديمة

هذا وكان العرب والبرتقاليون من بعدهم يعرفون هذه البحيرة الا ان الدلائل والاقوال التي كانوا يذكرونها عنها (في القرون الاخيرة) كانت لا تميز بينها وبين بحيرتي نياسا ونيانزا وتجعلها كلها تمتد من الشمال الي الجنوب كالبحر الواحد على اكثر من ثلاثة عشر درجة أرضية وبقي الحال

على ذلك الى أن سافر أخيراً في سنة ١٨٥٧ ضابطان انجليزيان من جيش الهند هما اسبك وبرتن وبعد أن قاسيا اهوالا ومتاعب جمة وصلا الى بلدة طابوره ثم الى أوجيجي التي على شاطىء البحيرة المذكورة ومن هذا الوقت تردد عليها كثير من المكتشفين وكان لفنجستون يظن ان مياهها تجري نحو النيل ولكنه في سياحته التي قام بها مع استانلي (١٨٧١) (حينما لحق به في بلدة أوجيجي) عاد فأكد ان هذه البحيرة مقفلة من جهاتها الشمالية لأن نهير رُوسزّي الذي كان ظن انه يصب في النيل يمدها في الحقيقة وبعد ذلك بقليل اتم السائح كمرون المتقدم الذكر السياحة حولها واكتشف منصبها الحقيقي (١٨٧٣) وهو نهير لوكوجا الذي يحمل الى الكنغو ما زاد من مياهها ثم ان استانلي زار في سنة (١٨٧٥) كل سواحل هذه البحيرة في سياحته الثانية بأفريقية

وتكثر على سواحل هذه البحيرة تلك الذبابة المؤذية المسماة تِسى تِسى وضررها للماشية عظيم جداً وهي تنتشر على الخصوص من أول أوجيجي وحول الشاطىء الجنوبي بأجمعه حتى الشاطىء الغربي وجهات هذه البحيرة وان كانت مقسومة كما قلناه بين الدول الاوربية الثلاث المارة الذكر الا أن نفوذ العرب لا يزال هناك عظيماً وأعظم اماكن لاستيطانهم هناك بلدتا أوجيجي وكيرُنده على الشاطىء الشرقي منها

وقد وجد بعض المكتشفين حديثاً (١٨٩٨) ان حيواناتها هي حيوانات المياه الملحة وحيوانات المياه العذبة معاً وقد اختلفوا في تعليل ذلك كثيراً الا

أن المقبول منها هو قول العالم الطبيعي الانجليزي مستر مور (Moore) قال ان هذه البحيرة محصورة بين جبال جيرية قديمة مترا كمة على صخور فِطَحْلية[1] وهي عبارة عن غور جسيم طوله نحو ٦٠٠ كيلومتر في عرض نحو مائة كيلومتر ويظهر انه كان بلا شك حوضاً حدث من انخساف أرضي وان هذا الغور الذي تكوّن منذ العصر الثاني الجيولوجي لم يعوض بحوض آخر منذ ذلك العهد فيحتمل حينئذ كثيراً أن المياه بقيت به على الدوام مدة العصر الثاني والثالث فكان لنا بذلك بحر حقيقي تكون منذ العصر الجيولوجي الثاني ووجدت فيه حيوانات ذلك العصر اه

(ز) ـ بحيرة نجامى ـ هي بحيرة بأفريقية الجنوبية وتشغل وهدة واسعة واليها تنصب كل النهيرات الموقتة التي تجري هناك في زمن الامطار وأعظم طول لهذه البحيرة من الشرق الى الشمال الشرقي نحو ١٥ كيلومتر وعرضها من الغرب الى الجنوب الغربي نحو ١٦ كيلومتر ومسطحها آخذ في الصغر مما يدل على انها ستزول بعد زمن بسبب ارتفاع قاعها كما ظنه السائح ڤاريني (١٨٨٥) أو بسبب جفاف مجاري المياه بأفريقية الجنوبية كما قال لڤنجستون

وقد اكتشف لڤنجستون هذه البحيرة سنة ١٨٤٩ هذا ويرى من التواريخ المذكورة في الكلام على بحيرات افريقيه ان المعلومات الحقيقية على جهاتها

(١) الفطحل دهر لم يخلق فيه الناس بعد أو زمن نوح وسئل ابو عبيدة عنه فقال الاعراب تقول هو زمن كانت الحجارة فيه رطبة

فيما اختص بالجغرافيا الطبيعية بأفريقية كلها حديثة العهد بالنسبة للجهات الاخرى منها

رابعاً — ومما تشتمله قارة افريقية أيضاً أربعة عشر صقعاً طبيعياً ولا يخفى انه من الصعب جداً تحديد جهات هذه القارة وحصرها في عدد يعين جهاتها الطبيعية المختلفة والاربعة عشر صقعاً المذكورة هي الآتية

جهات اطلس وجهات الصحراء الكبرى وجهات دوليبا وجهات بحيرة شاد وجهات سنغمبيا وجهات كنغ (بلاد غانه) وجهات النيل السفلي (بلاد مصر) وجهات نجد الحبشة وجهات السومال وجهات خط الاستواء العليا وجهات الكنغو وجهات الكاب والجهات الشرقية الجنوبية والجهات الجنوبية العليا

خامساً — أما الجزائر التى تحيط بهذه القارة فأشهرها ما كان بالغرب منها وبالمحيط الاطلسي مثل جزائر قناريا وجزائر الرأس الاخضر وجزائر آسوره وجزائر ماديره والى الجنوب من ذلك جزائر أخرى منثورة في دراستها كلها فوائد كثيرة ومواد غزيرة للطبيعي والمؤلف والجغرافي ثم في جهة الشرق وفي بحر الهند جزيرة مدغشقر العظيمة وجزيرتا الاجتماع وموريتيوس ثم جزيرة سقطري وغيرها وقد رأينا ان الاوفق شرح أحوال هذه الجزائر بعد الانتهاء من دراسة جغرافيا قارة افريقية

مناخ افريقيـة في جهاتها المختلفة — الامطار — لما كانت افريقية

يقسمها خط الاستواء الى قسمين متساويين تقريباً وكان معظمها واقعاً بين المدارين كان مناخها في مجموعة مداريا أي حار جداً رطب جداً معاً الا ان هذا الوصف العمومي يختلف حتما بسبب الاحوال الآتية وهى (١) وضع جهاتها المختلفة بالنسبة لخط الاستواء ولشكل أراضي تلك الجهات الخارجي واثره في تنويع المناخ أشد من السبب الاول (٢) وبمتوسط الارتفاع قلةً أو كثرةً عن سطح البحر (٣) وبحالة أراضيها الجغرافية (٤) ثم بالفرق بين تعريض جهاتها للرياح المنتظمة أو الموسمية التي تهب في المنطقتين المداريتين ولما كانت المنطقة الوسطى بها وعرضها نحو ١٥ درجة يقسمها خط الاستواء الى قسمين كانت منطقة أمطار طوفانية مستمرة تقريباً مدة تسعة أو عشرة أشهر من السنة كما يؤيد ذلك أقوال السياحين الذين جابوا جهاتها وفي طرفي هذه المنطقة الوسطى شمالا حتى الموازي ١٦ أو ١٧ وجنوباً حتى الموازي ٢٠ تمتد منطقة الامطار الصيفية المزدوجة ولما كان سقوط الامطار المذكورة يختلف فقط بحسب العوارض المحلية كانت تابعة على العموم لنفس سير الشمس فمتى كانت في سمت الرأس تصاعدت بحرارتها ابخرة جسيمة ثم تعود تلك الابخرة فتسقط أمطاراً غزيرة وهكذا على الدوام ويصحب سقوطها صواعق ورعد وبرق وأعاصير شديدة حتى يكون وجه الشبه بينها وبين ما يحصل منها في المنطقة المعتدلة ضعيفاً جداً وفصل الامطار جنوبي خط الاستواء يكون من سبتمبر الى مايو أما في شماله فمن ابريل الى اكتوبر ودائرة

الامطار الصيفية شمالي خط الاستواء تشمل بلاد الحبشة وجهات النيل الاعلى وكل بلاد السودان وسنغمبيا أما في جنوبه فانها تشمل بلاد الكنغو وحوض نهر زمبيزي وساحل موزمبيق وبلاد زنجبار وغيرها هذا والى ما بعد هاتين المنطقتين المداريتين منطقتا أمطار شتوية يشبهان في أمطارهما أمطار أوربا وهما عبارة عن طرفي القارة المذكورة ففي الجنوب بلاد هتنتوت ومستعمرة الرأس وفي الشمال جهات أطلس ويتبعها جغرافياً بلاد الصحراء الكبرى ولكنها لما كانت قاحلة الاراضي وكان تشمع الحرارة بها مستمراً على الدوام تلاشت السحب التي تسوقها الرياح الى هناك قبل أن تستحيل الى مطر واعلم أن الامطار المدارية ذات شأن مهم بقارة افريقية فهي التي تغذي أنهارها الكبيرة بسقوطها الدوري وتعين أوقات فيضاناتها المنتظمة ٠

هذا ومن المسائل المهمة بأفريقيه مسئلة المياه وذلك بالنسبة لسكنى الانسان وصحته لان الفرق بين أصقاعها المختلفة يكون أقل حصولا وتحقيقاً بنسبة مجاورة المكان لخط الاستواء أو لبعده عنه أكثر من كون المكان جبلياً أو غير جبلي أو بسبب ارتفاعه قليلا أو كثيراً عن سطح البحر وقد ظنوا عكس ذلك قديماً كل هذا فيما عدا الصقعين الكبيرين اللذين صيرهما عدم وجود الماء خصوصاً غير قابلين للسكنى وهما الصحراء الكبرى شمالا وقفار كلاهاري جنوباً ثم ان الجهات المنخفضة القريبة من السواحل خصوصاً دلتات الانهر العظيمة كدلتات ديوليبا وزمبيزي مثلا وهي التي تغمرها المياه مدة قسم من

السنة وتغطيها المستنقعات والبطائح كلها مصدر مستمر للابخرة العفنة كما هي مأوى للزواحف البشعة الخلقة والحشرات المؤذية ومناخ هذه الجهات قاتل للاجانب حتى ان الاهالي أنفسهم لا ينجون من تأثير هوائها المشبع بجراثيم الاوبئة والطواعين أما المناطق العاليـة فهي على العكس من ذلك مثل أقاليم الـكنغو ونجود بلاد الـكاب والـكثير من الاصقاع الشرقية والبلاد المرتفعة في سنغمبيا والاودية الداخلية بجهات اطلس وغيرها فأن مناخها كلها يختلف اختلافاً تدريجياً متسلسلا من أول السهول المحرقة الواقعة على ساحل البحر حتى المناخات المعتدلة بأوربا الجنوبية ومناخ بعض البلاد الجبلية كبلاد الحبشة على الخصوص وكذا الاودية العالية بجهات اطلس يكون احياناً كمناخ جهات الالب وجهات أوربا الشمالية هذا وأحسن المناخات وألطفها بأفريقيه مناخ نجدها الجنوبي الواقع بين زنجبار والـكنغو وقدصادف كل من برتن واسبك بالسهول العالية من أفريقيه الجنوبية بلاداً تشبه أغنى جهات تُسكانه ولُمباردیا بحيث لا ينقصها الا اليد العاملة لتدر لبناً وعسلا والسبب في صيرورة هـذه السهول كذلك ارتفاعها عن سطح البحر بالرغم عن موقعها المداري

الحاصلات الطبيعية — النباتات — اعلم انه من الممكن اعتبار ساحل أفريقيـه الشمالي وكل جهات اطلس كأنها منطقة انتقال وتحول تمتزج فيها نباتات أوربا الجنوبية ونباتات أفريقيـه المدارية بالنباتات الخاصـة بتلك الجهات وأكبر قسم من نباتات أفريقيـه الشمالية يوجد ايضا في البلاد

الاخرى الواقعة حول بحر الروم وتغلب فيها النباتات الحشيشية والنباتات التي تبقى زمناً طويلا (الحولية) على النباتات السنوية فمما يكثر بها جداً أشجار الرمان والزيتون والنخيل ومما يجعل لنباتات تلك البلاد ميزة خاصة وجود فصيلة أشجار اللادن التي يحبها الرعاة كثيراً ومنها أيضاً أشجار السندروس وهو خاص بالسفح الشمالي من جبال اطلس وبلاد برقه ولاندماج أخشابه كان من أحسن الاخشاب موافقة للنجارة وقد استعمله العرب كثيراً وينبت بجهات اطلس أيضاً نحو ثمانية أنواع من البلوط وأنواع مختلفة من الصنوبر وقد ادخلوا ببلاد الجزائر زراعة القطن كما ادخلوا أيضاً بها أوكالبتوس أوستراليا وقد نجحوا في كل ذلك نجاحا كبيراً أما من خصوص زراعة الحبوب فيعلم من التاريخ الدرجة العظيمة من النجاح التي وصلت اليه بأقاليم أفريقيه الرومانية وكانت معتبرة كأحد اهراء ايطاليا قديماً كما سيأتي بيانه

واعلم ان من المميزات الكبيرة التي تمتاز بها أفريقيه خصوبتها البالغة الدرجة القصوى بجهات تجاور فيها القحولة القصوى وقد اشتهرت بذلك من أزمنة متطاولة وتشتهر الجهات التى تحد المنحدرات الجنوبية بجهات اطلس بكثرة النخيل وهو بها غابات كبيرة ومن أحسن وسائل المعيشة لسكان تلك الجهات الاان الارض تتغير عقب ذلك طبيعة ومناخا وذلك لانه بمجرد مايجاوز الانسان البلاد المتوسطة بين واحات بلاد الجزائر والسبخات والمستغدرات التي تصب فيها أغلب الجداول المؤقتة المنحدرة من الجبال هناك يزداد الجفاف

جداً لدرجة أنه يستحيل أن تنبت هناك شجرة أصلاً فلا يعود الانسان يصادف الا شجيرات قصيرة القد حيث الينابيع التي أوجدتها الطبيعة بالصدفة مما يساعد على نمو بعض النباتات الضئيلة ومع كل هذا فان المار يصادف في بعض أماكنها أراض واسعة تغطيها حشائش برية مما تتغذى بها الجمال ومتى سقط المطر على قاته وبلل تلك الفيافي المحرقة ظهر منظر مدهش وهو السرعة المتناهية التي تكتسي بها الارض ببساط من الخضرة الرائقة مع انها كانت قبل قليل قاحلة عارية ومما لا يقل عن ذلك غرابة ولا ينقص عنه حيرة ما يصادفه المسافر من النباتات الجميلة ببعض الواحات المنثورة وسط رمال الصحراء الكبرى حيث الينابيع القوية التي تروي بمياهها وسوافيها الجارية الاودية الكثيرة الخصبة الواقعة بين بعض جبالها لهذا أطلق مسيو برت ورفقاؤه في السياحة على واحة اسبين الكبرى الواقعة بين غات وبلاد السودان اسم سويسره الصحراء

والنباتات العادية ببلاد مصر هي الاقاقيا والسدر والتمر هندي والنيلوفر والنخيل وهو كثير جداً وكذا الدوم وغيرها وينطبق على مصر بالنسبة للحبوب صفة الخصوبة المتناهية مما قلناه بالاقاليم الرومانية الافريقية أما الكرم فانه وان كان نقص جداً بسبب الفتح الاسلامي الا انه لا يزال له بعض الاهمية أما نباتات أفريقيه المدارية الغربية فالمعروف منها جيداً ما كان بالبلاد الواقعة على ساحل البحر وقد شاهد العلماء بينها وبين نباتات بلاد الهند بعض

التجانس ويظهر هذا التجانس بينها هي أيضاً على مسافة طويلة من الشاطيء من أول سنغال حتى نهر الزاير فاشجار الباوباب المشهورة بجسامتها العظيمة وضخامتها الفائقة عمومية بكل بلاد غانه وفي كل الجهات الاخرى من أفريقيه حيث تشتد الحرارة وتكثر الرطوبة المساعدتان على نمو تلك النباتات وبسببها تسمى الرأس الاخضر أخضراً لانها تتوّج هامته وبدلتات الانهار والنهيرات بها أشجار كثيرة متشابكة متكاثفة من الجميز الهندي الا ان الروائح القتالة المتصاعدة من هذه الاراضي المغطاة بالمياه تجعل الاقتراب منها غير ممكن لكل نباتي مهما كان جريئاً وينبت بالجهات الشديدة الحرارة من أفريقيه أيضاً نباتات خاصة بها تشبه ما ينبت منها بجزر أنتيله مثل شجرة الزبدلان لبها يشبه الزبد وهي في جهات مختلفة من أفريقيه المدارية وشجرة الخبز وتنبت في سنغامبيا وتسمى موسنجا وهي تشبه ماينبت منها ببلاد بولينيزيا وهي من الفصيلة الانجرية وثمرها يشبه البندق في طعمه أما النخيل هناك فقليل (وهو غير نخيل التمر) وقاصر على بعض الاماكن مثل نخيل الزيت الذي لاينبت الا بجوار السواحل وهذا النوع الجميل من النخيل وان كان ينبت على كل السواحل الشرقية من أفريقيه الجنوبية الا انه أقل أنواعاً هناك عنه في الجهات المدارية من القارات الاخرى وتكثر أشجار الصمغ على شواطيء نهر سنغال وبجهات النيل العليا وقد اشتهرت بلاد السومال باشجارها العطرية من القديم

هذا والمنحدران المتقابلان من نجد افريقية الجنوبية يتشابهان في حاصلاتهما النباتية مشابهة كبيرة وذلك لان وضعهما الجغرافي من ان كليهما يكون ربوات ومساطب يتلوا بعضها بعضاً يجعل نباتاتهما مشابهة لنباتات المنطقة الحارة ولنباتات الجهات المعتدلة ولم يكن يعلم شيء عن نباتات المناطق العالية بالنجد المذكور قبل سياحات لفنجستون وبرتن واسبك وقد أشرنا فيما سبق الى كم يكون مقدار حاصلات هذه الجهات الداخلية عظيما متى اصلح فيها أمر الزراعة وكيف انها تساعد بحاصلاتها على اكثار الثروة الارضية فمن نباتاتها الكثيرة قصب السكر والبن والقطن وتمتد البلاد التي ينبت بها القطن البري هناك حتى الموازي ١٩ تقريباً وقد أصبح القطن الآن كما لا يخفى من النباتات النفيسة الضرورية للصناعة بأوربا وهو من النباتات الاصلية بكل بلاد السودان هذا أما نباتات بلاد الكاب مما ينبت على ربوات جبال كوروس من أول سواحل البحر حتى جبال نيوولد فانها بأفريقية مخالفة تماماً لما ينبت منها في غيرها وكثيرة الانواع وانواعها وافرة جداً

الحيوانات ـ قال بعض العلماء لما كانت الجهات المختلفة بأفريقية توصف بالنهاية القصوى فى القحولة والرطوبة كان لذلك أثر كبير في طبيعة حيواناتها وكيفية توزيعها ولما كان قسم عظيم من القارة المذكورة يتركب من سهول قاحلة بالمرة أو لا يغطيها الا نباتات وقتية تسقيها جداول لا تجرى الا في وقت معلوم من السنة فقط كانت ذوات الاربع السريعة السير التى أوجدها الله لتعيش

في السهول الجافة اكثر بكثير ببلاد افريقية من الحيوانات التي تحتاج لماء غزير وعشب وفير وتوجد هذه الحيوانات على الخصوص بالسواحل الواقعة بين المدارين وعلى الاخص في المقاصب الواسعة والغابات الكبيرة مما يكون على ساحل الانهار والنقائع وقد وجدوا منها هناك أنواعاً وأجناساً كثيرة مما لا يوجد في غيرها واعلم ان حيوانات افريقية تختلف عن حيوانات بقية أقسام الدنيا لمناسبات عديدة منها ان ذوات الاربع بها وان كان الكثير منها معروفاً في بلاد أخرى الا ان بها منها نحو ٢٥٠ نوعاً على الاقل لا توجد الا بها فقط ومنها ان الكثير من هذه الحيوانات خصوصاً الاجناس الكبيرة موزع بلا أقل تنوع في اشكالها على كل جهات النجد الممتد من بلاد الرأس الى بلاد الحبشة من جهةٍ وحتى بلاد سنغال من الجهة الاخرى وان وجد فيها تنوع فتنوع خفيف في شكل جلودها وقدودها فقط أما الحيوانات المجترة فكثيرة جداً ومع ذلك فان الناس لم يستأنسوا منها الا القليل ومن أشهرها ثور الحبشة وثور برنو وهو كبير الجسم جداً ويصل محيط قرنه عند جزعه الى قدمين ويبلغ طول قرن ثور بلاد الغَلاَّ أربعة أقدام وقد يكون خمسة أقدام في ثور بلاد كُورُومان من أراضي بلاد الرأس والاختلافات كثيرة في جواميس افريقية فجاموس الكاب كبير الجسم ويشتهر بوحشيته المخوفة وهو يمرح في قطعان عديدة بكل أفريقية الجنوبية وكثيراً ما يكون للحمه رائحة المسك أما الضأن والمعز بأفريقية وأنواعهما كثيرة بها فتختلف عن

الموجود منها بالبلاد الاخرى وكلها خشنة الصوف ما عدا مرينوس اطلس الذي يقال ان المغاربة هم الذين جلبوه من اسبانيا الى هناك اه

وليس ببلاد الارض بلاد بها ما يشبه الزرافة من الحيوانات المجترة ويوجد الزراف بأفريقية من أول شواطيء نهر غزيب الشمالية حتى الصحراء الكبرى ويوجد أيضاً في دنقله والحبشة وهو حيوان هيوب وديع وقليلاً ما يرى مجتمعاً في قطعان كبيرة وصورة هذا الحيوان مرسومة على الاطلال المصرية القديمة ويمكن القول بأن افريقية هي بلاد الوعل لانه يوجد في كل اجزائها (وهو يقوم بها مقام غزال أوربا وآسيا وأمريقا) ويسكن أغلبه السهول المكشوفة ويعيش بعضه في الغابات وقد وجدوا بها منه نحو ٦٠ نوعاً منها نحو ٢٦ نوعاً شمال مستعمرة الرأس وما جاورها من الجهات ومنه وعل قصير صغير لا يزيد حجمه عن حجم الارنب ومنه ما يبلغ حجمه حجم الثور والحصان وتنطبق على كل أنواعه صفة واحدة هي الخوف فهو يخاف من أقل شيء وغالب أجناسه تسير قطعاناً كثيرة متكاثفة متلاصقة ببعضها وقد شوهدت أحياناً في سيرها تغطي وادياً بتمامه طوله نحو ١٠ كيلومترات في عرض خمسة كيلومترات

وبأفريقيه نوعان اثنان من الظباء يسكن كلاهما جبال اطلس أحدهما هو الغزال أى الظبي المعروف بأوربا وبأفريقيه أيضا اثنان وثلاثون نوعاً من الحيوانات القراضة وكلها تعيش بالسهول وكثير منها من الحيوانات القفازة مثل يربوع

بلاد الرأس هذا أما السنجاب فانه قليل بنسبة الحيوانات الاخرى

وبأفريقية الجنوبية ثلاثة أنواع من الخيل أحدها الارقط وهو يمرح قطعانا في سهولها وكثيراً ما يشاهد مع النعام ويسميه أغلب أهل افريقيه وكذا العرب بالحمار الوحشي وبنجد افريقية الجنوبية أربعة أنواع من الكركدن أي الخرتيت اثنان بيضاوان ومثلهما سوداوان وقد شاهد الكبتن أسبك بالنجد المذكور الكركدن ذا القرن الواحد فقط وكانوا يشكون من قبل في وجوده بأفريقية والكركدن ذو القرنين يختلف بها عن الموجود منه بآسيا وهو يعيش أيضاً في غابات جهات النيل العليا وعلى حدود بلاد الحبشة الشمالية أما فرس النهر فهو وان كان من الحيوانات الخاصة بأفريقية الا انه لا يوجد ببعض الأنهار الكبيرة بجهاتها الاستوائية والتمساح الذي كان يظن قديماً انه خاص بالنيل موجود بكل انهارها العظيمة وحتى في بحيراتها الكبيرة الداخلية وفيل أفريقية يخالف في الجنس الموجود منه بآسيا وهو بكل البلاد الواقعة بين المدارين تقريباً ولدى العلماء دلائل تثبت انه كان يعيش سابقاً في غابات جبال اطلس وقد شاهد الكبتن أسبك في النجد الواقع الى الجنوب من بحيرة نياسا فِيَلَةً كبيرة الحجم جداً حتى انه يظن أن نابي الواحد منها يزنان خمسمائة رطل على الاقل ولم يتمكنوا في كل بلاد افريقية من جعل الفيل أليفاً أنيساً وبأفريقية أيضاً من ذوات الجلد الثخين غير ما ذكر أنواع كثيرة من الخنازير البرية أي الحلاليف

وتوجد القردة بكل بلاد افريقيه تقريباً ومنها نوع يشبه رأسه رأس الكلب وهو كبير الحجم قوي مؤذ ومنها نوع ينسب لسواحل غانه وآخر عام في كل جهاتها الشماليه ويعرف بقرد البربر وبالجهات الاستوائية الساحلية الغربية نوع لا ذنب له أما النوع المعروف بالشمپانزي القريب فى الشكل جداً من الانسان فانه يسكن غابات افريقيه الغربية من أول نهر غمبيا حتى رأس نجرو وهو من غير شك القرد الذي ذكره هنون باسم غُورلاّ وكان شاهده في جهات سِيرّاليون الحالية وان كان الغورلا يطلق الآن على نوع آخر اكبر منه واكثر وحشية يسكن غابات بلاد غابون

والفصيلة الهرية الافريقية جميلة جداً وتحتها أنواع كثيرة فالاساد والنمور والفهود كثيرة بكل افريقيه كذلك الثعالب والضباع وبنات آوى وكلب افريقيه صغير الحجم على العموم هذا أما الجمل وهو الرفيق الذي لا بد منه للقبائل البدوية بافريقية الشمالية وعليه انتقل العرب طول زمن فتوحاتهم بأفريقيه في القرن السابع الميلادي فقد انتشر من ذلك الوقت بلا شك في حوض نهر النيل وبلاد الصحراء وجهات اطلس ولا وجود له على الآثار المصرية القديمة ومع ذلك فقد تحقق الآن انه كان معروفا لدى المغاربة وقت حربهم مع الوندال ويؤيد ذلك أن جميع أسمائه لدى التوارك أصلية محضة لا علاقة بينها وبين أسمائه في اللغة العربية أصلا

والزواحف كثيرة جداً بأفريقية بكل أشكالها واختلافاتها البشعة

وكذلك الحشرات وبعضها يكون عظيم الضرر للسياحين والاهالي كالنمل الابيض والناموس والبعوض والذبابة المسماة تِسِي تِسِي وهي حشرة مؤذية جداً تقتل الحيوانات الداجنة وتنتشر من أول بلاد هتُنّتوت حتى بلاد الحبشة شمالا وقسم كبير من طيور افريقيه فريد في نوعه (في علم دراسة الطيور العام) وان كان الكثير منها بالمنطقة الشمالية يشابه ما كان من أنواعه بأوربا والجنوب الغربي من آسيا هذا واعلم ان النعامة تسكن صحارى افريقيه كما تسكن الفيافى الرملية بجزيرة العرب

المعادن ـ المعادن النفيسة بأفريقيه كثيرة الوجود جداً في عدة جهات من جهاتها ويستخرج سودان سنغمبيا العليا وجبال كنغ وكذا سكان فيض أوغلى بجهة النيل العليا وأهالي عدة أقطار بأفريقيه الجنوبية خصوصاً أهالي بلاد سفَاله على الساحل الشرقي التبر لكن بالطرق القديمة والتبر عند كل هؤلآء الاقوام أحسن طرق المبادلة وقد درجوا على ذلك من أزمنة مضت وقد اكتشفوا منذ عدة سنوات بالجهات الداخلية من نهر زمبيزي مناجم ذهب غنية كما اكتشفوا في جهات نهر ڤال مناجم أحجار الماس أما الحديد والنحاس فيوجدان بعموم بلاد افريقيه وكثير من قبائل السودان حتى اكثرهم وحشية يستخرجون الحديد ويطرقونه ويصنعون منه أدوات مختلفة ويستخرج الملح من عدة جهات بالصحراء الكبرى وتجارته عظيمة ببلاد السودان ويستخرج أيضاً من المنحدرات الشرقية بنجد بلاد الحبشة

الاجناس البشرية بأفريقيه وتوزيع سكانها ـ اعلم ان الكثرة المطلقة بين سكان افريقيه ترجع الى جنسين أصليين ربما كانا الجنسين الاصليين بها وهما البربر والسودان ولكن لا بد من ادخال عناصر جديدة كثيرة في ترتيب سكانها الآن أولهم الهتنتوت وهم جنس مستقل تماماً عن الجنس الاسود وفي الدركة الاخيرة بين سكان افريقيه بالنسبة لقواه العقلية وموطنه الاصلي النهاية الجنوبية من أفريقيه ولا ينقص مسطحه تقريباً عن ثلاثة أمثال فرنسا ـ ثانيهم العرب وهم في الاصل غرباء عن أفريقيه ولكنهم أوجدوا لهم فيها عدة مواطن بالمنطقة الشرقية منذ الازمنة الغابرة جداً وقد هاجر اليها منهم أيضاً منذ القرن السابع الميلادي عدة قبائل انتشرت كثيراً بجهات اطلس والصحراء الكبرى حتى صاروا فيهما أصحاب الغلبة والنفوذ ـ ثالثهم الاجناس أو الامم المختلفة التي تكونت مع الزمن أما بالاختلاط أو بالتراكم ونشأت من البربر والعرب أومن البربر والسودان أوغير ذلك ويضاف الى هؤلاء جالية أهل أوربا من الترك والفرنسويين والاسبانيين والطليانيين واالاطيين والالمانيين والبرتقاليين والهولنديين والانجليز وكلهم أقل في العدد من العناصر المذكورة سابقاً وقد استوطنوا على الخصوص عدة جهات من الساحل ببلاد مصر وتونس وجزائر افريقيه وبلاد الجزائر ومراكش وسنغمبيا وبلاد الرأس وساحلي افريقيه الجنوبية ومن الاجناس النازلة بها أيضاً الملايو وقد نزلوها من زمن قديم غير معروف أوله وأقاموا بالجهات الشرقية من

مدغشقر على الخصوص هذا ولو نظرنا هـذه العناصر المختلطة من سكان أفريقيه من قرب لـكان تحديد بلادها كما يأتي على وجه التقريب

أولا ـ البربر وهم من الامم البيضاء بالقارة القديمة ومواطنهم الحالية الزاوية الشمالية الغربية من قارة أفريقيه أي جهات اطلس وبالاقطار الوسطى والغربية من الصحراء بين اطلس وفزان وجهات ديوليبا الوسطى وبلاد سنغال وساحل المحيط هذا هو موطنهم الحالى وان كان ليس بموطنهم الوحيـد لان العرب يساكنونهم فيـه كما يساكنهم جاليـة الفرنسويين ببلاد الجزائر الا أن هذه الاصقاع هي الجهات الوحيدة التي يكوّنون بها جنساً مستقلاً ظاهراً يعرف باسمه الاهلي أما موطنهم الاصلي الخاص بهم فانه قطر آخر وذلك لاننا اذا صعدنا الى القرون الاولى من التاريخ الميلادي لرأينا قبائل البربر منتشرين على كل سواحل بحر الروم حتى حدود مصر واذا صعدنا في التاريخ الى ما قبل القرون الأولى المذكورة أي الى الازمنة القديمة لظهر لنا أن أقوال التوراة تتفق مع الدلائل العلمية التي تؤيدها المشابهات الواردة في علم دراسة طبائع الامم وأوصافها (اثنوغرافيا) كما يؤيدها الآن دلائل كثيرة من تشابه الاسماء المليـة فنعلم من كل ذلك أن سكان حوض النيل حتى جزيرة مروي على الاقل هم من هذا الجنس (بما في ذلك مصر) وكذا كل سواحل افريقيه التي على البحر الاحمر ونجد بلاد الحبشة وكذا الاستطالة العظيمة الشرقية بأفريقيه الممتدة فى بحر الهند

والمنتهية برأس غاردفوى وقبائل الغلا الحاليين (واسمهم الحقيقي أُومُورما)، كلهم بلا شك وكذا السومال من هذا الجنس الاصلي ويدخل في ذلك أيضاً الاقباط نسل قدماء المصريين متى كانوا خلصاً من كل اختلاط طرأ عليهم من الامم الذين أخضعوهم كالفرس والاغريق والروم والعرب والترك وحاصل الكلام أن الجنس البربري الكبير كان قد انتشر قديماً على كل جهات افريقيه الشمالية من أول خليج عدن حتى مضيق جبل طارق وجزائر قناريا وكان له موطنان أصليان حوض نهر النيل وجهات اطلس وقد انتشر أيضاً في كل واحات الصحراء (وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على ممالك البربر)

ثانياً ـ الامم السوداء وهي تنزل جهات افريقية الواقعة بين المدارين على العموم تقريباً ولكن لا تصل اليهما ومع ذلك فالحدود الشمالية من موطنهم تنتهي بنهر سنغال وبمجرى نهر ديوليبا الاوسط وبحد الصحراء الكبرى الجنوبي الذي يصل الى الموازي ١٦ تقريباً الا أن النهاية الشرقية بالمنطقة الاستوائية الشمالية التي تشمل النوبة العليا وبلاد الحبشة وبلاد الغلا وأرض السومال خارجة عن مواطن الامم السوداء المذكورة أى انها لا تعد منها أما البلاد الخاصة بهم (بقطع النظر عن جاليات عديدة من البربر والعرب) فهي بلاد التكرور وسنغمبيا وغانه وغابون وداخل افريقيه الجنوبية حتى الموازى ٢٠ تقريباً ثم المنطقة الشرقية من النهاية الجنوبية الشرقية حتى خط الاستواء تقريباً ومما يجب التنبيه اليه مع ذلك ان هذه الجهات الاخيرة

أي المنطقة الشرقية بأفريقيه الجنوبية يسكن معظمها أجناس اختلطت ببعضها بعضاً اكثر عدداً من السودانيين الخلص ولكنه بالنسبة لنقص المعلومات عن تلك الجهات الآن يصعب غالباً تعيين الحدود الخاصة بكل من الطبقتين المذكورتين تعييناً واضحاً تاماً ومما يلاحظ أيضاً على العموم انه وان كانت جرت العادة بذكر سودان افريقيه كأنهم قسم واحد قائم بمفرده الا أن الانواع العديدة التي يتركب منها الجنس الاسود المذكور بينها مع ذلك اختلافات كبيرة حتى في التركيب الطبيعي والسحنة وتنوع اللون (وسيأتي تفصيل على ذلك عند الكلام على السودان)

ثالثاً ـ الهُوتَنْتُوت ومواطنهم بعض مواطن السودان أي من أول الموازي ٢٠ تقريبا ويشغلون النصف الغربي من النهاية القصوى بأفريقيه ويسكن القسم الشرقى منه أقوام من البِتْشُوانا والكَفَرَه ولون جلود الهوتنتوت يميل الى الاسمر الرمادي أو الزيتوني لا الى الاسود وتقاطيع وجوههم تشبه تقاطيع أوجه الصينيين ولهم لغة خاصة بهم مما يجعلهم شعوباً تختلف عن السودانيين اختلافاً تاماً بالصفات والغرائز وتشتهر نساء الهتنتوت بالاحديداب الباكر الذي يظهر عليهن

واعلم ان الاستعمار الهولندى أولاً والانجليزي ثانياً جعل الهتنتوت ينكمشون شيئاً فشيئاً نحو الداخل بحيث أنهم قد انعدموا تقريباً من المنطقة الساحلية

رابعاً ـ الاجناس المختلطة ويمكن أن يطلق عليهم اسم نصف سودان وهم متناسلون من السودان الخلص ومن الاجناس البيضاء التي بأفريقيه الشرقية بسبب اختلاطهم معاً وبدرجات مختلفة وهم منتشرون في كل المنطقتين المدارتين ولا يزال العلماء الى الآن في شك من معرفة كل هذه الامم الخلاسية معرفة مضبوطة ومع ذلك فلو رجعنا الى توزيعها العمومي لوجدنا انها ترجع الى أربع أصول أو مجاميع شهيرة هي أولا كل الامم الجنوبية النازلة بافريقيه على سواحل بحر الهند والتي تعرف في الجنوب باسم كفره وفي الشمال باسم السواحلية ثانياً الفُنْج (أصحاب مملكة سنار قديماً) وأمم أخرى كثيرة من الذين يظهر فيهم اختلاط الدم الاجنبي وكلهم بجهات النيل العليا ثالثاً الفُلاته ببلاد السودان رابعاً التِّبُّو بالصحراء الكبرى الشرقية (وسيأتي الكلام على هذه الامم ببيان أوفى عند الكلام على بلادالسودان والصحراء)

خامساً ـ العرب وقد نزلوا أفريقية في أزمنه مختلفة ومن طرق مختلفة أيضاً أقدمهم حسب كل الاحتمالات الذين انتشروا منهم بها بكل المنطقة الساحلية الشرقية من البحر الاحمر حتى جزيرة زنزبار وقد وجد ملاحو الاغريق الاول الذين وصلوا الى ساحل ازاني (ساحل أجان وزنجبار) في عصر قريب من ابتداء التاريخ الميلادي عرباً هناك كانوا يترددون على تلك الاطراف من أزمنة قديمة العهد جداً (ربما كان أقدم من عصر حيرام وسليمان

عليه السلام) ولا يخفى أن المؤلفين في عصر الرومان كان عمومهم يريد بلاد العرب كل الجهات القاحلة الواقعة بين البحر الاحمر وبلاد مصر ثم خرج عرب آخرون غير هؤلاء من بلاد اليمن وقت ظهور الدين الاسلامي وبعد أن عبروا المضيق واخترقوا النوبة العليا والنيل توغلوا في قلب السودان الشرقي حتى وصلوا بحيرة شاد وهو بالتقريب رهنامج هذه الهجرة الحميرية غير المسلمة كما يثبت من دلائل كثيرة وربما كان ذلك هو السبب في وجود عدة نزلات عربية بالجهات الداخلية المذكورة من افريقيه ثم أن الفتوحات الاسلامية الاولى التي حصلت ببلاد المغرب في القرن السابع الميلادي نشأ عنها بقاء عدة قبائل بالاقاليم البربرية بجهات اطلس الا ان المهاجرة العربية العظيمة التي عمت كل هذه الاصقاع حصلت في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي كما سيأتي وكان من نتائجها طرد البربر سكان البلاد الاصليين والتجاؤهم الى الصحراء والجبال وانتشر العرب في جهات قورنيه القديمة (بلاد برقه) وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وفي كل الجهات الغربية من الصحراء حتى بلاد سنغال ولا يزالون بها للآن

هذا أما ما يختص بجالية أهل أوربا الذين بأفريقيه فسنتكلم عليهم عند الكلام على أملاك ومستعمرات أوربا بأفريقيه كما اننا سنتكلم على العرب وأصولهم وأقسامهم عند الكلام على الاجناس البشرية بقارة آسيا ان شاء الله

الحالة الاجتماعية بافريقيه ـ اعلم أن الاجناس البشرية بأفريقيه يتركبون

من عناصر مختلفة وأصول مشتتة جداً حتى لا يمكن مزجهم ببعضهم للحكم عليهم حكماً واحداً ومع ذلك فاننا نرى بين الاقسام الاصلية الكبيرة منهم أي المتغلبة على تلك الاجناس نوع تدرج أدبي وعقلي من أول قبائل المجموعة البربرية النازلة على سفوح اطلس وعلى سواحل بحر الروم حتى الموتنتوت سكان النهاية الجنوبية والبربر وان كانت معيشتهم بدوية منذ الاعصر الغابرة الا انهم يشاركون الامم البيضاء ـ وهم فرع منهم ـ في الصفات العالية فهم جنس زكي قابل للرقي السريع وهم أيضاً أمة من أمم التاريخ وكان لهم دور مهم وحوادث كبيرة في التاريخ العام ورد بالتوراة في الفصل العاشر من سفر الخروج عند الكلام على الاجناس البشرية ان البربر فرع من الحاميين اخوة مصرايم أصل المصريين وهي قرابة يؤيدها الاتصال الجغرافي والمناسبات التي ذكرت فيما سبق بين القبطي والبربري معاً وأصول سكان مملكة مروى في الازمنة القديمة وكذا سكان أكسوم أو الحبشة بعد الازمنة القديمة بقليل كانوا من البربر وبربر اطلس هم قسم هذا الجنس الذين علقت بهم التسمية البربرية وغلبت عليهم أكثر من غيرهم على الخصوص وهم يسمون أنفسهم أمازيغ وكانت لهم مدة ملكهم مسِّينسا شهرة كبيرة في حوادث التاريخ الروماني كما ان الكثير من رؤسائهم أسسوا بالمدة الاولى من العصر الاسلامي بافريقيه واسبانيا أسرات شهيرة ذكرها مؤرخو الاسلام خصوصاً العلامة ابن خلدون وقد اعتنق بربر اطلس الدين المسيحي باكراً ثم اعتنقوا

فيما بعد الاسلام الذي طبعهم بطابعه الفخيم وأشهر أقوامهم الذين يمثلون الآن الحضارة البربرية التامة هم التوارك ومعيشتهم بدوية ويسكنون واحات الصحراء الوسطى وسيأتي الكلام عليهم هناك اما الهوتنتوت فانهم كما قلناه أخشن أمم افريقيه وأشدهم وحشية وهم أيضاً من ابشع أجناس الكرة الارضية خلقة حتى ان احتكاكهم بالاوربيين من نحو اكثر من ثلاثة قرون لم يحدث فيهم غير تغير قليل في عوائدهم ومعيشتهم

أما السودان فانهم على نوع ما يشغلون الحد الاوسط بين الهوتنتوت والبربر كما ان موقعهم الجغرافي متوسط بين الجنسين المذكورين فهم أقل وحشية من الهوتنتوت في أمور كثيرة وأبعد منهم عن المعيشة الهمجية لان الاغلب من قبائلهم العديدة يقيم في أماكن معلومة ويعرفون على الاقل مبادىء الزراعة ومع ذلك فانهم بالنسبة لامور أصلية أحط من البربر كثيراً والسودان جنس كسول جامد بليد مادي بالمرة لا يعرف للرقي معنى أصلا ولم يجاوز بعدُ المبادىء الاولى في الحياة الاجتماعية في أي جهة وفي أي زمن لا قبل مواصلاتهم مع أهل أوربا ولا بعد ذلك ولم يؤسس من تلقاء نفسه اجتماعاً سودانياً أصلاً ولا نظامات مدنية وسياسية يمكن أن تشبه ولو بعض الشبه بالممالك المتحضرة بأوربا وآسيا وزيادة على ذلك لم يحدث فيه احتكاكه بالحضارة الاجنبية بين اسلامية ومسيحية أقل أثر ولو بالنسبة لترقية عقول أفراده وافهامهم فهم الآن كما كانوا منذ عشرة قرون وعشرين قرناً

بل وربما أربعين قرناً أما من جهة الدين فقد بقوا على الدين الفتشي وأما الاخلاق فان أخلاقهم خشنة مادية ومن جهة السياسة فقدحافظوا على أحط النظامات الاستبدادية حتى في بلاد السودان التي نقل اليها العرب المسلمون الدين الاسلامي منذ قرون وأسسوا بها عدة ممالك اسلامية أى ان السود الاصليين بها لم يترقوا الى ما فوق حالتهم الاجتماعيةالا خطى قليلة والحضارة الحقيقية في الممالك الاسلامية المذكورة هى بين الرؤساء والاعيان والامراء بحيث لا تتعداهم الى غيرهم من امم السودان

هذا وتنقسم الامم السودانية في كل ما بقي من أفريقيه المدارية الى ممالك صغيرة كثيرة وقبائل معادية لبعضها بعضاً مستوفذة لرد غارة كل من يأتي من الخارج وقد شاهد المكتشفون منذ سنوات قليلةبالمنطقةالاستوائية من أول بلاد الغلا الى قرب خليج بنين أمما أكثر رقياً في أمور كثيرةعن سود بلاد السودان وأفريقيه الجنوبية ولكن ما رووه عن شكل أجسامهم يدل على انهم من أصل ابيض (والتعبير بالابيض هنا نسبي) وهم بلا شك فروع منفصلة من أصل الامورما

والشيء الغريب الذي نقله ورواه أولئك المكتشفون عن عادات هذه الامم التي يظهر عليهم الذكاء هو ان أكل لحوم البشرعام بينهم تقريباً لهذا أطلق جيرانهم على الكثير من قبائلهم اسم نيام نيام ومعناه آكلو الانسان ومما يستحق الالتفات ان هذه العادةالمقوتةوهى أكل لحوم البشر

عمومية أيضاً لدى الكثيرين من القبائل السودانية ببلاد غانه والكنغو ولكن سكان الجهات الشرقية من افريقيه الجنوبية يستسنون من ذلك وسبب هذا بلا شك تأثير الاسلام عليهم ان لم ينسب الى أسباب أقدم من الاسلام كما يقول بعض العلماء

الصناعة والتجارة — اعلم ان الصناعة بين أمم أفريقيه لا تزال بطبيعة الحال كما كانت من القديم وأشهرها عمل المنسوجات وبعض الاوانى وعلى الخصوص عمل السهام والرماح وهما السلاحان العاديان لدى القبائل التي لم تتعلم بعد من أهل أوربا استعمال السلاح النارى هذا كل ما وصلوا اليه فى اختراعاتهم تقريباً وأشهر اختراع عرف للسودانيين ان صح مع ذلك نسبته اليهم هو اذابة الحديدوالنحاس والذهب ليصنعوا منها أشياء يتزينون بها وسهاما ورماحا وغير ذلك

ولما لم يكن لديهم ما لا يكاد يذكر من الاعمال الجدية والصناعة الحقيقية كانت تجارتهم ضعيفة وأشهر وسائل المبادلة لدى القبائل النازلة على الساحلين هي الرقيق كانوا يعطونه في مقابلة ما تحمله اليهم سفن أوربا من الاشياء والادوات الصغيرة وذلك منذ القرن السادس عشر الميلادي ولما ألغت الدول العظمى البحرية بأوربا هذه التجارة الممقوتة تناقصت قيمة المبادلات جداً خصوصاً بالبلاد التي لا يوجد فيها التبر ولا ريش النعام ولا الصمغ ولا البن ولا الجلود ولا شمع العسل ولا زيت النخيل ولا الفول السوداني ولا العاج

هذا وأشهر منافذ التجارة بأفريقيه خلاف سواحل بحر الروم واقعة بالجهات الساحلية منها وأشهرها سن لويس في السنغال ولاغوس وبلاد أخرى على سواحل غانه ثم غابون وسن بول لواندة بأفريقيه البرتقاليه وزنزبار على الساحل الشرقي وبربره ببلاد السومال على خليج عدن ثم مصوع وسواكن وبور سودان على البحر الاحمر وقسم عظيم من المبادلة في هذه الثغور الاربع الاخيرة في يد العرب

الاقسام الجغرافية — اعلم ان من المهم في ذكر بلاد أفريقيه وعدها عداً يكون أساساً لوصف بلادها وصفاً منتظماً مرتباً هو التوفيق بقدر الامكان بين أقسامها الاصلية في الجغرافيا الطبيعية مع اعتبار توزيع الاجناس التاريخي وحصر مساكنهم الاصلية في جهات معلومة وبين لغاتهم الا ان هذا التوفيق لا يكون دائما من السهل عمله لاضطرار الانسان في بعض الاحيان لان يجعل المعلومات التاريخية أو الجنسية الصرفة خاضعة وتابعة للحالة الموجودة الآن بالقارة المذكورة لهذا كانت أفريقيه بحسب الاعتبارات السابقة تنقسم جغرافياً الى ما يأتي

الجهات الساحلية الشمالية

ا المنطقة الساحلية من بحر الروم

١ دولة مراكش

٢ بلاد الجزائر

٣ مملكة تونس

٤ ايالة طرابلس

ب حوض نهر النيل

١ بلاد مصر

٢ بلاد النوبه

٣ السودان المصري الانجليزي
وبلاد النوبه الاصلية

٤ بلاد الحبشة

٥ بلاد السومال

ج الجهات الوسطى الشمالية

١ بلاد الصحراء (الصحراء الغربية
والصحراء الوسطى والصحراء
الشرقية وسكانها وواحاتها)

د بلاد السودان والتكرور

١ السودان الشرقي

٢ السودان الاوسط

٣ السودان الغربي وجهات ديوليبا

ه الجهات الساحلية الغربية

١ السنغال

٢ بلاد غمبيا

٣ سيراليون

٤ ليبيريا

٥ غانه العليا

٦ ساحل الحبوب

٧ ساحل العاج

٨ ساحل الذهب

٩ ساحل العبيد

١٠ غانه السفلى

١١ غابون

١٢ الكنغو

١٣ أفريقيه البرتقاليه

و الجهات القصوى من أفريقيه
الجنوبية

١ بلاد الهتنتوت

٢ مستعمرة الرأس وما يتبعها

ز الجهات الساحلية الشرقية

١ بلاد الكفره

٢ بلاد نتال

٣ المستعمرات البرتقالية على زمبيزى الاسفل
٤ موزمبيق
٥ زنجبار
ح نجد أفريقيه الجنوبية
١ حوض زمبيزى
٢ جهات تنجانيقا
٣ بلاد أنيامويزى وغيرها
ط المنطقة الاستوائية
١ جهات البحيرات العظمى
ى جزائر أفريقيه
(١) بالمحيط الاطلسى أى بحر الظلمات
١ آسوره
٢ماديره
٣ قناريا
٤ جزائر الرأس الاخضر
٥ جزيرة الامير
٦ « سن توماس
٧ « أنوبون
٨ « الصعود
٩ « سنت هيلانه
(٢) بالمحيط الهندى
١ جزيرة مدغشقر
٢ جزائر القُمُر
٣ جزيرة بُرْبون أو الاجتماع
٤ جزيرة موريس
٥ جزائر سيشيل
٦ جزيرة سقُطرى

خلاصة تاريخية على قارة افريقيه ـ ينقسم التاريخ الجغرافي لهذه القارة الى ثلاثة أقسام منفصلة عن بعضها تمام الانفصال هي الازمنة القديمة والازمنة الوسطى والازمنة الحديثة فالازمنة القديمة تنتهي بالفتوحات الاسلامية الاولى أى قبل منتصف القرن السابع الميلادي (وربما انتهت فى

النصف الاول من القرن الثانى الميلادى لان المعلومات عن افريقيه فى الخمسمائة سنه التى تلى ذلك هى اكثر من معلوماتنا عنها (حسبما ورد فى جغرافيا بطليموس) أما المدة الثانية أو الوسطى فانها تمتد من القرن السابع المذكور الى السنين الاولى من القرن السادس عشر وهى نحو ثمانية قرون ونصف مد اثناءها العرب فتوحاتهم ببلاد النوبة العليا وبلاد التكرور واكتشف البرتقاليون كل سواحلها الغربيـة حتى رأس عشم الخير (١٤٨٤ ـ ١٤٨٦) واكتشفوا أيضاً السواحل الاخرى من أول رأس عشم الخير الى رأس الاحتراس (غاردفوى) على الساحل الشرقى (١٤٨٦ ـ ١٥٠٨) أما المدة الحديثة فزمنها يزيد عن ٣٦٠ سنه ابتداؤها أول القرن السادس عشر تقدمت اثنائها المعلومات التى حصلنا عليها من السياحين الذين جابوا جهاتها الداخلية ولكنه تقدم ضعيف بطىء وبقى الامر على ذلك حتى نحو نهاية القرن الماضى التى تقدمت فيه المعلومات تقدماً سريعاً وأتت بفوائدجمه هذا وسنسير في المدد الثلاث المذكورة بحسب ترتيب تواريخ السنين لنعلم كيف ترقت معلوماتنا على القارة المذكورة فنقول

أولاً ـ المدة القديمة ـ المصريون كما لا يخفى هم أقدم امم التاريخ والاقوال الواردة فى تواريخهم والتى تؤيدها مبانيهم كلها تسبق جميع أقوال الامم الاخرى بعدة قرون لانها تصعد الى نحو ٤٠٠٠ سنه الى ما قبل التاريخ الميلادى كما يثبت ذلك من أحدث الروايات وأول معلومات انتشرت فى

الخارج عن جهات افريقيه التي خضعت للفراعنة صدرت عن مصر

وقد ساعد الفينيقيون الذين كانوا يترددون على الجهات الغربية من بحر الروم من أول القرن الثامن قبل الميلاد وأسسوا هنالك أول مستعمرة لهم وهى قرطاجنة على اذاعة المعلومات المصرية المذكورة التي انبجس منها النور الاول في أشعار كل من هوميروس وهزيود ولكنها بقيت حيث هى زمناً طويلاً لا تتقدم ثم بعد ذلك اتسعت دائرتها قليلاً في أشعار كل من اشيل وبندار (٤٤٠ ـ ٥٢٠ ق م) ثم روى لنا هيرودوت أول أقوال جديرة بالاعتبار فى هذا الخصوص وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وأقوال هيرودوت هى كما لا يخفى أقوال مؤرخ وسائح معا

ثم بعد ذلك يأتى عصر بطليموس وهو عصر جديد في تاريخ افريقيه الجغرافى لان المعلومات اتسعت دائرتها فى زمنه وتحققت رواياتها خصوصاً ما كان منها على جهات النيل العليا التي ذكر ايراتوستين (القرن الاول ق م) شكلها الطبيعى العمومي ووصفها وصفاً صادقاً ومن السياحات البحرية التى حصلت اذ ذاك علم الناس معلومات جديدة على سواحل الخليج العربى وساحل بلاد الاعطار ووجدت علاقات بين الاسكندريه وقرطاجنة مما نجم عنه على الاقل فكرة عمومية على جهات أطلس حتى مضيق قابس

ثم قامت في وجه قرطاجنة والمشرق دولة غيرت صحيفة العالم سياسياً الا وهى دولة رومية لانها بانتصارها على قرطاجنة واستيلائها على قورينه

ومصر اصبحت كل ممالك الساحل الشمالي من افريقيه خاضعة لها وبذلك اضحت البلاد المذكورة لا تعد من بلاد الجغرافيا التاريخية فقط بل دخلت أيضاً ضمن دائرة الجغرافيا الحقيقية ففتحت في كل جهاتها طرق جديدة وقيست المسافات بجميع ارجائها وفتحت البعثات الحربية للاعلام الرومانية داخل جهات اطلس وواحات الصحراء وعلى ذلك كانت المعلومات الجغرافية تتسع دائرتها ويمتد نطاقها مع الفتوحات الرومانية وقد ورد ذكر ازدياد المعلومات الجغرافية عن تلك الجهات في أقوال المؤرخين بمواضع كثيرة من مؤلفاتهم فوصفها ميلا بعد أسترابون وصفاً يشمل مجموعها ولخص پلين (قرن أول م) المؤرخ ما ورد عنها من الاقوال فى كتابه تلخيصاً تاماً وهناك مؤلفات أخرى غير هذه تصف الجهات المذكورة وصفاً أتم فى بعض اجزائها

وقام بطليموس بعد پلين المذكور بستين سنة وقد اشتمل كتابه على كثير من الروايات الحديثة عن أفريقيه فقد ذكر فى أقسامها الداخلية أمماً كثيرة كانت مجهولة من قبل كما ذكر تفصيلات فلكية حتى الى ما بعد خط الاستواء ولكن ظهر خطاؤه من نقد كتابه نقداً دقيقاً فى الايام المتأخرة كما ثبت بُعده عن الصواب في الاسس التى اعتمد عليها فى رسم خرائطه وفى أسماء الامم والقبائل التى ذكرها والحاصل انه قد تحقق الآن نهائياً ان أقوال القدماء عن البلاد الداخلية بأفريقيه لم تتعد في جهة من الجهات الصحراء الكبرى وانها لم تصل الى بلاد السودان

ثانياً ـ المدة المتوسطة ـ كانت نتيجة انتشار الاسلام بأفريقيه صيرورة النصف الشمالي منها بلاداً عربية صرفة تقريباً وان بلاد مصر والنوبه وكل المنطقة البحرية الشمالية حتى نهاية بلاد المغرب وكذا واحات الصحراء المجاورة للمحيط الاطلسي وبلاداً أخرى كبيرة من بلاد السودان كلها وكذا الجهات الساحلية من أفريقيه الجنوبية لم يصل اليها الدين الاسلامي أو تأثرت بمؤثراته فقط بل انه اغارت عليها فى أزمنة مختلفة قبائل كثيرة خرجت من بلاد العرب وسوريه وسهول الفرات حتى ان عدد من نزلها منهم زاد في بعض أقاليمها عن عدد السكان الاصليين فنشأ من ذلك ان وجدت بطبيعة الحال مواصلات بين مكة وبين بلاد كثيرة داخلية لم يعرفها لا الرومان ولا الاغريق من قبلهم وعلى ذلك ظهرت هذه البلاد الجديدة تدريجيا فى مؤلفات المؤرخين وسياحى المسلمين واعلم ان استيطان العرب أفريقيه ينقسم الى عصرين مختلفين كان الاول في القرن السابع من الميلاد (٦٤١ ـ ٦٧٠ م) وهو عصر فتوحات دينية وسياسية معا ولكن لم يستوطنها فيه الا القليل منهم أما العصر الثانى فكان فى القرن الحادى عشر (١٠٥٠ ـ ١٠٧٨ م) وفيه نزحت قبائل كثيرة وأغارت على افريقيه واستولت على أراضيها من أول بلاد مصر حتى المحيط ومما يجب التنبيه اليه ان معلومات العرب عن افريقيه أخذت تظهر تدريجياً فى أقوال كتاب المسلمين فى المدة المتوسطة المذكورة فقط مما حصلوا عليه من المعلومات بسبب انتشارهم هناك وأقوال من كتب منهم فى تلك المدة تامة وافية

تقريباً وان استزدناهم فلا يكون الا في شيء قليل واشهرهم ابن حوقل والمسعودى واحمد ابن ابي يعقوب الجغرافى البغدادى (٨٩١م) وقد عقد أبو يعقوب المذكور وهو صاحب كتاب البلدان لبلاد المغرب فى كتابه باباً مفيداً وأول من بسط الكلام على جغرافيا افريقيه الشمالية غير ابن ابي يعقوب المذكور البكرى الاندلسى وقد اتم كتابه حتى سنة ١٠٦٨ م وأتى بعده الادريسى فى القرن الثانى عشر ثم ياقوت الحموى فى القرن الثالث عشر ثم أبو الحسن المراكشى وابن سعيد في القرن الرابع عشر ثم ابو الفداء وابن الوردى وابن بطوطه السائح الشهير في القرن الخامس عشر ثم المقريزى (وكتابه خاص بمصر والنوبه) والحسن بن محمد الفاسى المشهور باسم ليون الافريقى وكتابه أوفى كتب الجميع خصوصاً فيما خص بلاد السودان ولا ننسى ابن خلدون وتاريخه عن أمم البربر وقد ألفه فى القرن الرابع عشر وبه معلومات نفيسة جداً عن البربر وأصلهم وقبائلهم هذا والبلاد التى نالت حظاً وافراً في مؤلفات العرب خصوصاً هى مصر والنوبه ومنطقة بحر الروم وبعض جهات الصحراء غرباً والسودان الغربى ثم البلاد التى يغمر سواحلها بحر الهند جنوبى خط الاستواء حتى النهاية الجنوبية من مضيق موزمبيق ولم تمتد معلوماتهم هناك الى اكثر من ذلك

وفى الوقت الذى تنتهى فيه معلومات العرب وابحاثهم أى فى القرن الخامس عشر الميلادى ينفتح امامنا عصر معلومات جديدة جمة وهى تابعة فى الحقيقة لتيار الاستقصاءآت الحديثة التى انبجس نورها اذ ذاك الا وهى أعمال

ملاحى البرتقال على الساحل الغربى من افريقيه للبحث عن طريق بلادالهند واكتشافهم لسواحل تلك القارة من مضيق جبل طارق الى رأس عشم الخير ومن هذه النقطة حتى رأس الاحتراس وقد استغرق كل ذلك نحو قرن من الزمان ابتداء من سنة ١٤١٥ م وقد ذكر بَرُّوس(١) المؤرخ البرتقالي (١٤٩٦ـ١٥٧٠ م) فى مؤلفاته تلك الاكتشافات بحسب زمنها ولدى العلماء أيضاً خلاف المؤلفات المذكورة اثران غربيان عُملا فى وقت واحد وكلاهما متقدم على ڤاسكودوغاما وهما كتاب مؤلف برتقالى يدعى (أزُورارا) (٢)

(١) Barros (Jean de) ـ مؤرخ برتقالى شهير ولد سنة ١٤٩٦ ومات سنة ١٥٧٠م وكان محبا للدرس والمطالعة ذكيا فطنا وقد قدره حنا الثالث ملك البرتقال قدره فانزله منزلة رفيعة وعينه حاكما للنزلات البرتقالية بساحل غانه ثم خازندارا عاماللمستعمرات ثم مديراً عاما لادارة المستعمرات وهي وظيفة يعادل مديرها ناظرا من نظار الدولة ثم حاكما عاليا لمقاطعة بلادالبرازيل وقد ساعده التنقل فى هذه الوظائف على تأليف مؤلفه الكبير المسمى آسيا او احوال وحركات البرتقال اثناء اكتشاف واخضاع البحار والاراضى بالمشرق ويبتدي هذا التاريخ من سنة ١٤١٢ وينتهي الى سنة ١٥١٦م واحسن طبعات هذا الكتاب وأتمها طبعة أشبونه ١٧٧٨ م وقد انزل هذا الكتاب بروس المنزلة الاولى بين مؤرخى بلاده واعطاه لقب تيت ليف البرتقالى لانه قلده فى تخليد مجد وطنه هذا ولبروس المذكور مؤلفات اخرى غير هذا التاريخ

(٢) Azurara ou Zurara (Gamez) ـ مؤرخ برتقالى كان في القرن الخامس عشر من الميلاد وكان قيما على دار سجلات المملكة وقد كلفه الفونس الخامس ملك البرتقال بتأليف تاريخ لمملكة البرتقال مرتب على السنين ويؤيد الرواة ان ازورارا أتلف عدداً كبيراً من الاوراق والمستندات التي كانت بالدار المذكورة وكان ذلك سنة ١٤٥٩ م بناء على

كتبه سنة ١٤٥٣م باسم الملك الفونس الخامس وقد طبع فى باريس باللغة البرتقالية سنة ١٨٤١م وثانيهما خريطة برتقالية رسمت سنة ١٤٨٩م لا تزال محفوظة في دار آثار لندن (بريتش موزيوم)

وقد تحقق الآن انه قبل الاكتشافات البرتقالية المذكورة بنحو قرن أقبل ملاحون من أهل مدينة دِيبْ بفرنسا وجابوا قسما كبيراً من ساحل افريقيه الغربى وأسسوا هناك نزلة سموها ديب الصغرى وكان ذلك سنة ١٣٦٤م بساحل غانه فى منتصف الطريق تقريباً بين سِيرّاليون ورأس لاس بَلماس ولكن لما كانت الامم البحرية الاخرى تجهل هذه السياحة بقى امرها بلا نتيجة فيما حصل بعد ذلك من الاكتشافات كما بقى الفخر فى الاكتشافات البرتقالية للبرنس هنرى البرتقالى أول من شجع أمته على اجراء تلك السياحات المذكورة هذا ولا توجد اكتشافات حقيقية أخرى غير هذه الا التى ورد ذكرها وتواريخها في علم الجغرافيا

ثالثاً ـ المدة الحديثة ـ تبتدىء المدة الحديثه بالقرن السادس عشر الميلادى ولم نكن نعرف بعد (بارتولوموديار)[1] وغاما الا شواطىء هذه

طلب مجالس الامة الذي كان يقصد من ذلك التخلص من أوراق لا قيمة لها ولكن كانت بعض مجالس البلديات استنسخت قدراً كبيراً من تلك الاوراق للزومها لديها وعلى ذلك لم تفقد كلها ولا زورارا المذكور عدة مؤلفات أهمها كتاب فى تاريخ اكتشاف بلاد غانه واستيلاء البرتغال عليها وقد طبع هذا الكتاب فى باريس سنة ١٨٤١ وتوجد منه نسخة خطية نفيسة بدار كتب باريس

(١) Diaz (Barthèlemy) — ملاح برتقالى اكتشف بين سنتى ١٤٨٦ـ١٤٨٧

القارة الكبيرة (بقطع النظر عن الجهات الشمالية التي اخترقها العرب بكل ارجائها) وبالقرن السادس عشر من الميلاد تبتدىء معلوماتنا عن جهاتها الداخلية وقد بقيت تلك المعلومات زمناً بطيئة التقدم وقاصرة على جهات صغيرة حتى ان المعلومات التي كان يجلبها معهم عموم السياحين الذين وصلوا الى البلاد التي تبعد عن الساحل قليلا — وهو ما حصل نادراً — كانت لا تستند الى بحث علمي وأولئك السياح كانوا اما تجارا أو مبشرين وقد استمرت هذه الحالة التي أبقت الجزء الاكبر من خريطة افريقيه أبيض خالياً من الاسماء حتى نهاية القرن الثامن عشر من الميلاد الى أن قامت جمعية في انجلتره تشجع الناس وتسهل عليهم اكتشاف قارة افريقيه فنجحت فى أعمالها زمناً وقام المكتشفون والسياحون من جديد لاجراء الاكتشافات نخص بالذكر منهم منجو برك وهورنمان وسيتزن (١)

الراس الذى اطلق عليه اسم راس العذاب وهو الراس الذى سماه فيما بعد حنا الثاني ملك البرتغال باسم راس عشم الخير وقد هلك دياز في عاصفة هبت على ساحل افريقيه سنة ١٥٠٠م

(١) Seetzen (Ubric, Jasper) — سائح وعالم من علماء الطبيعيات ألمانى ولد سنة ١٧٦٧ ومات سنة ١٨١١ وبعد أن درس الطب والعلوم الطبيعية قام بعدة سياحات بالمانيا وهولنده ثم ساعده دوق بلاد غوثا على اجراء سياحة كبيرة كان ينوى هو انفاذها منذ زمن بلاد آسيا وافريقيه فسافر سنة ١٨٠٢ وأقام مدة بمدينة ويانه تعلم أثنائها رسم الخرائط ثم قصد القسطنطينيه ماراً بكرش (بخارست) وجبال البلقان ومكث بها ستة شهور ثم سار بآسيا الوسطى الى ان قدم ازمير ومنها الى حلب وامضى بها مدة يتعلم العربية ثم تجول بلاد سوريه وفلسطين مكتشفاً وساح كذلك بجبال لبنان (١٨٠٥) وبالاراضى الواقعة شرقى الحرمون والاردن والبحر الميت حيث توصل الى اجراء اكتشافات مهمة وفى سنة ١٨٠٧ وصل الى القاهرة وأقام بها سنتين جمع فيهما مجموعة نفيسة لا تزال

وبوركهرت(٢) وكلهم ممن نال الفخر في هذه الحركة الاكتشافية وممن تذكر

تشاهد للآن بدار آثار غونا وهى تتألف من ١٥٧٤ قطعة وكتاباً كلها بخط اليد و٣٥٣٦ قطعة من فن العمارة والبناء ومن مقدار كبير من القطع الجيولوجية والنباتية والحيوانية النادرة وفى سنة ١٨٠٨ سافر الى الاقاليم الوسطى من الديار المصرية وزار آثارها وديارها متظاهراً أثناء كل ذلك بالاسلام ليتمكن من الوصول الى ما لا يصل اليه الا المسلم ثم أراد الذهاب الى العقبة لارتياد آثارها ولكنه اضطر للعودة الى السويس ومنها سافر بحراً الى ينبع وجده ثم الى مكة والمدينه وفى سنة ١٨١٠ خرج من المدينة يقصد مخا وكتب منها مكتوباً تاريخه ١٧ نوفمبر من السنة المذكورة الى أحد اخصائه بمدينة غوتا كان آخر رسالة وصلت منه ثم وصل خبر سنة ١٨١٥ من مخا بموته فجأة سنة ١٨١١ قرب تعز بينما كان يقصد الوصول لامام صنعاء يطلب منه رد أمتعته التى كانت اخذت منه فى مخا ويظن بعضهم ان الامام سقاه سما وقد عثروا على مؤلفاته وخرائطه بأجمعها تقريباً بعد أن ظنوا ضياعها وطبعت باسم سياحة سيتزن فى سوريه وفلسطين وفينيقيه وفى البلاد الواقعة وراء الاردن وفى بلاد العرب الصخرية ومصر السفلى

(٢) Burckhardt (Jean-Louis) — سائح شهير ولد في مدينة لوزان سنة ١٧٨٤ ومات بالقاهرة سنة ١٨١٧ أرسلته الجمعية الافريقية بلندره الى أفريقيه ليتم اكتشافات هورنمان (١٨٠٧) وأقام فى حلب حتى حصل على قدر جيد من اللغات الشرقية ثم ادعى انه تاجر عربى ولبس ملابس الاهالى وقلدهم فى كل شيء منتحلا اسم الشيخ ابراهيم وزار تدمر ودمشق ولبنان ومصر والنوبه وسواحل البحر الاحمر وجده ومكة ذهب اليها مع الحجاج وقضى مناسك الحج ثم عاد الى القاهرة وبينما كان يستعد للسفر والسياحة ثانية أصيب بحمى خبيثة أودت بحياته وقد ترك لدار كتب كمبردج اكثر من ثلاثمائة مجلد مكتوبة كلها بخط اليد فى علوم مختلفة حصل عليها من بلاد المشرق وما رواه فى كتاب سياحته كله يوصف بالصدق والصحة وقد طبعت بلندن بين سنتى ١٨١٩ و١٨٣٠ ومن أهم مؤلفاته كتابه فى البدو والوهابيين وكتابه فى أخلاق المصريين الحديثين

أسماؤهم في تاريخ الاكتشافات الجغرافية ثم لما قامت الحروب بأوربا تعطلت تلك الاكتشافات ثم لما انعقد الصلح سنة ١٨١٥ انفتح باب الاكتشافات الكبيرة واستمر مفتوحاً وولجه كثير من الرجال الذين أخلصوا في عملهم وفى الزمن الذي عمت فيه السياحات ارجاء كثيرة من افريقيه أخذ الناس فى دراسة تلك السياحات والنظر فيها بامعان وجد واقبلوا عليها اقبالاً لم يكن لها من قبل ذلك ومن سنة ١٨٤٥ خصوصاً عاد من الارساليات المهمة فوائد نفيسة على كل فروع العلوم كالجغرافيا والتاريخ الطبيعي والعلوم الطبيعية وعلم الآثار القديمة وعلم الشعوب (اثنوغرافيا) وعلم اللغات وأشهر المكتشفين الذين افادوا باكتشافاتهم هم بارت وفوجل ورولفس [1] وقد اكتشفوا داخل

وعوائدهم أقول وقد سمعت ممن أثق بقوله من أهل سويسره ان قبر بوركهرت هذا خارج باب النصر من أبواب القاهرة ويعرف بالشيخ بركات وانه مات على الاسلام

(١) G. Rohlfs سائح ألماني شهير ولد سنة ١٨٣٤ درس الطب اولا ثم تعلم العربية ببلاد الجزائر وخرج للسياحة سنة ١٨٦١ ببلاد مراكش متظاهراً بالاسلام ولمعرفته بالطب تقرّب من كثيرين من أشراف مراكش وفى سنة ١٨٦٢ جال بالصحراء المراكشية وقد همّ أدلاّؤه بقتله ولكنه نجا منهم ثم حصل على وصيّة من شريف وزّان جاب بها جبال اطلس آمِناً مطمئنا وهو أول أوربي وصف جهات تُوات ورسم خريطتها ثم عاد الى مدينة طرابلس مارّا ببلدة غَات (١٨٦٥) ثم عاد فسافر الى غَدَامِس على نيّة السياحة بالصحراء الكبرى ولما لم يتمكن من ذلك ذهب الى مرزوق وأقام بها حتى سنة ١٨٦٦ ومن هناك سافر الى بَرْنُو مارّا بواحة بِلْمَا فكان أول أوربي سار بهذا الطريق وأقام بواحة كَوَار مدة تمكن فيها من معرفتها ثم وصل الى كُوكَا سنة ١٨٦٦ واكرمه سلطانها وفى اثناء اقامته هناك علم بما أصاب السائح بُورمَان الذي قُتل فى

السودان وكرَفت(Kraft)وأبّادى (١) وتلستون بك (٢) بلاد الحبشة وبكّر وَدّاى ثم عاد الى الساحل الغربى من افريقيه مارّا بمملكة سكّتُو ثم وصل أخيراً الى لاَغُوس على ساحل غَانَة ومن هناك عاد الى ليفربول سنة١٨٦٧

(١) (Antoin-Chamson) Abbadie سائح فرنسوى ولد سنة ١٨١٠ وكان يميل جداً من صغر سنه للعلوم والسياحة وفى سنة ١٨٣٥ كلفته أقاذيميا العلوم بمأمورية ببلاد البرازيل ثم ذهب الى بلادمصر فى أواخر سنة ١٨٣٦ حيث تقابل مع أخيه ثم ذهبا معاً الى بلاد اتيوبيا وأخذ فى السياحة والاكتشاف بها من ١٨٣٧ ـ ١٨٤٥ ثم انتقل الى بلاد الغلا وأقام بها حتى سنة ١٨٤٨ ثم عاد الى فرنسا حاصلا على كثير من المشاهدات والمعلومات المفيدة خصوصاً ما تعلق منها بعلم اللغات وعلم الشعوب التى جال فى بلادها ثم عاد الى السياحة ثانية ببلاد اتيوبيا وبعد ذلك عاد الى فرنسا سنة ١٨٥٣ وكان عضواً فى عدة جمعيات علمية وقام أخوه المسمى ارنود ميشيل أبادى (Arnaud-Michel) بسياحة ببلادالجزائر سنة ١٨٣٣ وبعد ثلاث سنوات ذهب الى الاسكندريةوهناك تلاقى مع أخيه أنطوان وسافر معه الى بلاد اتيوبيا كما سبق

(٢) Beke (Charles Tilostone) — سائح انجليزى ولد سنة ١٨٠٠اشتغل بالتجارة أولا ثم درس الحقوق ثم انكب تماما على التاريخ وعلم الشعوب والجغرافيا ولما علم ما لبلاد الحبشة من الاهمية الكبرى بالنسبة للمواصلات التجاريه مع أفريقيه الوسطى عزم على السياحة بارجائها فدخلها سنة ١٨٤١ وساح بجهاتها الجنوبية وذلك قبل حملة الماجور هرّيس (Harris) عليها ولما وصل هاريس بجنوده خرج بك من بلاد شوا وتجول بجهات قوجام وبالبلاد التى بالجنوب والغرب من الحبشة وكان أهل أوربا يجهلون هذه البلاد تماما وقد كتب بك كثيراً على التاريخ القديم والجغرافيا وعلم اللغات والشعوب وله كتاب اسمه مباحث على العصور الاولى (Biblica) طبع سنة ١٨٣٤ وقد نشرت نتيجة اكتشافاته

وشوَينفُرت حوض النيل الابيض وبورتن وأسبك ولفنجستون وكرون جهات البحيرات العظمى من المنطقة الاستوائية الجنوبية وروسّجر (١) ولِبسيوس (٢)

الجغرافية فى كتاب اسمه (A. Statement of facts) أى ذكر الحقائق (١٨٤٥-١٨٤٦) وقد لخصته جمعيتا لندره وباريس الجغرافيتين فى مجموعتيهما ومن الكتب التى نشرها هو كتاب اسمه التوزيع الجغرافى للهجات الاحباش (١٨٤٩) وثلاث رسائل على النيل ومنابعه العجيبة وأخصها رسالته التى عنوانها (On the Sources of the Nile [London 1849) وقد فند فى رسالة من تلك الرسائل النتائج التى زعم أبّادى انه حصل عليها اثناء سياحته ببلاد كافا (١٨٥٠) هذا وكانت وفاة بك سنة ١٨٧٤

(١) Russegger (Joseph) ـ سائح وعالم المانى من علماء المعادن ولد سنة ١٨٠٢ ومات سنة ١٨٦٣ وبعد ان أتم دراسته بمدرسة المعادن تقلب فى عدة وظائف ثم انه فى سنة ١٨٣٤ طلب المرحوم محمد على باشا من مملكة النمسا ان ترسل اليه بعض العلماء ليبحثوا له عن المعادن بأرض مصر فأجابت طلبه وعينت روسجر المذكور رئيساً لمن أرسلتهم من العلماء فتنقل روسجر بأرض مصر كلها وبلاد النوبه وكردفان وما جاورها من البلاد وكان ذلك بين سنتى ١٨٣٦ ـ ١٨٣٨ م وبعد ان عاد الى القاهرة خرج وساح فى جزيرة طورسينا وبلاد فلسطين ثم عاد الى اوربا عن طريق أزمير والقسطنطينية وبلاد اليونان ثم ساح باوربا والف كتاباً عنوانه سياحة باوربا وآسيا وأفريقيه يشتمل على معلومات نفيسة على بلاد أمم أفريقيه الخاضعين اذ ذاك لمحمد على باشا وما فى بلادهم من الثروة الطبيعية وله غير ذلك من الاعمال

(٢) Lepsius (Charles-Richard) ـ مستشرق ألمانى ولد سنة ١٨١٣ م درس منذ صباه علم اللغات ومقابلتها ببعضها ونال بعد ذلك عدة ألقاب وأوسمة علمية وله مؤلفات جليلة فى علم اللغات واشتقاقها ومقابلتها ببعضها ثم انه صرف عنايته فى دراسة لغات مصر وآثارها القديمة ثم سافر الى مصر مع العالم الانكليزى دوبونسين (De Bunsen) وقدنجم

عن هذه السياحة التى استمرت اربع سنوات فوائد جليلة جدا وكان بصحبتهما كثيرون من علماء الانكليز والالمان(١٨٤٢) وبعد انعاد الى المانيا وتعين بها فى وظيفة علمية مهمة انكب على جمع وترتيب ابحاثه التاريخية والجغرافية والاتنوغرافية والارخيولوجية الخاصة ببلاد مصر ومن أهم مؤلفات لبسيوس كتبه الخاصة بآثار مصر والنوبة وتاريخ بلاد مصر وأول معبودات المصريين ورسائل على مصر واتيوبيا وشبه جزيرة سينا ثم كتاب عنوانه أهمية بعض الآثار المصرية فى معرفة تاريخ البطالسة وغير ذلك من المؤلفات

(١) Duveyrier [Henri] — سائح فرنسوى ولد سنة ١٨٤٠ كان له من اول حياته شغف بالسياحة ولما صمم على اكتشاف وسط افريقيه سافر الى بلاد الجزائر سنة ١٨٥٩ ثم قصد عمالة قسنطينه واخترقها متجها نحو الجنوب حتى وصل الى واحة يقال لها (الجوليا) وهي على نحو ٤٠٠ كيلومتر من الاغواط الا انه اضطر للعودة لان الاهالى كرهوا وجوده بينهم وبعد ان ساح في عدة بلاد من الصحراء الجزائرية انتقل الى الصحراء التونسية فى أوائل سنة ١٨٦٠ ثم عاد الى مدينة الجزائر وقد أصبح متمكناً من معرفة لغة الاهالى وأرسلته الحكومة سنة ١٨٦١ الى بلاد الصحراء ليعقد مع قبائلها معاهدات تجارية فذهب الى غدامس ثم الى غات ولم يمكنه التقدم جنوباً لان شيخ تواركها لم يسمح له بدخولها وقابله خارج أسوارها ومع ذلك فانه تمكن من المخابرة مع بعض مشايخ التوارك وعقد معهم باسم فرنسا معاهدات تجارية واستصحب بعضهم الى باريس(١٨٦٢) وقدمهم الى نابوليون الثالث وكافأته الحكومة والجمعية الجغرافية بالاوسمة والمنح وطبع سياحته سنة ١٨٦٤ تحت اسم اكتشاف الصحراء وتوارك الشمال [Exploration du Sahara, les Touaregs du Nord] ثم بعد ذلك تعين في عدة وظائف ومأموريات علمية فقام بها خير قيام وله أيضاً مؤلفات وسياحات أخرى أفادت الجغرافيا فوائد كبيرة

(١) Ruffenel (Jean-Baptiste-Anne) — سائح فرنسى ولد سنة ١٨٠٩ ومات سنة ١٨٥٨ بمدغشقر توظف بادارة البحرية سنة ١٨٢٥ وبعد ذلك بقليل خرج للسياحة وجاب بلاد امتيله والبرازيل والممالك المتحدة وبلاد الجزائر ومدغشقر وبوربون وسواحل أفريقيه وكان ذلك بين سنتى ١٨٢٦ و ١٨٤٢ م ثم ساح ببلاد سنغال بصفته عضو من جمعية قامت باكتشاف داخلية هذه المستعمرة وكان ذلك بين سنتى ١٨٤٣ و ١٨٤٤ وقد افاد بلاده بذلك كثيراً وله كتاب سياحة بافريقيه الغربية طبع سنة ١٨٤٦ ثم انه فى سنة ١٨٥٠ قبل مأمورية اختراق قارة افريقيه من الغرب الى الشرق بين الدرجه ١٠ و ١٥ من العرض الشمالى أى بالمنطقة التى كانت من المناطق المجهولة بافريقيه اذ ذاك وتوغل حتى وصل نهر النيجر الاسفل ومملكة سيغو ثم قصد تمبكتو ثم خانه أدلاؤه فوقع أسيراً في يد بعض القبائل ولم يطلق سراحه الا بعد ثمانية شهور وفى مدة أسره الف سياحته الجديدة ببلاد السود وألحقها بكلام على مستعمرة سنغال وغير ذلك وبعد عودته لفرنسا تعين حاكما لجزيرة سنت مارى بمدغشقر سنة ١٨٥٥ وهناك لقى حتفه

(٢) Mage (Abdon, Eugène) ـ ملاح فرنسوى ولد سنة ١٨٣٧ ومات سنة ١٨٦٩ اشتهر بالذكاء والاقدام منذ صباه سافر الى بلاد غابون ثم قاد حملة عسكرية فى سنغمبيا العليا وقد امتاز اثنائها باقدامه وتيقظه كما امتاز بكل ما قام به من الاعمال غير ذلك فأعلت حكومته درجته ولما عاد الى فرنسا حصل على الاذن له بان يرأس سياحة ببلاد سنغمبيا العليا وأفريقيه الداخلية كان السائح فيدرب (Faidherb) رسم خطتها من من قبل وكان القصد منها فتح طرق جديدة للتجارة الفرنسوية فخرج سنة ١٨٦٣ وذهب الى بلدة سيغو وسار على ساحل نهر النيجر ورسم خرائط ما اخترقه من البلاد ثم عاد الى فرنسا بعد مشاق ومتاعب جمة ونشر كتابا اسمه سياحة بالسودان وأفريقيه الشرقية مشتملا على مباحثه في الجغرافيا واللغات وعلم الشعوب وقد كافأته الجمعية الجغرافية

لها مما يمر بها نهر ديوليبا الاعلى ودوشيّو (١) الجهات المنخفضة من نهر أجوائى ولادسلوس ماچيار (٢) داخل بلاد الكنغو وغيرهم من السياحين والمكتشفين الذين اقتصرت سياحاتهم على أمكنة ضيقة وهم كثير وعملهم يدل على الهمة التي بذلوها فى معرفة افريقيه هذا وفى الزمن المذكور قاس العلماء

على ذلك بنشانها الذهبي ثم مات غرقا هو وسفينته وكل من بها على سواحل فرنسا بعاصفة شديدة هبت عليهم سنة ١٨٦٩

(١) Chaillu (Paul de) — سائح امريقى فرنسوى الاصل ولد فى نحو اول القرن الماضى سافر مع والده الذى كان اسس نزلة تجارية على ساحل افريقيه عند مصب نهر غابون وبعد ان تعرف احوال البلاد وتجهز بما يلزم سافر فى شتاء سنة ١٨٥٥ـ١٨٥٦ الى داخل القارة وأقام يجول بها مكتشفاً نحو اربع سنوات ومما وجده هناك سلسلة جبال يصل بعض قممها الى أربعة آلاف متر فى بلاد كثيرة الغابات وتلك السلسلة تمتد من الشرق الى الغرب وقد ظنها انها مركز خروج الانهار الاربعة الكبيرة التى بافريقيه وقد احضر معه كثيراً من الطيور الغريبة والحيوانات العجيبة كالغورلا والقرود العظيمة الخلقة مما ذكره هيرودوت ونشر فى سنة ١٨٦١ نشرة باكتشافاته وسياحته كانت لها رنة فى بلاد الانجليز وقد اشترت منه دار الآثار الانجليزية ما جمعه من الاشياء التى جلبها معه

(٢) Magyar (Ladislaus) ـ سائح مجرى ولد سنة ١٨١٧ ومات سنة ١٨٦٤ ساح بالممالك المتحدة بامريقا والهندستان وأقام بالبرازيل وبعد ذلك اشتغل بدراسة أحوال المستعمرات البرتغالية التى بافريقيه الجنوبية وخرج من بنجويلا مع قافلة كانت عائدة الى داخل البلاد وهناك تزوج بابنة أحد الملوك من آكلى لحم البشر وأقام معها عدة سنوات أجرى اثنائها اكتشافات عجيبة وقد طبع هذا القسم من أعماله بمدينة بشته (بست) (١٨٣٠) ثم دخل فى خدمة البرتغال وأسس لهم بعض المستعمرات

محيط قارة افريقيه بأجمعه ورسموه بدقة وأحكام تام مما يستدعيه فن الملاحة

الحضارة الافريقية

لو قارنا الحالة السيئة المحزنة التى عليها الجنس الاسود بأفريقيه بما عليه أهل أوربا الآن من الحضارة الفائقة والمدنية الزاهية الراقية لأدت بنا هذه المقارنة الى اعتقاد لا يعتوره شك هو انه لا بد من أزمنة طويلة واحقاب فسيحة تمضى قبل أن يصل الافريقيون الاصليون الى حياة عالية صحيحة لانهم من حيث الدين والآداب قد بقوا فى المرحلة الاولى منهما فهم جهلاء ميالون الى اعتقاد الخزعبلات يخضعون فى الغالب الكثير الى أخشن وأجمد الغرائز أما من حيث السياسة فانهم لم يجاوزوا الآن الشكل الابتدائى فى الاستبداد والظلم ونظام الاسترقاق القديم الوحشى الذى زالت آثاره الآن من بين أغلب الامم لا يزال معمولا به في بلادهم وأكل لحوم البشر لا زالت من العوائد المنتشرة فى حوض نهر الكنغو وغيره من البلاد كما سبقت الاشارة الى كل ذلك

ولكن مما يجب الاعتراف به ان المناخ له الفعل الكبير في اكثر ما عليه أهل السودان من الرذائل التى يوصفون بها كضعف العزيمة وضعف الاقدام على الاعمال وفضلاً عن ذلك فان الشرور التى نزلت بالافريقين المنكودي الحظ يجب أن يلصق أصلها بالبيض من الاوربيين وبالعرب من بعدهم

لان خطف العبيد الذى هو سبب الفقر ومصائب كثيرة كان يقصد منه سابقاً تدارك ما يلزم من هذا المتجر الانسانى لاسواق أمريقا وهل ننسى الاشربة الروحية المسمومة التى غمر بها الاوروبيون القارة المذكورة وما سببته من الاضرار وجلبته من المصائب على أهاليها ومع ذلك فانه يجب الاعتراف بان السود قد تقدموا تقدماً لا بأس به فى ميدان المنافع المادية لان أغلبهم صار يعيش فى أمكنة معينة من الارض وقد تعلموا الاستفادة من المملكة النباتية والحيوانية بزراعة الارض وتربية الماشية والعالم مديون لهم باستعمال كثير من النباتات كالذرة والنخيل والموز ولا ننسى أيضاً أن من أفريقيه خرجت حبة القهوة النفيسة وان سكانها قد أنسوا عدة حيوانات كانواع الكلاب والقطط وخنزير سنار والدجاج المعروف بدجاج فرعون وغير ذلك من الحيوانات وللسودانيين معرفة بصنائع اكثر مما كان يظن فيهم سابقاً فانهم يعرفون تجهيز الاطعمة وتجفيف لحوم الصيد والسمك وبناء الاكواخ الكبيرة الواسعة الموافقة للسكنى وعمل الاوانى وبناء الزوارق يتخذونها من جذوع الاشجار ونسج الملبوسات الخشنة وعمل الحصر والسلال والاسفاط وغير ذلك

وبينما كان الكثير من قبائل أمريقا والاوقيانوسية في العصر الحجرى كان الافريقيون يستخرجون الحديد والنحاس والذهب ويصنعون منها آلات وأدوات للزينة والقتال منذ عصور غابرة وقد توصلوا الى عمل أشياء اشتهرت

بدقة الصنع ولطافة الشكل ولاعتيادهم على الصيد والقنص والحرب مرنوا أيضاً على عمل الاسلحة المختلفة الشكل كالرماح والسهام والنبال وغيرها أما التجارة فانها من الاعمال التى يميل اليها السودانيون ميلاً تاماً والتجار الذين يجوبون الجهات الداخلية بافريقيه يجلبون معهم للسودانيين مصنوعات أوربية منها الاقمشة والخرز والاسلحة وذخائرها والمشروبات الروحية وغيرها ويأخذون بدلها منهم العاج والتبر وريش النعام والصمغ والبن وقد أصبحت هذه التجارة الآن في يد الاوربيين على الخصوص ثم فى يد العرب وهم يستأجرون السودانيين في نقلها من مكان الى مكان ومع ذلك فمن المحتمل جداً أن يأتى يوم ينتزع فيه منهم السودانيون هذا الاحتكار لاتصافهم بما يلزم التاجر الحقيـقى من الصفات كسهولة التعبير ودقة التلطف وحسن المعاملة ولما كانت التجارة الافريقية فى جهاد مع عوائق وموانع مختلفة كثيرة كانت ضعيفة جداً بنسبة ذلك ومن هذه العوائق عدم وجود نقود للمبادلة متحدة الشكل يقبلها الـكل لان نقود المبادلة هناك تختلف باختلاف الجهات فتارة تكون اصدافاً وقواقع وأخرى تكون قطعاً من الحديد والقماش أو قضباناً من الملح أو قروشاً أو ريالات من النوع المسمى بأبى طيره وغير ذلك وقـد تقدمت المواصلات بافريقيه نوعاً فى هذه السنين المتاخرة بانشاء الطرق الحديدية والملاحة البخارية فى الـكثير من انهارها وبحيراتها الا ان الطرق الممتدة من ثغورها البحرية والذاهبة لداخلها لا زالت غير كافية ولا يتم ذلك الا اذا تمت الطرق

المعتبرة نقط ابتداء وهى التى أخذت مصر وبلاد الجزائر وغانه العليا والسفلى وبلاد الرأس والساحل الشرقى فى مدها وتوصيلها الى داخل افريقيه ومتى امكن أيضاً الانتفاع بكل البحيرات والانهار القابلة للملاحة عند ذلك يمكن لتجارة افريقيه أن تنهض نهضة كبيرة وتثب الى الامام وثبة خطيرة هذا وبعد زمن ليس بالطويل يتم انشاء ذلك الخط التلغرافى الكبير المار بوسطها وهو الذى سيربط مدينتى الرأس والقاهرة ببعضهما

هذا وقد ازدادت الآن المستعمرات الاوربية بافريقيه مسطحاً واهمية بنسبة كبيرة جداً وكان ذلك فى القرن التاسع عشر الميلادى على الخصوص ومن نحو ثلاثين سنة على الاخص وقد كانت تلك المستعمرات فيماسبق قاصرة على نزلات تجارية على ساحل البحر واعلم ان الانجليز والفرنسويين والبرتقاليين والالمانيين والبلجيقيين والتليانيين كلهم بعد أن أخضعوا القسم الاعظم من سواحلها تقدموا الان وتوغلوا فى داخلها وأسسوا مبانى مختلفة ولما خافوا من وقوع نزاع وخصام يقوم بينهم بسبب هذه الاملاك والمستعمرات عقدوا بمدينة برلين مؤتمراً دولياً سنة ١٨٨٥ وبعد المداولات أقروا على الاحوال الواجبة التى تلزم لتعيين مواقع هذا الاحتلال الجديد والاعتراف به وقد اصبح الآن اكثر من تسعة أعشار أفريقيه تابعاً لدول أوروبا بعضه مستعمرات حقيقية وبعضه مناطق نفوذ لها تحتله فيما بعد ولا يخفى ان القسم الاكبر من افريقيه الاستوائية لا يكون الا مستعمرة استغلال فقط فان البيض أى أهل

أوربا لا يمكنهم الاقامة بها بخلاف جهات اطلس وأفريقيه الجنوبية والبلاد المرتفعة من نجودها الداخلية فانها قابلة للاستعمار الاوربى إستعماراً تاماً لموافقة مناخها وجودة هوائها

وماذا تكون نتائج هذه المواصلات والمناسبات التى قامت بين العالم الابيض بأوربا والعالم الاسود هل العالم الابيض سيحسن حالة الافريقيين وينهض بهم من حضيض التأخر الى ذروة الرقى ؟ ذلك ما نرجوه لهم لان الدلائل تفسح الآمال فيه سيما وأهل أوربا كما يقول علماؤهم يحسون بان الامر فى افريقيه بالنسبة اليهم لا يقتصر فقط على الاستفادة من الثروة التى تشملها بلادها بل لهم هناك عمل آخر هو تربية وتهذيب سكانها ومن الوقت الذى رفع فيه لفنجستون صوته في مصلحتهم تولد لدى الامم المتمدنة ميل ورغبة فى ذلك كانت نتيجتها ان اجتمع بمدينة بروكسل سنة ١٨٩٠ مؤتمر حضره مندوبون عن سبع عشرة دوله وأقروا فيه على قرارات كثيرة كلها ترمى الى وضع حد للآلام والمصائب التى تنجم عن التجارة فى الرقيق والى حماية الامم السوداء بادخال عوامل السلام والحضارة فيما بينهم وذلك لان العالم المتمدين لا يريدمن انتقال ملكية الاراضى بافريقيه أن تكون نتيجته القضاء على الاهالي الوطنيين سريعاً كما حصل بامريقا والاوقيانوسية بل أن العالم المتمدين يفهم ان الواجب عليه مساعدة السود للوصول بهم الى حالة أحسن من حالتهم أو ليردلهم تلك الحضارة التى وصلت اليه هو نفسه من جهات

النيل السفلى كما يقول مسيو اليزيه ريكلو .

النقص الحالى فى جغرافيا افريقيه ـ اعلم انه بعد المعلومات الوافرة التى حصلنا عليها فى هذا الزمن لا زال بافريقيه مع ذلك اماكن كثيرة فى احتياج لعمل المكتشفين فما بقى اتمام الاكتشاف العلمي لاغلب جهاتها وبقى أيضا معرفة أحوال بلاد واسعة داخلية وهى جهات لم يدخلها أوربى الى الآن تقريباً وهذه الجهات هى ـ أولا بلاد التبّو بالصحراء الشرقية بين فزان والواحات المصرية ـ ثانياً بعض جهات السودان الشرقى (حيث بلاد ودّاى) بين بحيرة شاد والنيل الاعلى اللهم الا ما كان من سياحة الدكتور نختيجال(١) ـ ثالثاً معظم الجهات الداخلية بغانه العليا بين ديوليبا ومملكتى اشنتى

(١) Nachtigal (Gustave) ـ طبيب وسائح المانى ولد سنة ١٨٣٤ ومات قرب الرأس الاخضر سنة ١٨٨٥ وحصل ان اعتلت صحته فانقطع عن التطبيب ثم ذهب الى بلاد الجزائر سنة ١٨٦١ ثم الى تونس والتحق طبيباً متطوعاً في جند كان أعده باى تونس لقتال بعض القبائل العاصية (١٨٦٣) وحصل ان غليوم ملك بروسيا كلف رولفس سنة ١٨٦٨ بان يحمل للملك برنو هدايا وتحفاً علامة لشكره اياه على مساعدته سياحي الالمان وهم بارت وفوجل وبورمان (Beurmann) وجيرارد رولفس المذكور ولما مر رولفس بمدينة تونس قابل هناك نختيجال الذي طلب منه أن يذهب هو الى كوكا عاصمة برنو فقبل رولفس طلبه وسار نختيجال الى طرابلس وغادرها سنة ١٨٦٩ الى فزان ثم الى مرزوق والقطرون ببلاد التبو التى لم يكن زارها أوربى قبله وهناك أخذ أسيراً ثم تمكن من الخلاص وعاد الى مرزوق وامضى بها فصل الشتاء ثم عاود السفر سنة ١٨٧٠ قاصداً برنو واكتشف بحيرة شاد واحسن سلطان برنو لقياه ثم اخترق بلاد كانم وبرنو وبقرمى (١٨٧٢) وأخيراً وصل الى ايشه (١٨٧٣) بعد

وداهومى ـ رابعاً قسم كبير جداً بالمنطقة الاستوائية بين زنجبار ونهاية خليج بنين وهي الجهات التي يكون بها منابع النيل وشارى وبنوى واجوا فى والزاير وزمبيزى ـ خامساً كل بلاد الغلا تقريبا (جنوبى بلاد الحبشة) ومعظم بلاد السومال الواقع في النهاية الشرقيـة التى بها رأس غاردفوى ـ سادساً كل الجهات الداخلية الواقعة الى الغرب من بحيرة تنجانيقا (وهي التى ساح فيها كل من برتن واسبك سنة ١٨٥٨ وساح فيها أيضاً بعدهما بزمن كل من لڤنجستون واستانلى وكرون) حتى الساحل الغربى ـ سابعاً كل الجهات الواقعة الى الجنوب والجنوب الشرقى تقريباً من تنجانيقا حتى نهر زمبيزى وسواحل موزمبيق لان السياحات التى قام بها لڤنجستون بهذه الجهات الواسعة من سنة ١٨٦٦ حتى سنة ١٨٧٣ وبقى فى السياحة الاخيرة منها نحو ست سنوات لم تكشف القناع تماماً عن هذه الجهات ـ ثامناً وأخيراً بعض الجهات الوسطى من مدغشقر

متاعب جمة ثم وصل الى دارفور ومنها الى بلاد مصر (١٨٧٤) وقد طبع سياحته هذه باللغة الالمانية سنة ١٨٧٥ وترجمت للفرنسوية سنة ١٨٨١ وعينته حكومته قنصلا لها بزنزبار ثم قنصلا لها عاما بتونس سنة ١٨٨٤ ثم جعلته قنصلا عاما فى أفريقيه الغربيـة وكلفته بتعيين حدود الاملاك التى استولت عليها هناك وكانت نفسه تحدثه بانه سيموت عن قريب كما أخبرهو بذلك الكردينال لافيجيرى (Lavigerie) قبل ان يبارح تونس ذاهباً الى محل مأموريته الجديدة وأراد الله ان يصدق حدسه فانه مات بعد قليل سنة ١٨٨٥ وهو بالبحر أمام جزائر الرأس الاخضر ودفنت جثته برأس النخيل وأقامت له الجمعية الجغرافية هناك أثراً لتخليد ذكره وجعلته فناراً فى آن واحد

جهات جبال اطلس

مرّاكش والجزائر وتونس وطرابلس

شكلها العمومى ـ اعلم ان جهات اطلس يحدها البحر والصحراء وكلها متشابهة تشابهاً كبيراً فى شكلها الجغرافى وكانت علاقاتها مع البلاد الواقعة على بحر الروم من أوربا فى كل وقت اكثر منها مع ما بقى من بلاد افريقيه وكثيراً ما يطلق بعضهم على هذه البلاد اسم بلاد البربر وافريقيه الصغرى ويسميها العرب بلاد المغرب

واشهر جبالها هى جبال اطلس وقد سبق الكلام عليها تفصيلاً وتتركب من سلاسل وهضاب منفصلة عن بعضها ومن نجود تركيبها واحد فى مجموعها تقريباً والجبال المذكورة عبارة عن طية أو ثنية جسيمة من طيات القشرة الارضية ويبتدئ اتجاهها العمومى من خط ممتد من بركان تيد (Teyde) بجزيرة تنريف الى بركان أتنا وهى موازية موازاة ظاهرة لاتجاه جبال الالب الكبرى وبذلك كانت جبال اطلس تابعة لأوربا الجنوبية لانه يرى فى تركيبها صخور من الارض الجيولوجية الثانية على الخصوص أى انها تتركب من صخور تشبه صخور جبال جوره ومن صخور طباشيريه أثر عليها الضغط الجانبي فأوجد بها تجعدات وتموجات كما أثر فيها أيضاً فعل المياه فانحفرت بها أودية على اتجاه الطية المذكورة وفتحت بها منافذ وثلمات وسط سلاسلها واعلم ان المياه هى التى

أوجدت الارض الثالثة في شكلها الاصلي وأرسبت في الاماكن المنخفضة طبقات الارض الرابعة كما يقول علماء طبقات الارض هذا والارض الثالثة تشغل مسافة عظيمة من جهات اطلس

وأعلى القمم في القسم الجنوبي من اطلس العليا أو اطلس الكبرى وهي التي تشغل مكاناً وسطاً في اطلس المراكشية قمة تَمْجُرت والعياشين وكانت هذه السلسلة قديماً تتغطى رؤوسها بالثلوج ولا تزال الآثار الدالة على ذلك باقية للآن ويفصل اطلس الكبرى المراكشية عن اطلس الشرقية الممتدة الى جنوب السلسلة الاصلية والموازية لها موازاة تامة وهدة طويلة تقطعها وديان في بعض اجزائها

وصفات هذه الجبال بالقسم الشرقي من مراكش مختلفة عن بعضها بعضاً وعلى الخصوص ببلاد الجزائر لانه يتفرع من محورها هناك نجود وهضاب كثيرة يبلغ ارتفاع الواحد منها نحو ١٠٠٠ متر ويحد تلك الهضاب في الشمال والجنوب سلاسل جبلية ففي الشمال جهات التل ويقطعها عرضاً ثلمات تقسمها الى هضاب وتلمات منفردة ذات منحدرات قائمة في جهاتها الشمالية ضعيفة الميل في سفوحها الجنوبية وأعلى ارتفاع لها هو ٢٣٠٠ متر وذلك في جبل جُرجُوره والى الجنوب اطلس الصحراء وهي مقسومة أيضاً الى أجزاء بأغوار ووهاد ثم تزداد عرضاً وارتفاعاً في جبل أوراس حيث تبلغ هناك ٢٣٣٠ متراً وبين السلسلتين المذكورتين نجود عالية متحدة الشكل في

سطوحها الغربية ويجتمع فوقها فى زمن الامطار مياه يحدث عنها برك سطحية أى لا عمق لها ثم تأخذ السلسلتان الاصليتان فى الاقتراب من بعضهما شرقاً الى أن تماسا فتغطيان مملكة تونس بما يتفرع عنهما من الجبال وهناك اختلاف وتضاد ظاهر بين الجهات الشمالية من اطلس الكثيرة التضاريس والمياه والخصوبة وهى المعروفة ببلاد التل وبين المنطقة الصحراوية التي تبتدىء من حضيض جبال اطلس الجنوبية وتكثر المراعى ومجارى المياه والواحات الخصبة بالجهات الغربية من هذه الجبال ولكن الى الجنوب من ذلك نجود تعرف هناك بالحماد وهى نجود تغطيها الأحجار والحصباء كما توجد الكثبان التي تعرف عند أهل الصحراء بالعروق

واعلم ان قرب البحر وقلة الامطار مانعان من أن ينبع من جبال اطلس أنهار عظيمة ومع ذلك فانه يخرج منها عدة أنهار من أشهرها مجردة وشلف وملوية ووادى سبو وأم الربيع ومن هذه الانهار مايزاحم الرين والرون وغارون فى طول مجراه واتساع حوضه ولكن لا يمكن أن تشبهها فى مقدار تصريف المياه وهى تفيض مدة أمطار الخريف والشتاء بينما لا يجرى فى الكثير منها صيفاً من الماء الا ما لا يكاد يذكر ولا يمكن أن يزيد مقدار متوسط التصرف الكلى فى أنهار مراكش وهى كما لا يخفى احدى جهات اطلس الكثيرة المياه عن ٢٢٥ متراً مكعباً فى الثانية الواحدة ويجرى فوق النجود العاليه غدران تنصب مياهها فى بحيرات ملحة فتصير أحواضاً مائية

تعرف باسم شطوط واحدها شط ولكن مياهها تنور فى فصل الجفاف ويتغطى قاعها بطبقة من الملح

وبالجنوب والشرق من أطلس وهدة عظيمة فيها شطوط تونس والجزائر وهذه الشطوط تجاويف مختلفة السعة ملأى بالملح أو الرمل أو الطفل أو الماء تعقب بعضها بعضاً يراها الانسان ممتدة على مسافة عظيمة ومن هذه الشطوط الشط الشرقي ويسمى شط الجريد وهو أعلى عن سطح البحر بنحو ٢٠ متراً أما الوهاد الواقعة الى الغرب من الشطوط الاولى فانها منخفضة عن سطح البحر كشط ملرير ومقدار انخفاضه نحو ٣١ متراً وكان العلماء قبل أن ينظروا فى أمر تلك الشطوط نظراً علمياً يظنونها خليجاً قديماً يكفى لاعادته الى ما كان عليه حفر برزخ قابس الفاصل له عن بحر الروم وقد ظهر خطأ هذا القول الآن بما ثبت من أن الشطوط بحيرات قديمة زال بعضها بالتبخرات ليس الا ولذلك فقد تركوا فكرة اغراق حوض الشطوط المذكورة وتحويلها الى بحر داخلى كما كانت سابقاً

والارض الواقعة حول تلك الوهدة العظيمة المذكورة كلها تميل نحوها وكان يصب فيها من الجنوب قديماً نهر يسمي اجرجار كان يبلغ اتساع حوضه هو والنهيرات التى تصب فيه اتساع حوض نهر الدانوب تقريباً وقد زال هذا النهر الآن ويعرف مجراه من الآثار الباقية الى يومنا هذا فى قاعه الجاف وعلى شاطئيه وفى المستنقعات والبرك والينابيع التى تتلو بعضها بعضاً

وهى ممتدة على مسافة عظيمة هنالك واعلم ان تقسيم جهات اطلس الى مناطق طويلة متوازية والى هضاب ونجود وأودية وأحواض مائية صغيرة يفصلها عن بعضها جبال صعبة الاختراق فى الغالب كل ذلك ساعد على تقسيم هذه البلاد السياسى ويعلم من التاريخ ان قد أغار على هذه البلاد كل من الرومان والوندال والبوزنطيين والعرب والترك والفرنسويين على التعاقب ومع ذلك لم يتم لامة منهم أن تمتزج وتختلط بسكان هـذه البلاد الاصليين المختلفى الاصول والاجناس اختلاطاً تاماً

هذا وتنقسم هذه البلاد الآن سياسيا الى أربعة أقسام هى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس

دولة مراكش

موقعها وحدودها ومسطحها ـ تعرف هـذه البلاد فى كتب العرب بالمغرب الاقصى وهى واقعة فى الزاوية الشمالية الغربية من قارة افريقيه وقد جرى العرف بتسمية كل هذا الاتساع العظيم المحصور بين المحيط وبحر الروم وبلاد الجزائر والصحراء باسم مراكش وهى تسمية غير حقيقية بالمرة لأن أكثر من نصف هذا المسطح خارج عن كل نفوذ لسلطان مراكش وذلك لان بلاد تيديكلت وتوات وغوراره وكل مجموع واحات الصحراء الواقعة الجنوب الغربى من بلاد الجزائر تعترف على الاكثر بنفوذ السلطان الدينى

ولـكنها لا تعترف له أصلا بسيطرة أو حكم أما السلطان فقد أعلن هو من جهته انه غير مسئول عما يقع من التعديات في هـذه الواحات على سياحى الفرنسويين والحال كذلك أيضاً في كل البلاد المعروفة بالصحراء المراكشية الممتدة من وادي قير الى المحيط والمشتملة على واحات وادى درعه ووادى نون والساقية الحمراء وكل هذه البلاد مستقلة عن سلطان فاس استقلالا تاماً وعلى ذلك يمكن تقسيم دولة مراكش الى قسمين الاراضى المخزنية وهى التى تمتد عليها حكم السلطان مباشرة والبلاد غير المخزنية وهى مجموع البلاد التى تمتنع قبائلها عن دفع الخراج والخدمة العسكرية أى انها هى البلاد التى لا تخضع للسلطان الا فى أحوال مخصوصة وبالقوة ويشمل القسم الاول ما يأتي مملـكة فاس القديمة ويتبعها مدينتا طنجه وتطاوين ومملـكة مراكش الحقيقية وهى الواقعة بين جبال اطلس والمحيط وبلاد السوس الممتدة على الساحل جنوبى رأس قير وواحات تافيللت جنوبى اطلس وواحة فجيج ثم عمالة وجده بالشمال الشرقي في حدود بلاد الجزائر

أما البلاد الغير الخاضعة فهى بلاد الريف أى جميع سواحل البحر الابيض المتـوسط تقريباً من ملويه الى تطاوين وقطر واسع شمالى أطلس بين فاس ومراكش بحيث لا يبقى للسلطان هناك الا ساحـل رباط الفتح ثم الاراضى العظيمة التى يشغل مركزها شط تغرى تقريبا وهى الى الجنوب من وجده ومن الجهات الخارجة عن نفوذ السلطان ايضا نجود واودية اطلس الوسطى

هذا ولو اعتبرنا مراكش فى اكبر عرضها الجغرافى بما يتبعها من الصحراء وصرفنا النظر عن اقسامها السياسيه لرأينا ان طول سواحلها يبلغ ١٧٥٠ كيلومتر (منها ٤٢٥ على بحر الروم و٦٠ على المضيق و١٣٠٠ على المحيط) ويبلغ مسطح هذه البلاد كما يؤخذ من اضبط الخرائط ٨٠٠ر٠٠٠ من الكيلومترات المربعة تقريباً منها ٢٠٠ر٠٠٠ للبلاد الخاضعة للسلطان مباشرة وما بقي لاراضى القبائل المستقلة وللواحات التى يلصقها الجغرافيون بمراكش هذا ومن الصعب وصف هذه البلاد وصفاً مضبوطاً لأنه بالرغم عن مجاورتها لأوربا فلا يعرف من أشكالها الشهيرة وأحوالها الكبيرة الا القليل وقد ذكر احدث السياح ان جميع ما بين أيدينا الآن من خرائط مراكش خطأ ومع ذلك لم ينشر لنا واحد منهم الى الآن خريطة مضبوطة زيادة على ذلك ان اكثر من ثلثي مراكش لم يكتشف اكتشافاً علمياً وما يعرف عن الثلث الباقى قاصر على رهنامجات صغيرة من غير ذكر وصف عام شامل لما اخترقه السياحون من أراضيها وكذلك لا يصح أن نعتمد على ما نشر من الرسائل والمؤلفات التى يسميها أصحابها باطلاً (الوصف التام لمراكش) وما ماثل ذلك من الالفاظ والتعبيرات

سواحلها ـ اعلم أن سواحل مراكش الواقعة بين حدود الجزائر وجبل موسى من جهة مدخل مضيق جبل طارق يعلوها جبال صعبة المرتقى هى جبال الريف وقل أن يكون بها ساحل منبسط أو ملجأ للسفن حتى الصغيرة منها

ولا يوجد على نفس المضيق بين جبل موسى ورأس أسبرتل المعروف لدى الاهالى باسم طرف الشقّر غير مرسى متوسط الاتساع هى مرسى طنجه ثم ينحرف الساحل فجأة نحو الجنوب الغربى وليس به ثغور بحرية جيدة أصلاً رغماً عن امتداده العظيم وساحل البحر بين طنجه والصويره (مغادور) والمسافة بينهما تزيد عن ٦٠٠ كيلومتر فى كل جهاته تقريباً حتى عند قاعدة الجبال الساحلية رملى منخفض خطر على الملاحة وتجتهد السفن فى الابتعاد عنه ولا يصل عمق الماء فيه الى ٢٠٠ متر الا على بعد يزيد عن ٥٠ كيلومتراً من الساحل المذكور وعلى الساحل كثبان يثبتها على المنحدرات المواجهة للبحر ما ينبت هناك من أشجار الفستق خصوصاً واكبر صخرة يصادفها الانسان فى هذه المسافة العظيمة هى صخرة رأس القَنْطو (C. Cantin) قال بعضهم ان فوق هذا الشاطىء علامات تدل على ان الارض قد ارتفعت فى عدة نقط منه ويظهر ان مدينة الصويره واقعة فوق مسطبة فى أرض انخسفت قديماً أما ثغرا العرائش ورباط الفتح فليسا الا مصبين لنهرين أما ثغور الدار البيضاء ومزغان أى الجُدَيدَة ومغادور اى الصويره فكلها مراسى واقعة على الساحل تماماً ورأس قير حيث تنتهى سلسلة اطلس الكبرى هو اكبر بروز فى هذا الشاطىء الذى بعد أن يكوّن ثغر اقادير يمتد الى الجنوب الغربى ويكون فى هذه المسافة منخفضاً رملياً الى أن يصل الى رأس جوبى أو رأس أبو البيشه الواقع أمام جزيرة قناريا الكبرى (وفى عرض واحد معها) شمالى مصب

الساقية الحمراء وهى نهير الى أقصى الجنوب ببلاد مراكش على ساحل المحيط
هذا واعلم ان سواحل مراكش التى على المحيط خالية من الجزائر بالمرة وجزائرها القليلة الصغيرة الواقعة على ساحل بحر الروم لا قيمة لها وكلها تابعة لاسبانيا وأراضيها صخرية جرداء وقد اتخذتها اسبانيا منفى لأرباب الجرائم

مناخ جهات اطلس

مناخ مراكش - مناخ مراكش صحى على العموم ودرجة حرارتها أقل ارتفاعاً على السفوح الشمالية من جبل اطلس اكثر مما يمكن أن يظن بنسبة عرضها وهو ينقسم مع ذلك الى خمس مناطق مناخية تحدث فيها اختلافات محلية وعَرَضية وهى - أولاً منطقة الساحل ولا يشتد بها البرد أصلاً وحرارة صيفها معتدلة بسبب نسيم البحر وبسبب الجبال التى تمنع الرياح الآتية من الصحراء وتهب بها الرياح التجارية معظم السنة ويمتاز مناخها وخصوصاً مناخ الصويره بعدم تغيره وبقائه على حالة واحدة تقريباً أما ساحل بحر الروم والساحل الجنوبى من المحيط الذى يؤثر عليه مجاورته للصحراء فان مناخهما متغير - ثانياً ان المنطقة الاولى وان كانت أقل عن هضبة اطلس الكبرى ارتفاعاً الا انه بالنسبة لارتفاعها عن سطح البحر وقربها منه كانت أشد رطوبة صيفاً واكثر ثلجاً وبرداً فى الشتاء - ثالثاً ان منطقة السهول الداخلية المحصورة بين سلاسل الجبال معرضة صيفاً الى حرارة شديدة بحيث لا يلطفها لا النسيم ولا ارتفاعها عن سطح البحر وتسقط فيها أمطار غزيرة فى فصل الشتاء - رابعاً ان منطقة الجبال

الـكبيرة يصيبها كل ما يقع من الشدائد فى فصل الشتاء هناك وتستمر الثلوج فوق قممها العالية أغلب السـنة ـ خامساً ان المنطقة الصحراوية وهي بلاد رملية على العموم قليلة المياه والغابات لـكنها كثيرة الواحات ويسقط بها أحياناً في فصل الشتاء أمطار غزيرة يعقبها حرارة شديدة

هذا ويبتدىء سقوط الامطار الغزيرة فى بلاد الساحل فى نهاية شهر اكتوبر ويأخذ الحر يشتد من شهر مارس والحاصل ان بلاد مراكش أحسن تقسيماً عن بلاد الجزائر بالنسبة لغزارة الامطار حتى ان الرياح الشرقية تجلب معها بعض الرطوبة في الجهات الشمالية من مراكش مع انها تكون جافة فى العادة

مناخ بلاد الجزائر ـ تعد بلاد الجزائر من البلاد الحارة بالنسبة لموقعها غير انها لما كانت ممتدة على نحو أربع درجات من الشمال الى الجنوب كانت بها كل المناخات وكل الحاصلات من مناخ البلاد المدارية الى شتاء الجهات الشمالية الشديد وليس بالجهات المنخفضة المجاورة للبحر ببلاد الجزائر والتى يطلق عليها العرب اسم بلاد الساحل عموماً في الحقيقة غير فصلين متساويين تقريباً هما فصل الجفاف أى الصيف وفصل الامطار أى الشتاء ويستمر الاول من ابريل الى سبتمبر والثانى من اكتوبر الى مارس وشهرا يوليه واغسطس أشد الاشهر جفافاً وحرارةً وامطار الصيف هناك ضعيفة ولا تبقى الازمناً يسيراً بخلاف أمطار الشتاء فانها غزيرة وتكون كالسيل فى بعض الاحيان

بحيث ان متوسط ما يسقط من مياهها يكون اكثر مما يسقط منه بفرنسا غير ان أوقات سقوطها هناك أقل منها بفرنسا واكثر البلاد أمطاراً عمالة قسنطينة ويهب من البحر صيفاً نسيم يكون هبوبه بانتظام واستمرار بحيث يخفف شدة الحر جداً وحرارة الشمس فى الشتاء قوية حتى تجعل الشتاء لطيفاً محتملاً كما تساعد على نمو النباتات

وفصل الربيع الذى لا يوجد فى الحقيقة ببلاد الجزائر غالباً الا في كتب التقاويم موجود بكل صفاته فوق جهات التل فالسكان هناك يتمتعون بكل لطائفه ومسراته وهذه الملحوظات تنطبق خصوصا على الجهات الساحلية أى الجهات التي استفاد منها أهل أوربا فى الاستعمار ولكنها تتغير تغيراً بينا متى دخل الانسان فى الاودية وذلك لانه بمجرد الابتعاد عن الساحل والصعود نحو النجد يصير المناخ أوربيا اكثر منه افريقيا والاشجار العظيمة التى تغطى منحدرات هذه الاودية الجميلة كالسنديان والفستق والزيتون البرى والصنوبر والفلين والحور الابيض كلها تذكر الانسان هناك بأوربا كما يذكره (الأوكاليتوس باوستراليا) وأراضى الجهات المذكورة خصبة جداً بحيث تؤيد معنى التسمية التى كان يطلقها الرومان قديما على بلاد التل ويعنون بذلك الارض المغذية الحقيقية ولارتفاع موقع مدن الجهات الداخلية من بلاد التل كانت أحوالها الصحية جيدة للغاية وشتاء أوربا هو شتاء هذه الجهات وقد اندهش الفرنسويون فى أول دخولهم لما وجدوا الثلج والجليد يغطيان أراضيها

هذا ولا يمكن ذكر مناخ بلاد الجزائر من غير التعرض لذكر الريح المعروف باسم سيرُكُّو وهو ريح حار يهب من الجنوب فى فصل الجفاف ويصل الى سواحل البحر ولشدة حرارته يصيب الاجسام منه أذى وهزال حقيقى وهذا الريح هو بعينه المعروف بريح الخماسين فى مصر

مناخ تونس — يمكن أن تعد بلاد تونس بين البلاد الحارة المعتدلة اذا قطعنا النظر عن الصحراء التابعة لها واقتصرنا على بلاد التل والنجود فهي على ذلك مثل ايطاليا وفرنسا الجنوبية واسبانيا وبلاد الجزائر والفرق بينها وبين بلاد الجزائر ان لتونس ساحلين مطلين على البحر لا ساحل واحد كما فى الجزائر وانها ليست منعزلة مثلها عن الصحراء فالجبال التى تفصلها عن الصحراء أقل ضخامة وارتفاعاً عنها بالجزائر والوصف الاول من الوصفين المذكورين مفيد لتونس وثانيهما مضر بها وينشأ من أولاهما صيرورة مناخ تونس فى مجموعه أقل حرارة وبرودة عن مناخ بلاد الجزائر وينشأ من الثانى سهولة دخول الرياح الجنوبية بها

وليس فى فصول السنة هناك ما يجعلها تشبه فصول أوربا لان فصل الشتاء الذى يمكث مدة شهرين وربما امتد فى بعض السنين أكثر من ذلك لا يدل عليه هناك لا ثلج ولا جليد (الا فى الجبال المرتفعة) بل هو فصل أمطار تكون غزيرة أحياناً الا ان سقوط مثل تلك الامطار يكون نادراً فى الاغلب ويحب التونسيون هذا الشتاء لهذه الامطار خصوصاً متى

كانت غزيرة كثيرة السقوط لان كثرتها وغزارتها فأل حسن أكيد دال على جودة المحصول لانه لو حدث جفاف توقعوا القحط ويساعدهم الشتاء الممطر أيضاً على تخزين المياه فى صهاريجهم . وأصح الرياح بتونس الرياح الآتية من البحر وتجلب معها الامطار ولكنها ليست منتظمة دائماً وكثيراً ما يعتريها تغير فجائى ويهب فى خليج تونس ريح شديد يضطرب به الماء ويعرف هذا الريح لدى النصارى من القرون الاولى باسم سيبريين (Cyprien) لانه كثيراً ما يقع في يوم الاحتفال بموت مطران لهم يسمى سيبريين وقد تساءل العلماء عما اذا كان مناخ تونس قد تغير عما كان عليه مدة الرومان وعما اذا كان أقل مطراً الآن عما كان عليه اذ ذاك وقد قال بهذا القول الاخير أغلب الذين كتبوا على تونس ولكن يظهر ان الحق ليس بيدهم وأذا كان حصل تغير حقيقة فليس تغيراً أصلياً هذا ومناخ تونس صحى على العموم وان كان رديئاً فى جهات كثيرة منها كبعض الاودية والسهول الداخلية حيث الاراضى هناك ليست بذات سفوح ولا مصارف لتصريف المياه فيشتد الحر ولا يتجدد الهواء

مناخ طرابلس — من المعلوم ان بلاداً تبتعد أقطارها جداً عن بعضها واقعة فى مواقع متباينة من حيث الارتفاع عن سطح البحر والعرض الجغرافى والبعد عن البحر وغير ذلك كما هو الحال فى ايالة طرابلس فلا بد وان يوجد فرق كبير في المناخ بين جهاتها المختلفة الواسعة كما يوجد تباين

ظاهر جداً على الخصوص بين جهاتها المجاورة لبحر الروم وجهاتها الواقعة فى الصحراء ومناخ البلاد الواقعة على ساحل البحر معتدل تماماً يشبه مناخ مابقى من أفريقية الشمالية ولكنها لما كانت واقعة الى الجنوب أكثر منها كان متوسط مناخها أعلى ببعض درجات عن متوسط مناخ الجزائر وتونس وتعاقب هبوب نسيم البحر والبر يلطف شدة الحر كما يخفف برد الشتاء وكلما ابتعد الانسان عن الشاطىء كان الفرق عظيما بين هواء الليل وهواء النهار ولما كان نجد برقه مرتفعاً وكانت تهب على جهاته أهوية متخلخلة برطبها النسيم البحرى المنتظم كان مناخها يشبه مناخ ايطاليا الجنوبية مشابهة كبيرة أى انه جاف صحيح مقو للابدان وهو يفضل على مناخ جزائر ماديره بالنسبة للمصدورين

ومناخ البلاد غرباً الى ما خلف الجهات الجبلية وعند قاعدة نجد برقه شرقاً قارى صحراوى ومتوسط درجة الحرارة السنوى هناك مرتفع جداً بسبب طول فصل الصيف وبسبب انعدام رياح الشمال تماماً وعدم وجود النسيم البحرى التى تحول الجبال دون هبوبه وأكبر خطر يهدد حياة الكائنات العضوية فى هذه الجهات هو الفرق الجسيم بين الشتاء والصيف وبين الليل والنهار فعند طلوع الشمس شتاء لا يتجاوز الترمومتر الخمس أو الست درجات أما في الليل فان الماء ينجمد في عدة جهات وقد شاهدوا الثلج على قمة النجد المذكور أما فى الصيف فالامر على عكس ذلك لان

الترمومتر يبقى نهاراً بين ٣٥ و ٤٠ درجه وقد قال السائح دوفرييه انه شاهد الحر وصل فى شهر يوليه ببلدة مرزوق الى أزيد من ٤٤ درجه في الظل وكثيرا ما يصل الى ٥٠ فى الصحراء وحتى يصل الى ٦٠ فى الشمس

وكل بلاد طرابلس ما عدا برقه جافة بالمرة وكمية ما يسقط من المياه بها قليلة جداً دائماً حتى ما يسقط منها على الساحل بخلاف ما يسقط على سفوح الجبال الشمالية فانه ضعف ما يسقط منه هناك لان الجبال تحول دون مرور الابخرة التى تجلبها معها الرياح الهابة من بحر الروم فتحيلها الى أمطار والبلاد الواقعة الى الجنوب من ذلك لا يوجد بجوها رطوبة أصلاً وعلى ذلك تبقى جهات بالصحراء هناك سنين كثيرة لا تنزل بها قطرة مطر واحدة والامطار نادرة السقوط فى بلاد فزان وان أمطرت فلا يكون الا فى فصل الشتاء أى حينما تتصادم رياح الشمال مع رياح الجنوب والهواء هناك جاف جداً حتى لا يسقط الندى رغماً عن برودة الجو ليلا مع ان برودة الجو ليلا فى ظروف عادية تكون سبباً في تكوّن الندى أما البلاد التى تسقط بها الامطار بدرجة كافية تقريباً فهى بلاد برقة وذلك لانه بسبب موقعها الذى يشبه الجزيرة تقريباً كانت كل الرياح الا رياح الجنوب تجلب لها هواء محملا بالرطوبة وعند اجتياز هذا الهواء سفوح الجبل الاخضر يبرد ثم يتحول الى أمطار وأحياناً تكون هذه الامطار غزيرة حتى انها تنحدر بشدة من القمم الى الاودية والوهاد ومع ذلك فان متوسط كمية تلك الامطار السنوى

لا يزال ضعيفاً لانه لا تسقط أمطار أصلاً من مايو الى نوفبر وبعض هذا الماء وهو الذى يذهب فى الاخاديد والشقوق يمد الينابيع الكثيرة التى تتفجر هناك فى أمكنة عديدة

ومناخ طرابلس صحى على العموم لجفاف هوائه ولا يكون مضراً بالصحة الا فى الاماكن المنخفضة حيث تركد المياه وتأسن ومن جهاتها المضرة بالصحة للأجانب خصوصاً جهات السبخات ببلاد طرابلس الاصلية وواحة أوجلة ووهدة مرزوق فى فزان وقد شبهها السائح نختيجال من حيث رداءة مناخها بالجهات ذات المياه الراكدة الواقعة حول بحيرة شاد وقال ان مرض الحمى كثير الانتشار هناك وهى تصيب العرب والبربر فى مرزوق فيعتريهم منها هزال وضعف يلازمانهم مدة حياتهم ومن الامراض المتفشية فى كل بلاد طرابلس لا بواحاتها فقط الرمد ويساعد على شدته وانتشاره الغثير المتطاير فى الجو فى غالب الاحيان ويزيد عليه عدم الاعتناء بالنظافة هذا أما بقية الامراض التى تنتشر هناك فهى نفس الامراض التى تتفشى بالبلاد المماثلة لها بالجزائر وتونس

الحاصلات الطبيعيه ببلاد البربر وطبيعة اراضيها

مراكش ـ اعلم ان جبال مراكش تتغطى عموما بطبقة سميكة من الارض الخصبة واراضيها الزراعية العادية تتركب من الطفل والرمل تحتها طبقات جيرية

معادنها ـ قدوهم الناس [illegible] لهم ان بلاد مراكش [illegible] ة
وافرة ومما قوى هذا الوهم وجودا لان والعلا [illegible]
الذهب وهو في عدة اماكن ويوجد على هيئة شذور وتراب متحد
بالكوارتز والاسپات الجيرى والنحاس ويشاهد في قاع النهيرات ببلاد
السوس يلمع لمعانا ويوجد ايضا فى وادى نون وبالوادى المذكور كذلك معادن
ومناجم للنحاس كثيرة وافرة للغاية ومن معادن مراكش ايضا الحديد وهو
كثير الوجود جداً بجبال اطلس ويرى على الحالة الاولى من تكونه كتلا
جسيمة او عروقا ويكون ذلك على الخصوص بجبل الحديد ولا يستخرج
الا في الجهات التي لا تخضع للسلطان ومنها الانتيموان وهو كثير بجبال تيدلا
ومنها الأثمد المعروف بالكحل وغيرها وكلها من معادن مراكش وبالقرب
من مدينتى مراكش وآزمور معادن كبريت يأخذ منها اهل الجبال
ما يستعينون به على صناعة البارود اللازم لهم ومنها أيضاً الرصاص الفضى
قرب تطاوين ويظن بعضهم ان كثيرا من عروق مناجم الاندلس تتولد فى
مراكش وبالجبال كثير من الملح لاندرانى بل ان هناك جبالا بتمامها
مكونة منه ويؤكد العارفون وجود لفحم الحجرى بعدة أماكن الا أن
الحكومة تمانع فى كل بحث وتفتيش لوقوف على تلك المعادن ويستخرج
الجص قرب مراكش وفاس ويظهر ان مناجمه كثيرة وبكل البلاد هذه ومنها
البلور الصخرى الجميل وهو ببلاد الريف ويوجد بها ايضا من الاحجار

الكريمة الكركهان وغيره ومن معادنها الكثيرة ايضا الرخام المجزع ويوجد على سطح الارض ومنها ايضا المغره الحمراء وهى كثيرة جدا

اما المياه المعدنيه فكثيرة بمراكش الا ان خصائصها وفوائدها وتحاليلها لم تعلم للآن وبالقرب من طنجه ينابيع معدنية جديدية

نباتاتها ـ اعلم ان نباتات مراكش فى مجموعها هى من نباتات بلادبحر الروم وتشبه كثيراً نباتات اسبانيا واكثر من العشر من أنواعها خاص بمراكش وبجهاتها الجبلية والسهلية غابات كثيرة ومراكش اكثر مياهاً ونباتات وغابات عن بلاد الجزائر ومنظر الجهات الشمالية منها يشبه كثيراً عمالة قسنطينه واكثر الاشجار وجوداً بجهات الشمال هى البلوط الاخضر والفلين والصنوبر والخرنوب والقطلب والارز والاقاقيا والعفص والدفلى وكلها مما تزدان به شواطىء الانهار وباطن الاغوار وكلما تقدم الانسان نحو الجنوب صادف أشجاراً من فصيلة المستحية والعرعر والنخيل وينبت النخيل فى طنجه ولكنه لا يثمر وبمراكش أيضاً كثير من أخشاب الحريق وأخشاب النجارة بأنواعها ولوفرتها يمكن أن يصدر منها للخارج مقادير عظيمة ولكن الغابات هناك لا يعتنى بأمرها وبها أنواع كثيرة من الصموغ أشهرها أربعة هى صمغ الفربيون (التاكوت) وهو مسهل شديد يستعمل فى الطب لزقاً منفطة والثانى السندروس ويدخل فى تركيب الادهان والثالث صمغ احمر يعرف فى التجارة باسم صمغ مراكش ويستعمل فى تهيئة الاقمشة

والرابع صمغ ذورائحة حادة يرسل الى مصر وبلاد العرب حيث يستعمل فى التبخير (الفاسوخ) ويجمع سكان الجبال من فوق الصبار بيض القرمز وهو حشرة نصفية الجناح يأخذ منها صباغو مراكش لوناً قرمزياً لا نظير له

ومن الاشجار الاهلية المشهورة جداً بمراكش شجر يسمى لوزالبربر وكثيراً ما يشبهونه بالزيتون ولا يكون الا بالجهات الجنوبية جنوبى وادى تنسفت وهو ينبت فى أقل الارض خصوبة ولا يحتاج للسقى أصلاً فينبت على جوانب الجبال القاحلةماداً جزعه المعوج الكثير العقد واغصانه المتعرجة ذات الاوراق الضامرة وتأكل الحيوانات الداجنة غير الخيل والحمير ثمره بشراهة ويأخذ الاهالى عجمه ويستخرجون منه زيتاً له رائحة مخصوصة أما خشبه فانه صلب جداً ولذلك سميت شجرته بشجرة الحديد وخشبها بالخشب الحديدى

اما أشجار الزيتون فكثيرة جداً وهم يتركونها على الحالة البرية ومن النباتات أيضاً الكرم والتبغ ولو اعتنوا بزراعتهما وعمموهما لاعطيا غلة وافرة ومنها الحناء وتزرع خصوصاً ببلاد آزمور والجديدة ويستعملها اليهود والمغاربة بكثرة ومنها السنديان وليست قشوره مطلوبة بكمية كبيرة كما كانت تطلبها التجارة الاجنبية سابقاً ومنها القطن وينبت طبيعياً ولكنهم لا يعرفون العناية به ولا يوجد ببلادهم آلات لحليجه ومنها قصب السكر وقد كان قديماً كثير جداً أدخله العرب هناك كما أدخلوه أيضاً باسبانيا ومن اسبانيا انتقل الى جزائر قناريا

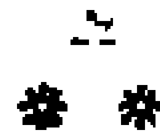
ومن قناريا الى اتيلة وبلاد مراكش موافقة لزراعة التوت وتربية دود الحرير لو مال اهلوها الى الاشتغال بصناعة تحتاج لعناية كبيرة ويكثر العسل بهذه البلا لذلك كان من حاصلاتها الشهيرة شمع العسل

والثمار بهذه البلاد كثيرة متنوعة منها العنب والبرتقال والليمون والبلح ومن البلح نوع خاص ببلاد تافيللت وهو كبير الحجم كثير الدسم ونوع آخر يعرف بالسكرى وهو صغير الحجم يابس يذوب فى الفم كما يذوب السكر النقى تماماً ومنه نوع آخر شفاف كالبلور ومن الثمار أيضاً الموز والرمان والتين واللوز والكمثرى والتفاح والبرقوق والجوز والقسطل والخوخ وغيرها كثير ومن ثمارها البرية العناب والنبق والصبار والخرنوب والعوسج والقطلب وغيرها ومن حاصلاتها النباتية أيضا الحنطة والشعير والذرة والارز والفول والحمص والبسلة والعدس وكل أنواع الخضراوات وكذا الكتان والزعفران والسمسم والآنيسون والكزبرة وكلها من الانواع الجيدة ثم الشمر وعباد الشمس والنخل و قبار وغيرها وكلها تنبت من تلقاء نفسها وبالاقاليم الجنوبية على الخصوص ومما لا شك فيه ان بلاد مراكش بها من النباتات الطبية ونباتات الصباغة شيء كثير مما هو غير معروف لدى أهل أوربا وغيرهم

الحيوانات ـ الحيوانات ببلاد مراكش كثيرة الانواع لا تختلف عن الموجود منها ببلاد الجزائر الا فى أنواع قليلة ولا يوجد الاسد والفهد الا ببعض جهاتها خصوصاً بجبل الريف بالقرب من حدود الجزائر ومن حيواناتها

أيضاً الدب والحلوف وهو كثير والقرود وهى قليلة والموجود منها هناك هو نفس الجنس الذى يوجد بجهات جبل طارق ومنها النعامة والغزلان وهى كثيرة الانواع والاشكال وكلها بالجهات الجنوبية والحية القرناء والثعابين والعقارب وكلها تكثر فى بعض الجهات فقط ومنها علق الدم ويصدرون منه الى الخارج قدراً وافراً وخيلها وبغالها تعتبر فى الدرجة الاولى من حيث أجسامها وصفاتها وفراهتها وبغالها جميلة المنظر تصبر على السير وتسرع فيه حتى انها لا تعدو عدواً بل تطير طيراناً ومنها الحمير والجمال وتكثر بالجنوب حيث القوافل الكبيرة ومن جمالها المهارى وهى مشهورة بعدوها ومنها الضأن والمعز وهى تسرح فى المراعى وعلى سفوح الجبال

وأعظم ضرر يصيب المزروعات هناك يأتى من الجراد وهو أنواع كثيرة وأشده خطراً الاحمر الجاف ويأتى من الصحراء فى شهر مايو ويلقى بيضه فى الحقول بعشرات الملايين ثم يفقس فى يونيه ويوليه وأغلب انهارها كثيرة السمك وكذا البحار المحيطة بها حتى يمكن أن تشبه بجزيرة الارض الجديدة ومنها السلاحف وتكثر فى بعض الانهار وتختلف حيوانات بحارها قليلا عن حيوانات بحر اتتيله وقد كان لخليج طنجه وسواحل البربر حتى الرأس الابيض شهرة لدى الرومان في أنواع كثيرة من السمك



بلاد الجزائر

﴿ حاصلاتها الطبيعية ﴾

نباتاتها ـ لو أردنا الحصول على معلومات مضبوطة عن نباتات بلاد الجزائر وجب علينا تذكر الاحوال الاساسية فى شكل أراضيها وان نعرف ان بها جهات تختلف عن بعضها اختلافاً بيناً وهى جهات التل وجهات النجد وجهات الصحراء وقد وصف أحد قواد الجنود من الفرنسويين هذه الجهات وصفاً عمومياً بالنسبة لما ينبت بها من النباتات التى تخرجها أرضها من تلقاء نفسها فقال ينبت بجهات متيجه وهى سهل جميل بعمالة الجزائر أشجار العود والنخيل والتين الشوكي والبرتقال وكلها لا تصلح بجهات اطلس لان أشجار اطلس هى أشجار فرنسا الجنوبية وهى الدردار والبلوط الاخضر والصنوبر والعفص والسرو وغيرها وأشجار الصحراء (أى النجد) هى الفستق والعرعار والخرنوب والتمر هندى وينبت الاخيران بالجهات الرطبة وينبت فى بساتين القصور أى القرى العربية الواقعة بالجهات الغربية من النجد المذكور كل الاشجار المثمرة التى تنبت بفرنسا وبمدينة الجزائر وأشجار جبل عامور وجبل سحارى الواقع بين عامور وأوراس هى الفستق والعفص والسرو والصنوبر والبلوط الاخضر وهو ينبت بالجهات العالية ولا يثمر النخيل فى سهل متيجه المذكور ولا يوجد أصلا بجبال اطلس (الاودية العالية من

بلاد التل) ولا بالنجد ولا بجبل عامور فهو لا ينبت الا بالصحراء حيث يثمر اثماراً وافرة لهذا عرفت تلك الجهات باسم بلاد الجريد وبعد هـذه الحدود والامكنة يندر وجود الحنطة والشعير ويكون التمر هو الاساس فى غذاء الاهالى وفى شهرى مايو ويونيه ينبت بالنجد قدر وافر جداً من الحشائش الجيدة ولا تكون هذه الحشائش بالصحراء الـكبرى الا فى بعض جهاتها الرطبة ويكثر ببلاد الجزائر نبات الحلفاء فى كل جهاتها قال ذلك القائد ان منظر البلاد العمومي كان وقت وجوده هناك كالمرج العظيم من الحلفاء وفى أواخر يونيه تجف تلك الحشائش وكذا الحلفاء فتتغذى منها الحيوانات الداجنة ثم تعود الاراضى فتخضر ثانية بعد نزول الامطار الاولى فى شهر نوفمبر اه

هذا وقد أصبحت الحلفاء الآن من أهم موارد الثروة ببلاد الجزائر خصوصاً بعمالة وهران وتصدر الى انجلتره ويصنعون منها الـكاغد وينبت بمروج بلاد الجزائر حشائش كثيرة جيدة تستعمل جافة لغذاء الخيل لانها كلها تقريباً نباتات بقولية وأشهر مايزرع هناك من الحبوب الحنطة والشعير لا غير ومع ذلك فان بعض الجهات تزرع الذرة أيضاً

ومن النباتات هناك أيضاً الفول والبسله والهليون والبصل والجزر والبطاطس وغير ذلك من الخضراوات التى تصدر خضراء وجافة ويكون منها للسكان مكاسب وافرة ومما يجود ببلاد الجزائر التوت غير ان زراعته لم تنتشر كثيراً والـكرم وحاصلاته كثيرة جداً والزيتون وينبت هناك في كل مكان

تقريباً وهو من أهم موارد الثروة والبرتقال والليمون وأحسن مزارعهما فى البليدة وبنى موسى وشرشيل ويصدرون منهما مقادير وافرة جداً والتين الشوكي والخيار والقاوون والقرع وغيرها من النباتات المنتشرة هناك ومنها أيضاً المشمش والعناب وثمره جيد والموز والجوز والقسطل الا أن أهم هذه النباتات وأنفعها وأشهرها هو النخيل ويعتنى المغاربة جداً بزراعة الأزهار ومن نباتات الصناعة التبغ والقطن والقنب والفوه والحناء والقرطم والفول السوداني والسلجم والسمسم وقصب السكر والافيون والخروع والتيل والبن والفانيلا والشاى والكوتشو والفلفل والكنكينا وغيرها مما ادخله الفرنسيون هناك ونجح بعضه نجاحاً عظيماً

أما الغابات فليست موجودة بكل الاقاليم على السواء فهى نادرة تقريباً وقليلة الامتداد في عمالتي الجزائر ووهران وأكبرها ما كان بعمالة قسنطينه

حيواناتها ـ اعلم ان بلاد الجزائر بها ما بأوربا الجنوبية من الحيوانات المنزلية تقريباً فمن حيواناتها الخيل والبغال والثيران والضأن والجمال وقد اشتهرت الخيل النوميدية فى الازمان القديمة بسرعة عدوها ولا تزال هذه الشهرة لما تناسل منها أما الضأن فانه وأن كثر عدده واعتمد عليه العرب الرحل فى معيشتهم الا أن أصوافه ليس لها من الصفات ما يجعلها مطلوبة بعامل أوربا ولا تخفى أهمية الجمل لسكان الصحراء والجمل الافريقى هو الجمل العربى بعينه اعنى ذا السنام الواحد أما الجمل الحقيقى أو ذو السنامين فلا يوجد الا

فى شمالى بلاد الفرس وفى التركستان وبكل آسيا الوسطى عموماً وكان أهل نوميديا يعرفون الجمل قبل العصر الاسلامى الا أن وجوده هناك بكثرة وانتشاره بكل جهات الصحراء لم يكونا الا من وقت الفتح الاسلامى

هذا والحيوانات الوحشية بالجزائر هى الاسد والفهد والضبع والنمر والنمس والتفه واليربوع والقنفد والثعلب وابن آوى والقط البرى والحلوف والارنب والقرد والثور الوحشى والاروى والغزال وذكر القدماء من حيواناتها الوحشية دب نوميديا وقد انقرض جنسه الآن أما الاسد فانه فى الاودية ببلاد التل وفى الجهات المجاورة للنجد وهو لا ينزل فى سهول الصحراء أبداً والنعامة وهى تسكن الصحراء وربما وصلت الى وهران ويصطادها العرب كثيراً وبالصحراء كثير من الحيات القرناء وهى شديدة الاذى جداً والضب وقد يبلغ طول الواحد منه متراً والثعابين وكثيراً ما يبلغ طول الواحد منها نحو ثمانية أقدام والحيوانات الكاسرة تسكن عمالة قسنطينه على الخصوص لاتساع غاباتها

معادنها ـ المعادن كثيرة ببلاد الجزائر من أشهرها النحاس والحديد والزنك والرصاص الفضى وقد زاد مقدار المستخرج من المعادن هناك الآن زيادة كبيرة وقد اشتهر رخام نوميديا لدى الرومان ولم يجدوا الى الآن على التحقيق كل المقاطع التى كانوا يأخذونه منها وهو هناك أنواع وأشكال ومنها أيضاً الملح وهو بالجهات البحرية من بلاد التل ومنها أحجار الطباعة والاردواز والكبريت أما أحجار البناء فكثيرة وكذا الاحجار الجيرية وبها نوع

صلصال يصنع منه البربر أوانى مشهورة ومما يجب أن يذكر أيضاً المرجان ويصطاد كثيراً فى الشواطىء وشهرته عظيمة من القديم والمياه المعدنية الحارة كثيرة ببلاد الجزائر وهى بين كبريتية وحديدية وملحية والمعروف منها تزيد عن مائة ينبوع

ايالة تونس

﴿ حاصلاتها الطبيعية ﴾

المعادن ـ ليست الحاصلات المعدنية بهذه البلاد وافرة ومع ذلك فمنها الذهب ويوجد في رمال مجردة وبالقرب من قرطاجنه على ساحل البحر وقد اشتغل العرب مدة زمن باستخراجه ثم عادوا فتركوه ومنها الرصاص والزنك ويستخرجان من جبل الرصاص وقد استخرج العرب أيضاً من هناك الرصاص كما استخرجه الرومان من قبلهم وببلاد تونس ينابيع معدنية حارة كثيرة اشتهرت لدى العرب كما اشتهرت لدى الرومان ومنها أيضاً أحجار البناء والرخام وهى جيدة جداً ومن الرخام نوع لطيف قال عنه بلين المؤرخ انه كان يباع فى روميه بوزنه فضة ومن معادنها أيضاً البلور الصخرى والجص والجبس وفسفات الجير وغيرها

النباتات ـ اعلم ان ثروة تونس ليست آتية من معادنها بل من أراضيها الخصبة وقد اشتهرت خصوبتها فى كل الازمنة ومن له المام بالتاريخ يعرف

الشهرة التى كانت لحنطة تونس وكيف ان هذه الحنطة كانت تغذى رومية سيدة العالم هى وحنطة نوميديا ومصر وصقليه ولم تكن تلك الحنطة تأتى فقط من شمالى البلاد الذى هو الآن اكثر من الجنوب خصوبة بل كانت تاتى من ذلك الجنوب الخالى بمينه وقد ذكر سلكس الجغرافى (Scylax) وكان معاصراً لداراهستاسب (فى نحو سنة ٥٣٠ الى ٥٢٢ قبل الميلاد) خصوبة هذه البلاد العجيبة وكان بندار من بعده يتغزل فى كثرة حاصلات لوبيه وكذلك فعل هيرودوت وأرسططاليس وبوليب (Polybe) وسلوست (Salluste) واسترابون وديودور الصقلى وپلين وكلهم قد أعجبوا بخصوبة هذه البلاد الافريقية ولكن حصل فيما بعد ان رياح الجنوب طردت رمال الصحراء الكبرى نحو تونس شيئاً فشيئاً وكان قمح افريقيه أحسن الانواع اعتباراً بعد قمح بيوتيا وصقليه وقد أوجد الامبراطور كمود (١٨٠ - ١٩٢ م) عمارة مخصوصة لنقل الحنطة من البلاد المذكورة ولقد كانت هذه الاقاليم الوافرة الغلة وهى التى انتزعها الرومان من القرطاجنيين والنوميديين ترسل الحنطة لسيدتها رومية مدة ثلثى السنة وكانت مصر ترسلها مدة الثلث الباقى من السنة والآفات التى كانت تنزل بتلك البلاد قديماً هى آفات اليوم وهى الجراد والجفاف ولما ساح الامبراطور ادريانوس (القرن الثانى م) بافريقيه لم تكن الامطار سقطت بها منذ خمسة أعوام مضت وبينما هو مقيم هنالك نزل المطر فنسب الاهالى هذه النعمة الالهية الى وجوده بينهم

وكانت أفريقيه أي بلاد قرطاجنه أو ايالة تونس الحالية مشهورة لدى الرومان بخصوبتها العجيبة على الخصوص وكانوا يعتبرونها أحد المريين التابعين لايطاليا وكان المرى الثاني مصر نعم ان عدة جهات بتونس لاتزال تشتهر بجودة أراضيها الا انه لا يمكننا أن نجد من يخصها بالفوقان في الخصوبة الآن وهى تلك الخصوبة التي كانت لها فى السابق فهل تغيرت البلاد ؟ كلا ان البلاد لم تتغير بل الذى تغيرهم الناس وتغير معهم رقى الصناعة ونشاطهاوهو ما كان يساعد الطبيعة ويقوم مقامها ولا يخفى ان حاصلات الارض تتوقف فى البلاد الحارة على توزيع المياه قال بعض العلماء أن أراضى تونس لما كان معظمها طفلياً أو رملياً كانت خصبة على العموم بشرط أن ترويها الامطار فى الاوقات المناسبة ولكن اذا اتفق ولم تنزل بها السماء فانها تصبح عقيمة بالمرة بعد زمن قليل ولا تعود تجود بالزرع بل تتعرى من كل نبات اه

وقد حدث ذلك كثيراً فى جهاتها الوسطى وحصل بكيفية مستمرة بالنسبة للمزروعات الغذائية وعلى الاقل بالجهات القاحلة الجنوبية ومع ذلك فيجد الانسان غالباً فى أقاليم الوسط حيث زراعة الحبوب محرومة ممن يعتنى بها الاعتناء الذى يكون لها فى أودية التل دلائل وعلامات تدل على تلك الخصوبة التى اشتهرت بها هذه البلاد قديماً

وجميع أنواع الحبوب تجود جداً في تونس ولو كان جوها يساعد على نزول المطر اكثر مما هو عليه وبكيفية اكثر انتظاماً لكانت تونس أحسن بلاد

العالم واكثرها حبوباً ويزرع الناس هناك الشعير لغذاء الخيل بدل الشوفان واكثر الجهات حبوباً سهل مجرده وسهل سليمان (بشبه جزيرة رأس بون أو رأس أدار) وسهول ولد سعيد بالجنوب الشرقى من زغوان والشمال الشرقى من القيروان هذا وحبوب تونس معدودة من أحسن حبوب العالم بالنسبة لوزنها ونوعها

حيواناتها ـ تختلف حيوانات تونس (كاختلاف نباتاتها) عن حيوانات بلاد الجزائر وطرابلس بقليل من الاجناس ألا أن أشكال حيواناتها أكثر قليلا منها فى البلاد المجاورة للصحراء الواقعة على ساحل خليج سُرت الكبير وحيواناتها أقل قليلا عن حيوانات موريتانيا الغربية التى تزداد فيها الانواع تدريجياً من الشرق الى الغرب غير أن الحالة فى تونس وفى البلاد المجاورة لها تماماً هى بخلاف ذلك لان التغيرات الكبيرة التى حصلت منذ الازمنة التاريخية نوّعت حيواناتها فكانت نتيجة تحطيم الغابات بها زوال عدة أنواع حيوانية أو تقليل انساع منطقة سكناها وقد أدخل الناس بها من جهة ثانية حيوانات داجنة وربما أدخلوا أيضاً حيوانات وحشية مثل الأيل لان هذا الحيوان لم يكن موجوداً باقاليم أفريقيه فان أهل قرطاجنه هم الذين جلبوه وصيروه نصف داجن ليقدموه قرباناً لمعبودهم بعل حَمُّون كما روى ذلك مؤرخوا القدماء ولا يزال هذا الحيوان للآن على قلة بالجبال الغربية من تونس خصوصاً جنوبى طُبُرقة وفى جبال الخمير ويظن ان الدب كان

موجوداً فى كل بلاد تونس لكنه اختفى فى أول القرن الماضى على ما يظهر ولا يشاهد القرد الآن الا بجهات الشطوط الجنوبية والاسد ولا يزال بالجبال المجاورة لحدود الجزائر وهو وأن وجد فى جهات قبائل الخمير كثيراً الا أنه أقل الآن مما كان عليه فى زمن القرطاجنيين ويدل على وجود الفيل بهذه البلاد فى العصور الاولى دلائل كثيرة الا انه زال الآن بزوال الغابات التى كان يعيش فيها وربما كان آخر الفيلة بها فى عهد الرومان ومن الحيوانات أيضاً الجاموس البرى ولم ينعدم كما انعدم الفيل بل بقيت منه ألى الآن قطعان حول بحيرة بنزرت وفى جزيرة وسط البحيرة المذكورة وهو لا يوجد ألا بهذه الجهة ومنها أيضاً الغنم البرية بالجبال الجنوبية واعلم ان دخول الجمل فى هذه البلاد قد أفاد كثيراً كما أفاد بأفريقيه الغربيةوهو الآن كما كان قديماً حيوان النقل الذى لا بد منه ومنها أيضاً الثعابين وتكثر فى بعض الجهات وتكون شديدة الاذى وكثيرة الانواع ومنها العقرب وهى أشد خطراً عن الموجود منها فى الجزائر ومراكش ومنها الجراد وضرره شديد على المزروعات

وبتونس أنواع كثيرة من الطيور بعضها خاص بها وبحار تونس كثيرة السمك والاسفنج والمرجان

*
* *

طرابلس

﴿ حاصلاتها الطبيعية ﴾

النباتات ـ لو نظرنا فى نباتات طرابلس لوجدنا لها عدة جهات أو مواطن مختلفة ومع ذلك فانه يمكن رد تلك المواطن الكثيرة الى أربع مناطق أصلية هى منطقة نجد برقه ومنطقة ساحل طرابلس ومنطقة الجبل ومنطقة الصحراء

وبلاد برقه من أجمل جهات أفريقيه الشمالية وأذا كان الانسان لا يرى فوق القسم الاعلى من جهات نجدها حيث يغور الماء فى شقوق وأخاديد ألا أماكن سنجابية اللون مغطاة بالقليل من الحشائش تصهرها الشمس صيفاً وينبت بها هنا وهناك بعض شجيرات صغيرة من الأقاقيا والفستق والبُطْم والحبة الخضراء ألا أن الحال بخلاف ذلك كله فوق المنحدرات وفى الاودية والاماكن المنخفضة منها حيث تنبت الاشجار العظيمة من العفص والسنديان والسرو الجسيم وفى ظلالها ينبت الآس والنسرين والقطلب والفستق والبيلسان ومن أشجارها أيضاً الخرنوب وينبت بالقرب من سواحل البحر ويضرب البدو حوله مضاربهم ويطعمون ثمره حيواناتهم وثمره من الاغذية الجيدة للحيوان وللانسان معاً ومن نباتات هذه الجهات أيضاً الزيتون البرى ولكثرته يكوّن غابات حقيقية ومتى نضجت ثماره أطعمها الرعاة حيواناتهم فتأكلها بشراهة ومن نباتاتها أيضاً الموز والبرتقال والليمون والخوخ

والمشمش والكرم وغيرها من النباتات الكثيرة الوفيرة التى تنبت بعدة أماكن منها حتى ظن بعض سياحى المتأخرين انهم وجدوا بذلك البستان المشهور فى خرافات الاغريق المسمى هسبريد(١) ومن نباتاتها أيضاً الدفلا وهو كثير ويكون فى باطن الاودية وبسهول برقه يزرع الشعير والحنطة كما تنبت بها بعض المراعى ومن أشهر نباتاتها أيضاً نبات يسمى انجدان (٢) أوعود الرق وهو من الفصيلة الخيمية وترى صورته منقوشة على نقود هذه البلاد قديماً ويعتبر الناس عصارة هذا النبات كعلاج عام لكل الامراض وكانت تباع فى كل

(١) Hespérides (Jardin des) ـ للمؤرخين والقصاصين ورواة الاخبار من القدماء والحديثين أقوال وروايات غريبة يروونها عن هذه الجنة وقد فسرها كثيرون منهم بتفاسير غريبة واستنتج منها كل ما ارتضاه من المعانى والرموز وقال بعضهم انها واقعة الى الغرب من بلاد برقه وقال غيرهم انها فى سفح جبال أطلس وقال آخرون أنها فى بلاد موريتانيا وجعلها البعض فى جزائر السعادات (فُرْطُنَاطِسْ) وكان قدماء الاغريق يسمون أيطاليا بأسم هِسْبِرِى (Hespérie) لأنها الى الغرب من بلادهم وكان الرومان يطلقون هذا الاسم على بلاد أسبانيا هذا وَلِهَسْبِرِيد المذكورة ذكر كبير فى خرافات القدماء

(٢) Sliphéum ou Silphéun ـ هو نبات تحته أنواع كثيرة ينبت بالممالك المتحدة من أمريقا على الخصوص ولا يعرف العلماء الآن ما هو السِّلْفِيُون عند القدماء ويُظن انه الانْجِدَان وعليه أطباء العرب كما ورد فى مفردات ابن البيطار ـ قال مترجم المفردات ظن بعضهم أن السلفيون هو التَّافْسِيَا المسماة أيضاً أُدْرِيَاسْ بالبربريه (Thapsia Garganica) وأن أوراقه تشبه أوراق الكَلَخْ أو القَنَّهْ المعروفة بالقَنَاوَشق وقال بعضهم أن الانجدان هو الحَلْتِيتْ أو هو ورقه أو الحلتيث صمغه والمحروث جذره وقيل غير ذلك

العالم قديماً بوزنها فضة وبعد نزاع وخصام وقع بين العلماء فى هذا الخصوص نراهم قد اتفقوا الآن تقريباً على الاعتراف بهذا النبات وبما له من الخاصة القابضة وهو كثير جداً بالسهول هناك ويرى بعض الاطباء أن لا بد من ظهور هذا النبات فى علم تحضير الادوية الحديث بالنسبة لخواصه المروّقة المنقية ثم وببعض جهات برقه أيضاً غابات من النخيل حتى على ساحل البحر

أما نباتات جهات ساحل طرابلس فتشبه كثيراً ما كان منها ببلاد برقه ألا أنها أقل منها أنواعاً وتتصل الصحراء بساحل البحر فى أماكن كثيرة وينبت بالاماكن القليلة الخصبة بها الحنطة والشعير والذرة والزعفران والحناء والقطن والفوه وغيرها وبساتينها كثيرة الاشجار المثمرة التى منها الكرم واللوز والبرتقال والليمون والمشمش والخوخ وغيرها ومما تمتاز به جهات الساحل أيضاً وفرة أشجار النخيل والزيتون وهى هناك غابات حقيقية وتشبه فى مجموعها ما كان منها على سواحل بلاد الجزائر وتونس تقريباً قال بعض العلماء أن نباتاتها وسط بين نباتات جهات أطلس ونباتات المشرق أما نباتات الجهات الجبلية بطرابلس فلم تكتشف وتعرف خواصها جيداً الى الآن ويظهر أنها فى الجهات الشاهقة من جبالها تشبه كثيراً ما كان منها ببلاد الجزائر ويشبه ما ينبت منها بالجهات المنخفضة نباتات الواحات يزيد عليها النخيل وهو كثير جداً هناك مترام متكاثف على بعضه الا أن ثمره متوسط الدرجة

أما نباتات صحراء طرابلس فقليلة جداً بطبيعة الحال لان أنواع

النباتات بالصحراء الكبرى على اتساعها العظيم لا تزيد عن خمسمائة نوع تقريباً زيادة على أنها موزعة توزيعاً عجيباً وهي ذات أشكال غريبة وأكثر الجهات أقفاراً هناك هي النجود المعروفة بالحماد فلا تنبت بها أشجار أصلاً غاية الامر أنه ينبت بين أحجارها بعد أمطار الشتاء قليل من شجيرات العليق والغاسول أي الاشنان ومع ذلك فالحياة النباتية تنعدم تماماً في بعض جهات الحماد كما في الحماد الاحمر مثلا وتكثر النباتات نوعاً في جهات الكثبان والجهات الرملية وعلى الخصوص في مجاري الاودية ونباتاتها عموماً ذات نسيج يابس جداً وأوراقها صغيرة الحجم وأشهرها الاقاقيا وأنواع البُطْم (التربنتين) والطرفاء والسدر والفستق والنباتات المتسلقة مثل حَبَق الراعي والسعتر والحنظل كما ينبت بها أيضاً بعض نباتات من الفصيلة النجيلية تكون غذاء للجمال أما النباتات الزراعية الموجودة في كل الواحات تقريباً أي في فزان وغدامس وأوجله فربما كانت أكثر أنواعاً من النباتات البرية لانه يمكن أن يزرع في تلك الجهات الخصبة الحنطة والشعير والذرة والتبغ والخضراوات وخضراواتها تشبه ما ينبت منها باوربا تقريباً والقاوون والبطيخ وما كان من فصيلتهما والقطن والنيل والتين والكرم والخوخ واللوز والمشمش وحتى يمكن زرع الزيتون والبرتقال والليمون أذا اعتنوا بها غير أن النخيل هو أهم ثروة سكان الواحات ويظهر أن بلادفزان هي الوطن الحقيقي لهذه الشجرة المباركة وكثيراً ما تشاهد هناك على الحالة

البرية وأنواع النخيل بفزان كثيرة حتى أنها لا تقل عن ثلثمائة نوع وأفراد كل نوع تعد بالملايين والمراعى بصحراء طرابلس أقل منها بصحراء الجزائر ومراكش كثيراً وعلى ذلك كانت أقل منهما سكاناً فالمعيشة أذن غير متيسرة تقريباً ألا فى الواحات منها

الحيوانات ـ أعلم أن الحيوانات سواء الداجن منها والوحشي قليلة العدد بكل بلاد طرابلس وليس بها شيء من تلك الحيوانات الكبيرة الكاسرة كالاسد والفهد مما يوجد بالجزائر وتونس حتى أن ابن آوى والضبع لا يوجدان بها بكثرة ومع ذلك فهما ببلاد طرابلس الاصلية وببلاد برقه لا غير ويحل محلهما فى فزان وأوجله الفَنَك المعروف أيضاً بثعلب الرمال ويكمن قريباً من الخيام والاكواخ يترصد فريسته ومن ذوات الاربع بها أيضاً الغنم البرية والغزال والارنب واليربوع والخنزير البرى وهو ببلاد برقه حيث المستنقعات وقد انعدمت النعامة من كل جهاتها تقريباً وينزل على سواحلها في بعض أيام السنة طيور كثيرة ويتردد على فزان فى زمن الصيف أنواع من البط والترغل وقت عودتها من البلاد السودانية ومن الطيور أيضاً الصقر والعقاب والغراب وغيرها كل ذلك خلاف العصفور الدورى المنتشر فى كل جهة يكون بها الانسان وتنعدم الطيور تماماً تقريباً بالصحراء جنوبى برقه بخلاف الزواحف والحشرات فانها هناك كثيرة ومن أشهرها حية الرمل والحية القرناء والعقارب والورل وتوجد بكل جهاتها تقريبا ولا توجد البراغيث بفزان ولا بصحراء

لوبيه كذا الذباب لا يكون هناك الا فى بعض الجهات فقط ويوجد الجراد بالبلاد القريبة من برقه وهو ينقض من وقت الى آخر على النبات فيبيده أكلا

وقد كان للثيران قديماً المحل الاول بين حيوانانها المنزلية وعلى بعض الصخور هناك نقوش عتيقة يرى فيها الثور يجر عربة أو يحمل حملاً أماالآن فقد نقص عددها وصغر حجمها وقل الاعتناء بها ولا تكون بكثرة ألا فى البلاد الساحلية والجهات الجبلية والثيران التى أخذت من هذه الجهات وأرسلت الى فزان أصبحت ضعيفة لان مناخ تلك البلاد يؤثر عليهاولا وجود للثيران أصلاً بواحة أوجله أما الخيل فالكثير منها عند بعض القبائل الرحالة النازلة بالشمال ولدى قبائل بنغازى نوع من الخيل صغير الجسم ردىء الخلقة لكنه ذو صبر عظيم على تحمل المشاق والجوع والعطش ولا توجد الخيل تقريباً بالصحراء والموجود منها بفزان لا يكاد يذكر جلبوه أليها من الشمال والحمير كثيرة العدد وتؤدى فى كل مكان هناك أعمالاً مهمة فى النقل أماالنعاج فنوعان نوع بجهات الساحل وهوعظيم الأذناب غزير الصوف ونوع بالجنوب وهو ضئيل الجسم ظاهر العظام طويل الذنب منفوش الشعر طويل الرقبة صغير الرأس يشبه صوفه صوف المعز ولحمه متوسط الجودة وهو اللحم الوحيد تقريباً فى كل بلادطرابلس وتوجد المعز فى كل مكان هناك وتكتفى فى غذائها بنباتات جافة لقلة المرعى والطيور المنزلية هناك كثيرة أما الحيوان الداجن الوحيد

الذى يقاسم الانسان فى أعماله فهو الجمل وهو كثير ويشتغل بتربيته فى الشمال عدة قبائل تقدم منه للتجارة ألوفاً مؤلفة وهو كذلك كثير جداً ببلاد فزان ونوعه هو نوع جمل التوارك وجمل التبّو ويمتاز بعضه بارتفاع قامتـه وقوة أعضائه ويتغطي جسمه شتاء بشعر كثيف يجزونه فى الصيف ويأخذون منه المادة اللازمة لعمل البسط والخيام

دولة مراكش

سكانها ـ أعلم أن العثور والوقوف على صورة أصلية مقبولة يعترف بها الجميع بين أمة كالامة المراكشية مكونة من عناصر مختلفة أمره صعب كثيرا قال بعض من لهم اطلاع تام على أفريقيه الشمالية وتاريخها وعادياتها فى هذا الخصوص ما يأتى

أن الصورة الاصلية الشقراء بمراكش أكثر منها فى بقية ممالك أفريقيه الشمالية وقد وافق على ملاحظاتى هذه السيرجون درومند هاى قنصل الانجليز فى طنجه وهو قد أقام فى هذه البلاد أزيد من ثلاثين سنة وأن الثلث من سكانها كلهم شقر تقريباً وتكون نسبة الشقر أكثر من ذلك جداً لان ما ذكرناه لا يشمل الا أمة بربرية اختلطت بغيرها كثيراً أما مجموع البربر الخلص الذين يسكنون جبال اطلس الكبرى وجهات الريف فأنهم لا يدخلون فى ذلك لأنه لم يمكن دراسة أحوالهم لتطبيق ذلك عليهم

وثلثا جالية الريف ببلاد طنجه شقر أو سمر سماراً فاتحاً والثلث الباقى سمر تماما وصورتهم الاصلية تشبه الصورة التى بالجنوب الغربى من فرنسا وبربر أقليم طنجه الذين استعربوا وهم من القبائل البربرية الكبرى من صنهاجه وكتامه بينهم تلك النسبة بعينها وهى أن الكثير من نسائهم شقر الالوان وصورة أغلبهن سمرآء فاتحة أما اللاتى منهن من الصورة السمرآء فان صفاتهن وتقاطيع وجوههن تشبه تماماً الفلاحات السمر الالوان من الفرنسويات من سكان بلاد بُرغونيا واقليم بِرّى لهذا كان القول بأن هذا الجنس على عمومه من جنس مشابه للجنس الفرنسى من الاقوال المعتبرة المعول عليها ولبربر الشمال والوسط من مراكش هيئة أوربية أصلية فأخلاقهم وعوائدهم تقربهم من الفرنسويين وهو ما يؤيد القول بأنهم من أصل واحد ويظهر لى أن البربر الخلص من سكان جبال أطلس جنوبى مراكش وكذا بربر الجبال المستقلة التى فى وسط الدولة المذكورة (ضواحى مكناس وجبل زرهون وشرق فاس) هم من ذلك الجنس ذى السحنة الاوربية وأن أغلب رؤسآء البربر الذين مكنتنى الفرصة من الكلام معهم اثنآء سيرنا من مراكش ألى الصويره على المنحدرات الشمالية من سلسلة الجبال الممتدة على ساحل المحيط كانوا يتكلمون لهجة تختلف قليلا عن لهجة الريف وكلهم تقريباً سمر الالوان قليلا أو كثيراً وقد علمت مما وصل ألى من المعلومات أن سكان الجهات العالية الواقعة على سلسلة جبال المحيط كلهم شقر الالوان كثيراً وعيون الكثير

منهم زرقآء أو خضرآء أو سنجابية تشبه عيون القطط كما عبر بذلك مخبرى وأنهم متوسطو القامة كبار الرؤوس نوعاً ولون من رأيتهم كثيراً من سكان بلاد السوس السمار الواضح وشعورهم سوداء وكذا عيونهم وسحنتهم تشبه سحنة فلاحى صقليه وهم لا يضعون على رؤوسهم عمارة ما ويفرقون شعر رؤوسهم والواحد منهم يشبه فى نصف وجهه صورة اللاتين الاصلية وهى التى حفظ لنا علم معرفة الصور الرومانية شكلها وبجانب هذه الصورة الاوربية أيضاً صور عديدة من جنس اختلط بالسود أو بالعرب سكان الصحراء وهناك أيضاً صورة سمراء ولكنها من جنس شرقى أو جنس استشرق باختلاطه واقترانه مع الغير شاهدتها فى قبائل آزمور من الشلوح وغيرهم ممن يسكنون الجبال بين سبو وأم الربيع ويظهر أنهم هم الذين ذكرهم مؤرخو القدماء وسموهم أوتولول[1] وأن فى تقاطيع وجوههم وانسدال شعورهم المنفوشة الجعدة التى يحفظونها بعصابة أو طوق من المدن ما يذكر بالصورة النوميدية الاصلية التى لا تزال مرسومة على بعض الاوسمة والمبانى القديمة

ولم أشاهد فى أى جهة من جهات مراكش أصلاً الصورة المصرية القديمة التى ظن قوم أنهم وجدوها بين برابر جرجوره وحاصل الكلام

(١) (Autololes) ـ أمة قديمة من الجيتول كانت تسكن الساحل الغربى من أفريقيه ألى الشمال والجنوب من جبال أطلس ذكرها مؤلفو القدماء وكانت لهم مدينة تسمى أتولولا لا يعرف موضعها الآن

انى قد شاهدت الاجناس الآتية فى مراكش أوعلى الاقل هى ماشاهدته منها ألى ذلك الوقت وهى

١ جنسان هيئة وجوههما أوربية أحدهما أشقر والآخر أسمر يشبهان الجنسين الاسمر والاشقر اللذين بفرنسا (لو بيون أصليون)

٢ جنس أسمر يشبه فى صفاته سكان الجنوب ومع ذلك فانه أوربى

٣ جنس أسمر من أصل شرقى

٤ جنس أسمر ربما كان بربرياً ولكنه اختلط مع الجنس الاسود اهبتصرف

هذا وينقسم سكان مراكش عموماً ألى خمسة أجناس هى ١ ـ البربر وهم سكان البلاد القدماء ٢ ـ العرب وهم الفاتحون ٣ ـ المغاربة وهم الذين طردوا من أسبانيا ٤ ـ اليهود وهم الذين طردوا من أسبانيا كذلك ٥ ـ السود وأصلهم من بلاد السودان

وينزل البربر جبال أطلس والجبال المتفرعة منها وينزل العرب السهول والاودية القريبة من ساحل البحر وينزل المغاربة واليهود والسود المدن أما الجنسان الاخيران فيوجدان هناك فى كل مكان تقريباً ومن اليهود عدد قليل يسكن الفلوات مع البربر حتى حدود الصحراء بوادى نون ومدينة عكاء

والبربر أو الامازيغ وأن لم يكونوا هم سكان البلاد الاصليين فهم على الأقل أقدم سكان البلاد وقد مانعوا وصدوا فى كل وقت كل من أغار عليهم (والنازلون منهم بالشمال يسمون أخازيل وسكان الجنوب يعرفون باسم

شلوح) وهم مختلطون فى مراكش الجنوبية وفي واحات الصحراء بالحراثين أو البربر السود الذين يزداد عددهم بالتدريج من الشمال ألى الجنوب ولا يزال أغلب البربر ألى الآن فى استقلال تقريباً ويقتصر خضوع الذين يتظاهرون منهم به على دفع الخراج للسلطان حينما يرون من نفسهم عدم القدرة على الدفع وأحياناً يكون خضوعهم دينياً وأحياناً يكون عبارة عن تحالف قبائلهم مع السلطان لا غير وهناك قبائل مستقلة أستقلالا تاماً مثل قبائل رياطه النازلين بالجبال بين فاس وتلمسان

والبربر على العموم طوال الاجسام أقوياء أشداء شجعان ولكنهم أهل قساوة وغلظة فى الطباع ودينهم الاسلام جميعاً وأن كان بعضهم لا يعرف من الاسلام ألا اسمه وهم قليلوا التعصب لدينهم ويعترفون بخلافة سلطان مراكش والقناعة من أخص صفاتهم لهذا كان يمكنهم أن يعيشوا من حاصلاتهم الزراعية القليلة ومن حاصلات قطعانهم وهم يخالفون الاقوام الرحل الذين بالجنوب ونصف الرحل الذين بالجنوب والشمال فى أنهم يسكنون كلهم تقريباً فى بيوت مبنيـة من الحجر تكون تارة منعزلة وتارة مجتمعة فيتكون منها قرى أو مايعرف بالقصور هذا واعلم أن الاختلاف كبير بين كل قبائل البربر بالنسبة لصورهم الاصلية وازيائهم واخلاقهم

* *

أمة البربر

﴿ نظرة عمومية ـ أسماؤهم ـ مساكنهم ـ أقسامهم ﴾

البربر أمة كبيرة تنزل الشمال الغربي من أفريقيه وقد صار لهذا الأسم الآن على الخصوص قيمة تاريخية وهو وأن استعمل عادة وأطلق في العرف على طائفة من الشعوب البشرية ذات صفات خاصة متميزة تميزاً تاماً الا أنه لا يكاد يعرف في الاصطلاح الرسمي وسبب ذلك بلا شك أن أمم هذا الجنس أصبحت هي نفسها لعدم وجود علوم آداب لها لا تعرف هذا اللفظ الا بطريق الاسناد البعيد أو بسبب علاقاتها الحالية مع أوربا ولا تستعمله أصلاً فيما بينها لان التسميات الجزئيـة كأسماء القبائل وأسماء المجتمعات الجغرافية مثلاً قد تخرج بالاسم الاصلي الملي الابتدائي عن الاستعمال وتلقيه في زوايا النسيان

ومع ذلك فان هذا الأسم الأصلي لا بد وأن يكون قد انتشر قديماً انتشاراً عظيماً فكان في كل المنطقة الشمالية من أفريقيه وهي المنطقة التي تنتهي من جهة بحر الهند بواسطة حوض نهر النيل ومن الجهة الاخرى بالمحيط الاطلسي بواسطة جبال أطلس قال ابن خلدون هؤلاء البربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى وقال أيضاً ولم تزل بلاد المغرب الى طرابلس

بل وألى الاسكندرية عامرة بهذا الجيل بين البحر الرومى وبلاد السودان من أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها اهـ

ولو قطعنا النظر عن العناصر الاجنبية المعروف فى التاريخ دخولها فى افريقيه لأنتج معنا علم الشعوب (الاثنوغرافيا) القاعدة الآتية وهى أن كل من ليس بأسود فى شمال أفريقيه هو بربرى وقد قال مؤلفوا الاغريق واللاتين وجغرافيو العرب من بعدهم بوجود بربر فى بلاد السومال الحالية وعلى الساحل الغربى من البحر الاحمر ولا تزال الحال كذلك ألى اليوم فأن وادى النيل من الخرطوم حتى حدود مصر يسكنه قبائل أصلها واحد ولا يزال بعضها الى الآن يتسمى بالبربر (برابره) وهو الاسم الذى نسى عند أغلب اخوتهم ويعلم من أقوال مؤلفى الاسلام أن الواحات الواقعة فى الغرب من وادى النيل النوبى وكذا الواحات التى بشمال الصحراء الكبرى كانت حتى القرون الاولى من الاسلام يسكنها كلها بلا استثناء أمم بربرية وأنهم وأن كان العرب طردوهم من ذلك الوقت من الواحات الشرقية الا أنهم استمروا يسكنون كل الواحات الشمالية من أول سيوه حتى بلاد مزاب وتوات ثم أن الأمم التى تتكلم لغة البربر تؤلف مهما اختلفت أسماؤها الاهلية مجموعة متكاثفة فى كل أفريقيه الشمالية الغربية من أول بلاد فزان حتى مضيق جبل طارق والمحيط الاطلسى

ويطلق على هذه الجهة من أفريقيه فى الاصطلاح العادى لفظ بلاد

البربر متى استعمل من غير تخصيص وتعيين خاص هذا خلاف القبائل العديدة المتفرقة بالواحات الداخلية من الصحراء الغربية بين بلاد الجزائر ومدينة تمبكتو وخلاف الامم المختلطة الاصول النازلة على حدود بلاد السودان أو التى دخلته منهم مثل مغاربة السنغال الاسفل ومثل قبائل الحوصه وربما كان منهم أيضاً الفُلاّنه والتبو هذه هى أهم قبائل البربر وعلى ذلك كانت هنالك سلسلة من الامم يدل على أنها من أصل واحد شكل أراضيها الطبيعي وتجاورها الجغرافى وشهادة التاريخ وتقاليدها القديمة واشتراكها فى الاسم الاصلى الاهلى وتكلم الكثير من قبائلهم لهجة واحدة هذا واعلم ان هذه الرابطة الاخيرة وهى رابطة اللسان أصبحت غير موجودة بين بربر أفريقيه الشرقية وكذا بين بربر بلاد النوبة ولكنها محكمة العري بين كل بربر الشمال والشمال الغربى من أول سيوه حتى مراكش ونهر تمبكتو لهذا لا نتكلم فى هذا الفصل الا على الاخيرين منهم تاركين الكلام على غيرهم الى أن نتكلم على بلادهم كما سيأتى فى بلاد السومال والنوبة والتبو والحوصه والمغاربة والفلاّنه وغيرهم

هذا وينقسم بربر الشمال الغربى الى ثلاثة أقسام أصلية وهى أقسام تاريخية وجغرافية معاً وهى قبائل الجزائر وبعضها يسمى بالشاويه أو الرعاة وهم ينزلون جبال عمالة قسطنطينه ثانياً شلوح مراكش ثالثاً توارك الصحراء أما بربر تونس وطرابلس فليس لهم لفظ واحد جنسى يدخلون تحته ولما كان

التوارك منفصلين انفصالا تاماً وبعيدين عن كل مخالطة مع العرب كانوا أصفى وأخلص القبائل التى تشخص هـذا الجنس وكنا نجد أيضاً فى دراسة لغتهم على الخصوص وكذا فى الوقوف على عوائدهم ورسومهم الصفات الأصليـة للأمة البربرية

أشتقاق اسمهم — أعلم أن لفظ بربر كأغلب أسماء الأمم ضائع الأصل فى ظلمات التـاريخ والأشتقاقات التى قالوا أن ذلك اللفظ مشتق منها هى أما وهمية أو قد جازفوا فيها مجازفة شديدة ومع ذلك فأن عموم العلماء قد قبلوا أحدها على علاته وهو ما كان له علاقة بلفظ بَرْبَرُوس وهو الأسم الذى كان الرومان ينعتون به أغلب الأمم الأجنبية كما فعل الأغريق من قبل ولم يكن الأغريق والرومان يطلقون هذا اللفظ على الأمم غير المهذبة ذات الأخلاق الخشنة كما يستفاد من معنى اللفظ الذى رجحناه على غيره بل كانوا يطلقونه أيضاً على كل من يتـكلم لغة غير لغة أثينا ولغة روميه ألا أن هناك مع ذلك ما يخالف هذا القول مخالفة تامة وذلك مثل تعميم الأسم الأصلى الواحد فى كل المنطقة التى يسكنها الجنس المذكور ودوام هذه التسمية عند بعض القبائل كبرابرة بلاد النوبة الذين يستحيل قبولهم تسمية أجنبية غير أسمهم الملى وزيادة على ذلك فقد ثبت بشهادة الأدلة والآثار أن هذا الأسم كان مستعملا قبل ظهور الأغريق والرومان فى التاريخ بعدة قرون ففى أحدى قاعات هيكل الـكرنك كتابة من زمن رمسيس الثانى المعروف بالـكبير ورد فيها أن من أمم

الجنوب (يريد أتيوبيا) التي قهرها الفرعون المذكور وأخضعها ذكر أليبرا ابرآتا وهذا اللفظ لا يمكن أن يكون بلا جدال ألا برابرة النوبة الحاليين وقد مضى على هذه الكتابة أكثر من الف وربعمائة سنة قبل الميلاد فنستنتج من ذلك ضرورة أن لفظ بربر أسم ملى أو أسم أصلى يطلق على تلك الأمة لا غير ومما لا شك فيه أيضاً أن هذا الاسم كان قديماً أسما عمومياً يطلق على أمة من الأمم وجنس من الأجناس وأنه بتعاقب الأزمنة وتكرار الدهور وبسبب انفصال القبائل وتشتتها وابتعادها عن بعضها نسى الكثير منها الأسم القديم أو أنها حافظت عليه مع تسميتها باسماء محلية ومع عدم نسيانها له تماماً كما فى بعض الجهات وأما أطلاق الأسم على الجنس بتمامه فهو أطلاق مبهم من الأزمنة القديمة ولم يكن الرومان يجهلون هذا الأسم ولكن سهل عليهم مزجه بلفظة بربروس وأطلاقه على تلك الأمة ولم تعد لهذا الأسم قيمته التاريخية بأفريقيه الغربية ألا بعد الفتح العربى ويسمى مؤلفوا المسلمين البلاد الواقعة بين برقه وبحر الظلمات أحياناً بلاد البربر كذلك فعل ابن خلدون فى تاريخه الذى ألفه على هذه الأمة الكبيرة حيث سماه تاريخ البربر

قال ابن خلدون هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملؤا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون فيها الريف ألى

الصحراء والقفار الأملس ومكاسبهم الشاه والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الأبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الأنتجاع والأظعان فى نتاج الأبل وظلال الرماح وقطع السابلة ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ويفرغون عليها البرانس الكحل رؤوسهم فى الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلق ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها وهى التى اختصوا من أجلها بهذا الأسم يقال أن أفريقش بن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وأفريقيه وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار وباسمه زعموا سميت أفريقيه لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى أختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال بربر الأسد اذا زأر بأصوات غير مفهومة اه وقال غيره البربر قبائل شتى من حمير ومضر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم أفريقش البربر لكثرة كلامهم

صورتهم الأصلية الطبيعية — أعلم أن القبائل المتصلة النسب بجنس البربر الكبير متفرقة فى كل النصف الشمالى من أفريقيه وليس بينهم اتصال ولا تجمعهم ذكرى عامة لحادثة من حوادثهم ألا أنهم كلهم يتلاقون فى نقطة واحدة سواء فى ذلك منهم قبائل جهات النيل وقبائل الصحراء أو الجبال

وهذه النقطة هى كونهم من الأمم البيضاء كما أن القبائل السوداء من الجنس الأسود حتى أن الذين اسودت بشرتهم منهم بشمس الجهات المدارية أو غلظت تقاطيع وجوههم وتغيرت شعورهم بامتزاجهم بالدم الأثيوبى يظهرون نفوراً شديداً من تسميتهم باسم سودان فبربر جبال أطلس وحتى عموم التوارك الذين وجدوا فى ظروف ساعدتهم على حفظ دمهم خالصاً كلهم فى الحقيقة أوريبون من حيث شكلهم الطبيعى وكثيرون منهم ليسوا أكثر سماراً من أهالى صقليه أو الأندلس وكثيرون منهم أيضاً بيض كفرنسوى الشمال وأذا قارنا البربرى بالعربى أو الأوربى لوجدناه يختلف فى هيئة الوجه فقط لا فى الصورة الأصلية فوجهه ربما كان أقل استطالة عن وجه العربى وأنفه أقصر وأقل تحدباً عن العربى وفكه وذقنه أكبر منهما عند العربى ومجموع جسمه أقل رشاقة وعيناه وشعوره سود على العموم ومع ذلك فأننا كثيراً ما نجد بين البربر عيوناً زرقاء وشعوراً شقراء كما سبق مما لا يوجد عند العربى قال بعض السياحين أن الكثير من القبائل ذوى اللون الفاتح والشعور الشقراء يشبهون فلاحى أوربا الشمالية أكثر من مشابهتهم سكان أفريقيه وذكر كثيرون غيره هذا القول وقد نسبوا هذا التباين فى الغالب ألى الأختلاط بالوندال ثم بجالية الرومان غير أن هناك من الأقوال ما ينقض ذلك منها دليل قبل زمن هيرودوت يذكره سيلكس فى سياحته وهو قوله أن هناك قبيلة شقراء نازلة حول خليج سرت الصغير فى أيالة تونس الحالية ثم أننا نشاهد بين الصور

المرسومة بالهياكل المصرية التي يصعد تاريخها ألى القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد أمم أفريقيه الغربية مرسومين بجلود حمرآء وعيون زرقآء وشعور حمرآء أو شقراء وهذه الخصوصية وهي خصوصية الصورة الشقرآء بين البربر ليست في قبائل بلاد الجزائر فقط بل توجد أيضاً بين شلوح مراكش وتوارك الصحرآء حتى أن الشعور الشقرآء وهي بين كل قبائل البربر تعتبر من علامات الجمال في النسآء ويشاهد هذا التميز على قلته بالبلاد التي كانت تسكنها البربر بأفريقيه الشرقية قديماً فهو عند قبائل أفار بتاجورة كما هو عند القبائل الأخرى النازلين حول خليج سرت وقد بسطنا الكلام نوعاً على هذه الميزة الطبيعية لأنها تلازم جنس البربر وربما كان من المفيد أن نذكر أيضاً أن هناك خاصية مشابهة لهذه الخاصية بين أغلب الأجناس ذوي الشعور السوداء الذين هم من الأصل الهندي الأوربي فأنها في أيران والقوقاز وبين الصقالبه وقدماء الأغريق كما هي بين الحديثين منهم وبين القلت (Celtes) وغيرهم من الأمم

لغة البربر وكتابتهم ـ أعلم أن البلاد التي تسود فيها الآن لغة البربر تبتدىء من سيوه شرقاً حتى مراكش غرباً ومن هناك تنحدر نحو الجنوب والجنوب الشرقي حتى سواحل سنغال ونهر ديوليبا عند أطراف بلادالسودان وذلك عبارة عن بلاد فزان وما جاورها من الواحات وجهات أطلس وكل الصحراء الغربية واعلم أن اللغة البربرية ليست هي المنتشرة بمفردها في هذا الأتساع العظيم بل تزاحمها بالجهات المذكورة اللغة العربية حيث تنزل قبائل

عربية عديدة ولـكن للبربرية السيادة ولا حرج عليها فى ذلك لأنها فى نفس بلادها بل أن مزاحمة العربيةلهاوتعديها عليها يعد ظلماً وعدواناً واللغة البربرية واحدة فى اعتبار العلماء ولـكنها تنقسم فى أصطلاح القبائل ألى لهجات كثيرة وتنقسم تلك اللهجات أيضاً ألى أقسام أخرى وقدعلم أهل أوربابوجود اللغةالبربرية بالشمال الغربى من أفريقيه من منذنحوقرن من الزمان واعلم أن استيلاء فرنسا على الجزائر صيرلدراسة هذه اللغة أهمية سياسية وعلمية (وكان ذلك من سنة ١٨٣٠) وحصلت من هذا الوقت أبحاث جدية أخذت أهميتها تظهر بالتدريج وألف كثير من أرباب البحث مؤلفات عديدة فى لغة البربر ولهجاتهم وألف آخرون فى العلاقات التى بين لغة البربر واللغات السامية وفى العلاقة التى بينها وبين القبطية ولغة الغَلا وتزداد أهمية هذه الأبحاث كلما زاد علم العلماء بأصل البربر وتوارك الصحراء ويسمى شلوح مراكش لهجتهم باسم تماشك أو تمازغت وسنذكر معنى هذه التسمية عند الـكلام على التوارك

ولم يحافظ التوارك فقط على لغتهم التى كان يتكلم بها أهل نوميدياوقبائل الجيتول(١) كما حافظ عليها أيضاًسكان الواحات وسكان أطلس بل أنهم حافظوا

---

(١) Gétules — هم قبائل حربية كانوا ينزلون قديما جنوبى نُومِيْديا من أول بلاد الْجَرَمَنْت حتى بحر الظلمات وكثيرا ما جنـدت منهم قَرْطَاجَنَّة عسكرا وأشهر أممهم الجيتول المذكورون والجيتول السود والأتولول والناتميل ويقال أن الجيتول أول من سكن أفريقيه وكانت معيشتهم همجية بالمرة وأقدم ملوكهم يسمى لارياس وكان

كذلك على شيء لا يوجد عند البربر الآخرين ألا وهو الكتابة البربرية التي يصعد تاريخها على الأقل ألى زمن تأسيس قرطاجنه ويعدأ كتشاف هذه الكتابة التي لم يكن يحلم بوجودها أحد بأوربا ولم يذكرها العرب من الحوادث المهمة الجديدة لأن أكتشافها كان في سنة ١٨٢٢ فقط (ومع ذلك فقد أشار ليون الأفريقي ألى وجودها أشارة ولكنها مبهمة وذكرها الأدريسي في كتابه)

أما كيفية هذا الاكتشاف فهي أن سائحاً فرنسوياً يسمى الدكتور أودنى (Dr. Oudney) شاهد في سفره من مرزوق ألى غات حروفاً منقوشة على صخور هناك ولما كانت هذه الكتابة لم يذكرها أحد من قبل لم يعرف السائح المذكور في بادىء الأمر ألى أى الكتابات يجب أرجاعها ثم لما أخبره الأهالي هناك بمضمونها اعتقد أنه كانت لهم كتابة خاصة بهم مجاراة للعرب في ذلك وفي سنة ١٨٤٥ سمع أحد ضباط الفرنسويين بعمالة قسطنطينه بوجود كتابة مستعملة لدى سكان واحة توات تسمى تفيناج ونقلوا له منها اثنى عشر حرفاً ولما نظر فيها وجدها توافق الأحرف التي رسمها السائح أودنى المتقدم ومن ذلك الوقت شاهد السياح هذه الاحرف والكتابات أوما يقاربها بواحات غدامس وبنغازى وغيرهما ولما شاهد تلك الأحرف علماء أوربا الذين

معاصراً لديدون ولما هزم جوغرطه التجأ اليهم وألف منهم جيشاً تمكن به من متابعة القتال مع الرومان زمناً طويلا ويظن أن بعض القبائل ببلاد الجزائر متناسل منهم

يشتغلون بالكتابات السامية القديمة اندهشوا جداً لمشابهتها الأحرف اللوبية التي علمت من نحو قرنين مضيا والتي شوهدت محفورة بجانب كتابة قرطاجنية على قبر واقع على يومين أو ثلاثة ألى الجنوب من خرائب قرطاجنه وقد صدق العلماء فى ظنهم وقامت الأدلة والشواهد على ذلك قال بعض العلماء أن الحروف الهجائية اللوبية أو النوميدية التى يستعملها البربر الآن كما فى السابق فى كتابة لغة غير سامية هى أحدى المشتقات العديدة الآتية من الكتابة الآرامية القديمة الاصلية وأنها تشبهها فى بعض أجزائها بل وتقرب منها أكثر من قربها من اللغة الفينيقية ولا يذهب الظن بالقارىء مع ذلك ألى أن اللوبيين وصلت أليهم الكتابة من قوم أقدم عهداً من الفينيقيين أنفسهم وكل ما يمكن استنتاجه من ذلك هو أن الحروف اللوبية هى من الحروف الفينيقية خرجت منها فى عصر يصعد ألى ما قبل العصر الذى وضعت فيه الحروف الفينيقية التى وصلت ألينا اهـ

العرب الفاتحون ـ أن العرب الذين سكنوا أفريقيه الشمالية عند أغارتهم عليها في نهاية القرن السابع من الميلاد وفى منتصف القرن الحادى عشر على الخصوص وحكموها لونهم أشد سماراً من لون البربر وهم أيضاً أقل منهم قوة أجسام ولكنهم أذكى وأمهر فى معرفة حيل وأساليب الحكم ويطلق على عموم الذين ينزلون منهم الجنوب ويعيشون وسط الشلوح والحراثين أسم عرب كأنهم هم الذين يشخصون أمتهم ويزيد عددهم هنالك عن نصف مليون ولهم الغلبة العظمى بالمدن وكلهم ينزلون أمكنة معينة من الأرض ألا الذين

منهم فى جنوبى جبال أطلس قال فى الأستقصاء

« أن أرض أفريقيه والمغرب لم تكن للعرب بوطن فى الأيام السالفة لا فى الجاهلية ولا فى صدر الأسلام وأنما كان المغرب وطناً لأمة البربر خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم ولما جاءت الملة الأسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش المسلمين من العرب ألى أرض المغرب فى جملة مازحفت اليه من أقطار الأرض لكن العرب الداخلون ألى المغرب فى ذلك العصر أنما كانوا يدخلون اليه غزاةً مجاهدين على ظهور خيولهم فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار ثم ينقلب جمهورهم ألى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب وأن بقى القليل منهم به فأنما كانوا يستوطنون منه الأمصار دون البادية ويسكنون القصور دون الخيام فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذ بقبائلهم وخيامهم ولا استوطنوه بأحيائهم وحللهم كما هو شأنهم اليوم لأن الملك الذى حصل لهم والغلب الذى مكنهم الله منه كان يمنعهم من سكنى البادية ويعدل بهم ألى الحاضرة ولا بد فكانت الخيمة بأرض المغرب معدومة رأساً أو قليلة جداً لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل وأنما كان يسكن منهم بالمداشر وكهوف الجبال واستمر الحال على ذلك ألى أواسط المائة الخامسة فدخلت العرب أرض أفريقيه واستوطنوها بحللهم وخيامهم ثم لما كانت أواخر المائة السادسة فى دولة يعقوب المنصور رحمه الله نقل الكثير منهم ألى المغرب الأقصى فاستوطنوه بحللهم وخيامهم كذلك وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان

العربى وأمة البربر أهل اللسان البربرى بعد أن كانت بلاداً خاصة بالبربر لا يشاركهم فيها غيرهم كما قلنا»

«وأما خبر دخول العرب ألى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون أن بنى سُليم بن منصور وبنى جُشَم وبنى هلال وكلهم من مضر وأن كهلان من بنى قحطان انتقلت ألى أفريقيه والمغرب وانتقل اليها أيضاً غيرهم من القبائل لكنهم ليسوا بمشهورين كالأربعة المذكورة وذكر المؤرخون أن بنى سليم بن منصور وبنى هلال بن عامر المذكورين لم يزالوا بجزيرة العرب برهة من الدهر ألى أن مضى الصدر من دولة بنى العباس وكانوا أحياء ناجعة بأرض الحجاز ونجد فبنو سُليم مما يلى المدينة المنورة وبنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف ثم تحيز بنو سُليم والكثير من هلال بن عامر ألى البحرين وعُمَان وصاروا جنداً للقرامطة ثم غلب القرامطة على بلاد الشأم وظاهرهم على ذلك بنو سُليم وبنو هلال ثم انتقلت دولة العبيديين من أفريقيه ألى مصر وغلبوا القرامطة على الشأم وانتزعوه منهم وردوهم على أعقابهم ألى البحرين ونقلوا أشياعهم من بنى سليم وبنى هلال فأنزلوهم بصعيد مصر فى العُدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك وكان لهم أضرار بالبلاد ولما انتقلت الدولة العبيدية من أفريقيه ألى مصر كما قلنا استنابوا على أفريقيه بنى زيرى ابن مناد الصنهاجيين فملكوها وكانوا يخطبون للملوك العبيديين على منابرهم ويضربون السكة بأسمائهم ويؤدون اليهم أتاوة معلومة وطاعة معروفة ولما

انساق ملك أفريقيه ألى المعز بن باديس بن المنصور بن بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجي سنة ٤٠٨ كان له رغبة فى مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذ المستنصر بالله مَعَد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله والمعز هذا هو الذى انتقل ألى مصر وبنى مدينة القاهرة وكان المعز بن باديس الصنهاجي لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدى صاحب مصر كما كانت أسلافهما ثم أن المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك فى أول ولايته فكبا به فرسه فنادى مستغيثاً بالشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فسمعته العامة وكان جمهورهم سنية فثاروا بالرافضة وقتلوهم أبرح قتل وأعانوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الأيمان وقطعوا من الآذان حى على خير العمل وكانت هذه الواقعة فى أيام الظاهر العبيدى والد المستنصر فكاتب المعز بن باديس فى ذلك فاعتذر أليه بالعامة فأغضى عنه واستمر بن باديس على أقامة الدعوة لهم والمهاداة معهم وهو فى أثناء ذلك يكاتب وزيره القائم بأمور دولتهم أبا القاسم على بن أحمد الجرجرائى ويستميله ويعرض ببنى عبيد وشيعتهم ويغض منهم ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعمائة وولى الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن على اليازورى أصله من قرى فلسطين وكان أبوه فلاحاً بها فلما ولى الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان يخاطب من قبله من الوزراء كان يقول فى كتابه اليهم عبدكم

وصار يقول فى كتاب اليازورى صنيعتكم فحقد ذلك عليه وصارت القوارص تسرى من بعضهم الى بعض الى أن أظلم الجو بين المعز بن باديس وبين المستنصر العبيدى ووزيره اليازورى فقطع ابن باديس الخطبة بهم على منابره سنة ٤٤٣ وأحرق بنود المستنصر ومحا اسمه من السكة والطراز ودعا للقائم العباسى خليفة بغداد وجاء خطابه وكتاب عهده فقرىء بجامع القيروان ونشرت الرايات السود وهدم دور الاسماعيلية وبلغ الخبر بذلك كله الى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامته ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن على اليازورى فى أمر ابن باديس فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بنى هلال وبنى جشم الذين بالصعيد وأن يتقدم اليهم بالاصطناع ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال أفريقيه وتقليدهم أمرها بدلا من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم فان صدقت المخيلة فى ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجه كانوا أولياء للدولة وعمالا بتلك القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة وأن كانت الاخرى فلها ما بعدها وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك فبعث المستنصر وزيره الى هؤلاء الاحياء وأرضخ لامرائهم فى العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم وأباح لهم أجازة النيل وقال لهم قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآبق فلا تفتكرون بعدها وكتب اليازورى الى المعز «أما بعد فقد أنفذنا أليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمراً كان مفعولا» فشرهت العرب

اذ ذاك وعبروا النيل ألى برقة فنزلوا بها واستباحوها وافتتحوا أمصارها وأعجبتهم البلاد فكتبوا لأخوانهم الذين بقوا شرق النيل يرغبونهم فى البلاد فأجازوا اليهم بعد أن أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه وتمارعوا على البلاد فحصل لبنى سليم شرقها ولبنى هلال غربها ثم انتشروا فى أقطار أفريقيه مثل الجراد لا يمرون بشيء ألا أتوا عليه وبالجملة فلم تمر ألا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحى أفريقيه ونازلوا أمصارها واقتضوا من أهلها الأتاوة وحصروا ابن باديس فى قصره وصاهرهم بنباته تأليفاً لهم ومع ذلك فلم يجد شيئاً »

«قال ابن خلدون ولهؤلاء الهلالبين فى الحكاية عن دخولهم ألى أفريقيه طرق يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة ويسمونه شكر ابن أبى الفتوح وأنه أصهر ألى الحسن بن سرحان فى أخته جازيه فأنكحه أياها وولدت منه ولداً اسمه محمد وأنه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة فأجمعوا الرحلة عن أرض نجد ألى أفريقيه وتحيلوا عليه فى استرجاع أختهم جازيه المذكورة فطالبته بزيارة أبويها فأزارها أياهم وخرج بها ألى حالهم وأقام معها مدة الزيارة فارتحلوا به وبها وكتموا رحلتهم عنه وموهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ويروحون به ألى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة ألى أن فارق موضع ملكه وصار ألى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه ورجع ألى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء

دخيل وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها ألى أن ماتت من حبه ويتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يعفى على خبر قيس وليلى ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المبانى متقفة الأطراف وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع لم يفقد فيها من البلاغة شيء وأنما فقدمنها الأعراب فقط ولا مدخل له في البلاغة وفى هذه الأشعار شيء كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآيآتهم ووقائعهم مع زناته وحروبهم وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم لكنالا نثق بروايتها وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وغيره وهم متفقون على الخبر عن حال جازية هذه والشريف خلفاً عن سلف وجيلا عن جيل ويكاد القادح فيها والمستريب فى أمرها أن يرمى عندهم بالجنون لتواترها بينهم ألى أن قال ومات الشريف شكر المذكور سنة ٤٥٣ وولى بعده أبنه محمد الذى يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من جازية هذه»

«هذا هو سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد ألى أفريقيه وأما سبب انتقالهم من أفريقيه ألى المغرب الأقصى فقد ذكرنا أن بنى سُليم بن منصور وبنى هلال بن عامر اقترعوا على بلاد أفريقيه فكان لبنى سليم شرقها ولبنى هلال غربها ثم تغلبوا على ضواحيها وأمصارها وضايقوا ملوكها بها وانضم ألى بنى هلال ابن عامر بنو جُشَم فعلت أيديهم على الجميع واستمر أمرهم على ذلك ألى أن كانت دولة يعقوب المنصور الموحدى رحمه الله وثار

ابن غانيه عامله ببلاد أفريقيه فظاهرته العرب من جشم وهلال على الموحدين وأوقعوا بمقدمة المنصور فنهض أليهم من تونس وأوقع بالملثمين أولا ثم بالعرب ثانياً وقد جمعهم واتبع آثارهم ألى أن شردهم ألى صحارى برقه وانتزع تلك البلاد من أيديهم ثم راجعوا بصائرهم فأتوه خاضعين طائعين وكان الذين قاتلوه أولا ثم راجعوا طاعته ثانياً هم قبائل هلال بن عامر وجشم بن معاويه بن بكر وهم أصحاب غرب أفريقيه وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد فلذلك بقى بنو سليم بأرض أفريقيه ونقل المنصور رحمه الله بنى هلال وبنى جشم آلى المغرب الأقصى حين أتوه طائعين وكان ذلك سنة ٥٨٤ فأنزل قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط فيما بين قصر كتامه المعروف بالقصر الكبير ألى ساحل البحر الأخضر فاستقروا بها وطاب لهم المقام وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا ما بين بلاد مراكش وهى أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية ألى القفار لأحاطة جبل درن بها فلم يمموا بعدها قفراً ولا أبعدوا رحلة» اهبيعض تصرف

٢ المغاربة — أما المغاربة الذين يسميهم الأفرنج مُور (Maures) فانهم متناسلون من الجنسين السابقين ومن الذين أخرجوا من الأندلس بعد ضياع غرناطه (١٤٩٢ م) وقد بقى فيهم اللون الفاتح لون البربر ودهاء العرب ويتصفون على العموم بعوائد وأخلاق يمتازون بها عن غيرهم ويشتغل أغلبهم بالتجارة

والصناعة وهم فوق العرب هناك ثروة وعلماً ويشغلون الوظائف العليا فى الدولة ومنهم الحكام فى البلاد الخاضعة للسلطان وقد أطلق بعض العلماء هذا الأسم الآن على قوم تفرقوا هناك فى جهات متباعدة اختلفت صفاتهم كما اختلفت عناصرهم ولما كان أغلب السكان الأقدمين بأفريقيه الشمالية من البربر كان فى الأمكان أن تقول أن أولئك المغاربة (مور) هم عموماً وقبل كل شيء برابر لغتهم العربية أو أنهم قد استعربوا وكان نفس هؤلاء البربر يتألفون قبل الفتح الأسلامى من خلاسيين خصوصاً بالمدن القديمة التى كان يحكمها الرومان ومنهم أقوام كانوا قد انحلوا فى عناصر سوداء مثل مغاربة السنغال الذين يقولون أنهم عرب مع أنهم سودان حقيقيون بلون بشرتهم وشكل شعورهم أما لونهم فى الغالب أسمر فاتح وشعورهم كالصوف تشبه شعور السودان وتقاطيع وجوههم تشبه البربر وأهل أوربا والعرب وقد كانوا فى أسبانيا أرقى السكان وأعلاهم حضارة

والرومان أول من سمى سكان أفريقيه الشمالية بأسم مور كما سموا بلادهم موريتانيا وكان يطلق هذا الأسم فى وقت الفتح الأسلامى على سكان المدن المختلطى الدماء ولما استولى المسلمون على أسبانيا أطلق الأسبانيون لفظ مور على أولئك العرب الذين فتحوا بلادهم وقد بلغ المغاربة المذكورون أو عرب أسبانيا درجة عالية فى الحضارة التى شادوا صروحها ووطدوا

دعائمها مما ساعد كثيراً على ترقى الحضارة بأوربا الجنوبية هذا وبعد سقوط غرناطه بقى بعضهم بأسبانيا ثم اعتنقوا الدين المسيحى ظاهراً واضطهدهم الأسبانيون بقساوة وأظهروا عليهم تعصباً شديداً مع خلودهم للسكينة مما اضطرهم للقيام بثورتين عظيمتين أحداهما فى سنة ١٥٦٨ م والثانية فى سنة ١٦٠٩ م وبعد ذلك خيرهم الأسبانيون فى الرحلة فهاجر معظمهم ثم طردهم الأسبانيون جميعاً تقريباولم يبق منهم ألا بقية ضعيفة التجأوا ألى الجبال أما من وصل منهم ألى بر العُدوه سالماً فانتشر فى أفريقيه وازداد به عدد سكان المدن ويطلق أهل أوربا الآن لفظ مُور فى تلك البلاد على كل طبقة التجار تقريباً وهم أقوام يتألفون من عناصر بربرية وعربية وأسبانية وهم بيض البشرة مهابو الطلعة يرسلون لحاهم فى العادة وتميل أجسامهم ألى السمن ويتصفون بما يتصف به التجار من الفضائل والرذائل ولغتهم العربية يدخلون عليها ألفاظاً بربرية وأسبانية كثيرة ولا يزال بعض العائلات منهم ألى الآن يفتخر بالانتساب ألى الأندلس وكثيرون منهم يحفظون أنسابهم لتصل بهم ألى أصل أندلسى

أما مغاربة السنغال النازلون شمالى هذا النهر كالطرارزه والبراكنه فكلهم خلاسيون تناسلوا من السود والعرب والبربر أو اختلطوا بالعرب والبربر الخلص وهم يشبهون مور أو مغاربة بلادالبربر شكلاً غير أنهم يشتغلون برعاية الماشية وهم حربيون ويتألفون من طبقات أثنتان منهما للأمة الفاتحة وهما

الحربيون والمرابطون والثالثة الأتباع والرابعة العبيد

هذا وبجزيرة سيلان نحو ٢٠٠٠٠٠ من المور كلهم خلاسيون تناسلوا من العرب الذين أتوا من الجهات الجنوبية بجزيرة العرب ومن السنكليز وهم طائفة من سكان هذه الجزيرة القدماء وقد قبض المور على زمام التجارة هناك وتصرفوا فيها مدة القرن الرابع عشر وفى القرن الخامس عشر تسلطوا على تلك الجزيرة وبقى الحكم فى يدهم حتى انتزعه منهم أهل أوربا

٣ اليهود ـ أما اليهود فأنهم من نسل الذين طردوا من أسبانيا سنة ٦٩٤م بأمر أصدره مجمع الأساقفة بمدينة طليطله ثم طرد الملك فرديناند الكاثوليكي من بقى منهم هناك بعد ثمانية قرون من التاريخ المذكور ويمتازون على الخصوص بصورتهم وأزيائهم كما يمتازون بالذكاء وبميلهم للتجارة وهم الذين يقرضون الحكومة هناك ما تحتاجه من الأموال عند الضرورة ولهذا كانوا أصحاب علاقة بكل المعاملات التجارية بين كبيرة وصغيرة سواء فى أعمال الحكومة أو أعمال الأهالى وحالتهم سيئة جداً حتى أنه لولا ما يعود عليهم من الفوائد والمكاسب العظيمة لما احتملوها وصبروا عليها وكذلك لولا حماية القبائل لهم في القرى والخلوات لأوقع الناس بهم

قال فى صفوة الاعتبار «واليهود يسكنون فى المدن وغيرها على صفة أهل الذمة غير أن عوائدهم القديمة معهم تجاوزوا فيها حد الشرع فى أهانتهم وأذايتهم حتى فتحوا عليهم باباً لمداخلة الدول بواسطة الجمعيات اليهودية فى

ممالك أوربا» اه وهم يسمون أنفسهم بمطرودى قشتاله وقد اختلف العلماء فى تقدير عددهم والغالب أنهم لا ينقصون عن ٣٠٠٠٠ نفس

٤ السود — أما السود هناك فكلهم استجلبوا من بلاد السودان عبيداً وحالة جميعهم جيدة فى بلاد لا أثر فيها لاحتقار الألوان تقريباً سيما وأن الكثير من الشرفاء ببلاد مراكش متناسل من أماء سودانيات وينظر أليهم فى الحقيقة كما ينظر ألى الخدم لا كما ينظر آلى العبيد وكثيراً ما يصل الواحد منهم ألى درجة معتبرة من الثروة والجاه

هذا وزيادة عن هذه العناصر المذكورة فانه يوجد بمراكش عدد قليل من الأروبيين أكثرهم من الأسبانيين ويتلوهم الفرنسويون وكلهم تقريباً يسكنون مدينة طنجه هذا خلاف من يوجد من الأروبيين بالمستعمرات الأسبانية التى على سواحل بحر الروم

اللغة — اللغات المستعملة بمراكش هى البربرية أو لغة تمازغت ثم العربية وتسمى البربرية فى الجنوب باسم شُلُوح أو شِلاّحه ولا يكتب منهما ألا العربية وعربية العامة هناك فاسدة بما التصق بها من التعبيرات والألفاظ الدخيلة ويختلف نطقهم بها مع فساده فى الأقليم الواحد عنه فى الأقليم الآخر بحيث تنبو الأذن الصحيحة عن سماع تلك اللهجات وتحكم بفسادها من أول سماعها لها والعربية التى تخرج من فم اليهود طُمطمانية لا تفهم تقريباً وكثيراً مايستعمل أهل تطاوين وطنجه والعرائش اللغة الأسبانية فى كلامهم

ويفعلون بها فعلهم بالعربية وينطق السود بالعربية نطقاً يختلف عن ذلك أيضاً ويستعمل الكثير منهم فيما بينهم لغة الماندنج أولغة بمبارا ويسمونها باللغة الغيناوية (نسبة الى غانه) ومع ذلك فأن العربية الفصحى تدرس ويتكلم بها العلماء قال فى صفوة الأعتبار « ولعمرى أن صناعة الانشاء فى الدول باللغة العربية كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا وكادت كتابتهم أن تخرج عن الأسلوب العربى بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية بخلاف كتاب المغرب وهذا ديدنهم من قديم » اهـ

ألدين — ألدين السائد بهذه البلاد هو الأسلام على مذهب الأمام مالك وقل أن يحرف المغاربة والعرب هناك عن أوامر الدين ونواهيه فيحافظون عليهما محافظة تامة ويتحاشون عن المعاصى وكل قادح فى العدالة والقرآن هو الأصل فى قوانينهم ونظاماتهم أما البربر فأكثر قبائلهم لا تعرف من الأسلام ألا اسمه حتى يقول بعض علماء الجغرافيا أن هناك عدة قبائل بربرية لا تعتبر الحج من قواعد الاسلام والسود مع شدة تمسكهم بآداب الدين يشتغل الكثير منهم بالسحر والعرافه وما ماثلهما أما اليهود فيتبعون مذهب البرتقال فى اليهودية وكلهم جهلاء يميلون للأعتقادات الباطلة ويتمسكون بتعاليم التلمود حرفاً بحرف كما فسره علماؤهم هناك

عدد السكان — لا شيء أكثر مجاذفة من تقدير عدد سكان مراكش

ولو بكيفية تقريبية فأن عددهم يختلف كما ورد عن سياحي أهل أوربا بين مليونين وخمسة عشر مليوناً ولا توجد طريقة أصلا لتقدير عددهم قال مسيو تيسُّو (Tissot) وكان قنصلا لفرنسا هناك أن عددهم لا يقل عن أثنى عشر مليوناً وقال اوسكارلنز (O. Lenz) أننا لا نبالغ اذا قلنا أن عددهم يبلغ ثمانية ملايين خصوصاً وأن الكثير من المدن يسكنها عددعظيم منهم سواء في ذلك مدن الداخل أو المدن التي على ساحل المحيط والمحقق في تقديرهم أن البربر أكثر من العرب وأن العرب أكثر من المغاربة وأن المغاربة أكثر من السود وأن السود أكثر من اليهود وعددهم الذي ارتضاه كثير من الجغرافيين الآن يبلغ الاثنى مليوناً تقريباً بينهم نحو ١٩٫٢٠٠ من أهل أوربا

أقسامها الأدارية — كانت هذه البلاد منقسمة ألى زمن قريب ألى مملكتين منفصلتين عن بعضهما هما مراكش وفاس وكان القتال بينهما لا ينقطع تقريباً تريد كل منهما الأستئثار بالنفوذ والسلطان أما الآن فقد توحدت المملكتان ولم يبق منهما ألا عاصمتيهما مراكش وفاس ويقيم السلطان الآن تارة في فاس وأخرى في مراكش وعلى ذلك كانت فاس كأنها عاصمة الشمال ومراكش عاصمة الجنوب وتنقسم الدولة الى أقاليم بكل أقليم عدة قبائل موزعة في جهاته وليس لدينا من الأسانيد ما نتمكن به من ترتيب تلك الأقاليم وذكرها ذكراً صحيحاً قال الدكتور لنز (في كتاب له بالالمانية يسمى سياحة في مراكش طبع في ليبسيج سنة ١٨٨٤) أن عمالاتها أربع وأربعون عمالة

منها خمس وثلاثون شمالى أطلس وتسع جنوبيه ويختلف عددها كما تختلف مساحتها كارادة السلطان وعدد القبائل في كل أقليم يختلف بين قبيلتين وخمسة عشرة قبيلة وكل قبيلة تنقسم ألى أقسام صغيرة يعرف الواحد منها بالدوّار في السهل وبالشور فى الجبل والدوار عدة خيام ينقلها سكانها من مكان ألى آخر والشور كفر أو قرية صغيرة بيوتها من الحجر أو الطين وسقوفها من البوص ولكل قبيلة من تلك القبائل تاريخ أهلى وتقاليد يتوارثونها وألقاب شرف لبيوتاتها وكلهم تقريباً متخاصمون لا يتحدون ألا فى النادر ولا يمتزجون ببعضهم أصلا

ألحالة السياسية ـ ألحكومة ـ ليس لبلاد مراكش قانون لوراثة التاج فمنصب السلطان هناك فى الحقيقة أنتخابى فكل مسلم اجتمعت فيه الصفات التى قررها الفقهاء فى ذلك يمكنه أن يكون أمير المؤمنين ومع هذا فتاج مراكش وراثى منذ أكثر من ثلاثة قرون فى الأشراف الفلاليين الذين تتصل نسبتهم بالنبي عليه السلام ألا أن نظام الوراثة لم يرتب فى هذه الأسرة أيضاً فقد انتقلت السلطنة والخلافة على التعاقب لمن كان منهم أسعد حظاً وأكثر قوة فكانت من الأب للأبن تارة وأخرى من الأخ لأخيه أو من العم لابن أخيه ويحصل أن ينتخب السلطان الحاكم ولى عهده ألا أن هذا الأنتخاب لا يكون نهائياً ألا بعد أن يعلن أمره فى فاس وقت خلو كرسى السلطنة ويقرره مجلس الأعيان الذى يتألف من العلماء وقواد الجنود وكبار تجار العاصمة قال في صفوة الاعتبار «أن المتولى لا يعهد ألى معين من عائلته وأنما له أن يوظف

منهم من رآه أهلا فى كبار الأعمال وعند فقد السلطان تجتمع أعيان المتوظفين والعلماء وأعيان الأهالى وينتخبون أحد أعضاء العائلة ويبايعونه بالسلطنة وبقية أعضاء العائلة يجب عليهم قراءة العلم ومن يوظفه منهم السلطان يشتغل بوظيفته ومن لا وظيفة له يشتغل بصناعة يتعيش منها وهى لا تكون ألا عالية كالتجارة والتدريس والفلاحة ومع ذلك يجعل لهم من بيت المال شيء لا يكاد يسد من عوز » اه

والسلطان مطلق التصرف فى الأمور السياسية فقط وأرادته تقريباً هى القانون ألا ما خالف منها الشرع وقوانينهم مستمدة من الشرع الشريف أكثر منها فى أى مملكة أسلامية أخرى وليس هناك وزير أو وزارة بالمعنى المقصود منها فى الممالك الحديثة الحضارة وكل الأحكام يصدرها السلطان ولو فى الشكل على الأقل وهو المسئول عن كل أعمال حكومته تقريباً ويستنيب عنه كبار الموظفين وأهل الوجاهة فى الدولة ولكل أقليم مشايخه وأعيانه ومنهم يتألف مجلس يسمى فى البلاد المستقلة مجلس الأربعين وهو يحكم عادة بما يراه مناسباً جاعلا مع ذلك القرآن وجهته والشرع أمامه وفى بعض الظروف يعين السلطان حاكما يعرف عندهم بالعائد أو عدة قواد لحكم وأدارة الأقليم ويشترط عليهم الاهتمام بتأمين الطرق وتقديم الجنود والخيل التى تطلب منهم للجيش عند الضرورة وأن يقبضوا الخراج ويبعثوا لدار المخزن أى الخزانة السلطانية فى الأعياد الكبيرة من السنة كل ما يمكنهم الحصول عليه من النقود للسلطان وحاشيته

هذا وفى مراكش شخص غير سلطانها يعادل نفوذه نفوذه أن لم يفقه وهذا الشخص هو شريف وزان وهو متصل النسب بالنبي عليه السلام لأنه من نسل مولاى أدريس فاتح المغرب وهو أيضاً الرئيس الأكبر للطريقة الصوفية المنسوبة لمولاي الطيب ولهذه الطريقة أتباع حتى بمصر وبلاد الجزائر وتونس وطرابلس وهذه المنزلة الرفيعة التى للشريف المومأ أليه ترتكز على اختصاصه بتقليد سلاطين المغرب منصبهم وعلى ما يلازم ذلك الأختصاص من الأمتياز فى القضاء بين الناس مستقلا فى ذلك عن السلطان تماماً وترتكز أيضاً على كونه رئيساً لطريقة مولاى الطيب المتقدمة الذكر ويبلغ أتباعها أكثر من نصف الأمة المراكشية ومنها كل الشرفاء تقريباً حتى نفس السلطان وعلى ذلك كان نفوذ شريف وزان عظيماً جداً حتى أن السلطان كثيراً ما يستعين به فى أخماد الثورات والمشهور أن هذا الشريف تحت حماية فرانسا

والأحكام هناك يصدرها القضاة طبقاً للشريعة الغراء ولكن لما كانت هذه الأحكام فى المواد المدنية والتجارية لا تنطبق على عادات الأوربيين نالت دول أوربا لقناصلها أمتياز أصدار الأحكام بين المتقاضيين من غير استئناف سواء كانوا كلهم أوربيين أو كان بعضهم أوربياً والآخر مراكشياً وللأوربى ومن كان فى حكمه أن يرفع شكواه أذا أراد للقاضى الشرعى وفى هذه الحالة تخوله المعاهدات حق رفع الأستئناف الى ذات السلطان أو لأحد نوابه وهم موظفو الأدارة

وعلى ذلك ليس للقاضى الشرعى الحق أصلاً فى أصدار حكمه ألا متى كان الخصمان من رعاياه وأكبر القضاة هناك هو قاضى الجماعة ومقامه بمدينة فاس ويعينه السلطان وهو يعين بقية قضاة الأقاليم والمقاطعات وهؤلاء يعينون من دونهم كما سبق وللناس الحق فى التقاضى أمام قاضى الجماعة مباشرة بدون أن يرفعوا ظلامتهم لمن هم أقل منه درجة ومتى حكم القاضى بالأعدام لا ينفذ حكمه ألا بتصديق السلطان وكثيراً ما يأمر السلطان بقتل العصاة والثوار من غير محاكمة وحكم التعزير ينفذ على أى شخص كان متى قال به القاضى قال فى صفوة الأعتبار « وأغلب الأحكام الشخصية يحكم فيها بالشرع والمباشر للحكم هو قاض يُختار من أعلم الموجودين والمذهب العام هو المذهب المالكي ولهم مفتون يوليهم القاضى وبعضهم يوليه السلطان وهؤلاء المولون من السلطان يستشيرهم القاضى عند طلب الخصم للشورى فى حكمه أو عند توقف القاضى فى وجه الحكم وهكذا فى كل مدينة أو قبيلة قاض وجميع ما يرجع ألى تلك المدينة من الأيالة يرجع ألى ذلك القاضى وله نواب فى القرى الصغيرة وفوق الكل قاضى فاس وهو قاضى القضاة وفى فاس قاضيان بهذه الصفة كل منهما مستبد بجهة من المدينة وما يتبعها لأنها تنقسم ألى فاس القديمة وفاس الجديدة ألى أن قال وهذا القاضى هو الذى يولى جميع القضاة ألا قضاة مراكش فلا دخل له فيهم أللهم ألا أذا أراد السلطان أن يولى أحد علماء فاس قاضياً بمراكش فحينئذ يستشير قاضى فاس فى تعيين القاضى وكل

مكان يشتمل على قاض له وال يسمى فى عرفهم قائداً له فصل النوازل العادية والسياسيةوبعض الشخصيات والدولة مركبة من السلطان والوزير والحاجب ووزير القضايا وكتبة ورؤساء للجند ولجهات سياسية » اه

ويدير مالية الدولة موظف كبير يعرض على السلطان كل مسائلها وجميع الأيرادات مهما كان نوعها سواء كانت أيرادات الدولة أوأيرادات الأملاك السلطانية تدخل كلها فى خزانة واحدة والأيرادات هى أيرادات الأملاك السلطانية والهدايا والعشور والمصادرات والجمارك والمكوس ومايؤخذ على دواب الحمل وأموال الألتزام والجزية وغيرذلك أما المصروفات فهى مايصرف على الجيش وقصر السلطان وحاشيته ومرتبات بعض الموظفين ومرتبات الموظفين السياسيين فى طنجه ومرتبات سفرائهم فى الخارج ثم ما يرسل سنوياً ألى الحرمين الشريفين وغير ذلك وعلى كل فان الأيراد أكثر من المنصرف بكثير فى العادة بحيث يتوفر فى الخزانة سنوياً مبلغ جسيم

أما سبب زيادة الأيراد عن المنصرف بهذه الكيفية فلأن مراكش لا تهتم بأصلاح الطرق والثغور البحرية والأعمال العمومية هناك قليلة جداً وجيشها المنظم قليل العدد وكثير من موظفيها لا مرتبات لهم وللجوامع والزوايا والأضرحة أموال من غير الحكومة سيما وخراج المقاسمة وهو دفع الضرائب من جنس المحصول يسهل على الحكومة القيام بأطعام القصور السلطانية ويوزع بعضه على الجيش وما بقى يباع لحساب الخزانة والحاصل

أن ما تصرفه الممالك الأخرى من الأموال لا وجود له فى مراكش بالمرة أو هو بها قليل جداً وقد أنهكت الثورات الداخلية الآن خزانة مراكش وزادت مصاريفها بتأليف البوليس فى الثغور وأصلاح الجيش والقيام ببعض الأعمال النافعة وغير ذلك بحيث أصبحت تمد يدها للأستدانة من أوربا ولا تخفى ما يجره عليها ذلك من الويلات

ألجيش ـ يتألف الجيش من فرقة تعرف بالبخارية كل جنودها سود فرسان وهم حرس السلطان الخاص يرافقونه فى كل حروبه وقد اشتهروا بالصدق فى طاعتهم للسلاطين وهناك فرقة أخرى تعرف بالمخزنية كلهم فرسان يرث الواحد منهم الجندية عن أبيه وهم من أقدم فرق الجيش المراكشى ولدى كل حاكم من حكام الأقاليم والمقاطعات منهم عدد يناسب سعة أقليمه للمحافظة على الأمن ونقل رسائله وأوامره ويقولون أنه يجتمع من هذه الفرقة وقت الحرب أكثر من خمسة وعشرين الف فارس وهناك فرقة أخرى تعرف بالعسكر وكلهم رجالة منظمون وكانوا قديماً يرافقون السلطان أنى ذهب وهم فى نظامهم وسلاحهم يشبهون العساكر الجزائرية المعروفين بالزواوه والتركو ومن فرق الجند أيضاً الطوبجية ولا نظام لهم وغالبهم يحترف حرفا وهم بالثغور البحرية لأطلاق مدافع السلام للسفن الحربية التى ترسوا عليها ويتوارثون هذا العمل وعددهم قليل

ومنهم أيضاً فرقة تعرف بالبحرية وكأنهم بقايا بحرية العمارة المراكشية

القديمة وهم يتوارثون عملهم أيضاً ويخدمون فى السفن الصغيرة التى للسلطان وفى زمن الحرب ينضمون ألى رجالة الجيش

هذا أما الرديف فيتألف من كل شخص يقوى على حمل السلاح وللسلطان أن يدعوهم كلهم أو بعضهم متى أراد وهم فرسان ورجالة وسلاح الواحد منهم بندقية طويلة وخنجر كذلك وعلى السلطان أطعامهم فقط فلا مرتبات لهم ويؤكد بعض من لهم أطلاع على أحوال مراكش أن السلطان يمكنه أن يجمع منهم عند اللزوم نحو خمسمائة ألف وربما كان فى هذا القول مبالغة كما يقول آخرون

وليس لمراكش الآن سفن حربية ولا تجارية أما السفن التجارية التى يراها الأنسان أحياناً تسير رافعة علماً مراكشياً فكلها للنواخذة من الأروبيين وعمالها كلهم تقريباً من الأروبيين أيضاً حتى أن قرصان بلاد الريف المشهور أمرهم والذين كانت النصرانية ترتعد خوفاً منهم فيما سبق فالظاهر من أمرهم أنهم تركوا تلك المهنة بعد الحرب التى وقعت بين مراكش وأسبانيا فى سنتى ١٨٥٩ و١٨٦٠ واقتصروا الان على نقل الأخشاب وغيرها ألى طنجه وألى بعض ثغور المحيط الأطلسى هذا وقد تولت الحكومة الفرنسية أصلاح الجيش المراكشى الآن بعد مؤتمر الجزيرة وتعين أيضاً ضابط أوربى كبير لأصلاح وتعليم بوليس الثغور البحرية وقد ظهرت آثار عمله ظهوراً بيناً

قال فى تقويم غوتا[١] عن سنة ١٩١١ الحالية ما يأتى «ليس بمراكش جيش

(١) Almanach de Gotha (1911)

عامل بالمعنى الأوربى فالجيش هناك فِرَق مختلفة من الجنود (ميلِيس) تحرّك زمن الحرب ومع ذلك فأنه يمكن أعتبار الفِرَق الآتية جيوشاً منظّمة وهم الجند المعروفون بالعسكر وكلهم رجّالة وفرقة الحرس وجنودها سود وهم خيّالة (٢٠٠٠ — ٣٠٠٠) والفرقة المعروفة بالمخزنية (٨٠٠٠ — ١٠ر٠٠٠) وهم جندَرْمه راكبة وهناك نحو ثمانمائة جندى أيضاً لا يمكن ألحاقهم بحسب الفن العسكرى بفرقة من الفِرق المذكورة وقد وُجد الآن بمرّاكش من سنة ١٩٠٨ فرقة من البوليس تتركب من ألفين وخمسمائة وهم فى الثغور البحرية المفتحة للتجارة يعلمهم ضباط من الفرنسويين والأسبانيين أما المجموع الكلى للجيش المراكشى فلا يمكن تقديره بالضبط هذا أما فى زمن الحرب فيدعى كل مراكشى لحمل السلاح »اه

حالتها الاقتصادية

﴿ الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة ﴾

ألزراعة — ألزراعة ببلاد مراكش باقية تقريباً على ما كانت عليه منذ عدة قرون لا لأن الأرض أو المناخ لا يوافقانها بل الحال بعكس ذلك فالسبب الأكبر فى تأخرها كسل الأهالى وقلة الأمن لدرجة أن الأنسان لا يكون متأكداً من أن يحصد ما زرعه لهذا كان الواحد منهم لا يزرع ألا بقدر

أحتياجه مع أن كل نبات يجود جداً بهذه البلاد التى فى أمكانها أن تخرج أكثر مما تخرجه الآن بنحو عشرين مرة خصوصاً أذا أستعملوا الطرق الحديثة فى استثمار الزرع ولكن يشترط لذلك أن يأمن الزارع السلب والنهب وأن يمكن من التصدير بطرق تسهل عليه نقل محصولاته ألى الخارج ومع قلة محصولات البلاد بهذه الكيفية ترى دولة مراكش تمنع تصدير الحنطة والشعير أما آلات الحراثة فبسيطة التركيب وتنطبق على جهلهم بها فالمحراث قطعة خشب منحنية عادية وهم يكشطون وجه الأرض قليلا ويقلبونه مرة واحدة لا غير هذا كل مايصنعونه فى تجهيز الأرض التى تعطى نحو عشرين أو ثلاثين فى المائة من التقاوى وقد تعطى أكثر من ذلك كثيراً فى بعض الجهات وسمادهم ما تتركه الحيوانات من فضلاتها فوق الأرض والذين يسكنون منهم قرب الغابات والنباتات الطويلة (الهيش) يسمدون أراضيهم بالكيفية الآتية وهى أنهم قبل فصل الأمطار بنحو شهر يضعون النار فى تلك الحشائش بحيث تعلق بها جميعها ثم بعد زمن يحرثونها غير أن خصوبة تلك الأرض التى تكون عظيمة جداً فى أول الأمر تأخذ فى التناقص التدريجى ألى أن تزول ولهذا فأنهم يسبخونها وقت ضعفها وهى طريقة لا يمكن أن تحصل فى بلاد أخرى ولكن لما كان عدد السكان بمراكش قليلا بالنسبة لمسطح الأرض الزراعية وكانت الأراضى والمروج الجميلة لا تزرع لقلة الأيدى كانت هذه الطريقة جائزة مقبولة

أما القبائل الرحل سكان الخيام فأنهم يوقدون النار فى قطع صغيرة من الأرض الواحدة بعد الأخرى ألى أن تأكل النار كل ما أحاط بمساكنهم من الحشائش وبعد زرعها وأخذغلتها ينتقلون ألى مكان آخر ويقيمون فيه ألى أن تضطرهم قلة خصوبة الأرض ألى الرحلة وهكذا ولا يزرع من أرض مراكش ألا نحو الثلث وربما كان فى تربية الماشية ثروة كبيرة للبلاد لو اعتنوا بها أكثر من أعتنائهم الآن ولكنها وللأسف باقية على ما كانت عليه منذ دهور والماشية بمراكش كثيرة جداً تعد بالملايين ولكنهم لا يعملون شيئاً لتحسين أنواعها ولا لحفظها من الأمراض المعدية وكثيراً ما يهلك منها مقادير كبيرة بالجدب وتغير الهواء وأهل مراكش والحق يقال شديدو العناية جداً بشيئين أثنين هما الرى وزراعة البساتين ولهم صبر غريب وتحايل عجيب فى جلب أصغر السواقى ألى الأرض التى يريدون أرواثها والبساتين التى تحيط بالمدن جميلة جداً بديعة المناظر وافرة النبات والزهر بكل أنواعه وقد وصل أليهم ذلك بلا شك من أهل الأندلس لأشتهار مسلمى أسبانيا بذلك

الصناعة — أعلم أن الصناعة بمراكش ذات شكل خاص بها وقد بقيت حيث هى لم تتقدم عما كانت عليه منذ قرون سواء فى ذلك الآلات والأدوات وكذا الطرق المستعملة فيها والأشياء المصنوعة بالبلاد جميلة تدل على ذوق فى الصناعة وتختلف عما هو من نوعها وقد نالت منسوجاتهم ومطرزاتهم وجلودهم المدبوغة وأوانيهم الفخارية وأثاثهم وملابسهم وأسلحتهم وسروجهم وما تعلق بها شهرة

جيدةوأشهر المدن الصناعية بها هي فاس ومراكش والرباط ويصنع فى فاس أنسجة جميلة جداً من الصوف والحرير ولأهلها مهارة فى تطريز القطيفة ودبغ الجلود والصياغة الدقيقة وعمل أوان نحارية يطلونها من الخارج بطلاء بديع كثير الألوان ويصنع فى مراكش وتطاوين أسلحة جميلة جداً وأدوات منزلية بديعة وتختص الرباط وسلا بصناعة البسط والحصر وبكل المدن المذكورة مدابغ ومصابغ مشهورة جداً بما يصنع فيها وفي فاس وتطاوين أكثر معامل القرميد والآجر ومنهما يأخذ كل أهالى بلاد مراكش مايلزمهم منه ولكن لا يستعمله ألا الأغنياء والصياغة فى كل المدن فى يد اليهود تقريباً ويشتهر أهل الصويره وتارودانت والسوس زيادة على ذلك بصياغة النحاس والفضة يصنعون منهما أوان منزلية بديعة ويرصعون بهما الأسلحة وكل هذه الصناعات المنتشرة بين العرب خصوصاً توصف بقلة وسائلها وبساطة الآلات المستعملة فى عملها فى بلاد لاتعرف عن الأعمال الميكانيكية شيئاً تقريباً وحاصل الكلام أن الصنائع المراكشية وأن كانت منطبقة على أحتياجات الأمة وباقية لم تتقدم ألا أنها كافية لحاجة البلاد

التجارة ـ ليست تجارة مراكش من حيث الأتساع فى المنزلة التي يجب أن تكون عليها فى بلاد أشتهرت بالثروة والخصوبة العظيمتين وسبب ذلك العوائق العديدة التى تعوق كل معاملة تجارية وتقف فى طريق حريتها وأشهر الثغور التجارية البحرية بها هى تطاوين وطنجه والعرائش وسلا والرباط

والدار البيضاء والجديدة وآسفى والصويرة وهناك تجارة برية بين بعض جهاتها ومدينة تلمسان وتجارة القوافل فى يد قبائل الحميان والطرافى وتكون بين تلمسان وواحة غورارة وتافيلت وغيرها

وهناك قوانين تمنع الأتجار ببعض الحاصلات لولاها لاتسع نطاق التجارة جداً وعاد عليها بالمكاسب الوافرة من ذلك أن الحبوب خصوصاً الحنطة منها لا يسمح بأخراجها من البلاد كذلك الخيل والبغال والحمير والضأن والمعز كلها ممنوع خروجها كذلك وذوات القرن من الحيوانات لا يمكن تصديرها ألا بتصريح خصوصى وبمقادير صغيرة جداً أما أصدار اللحوم وكذا حيوانات الجزارة ألى حامية جبل طارق فأنه حاصل بناء على معاهدة بين مراكش وبين أنجلتره وأهم صادراتها هى الجلود وقرون الحيوانات وعظامها والأصواف وهى أكبر صادراتها وجلود المعز والذرة والفول والأحذية (البلغ) والصمغ وريش النعام وشمع العسل وزيت الزيتون والمنسوجات الصوفية وغيرها أما وارداتها فاشهرها القطن والمنسوجات القُطنية والسكر والمأكولات والشاى والحرير الخام والمنسوجات الحريرية والصوفية والكاغد والحديد والصلب والأشياء الصلبية والشمع والنقود الفضية وغيرها

ويقدرون تجارتها الخارجية بأزيد من مائة وأربعة وخمسين مليوناً من الفرنكات(١٩٠٩)ولأنجلتره المقام الأول فى التجارة هناك وتتلوها فرنسا ثم ألمانيا ثم بلجيقا ثم أسبانيا والعلاقات التجارية بين هذه البلاد والبلاد الخارجية آخذة

في الازدياد ولكثير من تجار المغاربة علاقات تجارية بينهم وبين معامل فرنسا وأنجلتره مباشرة ومع ذلك فان القدر العظيم من التجارة عموماً فى يد اليهود قال فى صفوة الاعتبار« ولهم اليد الطولى فى التجارة بحيث أن تجارة داخل المملكة أعنى غير المراسى التى على البحر هى بيد الأهالى ويرسلون منهم ألى أقاصى الممالك لمعاطاة الأشغال التجارية ووصلها بمملكتهم حتى لا تكاد تجد مدينة شهيرة للتجارة فى أحدى قارات أوربا وآسيا وأفريقيه ألا وفيها من تجارهم من له مزيد الرواج والثروة ولهم براعة فى أدارة التجارة يناكبون بها الأورباويين » اه

ويذهب من هم فى سعة من العيش من أهل القبائل من وقت ألى آخر منفردين أو مع القوافل ألى المدن لمبادلة حاصلاتهم بمصنوعات أوربية ثم يعودون ألى بلادهم يسعون فى الحصول على حاصلات أخرى وبيع ما جلبوه معهم وبأغلب الأقاليم سبعة أسواق عمومية أو أكثر تقوم كل أسبوع تنعقد فى الخلوات وعلى مسافة قريبة من المساكن لتتمكن القبائل من التردد عليها وتقوم بالبلاد المستقلة خصوصاً بلاد السوس ووادى نون أسواق موسمية كبيرة تنعقد كل ستة شهور أو كل سنة وتبقى أياماً ويختلف الناس أليها من كل صوب

طرق المواصلات والنقل ـ يتردد على الثغور البحرية العظيمة بمراكش سفن البريد الأجنبي مما يوجد المواصلات بينها وبين فرنسا وأسبانيا وأنجلتره

وغيرها وليس بمراكش طرق حديدية ولا طرق لسير العربات ويكون النقل في الشمال بالبغال وفي الجهات الجنوبية بالجمال وأحسن الطرق هناك وأصلحها للسير هي الطريق بين فاس ومكناس ومع ذلك فالعناية بها قليلة وكثيراً ما تضطر القوافل والأفراد لعدم وجود القناطر للمكث عدة أيام على شواطئ نهير طغت مياهه بنزول الأمطار فتجعله غير صالح للعبور ولا يعرف الطرق هناك ألا الأدلاء من الأهالي والسير فيها بطيء متعب والسفار بها عرضة للعوارض التي تكون من طبيعة الأرض وفصول السنة زيادة على أن الأمن بها قليل نوعاً وتحصل المراسلات في الثغور البحرية الكبيرة بمكاتب البريد الأجنبي أما في الداخل فيحملها رجال أشتهروا بسرعة السير بحيث يقطع الواحد منهم من أربعين ألى خمسين كيلومتراً في اليوم الواحد قال في صفوة الاعتبار «وكذلك البريد له في كل بلدة شيخ وله أتباع يحملهم المكاتيب ويأخذ عليها أجراً زهيداً ويسافر به الحامل ومعه رفيق لكي لا يقع التعطيل بمرض أو غيره ويمشون راجلين ويمكنون المكاتيب في كل بلدة بيد شيخ بريدها وهو يوزعها ما لم يعرض أمر خاص فلصاحبه أرسال بريد خاص بأجر وافر على حسب بعد المكان ولأصحاب البريد سرعة في السير أما بريد الدولة فهو في عهدة القياد يرسلونه من واحد ألى آخر ألى أن يصل لمقره وأصحابه ركاب» اه وهناك خط تلغرافي بين فاس وطنجه وتطاوين

النقود والموازين والمكاييل — لمراكش نقود خاصة بها ومع ذلك فأن

أكثر النقود بها تداولا هي القطعة الأسبانية المسماة دورو والقطعة المسماة بيسيتا وكذا القطعة الفرنسوية التي يساوى الواحد منها خمسة فرنكات والقطعة الذهبية التي يساوى واحدها عشرون فرنكاً (بينتو) أما الريال النمسوى المنسوب الى ماريا تريزه (أبوطيره) فأنه هناك أقل تداولاً منه في بقية جهات أفريقيه والنقود المراكشية قطع فضية يسمى الواحد منها درهماً وهو يساوى نحو سبعة وعشرين سنتيما وقد ضرب سلاطين مراكش قديماً نقوداً ذهبية ولما كانت من عيار خالص جداً أشتراها التجار وأرسلوها ألى الخارج وما يوجد منها هناك الآن يعتبر تحفة من التحف ومن نقودهم أيضاً الفلوس وهي قطع صغيرة من النحاس المخلوط بالزنك رديئة العيار يساوى الواحد منها سنتيما واحداً ومن بينها ما قيمته سنتيمان وأربعة سنتيمات وهناك نقود تستعمل في العد فقط ولا وجود لها في الخارج كالمثقال وهو يساوى أربع أوقيات من النحاس وتنقسم الأوقية ألى أربع موزونات على اصطلاحهم

والقنطار عندهم يساوى مائة رطل مراكشي وذلك يعادل أربعة وخمسين كيلو جراماً تقريباً ويساوى الرطل في الشمال بطنجه وتطاوين خمسمائة جرام ويساوى في الجنوب بالجديدة والصويرة وغيرهما خمسمائة وأربعين جراماً

ومقاييس الأطوال هي الذراع ويساوى ٥٧ سنتمتراً والقنا وتقاس بها المنسوجات وتساوى ٥٤ سنتمتراً وتباع الحنطة في الجنوب بالمد وهو يساوى ١٤ لتراً تقريباً وفي الشمال بالصاع والكيله ويساوى الصاع سبعة وخمسون

لتراً تقريباً والكيلة تسعة وثمانون لتراً تقريباً أما السوائل فتباع بالوزن خلا زيت الزيتون فانه يباع بالقلة وتساوى القلة منه اثنان وعشرون لتراً أوأربعة عشر كيلوجرام

مدن دولة مراكش

قال بعض السياحين يصف مراكش ومدنها « يحيط بكل المدائن المراكشية أسوار ذات أبواب تغلق ليلا وليس لأغلب دروبها وحاراتها أسماء ولا لمنازلها أعداد ومع ذلك فأن أحيائها وأخطاطها متميزة عن بعضها تمام التميز وأهل الحى الواحد منهم وكلهم يعرفون بعضهم بعضاً متضامنون فى دوام النظام والسكينة كل طائفة فيما يخصها وهذا النظام الذى لا يظهر للسائح فى أول الأمر خصوصاً من كان أوربياً يفسره ندورة الجرائم فى المدن ندورة عجيبة بحيث لا يزيد متوسط جرائم القتل عن واحدة أو أثنتين وثلاث أو أربع سرقات بكسر فى مدينة سكانها بين عشرة آلاف وأثنا عشر ألفاً ومع ذلك فأن الطرق لا تضاء ليلاً وليس بها عسس اللهم ألا عسس الكلاب التى تكتفى بالنباح عادة ولا تهاجم ماراً معه فانوس وقد أقاموا فى الأسواق فقط بعض الحراس سلاحهم العصى أو بنادق محشوة بالبارود لا غير يستعملونها للأيقاظ عند الضرورة وكثيراً ما ينام الحراس فى أماكنهم تاركين أمر الحراسة لتيقظ الكلاب الذين ينام منهم عدد أمام الدكاكين والمخازن لهذا القصد » اهـ

فاس ـ هى من المدن الكبيرة بسلطنة مراكش والعاصمة الثانية بها واقعة على نحو ١٩٥ كيلومتراً ألى الجنوب والشرق من طنجه وعلى ٣٧٥ كيلومتراً ألى الشمال والشرق من مدينة مراكش وعلى ١٦٠ كيلومتراً ألى الشرق من رباط الفتح فى سهل كثير التضاريس تحيط به جبال ارتفاعها نحو ٥٥٢ متراً ويشقها وادى فاس وتبعد عن شاطىء وادى سبو الأيسر بنحو ستة كيلومترات ويزيد سكانها عن مائة وخمسين ألف نفس وترتفع عن سطح البحر بنحو ربعمائة متر وحولها سهل بديع المنظر وافر الخصوبة ولكنه لا يزرع منه ألا ما جاور فاس وجاور القرى القايلة الموجودة به وقد أصبح الأمن متوفراً فى هذا السهل من وقت ما أنزل السلطان فوق نجد مكناسة قبائل من العرب عهد أليهم صد أغارات البربر النازلين بجبل مطير وقبل ذلك كانوا ينهبون القوافل والسابلة الذين يترددون على مكناسه ذهاباً وأياباً وأجمل مافى المدينة نهرها وهو قليل الأمتداد ينبع ماؤه من أكثر من ستين ينبوعاً بحيث يكون غزير الماء على الدوام

قال السائح رنيه كاييه (René Caillié) «أن فاس واقعة فى مكان يشبه القمع حادث من جبال عالية شجراً ء ينحدر منها نهيرات كثيرة كبيرة تروى ذلك السهل وتجلب للمدينة ماء فراتاً وفى مساجدها وجوامعها ومنازلها نافورات ماء وفى طرقها ومحلاتها أحواض يشرب منها المارة وعلى هذا الوادى طواحين كثيرة يديرها الماء ويبلغ محيط المدينة نحو أربعة أميال وهى تمتد من الشرق ألى الغرب

ويحيط بها سور مزدوج من الآجر متين البناء تعلوه شرفات تزيد فى حسنه أرتفاعه نحو ثلاثة عشر قدما . وللمدينة باب كبير حسن البناء حسناً دهشتُ لرؤيته وفى حظيرة السور الأول بساتين ودور واطئة هى أرباض تلك المدينة التى رأيت بها معامل للقاشانى والقرميد والآجر وبيوتها كلها مبنية من آجر جيد الصنعة وتتركب على العموم من طبقتين ولها أفنية لجلب الهواء والنور وطاقات صغيرة مربعة مطلة على الطريق محكمة الشبابيك وليس لسكانها عناية جيدة بظاهر بيوتهم وهم يطلونها من الخارج بالجير وطرق المدينة مبلطة ولكنها ضيقة كثيرة التعاريج مظلمة قذرة وكلها مسقوفة تقريباً مما يمنع الهواء من الجولان فيها ويسبب روائح كريهة تجعل المدينة غير موافقة للصحة وبفاس جوامع كثيرة أهمها وأشهرها جامع مولاى أدريس وقد أعجبنى بناؤه جداً وألفت نظرى بنوع خاص ولهذا الجامع شهرة فى كل العالم الأسلامى ويعرف بجامع القرويين »اه بأختصار وتصرف

وقال سائح آخر «أن فاس مدينة ذات اعتبار فى نظر أهالى مراكش وهى تنقسم ألى قسمين فاس القديمة وفاس الجديدة يفصلهما عن بعضهما بساتين عديدة وميدان مربع تقيم به على الدوام وتحت الخيام فرقة من الجند وقصر السلطان قريب من هذا الميدان وتحميه هو وبستانه قلعة ذات أبراج وقد بنيت المدينة القديمة فى أواخر القرن الثامن من الميلاد (١٩٢ ﻫ) بناها مولاى أدريس المتصل النسب بالنبي عليه السلام وبعلي بن أبى طالب رضهما وهى

على منحدر جبال تحيط بها ويروى المدينة نهير صغير ينقسم عند دخوله أليها ألى فرعين ويجلب لها ماء غزيرا و هو سريع الجريان ويدير أرحاً كثيرة وأشهر جوامع المدينة جامع القرويين الشهير ولكنه أقل من جامع قرطبه جمالا وأحسن ما يلفت النظر فيه كثرة عمده ونافوراته وأرضه المفروشة بالقاشانى المختلف الألوان ويحيط به طرق ومحلات ضيقة تمنع العين من التأمل فى هيئته الخارجية وللمدينة قيسارية كبيرة مقسمة ألى أقسام بكل قسم شيء واحد ألى أن قال ولو نظرنا ألى فاس نظراً عسكرياً لوجدناها فى مكان لا يسمح لها بمقاومة هجوم شديد لا تكون فيه عرضة للتدمير بأجمعها وهذا هو السبب بلا شك فى أنها تسلم بمجرد ما يظهر العدو على أبوابها » اه

وقال آخر «أن فاس تتركب من فاس القديمة وفاس الجديدة ومحلة اليهود وبين هذه الثلاثة بساتين جميلة وخمائل بديعة تشغل قدراً كبيراً من الأرض وقد أخذ سورها يتهدم شيئاً فشيئاً ويعتبر المراكشيون هذه المدينة اعتباراً عظيماً ولجمال موقعها وغزارة مياهها واتساع واديها وجبالها الشامخة المغطاة بالثلوج التي تغذى وادى سبو كل ذلك يجعلها أجمل مكان للسكنى على وجه الارض ثم وصفها بما يصف به سياحو أوربا مدن الشرق التي لم تدخلها الحضارة الحديثة من حيث قذارة الطرق وتعرجها وعدم انتظامها وغير ذلك مما هو معروف ثم قال أن جامع القرويين هو أكبر مدرسة ببلاد مراكش وقد خرج منها سابقاً كثير من علماء العرب الذين كانوا مجد الاندلس وفخر بلاده

فى دولة المرابطين والموحدين ألا أن الحال قد انعكس الآن فأصبح التعليم فيه ناقصاً جامداً وصارت المدارس العديدة المتصلة به عديمة الأهمية تقريباً وفى هذا الجامع مع ذلك دار كتب عظيمة جداً بها آلات فلكية وكرات جغرافية وفلكية كل ذلك غير ما بها من نفائس المؤلفات وبدائع المخطوطات ولا تزال فاس للآن أكبر مدن مراكش صناعة وتجارة وبها دار ضرب جميلة البناء متصلة بقصر السلطان وعمالها من اليهود ولفاس الشهرة فى عمل البارود والخرداوات والقاشانى المزين بالاشكال الظريفة والسختيان المشهور والأغطية والبسط الصوفية والأنسجة الحريرية والسروج والمصوغات وأراضى ضواحيها خصبة جداً تعطى أشجارها أكلها مرتين فى السنة وتخرج من بديع الأزهار ولذيذ الثمار شيئا كثيراً جداً ومن أهم صادرات أوربا أليها الحرير ومنسوجاته والأقمشة القطنية والجوخ والحديد والكاغد والأسلحة والبارود والشاى والسكر والتوابل والعقاقير وعليها عامل من طرف السلطان يساعده فى حكمه قضاة وحكام آخرون وحاميتها يبلغون خمسة آلاف » اهـ

قال فى معجم البلدان « فاس هى بالسين المهملة بلفظ فاس النجار مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر وهى حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش وفاس مختطة بين ثنيتين عظيمتين وقد تصاعدت العمارة فى جنبيهما على الجبل حتى بلغت مستواهما من رأسه وقد تفجرت كلها عيوناً

تسيل ألى قرارة واديها ألى نهر متوسط مستنبط على الأرض منبجس من عيون فى غربيها على ثلثى فرسخ منها بجزيرة دوى ثم ينساب يميناً وشمالاً فى مروج خضر فأذا انتهى النهر ألى المدينة طلب قرارتها فيفترق منه ثمانية أنهار تشق المدينة عليها نحو ستمائة رحا فى داخل المدينة كلها دائرة لا تبطل ليلاً ولا نهاراً تدخل من تلك الأنهار فى كل دار ساقية ماء كبارٌ وصغارٌ وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها ألا غرناطه بالأندلس وبفاس يصبغ الأرجوان والأكسية القرمزية وقلعتها فى أرفع موضع فيها يشقها نهر يسمى الماء المفروش أذا تجاوز القلعة أدار رحا هناك وفيها ثلاثة جوامع يخطب يوم الجمعة فى جميعها

قال أبو عبيدة البكرى مدينة فاس مدينتان مفترقتان مسورتان وهى مدينتا عدوة القرويين وعدوة الاندلسيين وعلى باب دار الرجل رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخترق فى داره وبالمدينتين أكثر من ثلثمائة رحا وبها نحو عشرين حماماً وهى أكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها ألى جميع الآفاق قال وكلتا عدوتى فاس فى سفح جبل والنهر الذى بينهما مخرجه من عين فى وسط بلد من غُنْرَةٍ على مسيرة نصف يوم من فاس وأسست عدوة الأندلسيين فى سنة ١٩٢ وعدوة القرويين فى سنة ١٩٣ في ولاية أدريس بن أدريس ومات أدريس بمدينة وليلا من أرض فاس على مسافة يوم من جانب الغرب فى سنة ٢١٨ وبعدوة الأندلسيين تفاح حلو يعرف

بالأطرابلسى جليل حسن الطعم يصلح بها ولا يصلح بعدوة القرويين وسميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد القرويين لحذقهم بصنعته وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجد من القرويين ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين وفى كل واحدة من العدوتين جامع مفرد ومنها ألى سبته عشرة أيام وسبته أقرب منها ألى المشرق »اه

مَرّاكُش ـ هى العاصمة الرسمية واقعة ألى الشمال من جبال أطلس فى سهل متسع كثير المياه قريبة من الشاطىء الأيسر أى الجنوبى لنهر تنسفت وترتفع عن البحر بنحو ٤٣٠ متراً ومراكش تشغل من الأرض مكاناً واسعاً جداً للبساتين والأرض الفضآء من ذلك قدر عظيم ويقدرون سكانها بحسب الأحصآء الأخير بنحو سبعين ألف نفس قال أحد السياحين يصف هذه المدينة « متى قدم الأنسان على مدينة مراكش رآى منظراً فخيماً لضخامة أسوارها التى يبلغ أرتفاعها عشرة أمتار يعلوها أبراج مربعة بين الواحد والآخر نحو مائة متر ويحيط بها من ثلاث جهات بساتين كثيرة الزيتون والتين والنخيل وربما اجتمع النخيل ألى بعضه فأحدث غابة حقيقية وهذه الأشجار الكثيرة تخفى خلفها سلسلة أطلس الشامخة ويحدث سورها وأبراجها وبساتينها وغاباتها منظر بديع جداً يأخذ بمجامع القلوب يظهر للقادم كلما قرب منها غير أن هذا المنظر يتغير حينما يدخل الأنسان المدينة لأنه يرى طرقاً قذرة متعرجة حتى يمكن أن يقال أنهم جمعوا أحقر ضواحى مدن أفريقيه الشمالية وآسيا

الوسطى ألى مدينة واحدة أحاطوها كلهـا بسور مرتفع وسور المدينـة من الطين والأحجار والجير وأغلب أبراجه متهدم وبه ثلمات وفرجات واسعة يمكن للشخص أن يمر منها بسهولة متى كانت الأبواب مقفلة ويبلغ محيط ذلك السور نحو سبعة أميال وبه سبعة أبواب والأشجار التى بداخل المدينة تخفى خلفها دورها ومبانيها الأخرى عن الأنظار ولا يتجاوز ارتفاع تلك المبانى أرتفاع الأسوار فلا يرى منها من الخارج ألا برجاً يعلوه جوسق فوق ثنية عالية أرتفاعه ٨٢ متراً وثلاث أو أربع منارات ذلك كل ما يراه الأنسان وطرقها على العموم واسعة عند مدخل أبوابها ولـكنها ضيقة قذرة وسط المدينة فيصعب جداً أجتيازها على الأقدام فى زمن الأمطار وسكان هذه المدينة مختلطون فهم من كل جهات أفريقيه تقريباً بين مغاربه وجزائريين وتونسيين واسكندرانيين وسودانيين وغيرهم واللغات الشائعة بها ثلاث العربية ولغة الشلوح والغيناوية والعربية هى اللغة العامة بالبلاد المذكورة من أول تطاوين حتى الصويره وتنتشر كذلك على طول الساحل ألى مسافة عظيمة فى الداخل وسكان جبال أطلس يتكلمون الشلوحية أما السودانيون فأنهم يتكلمون الغيناوية ودور أهل اليسار بها تتألف من ساحة على جوانبها مخادع فى نهايتها المطبخ وبجانب باب الدار سلالم صغيرة تؤدى ألى طبقة عليا تعرف عندهم بالدويرة فيها يقابل صاحب الدار زائريه ومدعويه فلا يدخلون الطبقة الأرضية لأنها خاصة بالحريم وبكل دار بئر لا تستعمل مياهه ألا

للتنظيف وغسل الملابس أما مياه الشرب والطبخ فتؤخذ من أحواض عمومية بالمدينة وأبواب الدور تكون عادة فى أزقة موصلة ألى طريق عمومى وأبوابها تغلق ليلاً وشبابيك الدور قليلة ولا تطل ألا على صحن الدار عادة

«وليس بمراكش منتزهات عمومية لأن البساتين الخصوصية تقوم مقام ذلك وبالمدينة ميدان كبير يعرف بميدان جامع الفناء تتردد عليه الناس وقت العصر ويعقد فيه اللاعبون والمشعوذون والمغنون والمشخصون والحواة حلقاتهم وبالمدينة عدة حانات عمومية ويقوم بها سوقان عموميان فى يومى الخميس والجمعة وبها قيساريتان بهما كل أصناف المتاجر لكل نوع سوق معلوم وبينها أبواب تغلق ليلاً وليس بهما دور للسكن ولا يسمح لأحد أن يقيم بهما غير الحراس ولكبار التجار فنادق تغلق ليلاً ولها حراس ولليهود محلة على انفراد واليهود بمراكش كما هم فى كل مكان آخر يشتغلون بالتجارة وغيرها من الأعمال ويحتقرهم الأهالى جداً وللحبوب سوق يباع به الملح أيضاً يعرف بالرحبة وبقربه مكان يعرف بسوق الغزل يباع به الرقيق

«وليست مراكش من المدن الصناعية مثل فاس والرباط ويفضل سكانها الأشتغال بالزراعة وهم يجيدون الدباغة جداً بحيث لا يفوقهم فيها أحد ولهم مهارة فى عمل الأصباغ الحمرآء والصفرآء وليس بالمدينة من المبانى مايستحق الذكر غير ذلك البرج الذى سبق الكلام عليه وبها جوامع كبيرة جداً منها جامع بنى يوسف والجامع المنصورى وكلها خالية من الصنائع الدقيقة ويقولون

أن باب بعض مساجدها مجلوب من غرناطه وغيرها من مدن الأندلس وباب قصبتها بديع الصنعة جداً به نقوش فى غاية الجمال والماء بمراكش غزير غير جلب أليها فوق حنايا من جبل يعرف بجبل مولاى أبراهيم ويتوزع على أحواض عمومية بعضها متقن الصناعة والعربات لا تعرف بمراكش فالأنتقال فى طرقها يكون بالحمير والبغال والخيل والجمال وليس بها بريد فالمكاتيب والرسائل يجلبها ويوزعها قوم اختصوا بذلك ومناخ مراكش حار جداً صيفاً معتدل شتآء ولا ينزل الجليد بها أبداً والليل فى أيام الشتاء بارد بسبب ريح تهب من الجنوب وتمر على ثلوج جبال أطلس والبساتين التى بخارج المدينة كثيرة المياه لذيذة الثمار يرى الناظر منها ثنايا جبال أطلس فيكون لها مساء فى أيام الصيف منظر جميل للغاية» اه من قول بعض السياحين بتصرف وأختصار

وبساتين مراكش تمتد حولها على عدة فراسخ وينبت بها نباتات الجهات المدارية والمعتدلة معاً قال صاحب القرطاس بنيت هذه المدينة سنة ٤٥٤ من الهجرة (١٠٦٢ م) بناها يوسف بن تاشفين رابع سلاطين المرابطين على نحو أربعين كيلو متراً ألى الشمال من مدينة قديمة تسمى أغمات تركها سكانها ونزلوا المدينة الجديدة ولم تبن أسوارها ألا فى سنة ١١٣٢ م وقد شيد بها الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور من أمراء الموحدين (١١٨٤ ـ ١١٩٨ م) مبانى جديدة وصهاريج للمياه ثم عظمت بسرعة وصارت

عاصمة الدولة مدة المرابطين والموحدين ولما جلس بنو مرين نقلوا العاصمة ألى فاس فبقيت فاس ومراكش ينزلهما السلطان ويقيم بهما آنا فآنا هذا وقد نالت مراكش فى القرنين الأولين من تأسيسها منزلة رفيعة ودرجة كبيرة ثم أخذت فى الانحطاط وكان سبب انحطاطها وقلة سكانها الثوارت التى حدثت بها بسبب ظلم سلاطينها وبسبب الطاعون الذى ظهر ببلاد مراكش سنة ١٦٧٨م ومات به من سكانها نحو ثلاثة ملايين ومات كذلك كل سكان مدينة مراكش تقريباً وغير ذلك من الرزايا

قال ياقوت فى معجمه «مراكش أعظم مدينة فى المغرب وأجلها وبها سرير ملك بنى عبد المؤمن وهى فى البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام فى وسط بلاد البربر وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين الملقب بأمير المسلمين في حدود سنة ٤٧٠ وبينها وبين جبل دَرَن الذى ظهر منه ابن تومرت المسمى بالمهدى ثلاثة فراسخ وهو فى جنوبيها وكان موضع مراكش قبل ذلك مخافة يقطع فيه اللصوص على القوافل كان أذا انتهت القوافل أليه قالوا مراكش معناه بالبربرية أسرع المشى وبقيت مدةً يشرب أهلها من الآبار حتى جلب اليها ماء يسير من ناحية أغمات يسقى بساتين لها وكان أول من اتخذ بها البساتين عبد المؤمن بن على يقولون أن بستاناً منها طوله ثلاثة فراسخ» اه

ألقصر الكبير ـ مدينة بمراكش شمالاً على نحو ٤٥ كيلومتراً ألى

الجنوب والشرق من العرائش واقعة فى مكان منخفض بالقرب من الشاطىء الأيمن لنهير يسمى لُكُّوسْ (Loukkous)وربما غمرت مياهه أرض ذلك المنخفض وبينها وبين طنجه نحو مائة كيلومتر ويقدرون سكانها بنحو(١٥٫٠٠٠)نفس قال سياح أوربى فى وصفها ما يأتى «أنها مدينة جميلة المنظر ومما يجمل لهاذلك الجمال الخاص بمدن الشرق منارآتها اللطيفة وبالمدينة قلعة متداعية للسقوط وجامع له بابان جميلان ودورها مبنية بالآجر ويخرج من بساتينها زيتون وبرتقال له شهرة ببلاد مراكش »اهوقد وقعت بجوار هذه المدينة حرب دموية سنة ١٥٧٨ م هزم فيها ملك البرتقال المسمى سباستيان وقتل بينما كان يريدالاغارة على هذه البلاد وهناك قلعة أخرى أسسها كالسابقة يعقوب المنصور واقعة على مضيق جبل طارق وهى ألى رأس سبته أقرب منها الى رأس أسبرتل وتعرف هذه القلعة بالقصر الصغير كما تعرف الأولى أى القصر الكبير أيضاً بقصر مصموده

مكناسه أومكناس ـ مدينة بمراكش على نحو ستين كيلومتراً ألى الجنوب والغرب من فاس فى سهل واد يسمى بوفقران وهى على نحو ٥٠٠ متر من سطح البحر ويقدرون سكانها بنحو ٤٠٫٠٠٠ نفس وهى فى مكان نزه فوق منحدر من الجبل تحيط بها أشجار الزيتون الكثيرة ولهذا يقال لها مكناسة الزيتون وحولها سور شامخ متخرب وتنقسم مثل كل مدن مراكش ألى ثلاثة أقسام القصبة وبها مساكن كبار العمال والمدينة الأصلية وبها الجوامع

والمساجد والأسواق ومحلة اليهود وحولها سور والمكان الذى تشغله مكناسه كبير جداً بالنسبة لسكانها وطرقها واسعة وكثيراً ما يفصلها عن بعضها بساتين وميادينها كبيرة ومحلة اليهود بها متسعة الطرق جيدة التهوية بخلافها فى بقية مدن مراكش ومبانيها أجمل طرازاً وهنداماً عنها بمدينة فاس والباب الكبير فى قصر السلطان بها مبنى من المرمر والحديد وعليه طبقة من القاشانى الملون وفوقه كتابة بحروف جميلة بحيث يتكون من كل ذلك منظر بديع ومع ذلك فأنهم لا يعتنون به الاعتناء اللازم وألى الأسفل من هذا القصر جملة مبان ورحبات وبساتين عليها سور حتى كأنها مدينة وتحت الأرض مخازن كثيرة هي أهرآء لحفظ الغلال وبالمدينة بستان محيطه كيلومتران يقولون أن به قصوراً ودوراً ومكاناً لتربية الخيل وتوليدها به أكثر من ألف من الخيل المطهمة وبه غير ذلك وكثيراً ما كان سلاطين مراكش يقيمون بمكناس طول حكمهم أو بعضه وقد اعتنى الكثيرون منهم بتوسيعها وتحسينها وبينها وبين فاس طريق هو أحسن الطرق بدولة مراكش وبها جامع متداع للسقوط يعظمه الناس جداً من بناء السلطان أسماعيل وقد أصبحت مكناس الآن عديمة الأهمية والحركة التجارية ويقولون أن لسلاطين مراكش أموالا مدخرة كثيرة جداً بهذه المدينة وقد استفاض حديث ذلك على الألسنة ويظن قوم أن السلاطين قد نقلوا تلك الأموال أو بعضها ألى فاس أو أنهم نقلوها الى تافيللت خلف جبال أطلس خوفاً عليها هذا وضواحى

مكناس فى غاية الخصب فهي المكان الزراعى الحقيق بدولة مراكش وقد بنت هذه المدينة قبيلة بربرية فى القرن العاشر من الميلاد تسمى مكناس فنسبت أليها قال ياقوت فى معجمه « ومكناسه مدينة بالمغرب فى بلاد البربر على البر الأعظم بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق وهى مدينتان صغيرتان على ثنية بيضاء بينهما حصن جواد اختط أحدهما يوسف ابن تاشفين ملك المغرب من الملثمين والأخرى قديمة وأكثر شجرها الزيتون ومنها ألى فاس مرحلة واحدة » اه

وزان مدينة بمراكش شمالاً على نحو ٨٥ كيلومتراً ألى الشمال والغرب من فاس وعلى نحو مائة وعشرين كيلومتراً ألى الجنوب من طنجه ويقدرون سكانها بنحو عشرة آلاف نفس ولهذه المدينة أعتبار لدى عموم أهالى مراكش وهى على المنحدر الشمالى من وادى سبُو فى منتصف المسافة تقريباً بين هذا النهر والقصر الكبير وواقعة فى مكان خصب بديع جداً وبجانبها جبل يصد عنها رياح الجنوب الحارة ويساعد على جذب الأمطار التى تأتى بها الأهوية البحرية ويتغطى منحدر هذا الجبل من الأسفل بأشجار الزيتون ومن الأعلى بأشجار الفلين وبالمدينة جوامع ثلاثة شهيرة أشهرها وأكثرها أحتراماً جامع مولاى عبد الله وطرقها كطرق المدن العربية ضيقة متحدرة وبشرقيها بخارجها بساتين جميلة كبيرة تنبت بها كل الثمار والفواكه ويجود بها الموز جداً وهناك ماجل أو حوض كبير تجتمع فيه مياه ينبوع جلبوها أليه من جبالها ويخرج

من هذا الحوض قنوات صغيرة توزع الماء فى تلك البساتين وبالبساتين المذكورة مقابر الأشراف منها قبر مولاى الطيب مؤسس الطريقة الصوفية المنسوبة أليه والمدينة آخذة فى الاتساع وسكانها آخذون فى الزيادة بسهولة لأنه ليس بها استحكامات ولا أسوار تقف فى طريق توسيعها لكنها كانت بذلك عرضة لهجمات القبائل وكل سكانها تقريباً أشراف وأولاد أشراف ولهم اعتبار بكل العالم الأسلامى وشريف وزان الكبير يفوق فى الاعتبار سلطان مراكش وكان بعض أولاد أشرافها يسكنون بلاد السودان وكانت لهم هناك أملاك واسعة هذا وكثيراً ما يستعين السلطان بأشرافها على تهدئة الخواطر وتسكين الفتن ومن امتيازات شريف وزان تقليد سلاطين مراكش السلطنة ولا يستقل سلطان مراكش فى ملكه تماماً ألا بعد أن يبايعه شريف وزان ومدينته حَرَم لكل من احتمى بها وله أتباع بكل بلاد المغرب تقريباً حتى بمصر لأنه رئيس طريقة سيدى الطيب ويقدرون أتباعها بنحو ثلاثة ملايين وللشريف حرس نحو الف ومائتى جندى يصرفهم فى حاجاته وفى حراسة المدينة

تازه ـ مدينة بالشمال الشرقى من مراكش على نحو ١١٣ كيلومتراً ألى الشرق والشمال من فاس وعلى واد منسوب أليها يعرف أيضاً بالوادى الأصغر وبجوارها قبيلة رياطه البربرية القوية وسكانها أزيد من خمسة آلاف نفس وهى فوق صخرة سوداء اللون من صخور جبل رياطه وشمالها سهل واسع وجنوبها جبال شامخة ويحيط بها أغوار ووهاد لبعضها منحدر سريع جداً بحيث

لا يمكن الوصول أليها أبداً ألا من الجنوب الشرق وفى ضواحيها بساتين بديعة ربما كانت أجمل بساتين دولة مراكش ولكثرتها تختفى المدينة خلفها ولا تشاهدمن بعدألا بمنارةشامخة قائمة بهاويحيط بهاسوران منخفضان ودورها فى وسطهما وهي مبنية من الحجارة والآجروبها صهريج كبيرلحفظ الماءوأربع جوامع وأربع قيساريات ويظهر من الخرائب القريبة منها أنها كانت قديما أكبر وأزهي مماهى عليه الآن ومن سكانها نحو مائتين من اليهود يسكنون محلة خاصة بهم ولقائدها الحكم على قبائل عديدة ونفوذ قبائل رياطه غالب على نفوذ ذلك القائد خارج المدينة ونفوذهم أيضاً كبير داخلها فسكانها بذلك كما يقول بعض السياحين بين نفوذين جائرين نفوذ عمال السلطان ونفوذرياطه

مِليله ـ مدينة بمراكش على ساحل بحر الروم تابعة لأسبانيا فى شبه جزيرة تتصل مع القارة ببرزخ عرضه ٣١ متراً وطوله أربعون متراً ويصب بجوارها نهير صغير يسمى ريوأورو (R. Oro) ويحميها من الشمال صخرة صعبة المرتقى يعلوها حصن أسبانى ويحميها من الشرق أيضاً متاريس عليها حصن ضخم وألى الجنوب منها قلعة أخرى وعلى بابها برج ضخم وبين تلك الأستحكامات والأستحكامات الخارجية طرق وسراديب تحت الأرض للمواصلة بينها وبالمدينة والقلاع مواجل كبيرة تسع قدراً عظيماً من مياه الشرب وتلك المواجل فى مكان بحيث لا يؤذيها مقذوفات الأعداء وبالقرب من المدينة وعلى رمية مدفع مرسى صغير لا تدخله ألا السفن الصغيرة وقدازدادت

حركتها التجارية الآن من يوم أن أصبحت السفن البخارية تتردد عليها بانتظام ويظن أن هذه المدينة هي التي كانت تسمي قديماً لدى الرومان روزادير (Rusadir) ويقول بعضهم أن أسمها تصغير عربي من كلمة بربرية هي مِلُّول أي الأبيض أو المائل للبياض ويسمى بهذا الأسم عدة أماكن أخرى في شمال أفريقيه وقد استولى الأسبانيون على هذه المدينة سنة ١٤٩٦ وسعى المراكشيون مراراً في استردادها فلم ينجحوا وهي عرضة لهجمات قبائل الريف وقد جعلها الأسبانيون منفى لأرباب الجرائم منهم وهواؤها رديئ لهذا كان الأسبانيون يغيرون حاميتها على الدوام

تطاوين أو تيطاون ـ مدينة بمراكش شمالاً على نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً ألى الجنوب من سبته وعلى نحو ١٧٠ كيلومتراً ألى الشمال من فاس وبينها وبين بحر الروم أربعة كيلومترات وتعلو على البحر بنحو ٧٧ متراً ويقدرون سكانها بنحو ٢٥٫٠٠٠ نفس منهم نحو سبعة آلاف من اليهود وتطاوين بالبربرية معناه الينابيع أو العيون لغزارة المياه التي تنبجس فوق نجدها وبجوارها نهير يعرف بوادي الرأس ووادي مارتيل أيضاً ويشرف عليها من الشمال والجنوب جبال شامخة تعرف بجبال بني حسن وحولها بساتين كثيرة أنيقة جداً تمتد حتى نهاية البصر ومزارع للحنطة وأراض زراعية وافرة الخصوبة والمياه الجارية والنباتات الوافرة وللمدينة سور من الآجر مرتفع سميك ولها قلعة حصينة بالجهة الشمالية الغربية وتشغل المدينة من الأرض مكاناً

فسيحاً جداً وبين محلاتها ميادين كثيرة ليس بها بناء ومبانيها على العموم جيدة وطرقها ضيقة مقبية وبها مبان قديمة جميلة الطرز وعدة مساجد لواحد منها منارة عالية ترى من بعد ولتطاوين مرسى على نحو كيلومترين اثنين منها ويمكن للسفن الصغيرة أن تجرى فى نهرها أما فى المد فتجرى فيه السفن الكبيرة وعلى المرسى قلعة ودار للجمرك ويصدر من هذه المدينة الثمار والحبوب ألى كل الجهات الشمالية من دولة مراكش حتى ألى فاس ومكناس وقدر عظيم من هذه الصادرات يرسل ألى مدينة جبل طارق ويتردد عليها قبائل الريف لبيع حاصلاتهم الصناعية والزراعية ويصنع بها أشياء من الجلد وأحزمة من الصوف تصدر ألى أسبانيا وحصر مرغوب فيها جداً وأدوات منزلية وأوان فخارية وغيرها ويأتى اليها من جبل طارق على الخصوص المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والشاى والبن والمعادن والعقاقير ويحكم هذه المدينة قائد تابع للسلطان مباشرة ونفوذه يتمشى على جهات واسعة واقعة بين أراضى قبائل الريف المستقلة شرقاً وبين أيالتى طنجه والعرائش غرباً ويسكنها كثير من أهل الجزائر رحلوا اليها نفوراً من الدخول في حماية فرنسا ونحو ستة آلاف من اليهود بيدهم كل الأعمال التجارية تقريباً والكثير منهم فى ثروة واسعة هذا ويظهر أن تطاوين قائمة من الأزمنة الغابرة لخصوبة أراضيها وغزارة مياهها وقد هدمت مراراً ثم أعاد بناءها السلطان أبو طالب عامر من سلاطين بنى مرين سنة ١٣١٠ م وقد نهبها أهل قشتاله مراراً ونزل بها

كثيرون من مغاربة أسبانيا حين هجرتهم منها وكان لأهاليها سفن قوية كثيراً ما أغاروا بها على سواحل الأندلس وقد استولى عليها الأسبانيون سنة ١٨٥٩ بعد أنتصارهم فى الحرب التى وقعت بينهم وبين مراكش واحتلوها زمناً طويلاً ثم أخلوها لما عقد الصلح وكان من شروطه أيضاً أن يكون للأسبانيين كنيسة وبعثة دينية تصرف عليهما أسبانيا

سَبته ـ مدينة بمراكش قريبة من النهاية الجنوبية للمدخل الشرقى من مضيق جبل طارق وهى على نحو ٢١٠ كيلومترات ألى الشمال من فاس وبها من السكان نحو أثنى عشر ألف نفس واقعة فى مكان أحد عمودى هرقل المسمى أبيلا (Abyla) ومكان العمود الثانى يسمى كلب (Calpe) محله الآن مدينة جبل طارق المقابلة لسبته والبعد بينهما خمسون كيلومتراً ولفظ سبته محرف عن كلمة رومانية هى سبتيم ومعناه سبعة وهى سبعة تلال تشاهد الآن فى شبه الجزيرة المشيدة فيها سبته وسبته هى عاصمة المستعمرات الأسبانية بتلك الأطراف وهى قسمان قديمة وجديدة فالقديمة واقعة فى المضيق المنخفض الضيق بشبه الجزيرة المذكورة وترتفع أرض ذلك المضيق بالتدريج بحيث تكون ستة تلال متميزة عن بعضها متى نظر أليها من الشمال أما سبته الجديدة المعروفة بالمينا فتمتد على المنحدر الشمالى من هذه التلال التى تأخذ فى الانحدار بالتدريج كذلك ألى أن تصل ألى الاستحكامات التى تحيط بكل شبه الجزيرة المذكورة وبالمدينة بساتين كثيرة تتخلل بيوتها وتمتد أيضاً على شاطىء الميناء بأجمعه وتحمى

المدينة أسوار منيعة قائمة حيث لا تكون الصخور ومرساها صغير وهو بين المدينة القديمة والجديدة ومحصور بين رصيفين يمتدان فى البحر

وكان لسبته أهمية عظيمة فى القرون الثمانية التى حكم العرب فيها أسبانيا ولما قدم عليها العرب وقت الفتح كان يحكمها حاكم من القوط يسمى چوليانوس[1] وقد تصالح مع موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك كما هو معلوم ومن سبته وطنجه خرج العرب لفتح الأندلس وأراد المنصور حاجب الخليفة هشام الثانى فى الأندلس حينما وقع الخلاف بينه وبين الأدارسة أن ينقل المدينة المذكورة ألى جبل بجوارها ولكنه لم يتم له ما أراد وبقيت سبته من نصيب الأدارسة بنى حمود الذين استولوا أيضاً على الجزيرة الخضرآء ومالقه أثناء الاضطرابات التى مزقت خلافة قرطبه ثم انتقلت منهم ألى يوسف بن تاشفين من سلاطين المرابطين وانتقلت من بعدهم ألى الموحدين ثم ألى غيرهم من سلاطين المسلمين الذين ملكوا المغرب ولما كانت سنة ١٤١٥ من الميلاد أستولى عليها البرتقاليون ثم دخلت فى يد أسبانيا أثناء ثورة سنة ١٦٤٠ وهى السنة التى انفصلت فيها البرتقال عن مملكة قشتاله وقد حاول سلاطين مراكش استردادها مراراً من ذلك أنهم هاجموها سنة ١٦٩٧ بجنود كثيرة ألا أنهم لم يوفقوا الأخذها هذا وقد فقدت سبته الآن أهميتها القديمة وكانت مركز تجارة واسعة مع بلاد المشرق وأفريقية وأيطاليا كما كانت مركزاً للعلوم والصنائع

(١) ويعرف في كتب العرب بأسم يَليان

وقد أدخل العرب أليها صناعة الكاغد وزراعة القطن وقد اشتهرت بما كان يصنع فيها من المنسوجات الحريرية وأسلاك الحديد والأدوات النحاسية وبما كان يصطاد في بحرها من المرجان وقد بقيت لها شهرتها مدة البرتقال ولكنها انحطت عن تلك المنزلة من وقت أن دخلت في حكم أسبانيا سنة ١٦٤٠ كما تقدم أما أهميتها الآن فهي في أنها واقعة في مدخل المضيق ليس ألا قال في معجم البلدان « سبته المشهور بفتح أوله وضبطه الحازمى بكسر أوله وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب مابين البر والجزيرة وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بأفريقيه على ماقيل لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند وهي ذات أخياف وخمس ثنايا مستقبلة الشمال وبحر الزقاق ومن جنوبيها بحر منعطف أليها من بحر الزقاق وبينها وبين فاس عشرة أيام قال وقد نسب أليها جماعة من أعيان أهل العلم » اه

طنجه ـ مدينة بحرية بمراكش شمالا على الساحل الجنوبي الغربي من مضيق جبل طارق وعلى نحو ١٨٨ كيلومتر ألى الشمال والغرب من فاس و ٥٣٠ كيلومتر ألى الشمال والشرق من مراكش وبها من السكان نحو (٤٧٫٠٠٠ نفس) ومرساها صغير مستدير تعلوه جبال ومياه البحر لا ترتفع فيها في الصيف ألا نادرا أما في الشتاء فتكون غير أمينة وتهب عليها رياح الشمال والشمال الشرقي بشدة ولا يمكن للسفن الكبيرة دخول ميناها

لقلة عمقها وكثرة رمالها بل ترسو اخارجها وتنقل المتاجر والمسافرون منها وأليها فى زوارق خفيفة وقد شيدوا بها الآن مرسى ورصيفا فحسنت حالتها نوعا

وطنجه واقعة على المنحدرات الشرقية من رأس أسبرتل ويحيط بها أسوار تعلوها أبراج مربعة ومستديرة وكل ذلك من بناء البرتقال وقصبتها مشرفة عليها من الجهة الغربية وبها قصر الحاكم وبناؤه بديع الشكل على الطرز العربي وهو عنوان فن العمارة المراكشية ويحمى المدينة والمرسى خمسة حصون بها مدافع كثيرة وشكل المدينة جميل يشبه شكل مدينة الجزائر قديما ودورها صغيرة مربعة بيضاء الظاهر قليلة الشبابيك وبها ستة جوامع ذات منارات شامخة يشاهد القادم عليها أحداها قبل أن يصل أليها بمسافة بعيدة ويتخلل كل ذلك نخيل وأشجار وحولها تلال عليها فنادق أوربية وبيوت صغيرة للأوربيين يتخللها كذلك أشجار ومتى دخل الأنسان من أحد أبوابها الثلاثة رأى طرقا ضيقة متعرجة شديدة الميل غير مبلطة على جانبيها دكاكين ومخازن كثيرة وقد اهتمت حكومة مراكش بأصلاحها الآن وتصرف في ذلك عناية أكثر مما تصرفه فى مدينة أخرى من مدنها لهذا يمكن السير فى كثير من طرقها بسهولة وقد فرشوا المهم منها بالبلاط وفى وسط المدينة عند مفترق طرقها ميدان واسع جداً يعرف بالسوق حوله دكاكين ومخازن ويقوم خارج المدينة سوق أمام بابها المعروف بباب السوق يتردد عليه الناس بكثرة ومن مبانى طنجه الجديرة بالذكر قصبتها وجامعها الأعظم وله منارة شاهقة مغطاة بالقاشانى

الأخضر يكون له بريق بديع متى أشرقت عليه الشمس ومنها بيت المال وبه تحفظ أموال الجمارك والضرائب داخل صناديق ضخمة من الحديد أما القصبة فبعض جهاتها بديع الصنعة والنقش والتزيين والبعض الآخر متخرب وسفارات انجلتره وفرنسا وألمانيا وأسبانيا وأيطاليا فى بناء واحد واسع من طرز شرقى أوربى وبالمدينة أيضاً عدة أوتيلات للمسافرين وقد أناروا بعض جهات هذه المدينة الآن بالنور الكهربائى منذ سنة ١٨٩٢ وسكان طنجه مختلفوا الاجناس جداً بينهم أكثر من سبعة آلاف من اليهود وهم متناسلون من الذين هاجروا منهم من أسبانيا ولهم محلة منفصلة ويحتقرهم الأهالى كثيراً ويلزمونهم بلبس ملابس مخصوصة ولكنهم قد قبضوا على كل تجارة البلاد وهم الوسطاء فى العادة بين الأوربيين والأهالى وبطنجه أكثر من أربعة آلاف من الأوربيين أغلبهم من الأسبانيين وينزل طنجه زمن الشتاء كثير من أهالى أوربا لجمال مناخها وبها دار بريد فرنسوى وآخر أسباني وثالث انجليزى وبيمارستان فرنسوى أقامته فرنسا من أموال الغرامة الحربية التى دفعتها لها مراكش سنة ١٨٤٤ وبها أيضاً عدة مدارس فرنسوية أكثر ما يتردد عليها اليهود ولو كانت طنجه فى يد دولة أوربيـة لوصلت ألى درجة عالية وصارت مركزا تجاريا مهما لوقوعها فى مدخل المضيق وألى طنجه ترد أكثر متاجر أوربا التى ترسل لمراكش الوسطى حتى ألى مابعد فاس كما أنها مركز لكل حاصلات تلك المنطقة التى ترسل لأوربا ويرد أليها من أنجلتره بواسطة جبل طارق على

الخصوص المنسوجات القطنية والشاى والسكر الأحمر وبن البرازيل والسكاكين والعقاقير والكاغد وغيرها ومن فرنسا المنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية والشمع والسكر المكرر وغيرها ومن ألمانيا المنسوجات المختلفة وصادراتها لأنجلتره وأسبانيا وفرنسا الثيران وجلودها والموادالغذائية وشمع العسل وغيرها وتصدر ألى مصر وسوريه بواسطة جبل طارق المراكيب المعروفة بالبلغ ألا أن هذه الصادرات قد قلت الآن جداً وتحولت ألى ثغور أخرى هى العرائش ورباط الفتح لأنهما أقرب منها ألى فاس ومكناس وبين طنجه وجبل طارق مواصلات يومية بالسفن البخارية وبينها وبين قادس مواصلات بحرية أيضاً تحصل ثلاث مرات فى الأسبوع وتمر بها سفن الشركة الفرنسوية بالمحيط الأطلسي وتتردد عليها أيضاً سفن تجارية أنجليزية وفرنسوية وأسبانية ولكن بغير انتظام وبين طنجه والصويرة مواصلات بريدية في البر لكل من الأسبانيين والفرنسويين وبينها وبين جبل طارق خط تلغرافى تحت الماء

وأهمية طنجه السياسية أكثر من أهميتها التجارية وبها دون غيرها تقريباً من مدن مراكش يتلاقى الأوربى بالبربرى ويخالطه وبها ثلاث وكلاء كبار سياسيون واحد لأنجلتره وآخر لفرنسا والثالث لأسبانيا ولبقية الدول بها أيضاً قناصل ولا يعتبر سلطان مراكش هؤلاء السفراء والقناصل ألا كسفراء غير عاديين فى فاس ومكناس ومراكش هذا من جهة ومن

جهة أخرى لما كان السلطان لا يضع رجله أبداً بمدينة طنجه بسبب سياسة العزلة التي اتخذتها حكومته قاعدة لها منذ زمن طويل نشأ من ذلك صعوبات فى المخابرات السياسية وطول زمنها وعدم أنتظامها وليس للسلطان فى طنجه غير حاكمها ألا مندوباً بسيطاً ينوب عن وزير الخارجية المراكشية وليس لهذا المندوب سلطة للمكالمة فى شيء أصلاً بل يجب عليه أن يعرض الأمر أولاً على رئيسه الذى يقيم على مسافة عشرة أيام أو عشرين يوماً من طنجه وقد نالت طنجه أهمية منذ العصور الغابرة لجودة مركزها ويظهر مما روى عنها أنها كانت مسكونة قبل هجرة المشارقة اليها بزمن طويل ثم صارت فيما بعد محطة تجارية فينيقيه يؤيد ذلك ما ورد من أقوال الكتاب القدماء من وجود مقابر فوق نجدها الصخرى وكانت تسمى فى عصر الرومان طنجيس وكانت أذ ذاك زاهية زاهرة وقاعدة لبلاد موريتانيا الغربية المعروفة باسم طنجيتانه ثم صارت مستعمرة من عصر الامبراطور كلوديوس وكانت تسمى ترادكتاچوليا(Traducta Julia)وأشهر مابقى من هذه المدينة هناك للآن بعض أعمدة من الجرانيت وتيجان أعمدة كورنتيه وبقايا حنايا للماء يظن الناس أنها من بناء البرتقال وليس الحال كذلك وكتابات ونقوش ومتى حفر الناس الأرض لعمل الآبار أو للبناء وجدوا آثارمبان رومانية وكانت المدينة القديمة المذكورة فى نفس المكان الذى تشغله المدينة الحالية تقريباً ولقد أخطأ من يقول بأن طنجيس القديمة هى أطلال طنجه البالية أو القديمة الواقعة على نحو ثلاثة كيلومترات

شرقى طنجه الحالية لأن تلك الأطلال هى أطلال بوزنطيه وربما كانت بربرية أيضاً ولقد بقيت لطنجه أهميتها ونجاحها مدة قياصرة بوزنطيه ومدة ملوك القوط بأسبانيا وبقيت فى حوزتهم زمناً ثم صارت كعاصمة للعرب بأفريقيه الغربية وكانت أحدى الأسواق التى يتردد عليها البنادقة فى العصور الوسطى وسعى البرتقال سنة ١٤٣٧ م مرتين للأستيلاء عليها لكنهم هزموا هزيمة منكرة حتى اضطروا لعقد صلح مهين بشرفهم ثم أعادوا الكرة عليها ثانية سنة ١٤٦٤ فلم يفلحوا أيضا ولكن الحظ ساعدهم فيما بعد فاستولوا عليها سنة ١٤٧٠ واحتلوها وبقوا بها حتى سنة ١٦٦٤ م ثم لما تزوج شارل الثانى ملك انجلتره بكترينه وريثة تاج البرتقال أخذ من مهرها هذه المدينة التى أصبحت مركزاً مفيداً جداً على المضيق عند تلاقى البحرين ثم جعلت ثغراً حراً وأنفق فى أصلاح مرساها وتحصينها مبالغ كبيرة ألا أنه فى سنة ١٦٨٤ لما رفض البرلمان الأنجليزى الأقتراع على الأموال اللازمة لصيانتها وكان الأهالى أذ ذاك يحاصرونها حصاراً شديداً تركتها حاميتها بعد أن هدمت استحكاماتها ورصيف مرساها وبعد ذلك بقليل استعاضت عنها أنجلتره بالاستيلاء على جبل طارق ومن هذا الوقت بقيت طنجه فى حوزة مراكش ولم يحدث بها بعدُ من الحوادث التاريخية ما يستحق الذكر ألا حادثة أطلاق البرنس جوانفيل الفرنسوى مدافعه عليها سنة ١٨٤٤ وذلك قبل واقعة أيسلى بأيام قليلة

قال ياقوت فى معجمه « طنجه بلد على ساحل بحر المغرب مقابل للجزيرة

الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر قال ابن حوقل طنجه مدينة أزلية آبارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر والمدينة العامرة الآن على ميل من البحر وليس لها سور وهى على ظهر جبل وماؤها فى قناة يجرى أليهم من موضع لا يعرفون منبعه على الحقيقة وهى خصبة وبين طنجه وسبته مسيرة يوم واحد وقيل أن عمل طنجه مسيرة شهر فى مثله وهى آخر حدود أفريقيه عن البكرى عن أبى عبيد وبينها وبين القيروان ألفا ميل » اه

العرائش ـ هى من مدن مراكش كذلك وثغر بحرى بعمالة فاس على نحو سبعين كيلومتراً ألى الجنوب والغرب من طنجه مبنية على مرتفع من الأرض وبها من السكان نحو (١٠٫٠٠٠ نفس) وبجوارها أطلال مدينة قديمة وقد ذكر جغرافيو العرب العرائش باسم تُشُمّسْ ولم يذكروا اسمها الحالى وربما كان ذلك لأنها كانت قديماً لا أهمية لها مطلقاً قال ياقوت فى معجمه «تُشُمّسْ مدينة قديمة بالمغرب عليها سور من البناء القديم تركب وادى شفدد وبينها وبين البحر المغربى نحو ميل ويمد وادي شفدد شعبتين تقع أليه أحداهما من بلد دنهاجه من جبلى البصرة والثانية من بلد كتامه وكلاهما ماء كثير وفيه يحمل أهل البصرة تجاراتهم فى المراكب ثم يخرجون ألى البحر المحيط ويعودون ألى البحر الغربى فيسيرون حيث شاءوا منه وبين مدينة تُشُمّس هذه وبين البصرة دون مرحلة على الظهر وهى دون طنجه بأيام كثيرة» اه أما لفظ العرائش فهو جمع عريش يريدون عريش العنب وتسمى أيضاً

بعرائش بنى عروس وكانت البلاد التى بها العرائش وهى من بلاد موريتانيا قديما تشتهر بكثرة عنبها يؤيد ذلك أن لفظ أسبرتل وهو الرأس القريب من هذه المدينة معناه الكرم

الرّباط ـ ويقال أيضاً رباط الفتح مدينة بحرية بمراكش على ساحل المحيط وعلى الضفة الجنوبية من الوادى المعروف بابى الرقراق وهى على نحو ١٨٥ كيلو مترا ألى الغرب من فاس ويقدرون سكانها بنحو (٤٧٫٠٠٠) منهم خمسة آلاف من اليهود بينهم بعض الأوربيين أغلبهم من الأسبانيين والبرتقاليين وكلهم يتجرون فى الاشياآء الصغيرة ومنظر المدينة من البحر جميل جداً وقصبتها فوق ثنية جبلية تسقط منحدراتها رأسية نحو الاوقيانوس ويحيط بها سوران ووجهات منازلها تشبه وجهات منازل المدن البحرية بأوربا وبها منارة تشبه فى شكلها وارتفاعها ونقوشها منارة غرناطه ويقول كتاب العرب أن المنارتين المذكورتين وكذا منارة مدينة مراكش بنيت كلها فى وقت واحد وبملاحظة معمارى واحد ويظهر أن مدينة سلا الواقعة على الشاطىء الآخر من أبى الرقراق هى والرباط مدينة واحدة ومع ذلك فالفرق بينهما كبير لأن سلاذات اعتبار كبير ويشتهر أهلها بالتشدد في دينهم وهى قليلة السكان أما الرباط فأنها مدينة تجارية وسكانها كثيرون منهم يهود وأورباويون والصناعة فى الرباط متقدمة فمن مصنوعاتها البسط وتشتهر بمتانتها وجمال نقوشها وزهاء ألوانها والمواد الأولية المستعملة فى ذلك أى

الصوف والأصباغ تؤخذ كلها من نفس البلاد ويشتغل نساؤهم بالنسج والغزل في البيوت ولكنهم من منذ أن استعملوا الأصباغ الأوربا وية في صناعتهم هذه صارت ألوانها تذهب بسرعة ومن مصنوعاتها أيضاً الحصر الجميلة والمنسوجات الصوفية أخصها البرانس وأدوات مختلفة من الجلد والأواني الفخارية ولكن الفخار الذي يصنع في فاس يفوق مايصنع منه في الرباط وكل هذه المصنوعات تستهلك في البلاد ولا يصدر منها شيء تقريبا ألى الخارج ويعيق التجارة البحرية بهذا الثغر قلة عمق المياه عند مصب واديه وكثيراً ماتضطر السفن حتى البخارية منها لأن ترسوا بعيداً عنها ولا يمكنها أنزال الركاب والبضائع ألا بمشقة كبيرة وأشهر واردات هذه المدينة الشاي والسكر والشمع والمنسوجات والخردوات وغيرها أما صادراتها فقليلة وتنحصر في الجلود والصوف والعظام وبعض الخضراوات ويقوم بالرباط سوق أسبوعي في مكان فسيح هنالك خارج أبوابها وبين سوريها سوق يجد فيه الأنسان كل مايريده والبيع فيه بالمزاد العلني وبالمناداة تحت مراقبة مندوب من الحكومة ليأخذ نصيبها مما يباع وقد بنى هذه المدينة السلطان يعقوب المنصور سنة ١٣٠٦ م

أما سلا فمدينة قديمة أغارت عليها قبائل العرب كثيراً وهم الذين هدموا القناة التي كانت تجلب أليها الماء سابقاً فأصبح الماء بها نادرا الآن يجلبه العرب ويبيعونه في قرب في أزقتها وأقرب القبائل أليها بنو حسن وقد دخلوا

فى طاعة السلطان وقسمت أراضيهم فيما بينهم ألى ستة عشر قسما لكل قسم شيخ مسؤل عما يحدث به وبضواحى الرباط خصوصا ما كان منها على ساحل البحر كهوف ومغاور واسعة أوجدتها مياه الاوقيانوس ويسمع للماء دوى وقرقعة عند دخوله فيها وخروجه منها وعلى نحو كيلو متر واحد من المدينة أطلال قديمة هى أطلال مستعمرة رومانية كانت تسمى شِلاً (Chella) بها مقابر عليها كتابات وآثار أخرى لم تبحث ألى الآن بحثا علميا

الدار البيضاء ـ مدينة بحرية بعمالة فاس على ساحل المحيط بين الرباط وآزمورو هى أهم سوق لهذه العمالة لمبادلة التجارة بين الأهالى والاورباويين أسسها البرتقال في أول القرن السادس عشر وكان في مكانها قديما مدينة تسمى آنفا (Anfa) ويقدرون سكانها بنحو (٣١٫٧٠٠ نفس) وقد احتلتها الجنود الفرنسوية هى وضواحيها الآن منذ سنة ١٩٠٧ وكثر بها عدد الأوربيين وللمدينة سور قديم ومن أهم وارداتها المنسوجات القطنية والجوخ والبهارات والعقاقير والسكر والشمع وغيرها ومن صادراتها الأصواف والذره والجلود والمعز وتعرف الدار البيضاء لدى الفرنج باسم كازابلانكا (Casa Blanca)

آزمّور ـ أو آزمّورَه كما ضبطها ياقوت مدينة بحرية بمراكش مبنية على مرتفع من الأرض فوق الشاطىء الجنوبى لوادى أم الربيع عند مصبه فى المحيط وبها من السكان نحو (٦٫٠٠٠) ويصعب على السفن أن ترسوا على هذه المدينة بسبب تراكم الرمال فى مدخل واديها

الجديده ـ مدينة بحرية بمراكش على الساحل الغربى بينهاوبين آزمور المتقدمة سبعة عشر كيلومتراً ألى الغرب والجنوب منها ويقدرون سكانها بنحو (٢٥٫٤٠٠ نفس) بينهم بعض اليهود والاوربيين وكلهم فى حرية تامة أكثر مما هم عليه فى بقية مدن دولة مراكش الأخرى بسبب لين عريكة سكانها وتسامحهم وتسمى هذه المدينة أيضا بالبُرَيْجَة ويسميها أهل أوربا مَزَاغان وقد أسسها قوم من البرتقاليين سنة ١٥١٠ كانوا غرقوا بجوارها ومن هذا التاريخ صار البرتقاليون يترددون على وادى أم الربيع بلا ممانع حتى أنهم بنوا عند مصبه حصنا صغيرا بقى فى قبضتهم نحو ٢٥٠ سنة ثم أخذه المراكشيون منهم سنة ١٧٦٩ وأهمية الجديدة التجارية آتيـة من خصوبة ماجاورها من الأراضى ذات القابلية الكبيرة لزراعة الحنطة والفول وقد نقصت تلك الأهمية الآن بسبب مراقبة السواحل لمنع التهريب ومن صادراتها الحنطة والشعير والفول واللوبياء وغيرها من الحاصلات الزراعية وأكثر صادراتها تكون ألى جزائر قناريا ولكل أمم أوربا قناصل وتجاربها وبها ماجل كبير لحفظ الماء وهى جيدة الهواء وأن كانت طرقها رديئة التبليط ويكثر الرمد بين أهاليها ومن وارداتها السكر والشاى والاقشة الصوفية والشمع وغيرها

آسفى ـ مدينة بحرية بمراكش على ساحل المحيط على نحو ١٥٢ كيلومتر ألى الشمال والغرب من مدينة مراكش ويقدرون سكانها بنحو (٢٤٫٣٠٠ نفس) بينهم أزيد من ١٥٠٠ من اليهود ويقول بعض الجغرافيين أنها من بناء أهل

قرطاجنه وهى جميلة الوضع جـداً يحيط بها أسوارعالية سميكة ولها خندق وقلعة بعض جهاتها متخرب والمدينة مبنية فى نهاية غور يصل ألى البحر وبذلك كانت السكنى فيها غير مقبولة لأن الحر يشـتد فيها جداً فى الصيف لأنعكاس أشعة الشمس على جوانب الصخور القائمة حولها وهذه الصخور تمنع أيضاً هبوب نسيم البحر أما شتآء فلأن مياه الأمطار التى تنحدر من فوق تلك الصخور تحول طرقها ألى مجارى مائية وحول المدينة المذكورة بساتين فى غاية الخصوبة ومع ذلك فان ضواحيها صحراء تنقبض لها النفس ومرساها يفتح ألى الجنوب الغربى وهو خطر جداً على السفن به صخور أكثر من غـيره من مدن الساحل لذلك يقل تردد السفن عليها مع أنها أقرب الثغور البحرية ألى مراكش ومن صادراتها الخبل الجيدة والفول والذرة والصوف ومن وارداتها السكر والأقمشة القطنية والجوخ وتشتهر بعمل الأوانى الفخارية مثل فاس والرباط

وبجوار هذه المدينة مكان يعرف بالسبعة الأخوة وهو محل مبارك لدى المسلمين واليهود على السوآء بستشفى مرضاهم بزيارته والتبرك به وشجرة أخرى جزعها جسيم جداً وأغصانها غريبة يقول من رآها من السائحين أنه لا مثيل لها من حيث العظم فى كل دولة مراكش

الصويره ـ مدينة بحرية فى مراكش أيضاً على ساحل المحيط وعلى نحو سبعين كيلومتراً ألى الجنوب والغرب من مصب تنسفت وتعرف لدى الأورباويين

باسم مغادور (Mogador) وهي فى نهاية لسان رملى يمتد نحو الجنوب يفصله مضيق صغير عن جزيرة صغيرة هناك بها حصون لحماية مرساها القليل العمق ومنظر هذه المدينة متشابه من حيث شكله ومما تمتاز به نظافتها وجودة هوائها وخلو جوها من التغيرات الفجائية ولا يقع بها المطر ألا قليلا ولطافة مناخها الذى يشبه مناخ جزيرة ماديره آتية من كونها على المحيط ولأن الرياح التجارية تهب عليها دواما مدة فصل الصيف أما الرياح الجنوبية الحارة المعروفة باسم سيرُوكّو لدى الفرنج فأنها لا تهب عليها ألا نحو يومين فى السنة فقط ومع ذلك فأن جبال أطلس تخفف من تأثيرها جداً ويقدرون سكانها بنحو (٢٢٫٠٠٠ نفس) ولكل دول أوربا بها قناصل قال بعضهم أن لفظ مغادور آت من اسم قبة على نحو كيلو مترين من جنوب المدينة الحالية تسمى قبة مُجْدول وأما أهمية الصويره التجارية فلأنها الثغر البحرى لمدينة مراكش وهي كذلك لكل البلاد الواقعة ألى الجنوب من جبال أطلس وجميع حاصلات بلاد السوس ووادى درعه ترسل اليها مباشرة بأمر من السلطان وأهم صادراتها ألى أوربا الحبوب والاصواف والزيوت والثمار والجلود والصموغ والحلفآء وقد نقصت أهميتها التجارية الآن كثيراً من منذ أن قامت الدار البيضاء تناظرها فى ذلك ولا يتردد على مرساها ألا السفن التجارية أما السفن الشراعية التى ترسوا عليها فهى لأهالى قناريا ولا شك أن أهميتها تزداد كثيراً اذا صارت السفن التى ترسوا عليها فى أمن أكثر مما هي الآن من الهوآء الشديد الذى يهب عليها

من الجنوب والغرب وهو ريح يثور فى تلك الارجآء شتآء هذا وقد طرأت على ساحل الصويره حديثاً تغيرات نجمت عن فعل البحر وانخساف الأرض.

ترُودانت ـ مدينة من مدن مراكش أيضاً واقعة فى عمالة السوس بينها وبين مدينـة مراكش نحو ١٨٥ كيلومتر الى الجنوب والغرب وتبعد عن سلسلة أطلس الـكبيرة بنحو ٣٥ كيلومتراً الى الجنوب وهذا الجبل يتغطى فى تلك الجهة بالثلج فى أكثر الأوقات والمدينة فى سهل كبير خصب الأراضى جداً وافر الحاصـلات وأشجار الزيتون ويحيط بها أسوار تعلوها ابراج ضخمة مربعة الشـكل ولها خمسة أبواب وقصبتها فى الزاوية الشمالية الشرقية منها وبينها وبين المدينة باب واحد وبالمدينة المذكورة عدة فنادق لسكنى القوافل التى تمر بها وثلاثة جوامع بأحدها منارة شاهقة تشاهد من بعد ويقدرون سكانها بنحو ستة آلاف نفس بينهم بعض اليهود ويشتهر سكانها بالأقبال على الصناعة وعلى زراعة الزيتون والنخيل خصوصاً وعلى صباغـة ودباغة الجلود وعمل الأحذية وغير ذلك وأهميتها آتية لها على الخصوص من تردد كثير من تجار الأهالى عليها لأنها أبعد المدن الجنوبية الخاضعة للسلطان ولأنها نقطة النهاية للقوافل الآتيـة من تمبكتو وتأتى تلك القوافل بالعاج والتبر وريش النعام والرقيق وغيرها وكان يصـدر من هذه المدينة قديماً نحاس معتبر جداً كان يستخرج من جهاتها وقد منعت الحـكومة الآن تصديره بالمرة ومدينة ترودانت أزلية ولـكن أهميتها ظهرت فقط من القرن السادس عشر الميلادى وكان

بضواحيها مزارع واسعة لقصب السكر وكان بالمدينة معامل لاستخراج السكر وكان السكر يصدر منها ألى كل بلاد مراكش تقريباً فيعود على أهاليها بالمكاسب الوافره

تامنتيت ـ مدينة بمراكش ببلاد توات الأصلية واقعة على نحو ١٤٠ كيلومتراً ألى الغرب من مدينة أن صالح حاضرة البلاد المذكورة ويقدرون سكانها بنحو أربعة آلاف نفس أغلبهم من زناته وتتألف المدينة من أربعة عشر قسما أو محلة منفصلة عن بعضها ولكنها متقاربة جداً يحيط بها كلها سور واحد الا أرباضها الثلاثة التي بخارجها وللسور أبراج وله ثلاثة أبواب وهي فوق منحدر فى نهايته مزارع يكثر بها النخيل والقطن والحناء والتبغ والقنب والذره وغيرها مما يجود فى تلك الواحة ويقال أن اليهود هم الذين أسسوها كما أسسوا أغلب مدن توات ولكن الحقيقة أن المدينة قديمة العهد جداً وبها خمسة جوامع وسوقان وهي مركز تجاري كبير وأهم مكان تجتمع فيه القوافل الآتية من الشمال والجنوب وأكثر ما يصدر أليها السكر والشاي ويستعمله الأهالى هنالك بكثرة ويفضلونه على القهوة ويصدر أليها أيضاً بعض مصنوعات أوربا وأشهر مصنوعات المدينة المذكورة المنسوجات الصوفية والقطنية وبجانب أحد مساجدها حجر كبير جداً كان سقط من السماء من زمان بعيد وعلى ١٥٠ كيلومتر من المدينة أطلال قصر قديم يقول الناس أن الجان تسكنه هذا ويحكم هذه المدينة وملحقاتها مجلس مؤلف من الأعيان

بلاد الجزائر

أقسامها الأدارية ـ تنقسم بلاد الجزائر ألى ثلاث ولايات أو عمالات وتنقسم الولايات ألى مقاطعات والمقاطعات ألى أقسام صغيرة يعرف الواحد منها باسم كمُّون كما فى فرنسا وينقسم الكمون الى فرنسوى أوتام السلطة ومختلط يصير تام السلطة متى وصل العنصر الفرنسوى فيه ألى درجة مهمة والولايات المذكورة هي ولاية الجزائر وولاية قسطنطينه وولاية وهران ويدير الحكومة فى البلاد حاكم عام ملكي يساعده مجلس عال وكل ولاية من الولايات الثلاث المذكورة تنقسم ألى قسم ملكي وهو عبارة عن مقاطعة أدارتها تشبه أدارة المقاطعات بفرنسا تقريباً وألى قسم عسكرى يدير الحكومة فيه ضابط عسكرى هذا وبلاد التل بأجمعها أدارتها ملكية

السكان ـ يتركب السكان ببلاد الجزائر من ثلاث طبقات شهيرة هي القبائل أو البربر وهم أقدم السكان بالبلاد والعرب وهم من نسل الفاتحين ثم جالية الفرنسويين وغيرهم من أهل أوربا ويضاف ألى هذه الطبقات الثلاث السائدة ثلاث أو أربع طبقات أخرى قليلة الأهمية بالنسبة للأولى ولا بد من أن نضع المستعمرين فى المقام الأول لأنهم وأن كانوا أقل الطبقات عدداً ألا أنهم أصبحوا الآن الطبقة الحاكمة بالبلاد فهم أصحاب الحركة الفكرية والقوى التمدينية كما أنهم أصحاب السلطة السياسيه والعسكرية وعددهم آخذ فى الزيادة نسبيا بينما عدد الأهالى الوطنيين آخذ في النقصان

كذلك والطبقات المذكورة هى الآتية

أولا المستعمرون أو جالية أوربا ـ يبلغ عدد جالية أوربا ببلاد الجزائر الآن نحو ستمائة وثمانين ألف نفس أربعة أسباعهم من الفرنسويين وما بقى أسبانيون وطليانيون ومالطيون وأغلب الفرنسويين من الأقاليم الفرنسوية التى على ساحل بحر الروم ومن جزيرة قُرْشُق أما الأسبانيون فمعظمهم من بلاد بَلَنسيه وجزائر بليار وبلاد الأندلس وأغلب الطليانيين من نابل وصقليه

ثانياً القبائل ـ كان هؤلاء السكان ينزلون كل بلاد الجزائر الحالية قديماً من سيف البحر حتى واحات الصحراء الكبرى وكان الرومان يسمونهم نوميديين وهم فى الحقيقة شعبة من ذلك الجنس الكبير الذى سكن البلاد فيما غبر من الأدهار ثم أطلق عليه بعد ذلك أسم بربر (راجع الكلام على البربر) وكان البربر يسكنون قديماً كل المنطقة القابلة للسكنى بشمال أفريقيه بين الصحراء الكبرى والبحر ومن وادى النيل حتى المحيط الأطلسى وقد أخضعهم العرب فى القرن السابع الميلادى ومع خضوعهم للمسلمين من ذلك الوقت بقوا فى أراضيهم يملكونها ودام الحال على هذا المنوال حتى منتصف القرن الحادى عشر من الميلاد وقت قدوم القبائل العربية من مصر ومما جاورها من البلاد فأخضعت كل أقاليم البربر وقتلت منهم من قتلت وطردت أصحاب الأراضى من أراضيهم ونزلت حيث كانوا يقيمون أى فى قسم عظيم من البلاد كما تقدم الكلام على ذلك مفصلاً والمغيرون المذكورون هم أجداد عرب الجزائر

الحاليين كما أنهم أجداد عرب مراكش وتونس وطرابلس وفزان وبرقه وقد هاجر قسم من البربر والتجأ ألى الصحرآء فأقام فى واحاتها (أنظر الكلام على التوارك) وأعتصم من بقى منهم بالجبال والهضاب

واعلم أن المراد بالقبائل فى العرف هناك القبائل التى ليست عربية وهى النازلة بالجبال القريبة من الساحل غربى مدينة الجزائر وشرقيها وقد أطلق العرب على القبائل النازلين بالجهات العالية جنوبى قسطنطينه أسم شاوِيّه ومعناه الرعاة خصوهم بهذه التسمية دون غيرهم كما أطلقوا لفظ مزابى على بربر واحات غردايه وورقله ولفظ توارك على القبائل النازلين بالصحراء وأغلب القبائل ببلاد الجزائر ينزلون ولاية قسطنطينه لأنهم يميلون كما قلنا لسكنى الجهات الوعرة وهم يشغلون من الولاية المذكورة نحو نصفها على الأقل وينزلون أماكن أخرى غير هذه ولكن عددهم بها أقل بكثير كجهات التل أى المنطقة الساحليه من ولايتى الجزائر ووهران ومثل جهات الواحات جنوباً هذا ويمكن أرجاع كل القبائل المذكورة ألى أربعة مجاميع أصلية هى

(١) قبائل ولاية قسطنطينه ويمتدون حتى حدود تونس وتشتمل بلادهم على هضبة جبل أوراس بأجمعه بما فى ذلك منحدراته الجنوبية حتى مدخل سهول الرمل

(٢) القبائل المعروفة لدى الأروبيين بالقبائل الكبرى والصغرى وهم ألى الشمال والغرب من السابقين بالمنطقة البحرية وقسم منهم بولاية

قسطنطينه وآخر بولاية الجزائر

(٣) قبائل الساحل وهم غربى مدينة الجزائر

(٤) قبائل واحات الجنوب المشتملة على واحتى مزاب وأورقله العظيمتين

هذا وبولاية وهران عدد قليل من القبائل

ثالثاً — العرب يبلغ عدد العرب والبربر من سكان الجزائر الآن نحو أربعة ملايين وأربعمائة وسبعة وسبعين ألف نفس والعنصر العربى أكثر من البربرى سيما أذا لاحظنا أن الكثير من القبائل أو أفخاذها الذين هم من الأصل البربرى قد استعملوا العربية لغة لهم بخلاف القبائل العربية فأن القليل منها قد استعمل البربرية لغة له وعلى ذلك قد اعتبر كثير من الجغرافيين تلك القبائل عربية بينما هم فى الحقيقة من أصل بربرى ويطلق العرب هناك على جملة الخيام المتجاورة المجتمعة لفظ دُوّار كما نسمى نحن هنا فى مصر جملة البيوت المجتمعة أو المتجاورة عزبة أو كفراً أو قرية والدوار عندهم مبدأ النظام الأجتماعى وجملة الدواوير تسمى فرقة وهى تخضع لشيخ وكل عدة فرق تكوّن قبيلة يعرف شيخها بالقائد أو الأغا والقبائل المجتمعة الكثيرة تكوّن ما يعرف بالأغالق وكل جملة من هذه تكوّن ما يعرف بالباش أغالق أو بالخلافة هذا هو النظام المتبع هناك وربما قد اندثر الآن بعض هذه الاصطلاحات وقد بقى العرب من سكان الجزائر سواء من سكن منهم التل أو الواحات الجنوبية رعاة ماشية وبذلك يمتازون عن القبائل البربرية الذين يشتغل معظمهم

بالزراعة أما سكان الصحرآء منهم فمعيشتهم بدوية لأن الأحوال تضطرهم أليها وليس الأمر كذلك بين قبائل التل لهذا استعملت الأدارة الأستعمارية منذ زمن طويل كل نفوذها وما يمكنها من الوسائل لكى تدخل بين قبائل المنطقة الساحلية عوائد الأمم المستقرة فى مكان معلوم من الأرض فنجحت فى ذلك نجاحاً عظيماً حتى أصبحوا أكثر ألتصاقاً بالأرض الآن منهم فيما مضى وأعلم أن اللغة العربية ليست خالصة ولو نسبياً ألا بين قبائل الصحرآء أما قبائل التل فقد دخل على عربيتهم منذ الأعصر الأولى من استيطانها انقلاب وتحريف كبيرين بحيث أصبحت لهجة حقيقية

رابعاً ـ الطبقات الأخرى من سكان الجزائر ـ هم المغاربة والقول أوغليه واليهود والسود ويكثر المغاربة بين سكان المدن خصوصاً مدن الساحل (أنظر الكلام على المغاربة) أما القول أوغليه فهم متناسلون من الأتراك والمغربيات وقد انعدموا الآن تقريباً أما اليهود فكثير عددهم بالجزائر وبكل الممالك البربرية وهم منذ الأعصر الغابرة أكبر العوامل فى المبادلات التجارية يشتغل أغلبهم بالحرف الصغيرة وكثيرون منهم كالصيارفة (البنكيريه) والتجار أصبحوا من أصحاب الأموال الوفيرة والنعم الكثيرة وقد صلحت أحوالهم منذ الأستعمار الفرنسوى وتجنسوا بالجنسية الفرنسوية ويزيد عددهم عن ستين ألفاً أما السود وهم الذين أستجلبهم الناس فيما سبق عبيدا فعددهم قليل مع ذلك فأن بين القبائل عددا كبيرا من دم سودانى

الحالة الأجتماعية والسياسية بالجزائر ـ يزداد سنوياً عدد سكان بلاد الجزائر الذين يبلغون هم وسكان الصحرآء الجنوبية ٥٫١٦٠٫٠٠٠ نسمة وفى زيادة عددهم سوآء فى ذلك الأهالى والأوربيين ما يثبت موافقة الأحوال الصحية هناك وكان يموت من المستعمرين والعساكر فى أول الفتح الفرنسوى عدد كبير أما الآن فأن المواليد تفوق الوفيات والفضل فى ذلك راجع ألى التدابير الصحية التى فهم الأهالى قيمتها أكثر من قبل وببلاد الجزائر مبانى قديمة عديدة مختلفة ما بين جلمودية ودُرْويدية وأخصها ما كان بولاية قسطنطينه مما يثبت أن أمماً متشابهة فى الحضارة كانت تسكن شمالى بحر الروم وجنوبيه فى أزمنة ما قبل التاريخ ومن بعدها تعاقبت أغارات بعضها سلمى وبعضها حربى أدخلت بالبلاد أمماً مختلفة الصورة ولا يمكن تعيين البربر بالضبط من صورتهم الأصلية ولكنهم يظهرون جداً من لغتهم وقد طرأ على بلاد الجزائر فى أدوار تاريخها عدة تقلبات سياسية فكانت أولاً خاضعة لملوك من أهاليها ثم انتقلت ألى حكم الرومان ثم ألى الوندال ثم ألى البوزنطيين وفى أواخر القرن السابع الميلادى دخلت تحت حكم العرب وفى القرن الخامس عشر منه انتقلت ألى حكم الأتراك وكانت مدينة الجزائر مدة زمن طويل أهم مركز للقرصان الذين كانوا يعيثون الفساد فى بحر الروم وكثيراً ما أطلقت عليها أساطيل ممالك أوربا مدافعها لذلك ثم استولى عليها الفرنسويون سنة ١٨٣٠ م ومن هذا الوقت أخذ الفتح الفرنسوى يمتد تدريجياً فى بقية البلاد وقد عانى الفرنسويون فى ذلك

أكبر المشاق لاتصاف السكان بالصفات الحربية وبسبب وعورة البلاد و
اهتمت فرنسا بعد أن تم لها الأستيلآء بتحسين الأحوال هناك وتكث
موارد الثروة ففازت من ذلك بقسط وافر

الدين واللغة والمعارف ـ أما من حيث الدين فالعرب والبربر كلاهما يتدين
بالأسلامية على مذهب الامام مالك وبينهم كثير من الاباضية ينزلون جهات
الزاب على الخصوص وقد حافظ العرب أكثر من البربر على قوميتهم
وأقاموا مجتمعين مشكلين أمة حقيقية أما من جهة اللغة فالعربية هي لغة الجميع
على ما بها من التحريف والدخيل وفرنسة العناصر الأوربية ببلاد الجزائر
حاصلة بالتدريج في أداراتها ومدارسها بينما هذا الأمر بطيء جداً بين الأهالي
الوطنيين ولم تتمكن المدارس الفرنسوية من أدخال التعليم ونشره ألا بين نحو
العشر من أولاد الأهالي وأقبال القبائل البربرية على العلم أكثر منه بين
العرب عموماً ولهجات البربر كلها ترجع ألى فصيلة اللغة الحامية أما العربية
فأنها سامية كما هو معلوم ومع ذلك فأن بعض القبائل البربرية تتكلم الآن
بالعربية لا غير فهي لغتها المدنية والعلمية كما سبقت الأشارة لذلك

قال في صفوة الأعتبار « المعارف فيها (أي بلاد الجزائر) على قسمين
الأول علوم الديانات والثاني علوم الرياضيات فالأول قسمان أيضاً الأول ما هو
مختص بالديانة الأسلامية وله مدرسون في الجوامع يقرؤن النحو والفقه وفي
خصوص الجزآئر من هؤلآء عشرة مدرسين والفقه هو المالكي وقليل من

الدروس في الحديث أو غيره وأكثر الأجتهاد في هاته العلوم في بلد قسطنطينه ثم تلمسان وفي الجهات الجنوبية يقرؤن العلوم في زوايا الطرق ولأهالى هاته الجهات اعتناء بأخذ العلم فيرحلون أليه ألى فاس وتونس وقليل منهم يرحل ألى مصر فلذلك لم ينقطع في تلك الجهات من له اطلاع حسن ومشاركة جيدة وقليل من يتضلع حقيقة التضلع لأنه ليس في أوطانهم علماء فحول وأنما يقرؤن صغار الكتب وأكثر الأنكباب في الفقه المالكى على حفظ مختصر خليل وتفهمه ومن تمهر في العلوم في أحدى البلاد الخارجية قلما يرجع ألى وطنه وفي كل تلك العلوم مدرسون في الجوامع لهم مرتبات من قبل الدولة الفرنسوية وهي القائمة بمصاريف أقامة الجوامع وما فيها من قرآءة الأحزاب أو كتب الحديث لأنها استولت على جميع الأوقاف والمساجد واقتصرت في كل بلد على عدد مخصوص من المساجد تقوم به وغيره تصرفت فيه بما ناسبها وحرمت المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين والقسم الثانى ما يختص بالديانة النصرانية ولا دخل للدولة فيه وأنما القسيسون لهم مدارس لتعليم ديانتهم ألى أن قال

«وأما القسم الثانى من أصل المعارف فهو سآئر المعارف الرياضية وهاته لها مكاتب من الدولة في البلدان المتمدنة وهي على نحو المكاتب الفرنسوية غير أنها قاصرة عن العلوم العالية فبعد أتمام التلميذ فيها معارفه ينتقل ألى باريس التى هي مركز سآئر العلوم العالية والمكاتب بالجزآئر فيها ماهو للولدان وفيها ماهو للبنات» اه

الصناعة ـ تنحصر الصناعة فى بلاد الجزائر فى الزراعة ومن أهم مواردها الحبوب والكرم والزيت والقطن والصوف والحرير وللمستعمرين كثير من الطواحين البخارية ومعامل للدباغة وصناعة الطوب وأخرى لعمل صمامات الفلين واستخراج الروائح العطرية وتجهيز السردين والطونه وغيرهما من أنواع السمك كل ذلك على الخصوص فى ثغورها البحرية الشرقية وهناك أيضاً معامل لحليج القطن وعمل السيجارات وغيرهـا أما الأهالى فأشهر الصنائع لديهم صناعة البسط وتجهيز وصباغة الأصواف وعمل السروج ودباغة الجلود وصناعة المراكيب وتطريز الأقمشة وعمل الأسلحة ولا يشتغل بالأخيرة منها ألا القبائل البربرية تقريباً ولهذه القبائل على العموم مهارة فى الصناعة هذا وأكثر ما تكون الصنائع الأهلية فى تلمسان وقسطنطينه

التجارة ـ أهم صادرات الجزائر لفرنسا ولغيرها من البلاد الخارجية الثيران والضأن والقطن والأصواف والجلود والحلفآء والحديد والنحاس والرصاص والدقيق ثم الثمار وأخصها البرتقال ثم المرجان والفلين أما الواردات فأشهرها المنسوجات والأنبذة والبن والسكر والأوانى الفخارية والآلات والأدوات المصنوعة وأخصها الآلات البخارية ثم الفحم الحجرى وغيره ويخص فرنسا من التجارة الداخلية والخارجية نحو أربعة أخماسها ومما يساعد على تسهيل المواصلات التجارية السكك الحديدية وأهمها خط يربط بلاد التل نوهران وتونس ويخرج منه فروع تذهب شمالاً ألى المدن الساحلية وأخرى

تذهب جنوباً نحو جهات النجود وهناك طرق برية بين المدن صالحة لسير العربات وبين ثغورها البحرية وفرنسا على الخصوص مواصلات بحرية منتظمة والتعليم الأبتدائى منتشر جداً بين جالية أوربا فى ولايتى الجزائر وقسطنطينه أما ولاية وهران حيث يكثر عدد الأسبانيين فالتعليم فيها أقل منه فى الولايتين المذكورتين وغاية ما ترجوه فرنسا من مساعيها هناك مزج الأهالى بمزج منافعهم ومصالحهم وتعيين أملاكهم لتوجد منهم أمة واحدة

مدن بلاد الجزائر

أعلم أن المدن والقرى ببلاد الجزائر ذات شكل خاص يختلف عن بعضه بحسب وضع الأراضى وبالمناخ ونوع معيشة السكان فأن الأنسان لا يرى القرى العربية التى تتألف من خيام أو من أكواخ صغيرة بسهولة كما يرى دساكر القبائل البربرية المبنية فى العادة فوق النجود وقد حافظت على شكلها الخاص بها وهي تمتاز عن القرى التى شيدها المستعمرون من أهل أوربا لأن دور هذه أحسن بناء ونظافة واتساع طرق وجودة بساتين ولا تزال المحلات الوطنية دون غيرها فى المدن محافظة على شكلها القديم أما المحلات الجديدة التي تسكنها جالية أوربا فأنها تشبه مدن أوربا هذا وأشهر مدن بلاد الجزائر هي الآتية

بونه ـ ويقال لها أيضاً عُنابه ويقدرون سكانها بنحو (٤٣ر٠٠٠ نفس)

أقل من نصفهم من الأهالى وهي بعمالة قسطنطينه فى النهاية الغربية من خليج عريض مضاف أليها وعلى نحو ١٥٦ كيلومتر ألى الشمال والشرق من قسطنطينه وعلى نحو ٤٤٠ كيلومتر ألى الشرق من مدينة الجزائر وموقعها جميل جداً وهى فى لحف جبل وفى أول سهل يمد لجماله من جنان بلاد الجزائر وقد امتلأ سريعاً بجالية الفرنسويين ويشقه نهير يسمى سيبوس وللمدينة سور له شرفات وستة أبواب وقصبة وحصون للدفاع عنها وقد أصبحت عنابه الآن كمدن أوربا من حيث النظام والمبانى رغماً عن عدم استواء أراضيها وأصلح الفرنسويون الآن مينائها وأوجدوا بها من الأعمال والمبانى ما يجب أن يكون لمدينة مثلها تجارتها آخذة فى الزيادة وخلفها بلاد عظيمة الخصوبة جداً ومناجم للحديد مشهورة ذات غلة وافرة وأخرى للنحاس وغابات للبلوط والفلين والزيتون تعطى سنوياً مقادير كبيرة من الزيوت ومما زاد فى أهميتها أيضاً أرتباطها مع المدن الأخرى الشهيرة بالطرق الحديدية وبينها وبين مرسيليا وتونس ومدينة الجزائر مواصلات بحرية منتظمة وعنابه مركز قسم أدارى بعمالة قسطنطينه وبها محكمة تجارية وأخرى ابتدآئية ومدرسة تعرف بأكاذيميا هيون ودار آثار ودار كتب وغير ذلك وعلى نحو كيلومترين ألى الجنوب منها خرائب مدينة قديمة تسمى هيُّون وكلها أنقاض بالية ألا صهاريجها وواجلها والقناة التى كانت تجلب لها الماء وكانت هيُّون فيما سبق واسعة التجارة جداً بحيث لم يكن يناظرها في ذلك بهذه البلاد ألا مدينة قرطاجنه

قال في معجم البلدان « بونة بالضم ثم السكون مدينة بأفريقية بين مرسى الخزر وجزيرة بني مزغناي وهي مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرخص والفواكه والبساتين وأكثرفاكهتهامن باديتهاوبهامعدن حديدوهي على البحر ألى أن قال ويطل على بونة جبل زغوغ » اه

فِليبفيل ـ مدينة بحرية حصينة بعمالةقسطنطينه أيضاً ألى الشمال والشرق من قسطنطينه وهي مركز قسم أدارى وعلى خليج مضاف أليها وألى الغرب من مصب نهر صغير يسمى صَفْصَف وفي سفح جبل متصل بجبال كثيرة الغابات يسكنها قوم من البربر استعربوا ويقدرون سكانها بنحو (٢٦٫٠٠٠ نفس) أقل من نصفهم من الأهالي وبجوارها كروم كثيرة وبساتين أنيقة قامت مقام تقائع وبطائح مضرة بالصحة كانت هناك فيما سبق وبها معامل لدبغ الجلود وأخرى لعمل صمامات الفلين وغيرها وبالقرب منها مناجم للحديد ومقالع الأحجار وحركتها التجارية واسعة في جهات الساحل حتى أنها تناظر في ذلك وهران والجزائر وكان في مكانها قديماً نزلة بحرية رومانية تعرف لدى الأهالي بأسم تاسِكدا ولا يزالون يطلقون ألى الآن على قطعة من الأرض داخلة في خليجها بالقرب من المدينة لفظ إِسككدا والفرنسويين هم الذين بنوا هذه المدينة سنة ١٨٣٨ لتكون ثغراً بحرياً لقسطنطينه وهي تشبه على نوع مامدينة لاڤالت عاصمة مالطة وقد وجدوا أثناء البناء تحت الأرض آثاراً رومانية كثيرة وحمامات بها صور نساء وخيل وحيوانات مفترسة وغير ذلك

قسطنطينه ـ مدينة مهمة وقاعدة العمالة المضافة أليها بينها وبين مدينة الجزائر الواقعة ألى الشرق منها نحو ٤٤٠ كيلومتر ومدينة فليفيل أقرب الثغور البحرية أليها لأن بينهما نحو ٧٧ كيلومتراً فقط ويقدرون سكانها بنحو (٥٨٫٤٠٠ نفس) أكثر من نصفهم من الأهالى وهى مركز قائد الجنود التى بتلك العمالة وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٤٤ متراً وهى قائمة فوق صخرة جوانبها رأسية تشبه من الأشكال شبه المنحرف وزواياه الأربعة تواجه النقط الأربع الأصلية ويحيط بقاعدة تلك الصخرة شرقاً وادى الرمل الذى يصب فى وادى أبى مرزوق وهو يقترب من المدينة عند زاويته الجنوبية فى مكان يعرف بسيدى راشد وهناك يحدث شلالا ويمر تحت قنطرة وينصب فى وهدة عميقة ممتدة على طول جوانب الصخرة من الجنوب ألى الشرق ثم متى وصل ألى نهايتها الشمالية المبنية فوقها قصبة المدينة أحدث شلالا آخر يعرف بشلال السلاحف وبعد ذلك يسير نحو الشمال والوهدة المذكورة تختلف فى العرض فهى من سيدى راشد المذكور حتى الزاوية الشرقية المسماة بالقنطرة لاتزيد عن ستين مترا وعمقها عن ثلاثين متراً ومن هذه الزاوية ألى القصبة يكبر عرضها وعمقها عما كانت عليه فهى كخندق يمنع الأقتراب من أسوار المدينة من هاتين الجهتين أما نهر الرمل الذى يجري فى هذه الوهدة فأمره غريب وحاله عجيب لأنه عندما يصل ألى المكان المعروف بالقنطرة يغور فى الأرض زمناً ثم يظهر ثانية ثم يعود فيختفى ويكرر ذلك أربع مرات فيكون فوقه أربع قناطر طبيعية يختلف عرضها بين خمسين متراً

ومائة متر أما الأرض فى الجانب الثالث من جوانب المدينـة أى بين الزاوية الشمالية من القصبة والزاوية الغربية منها فانها كثيرة التضاريس جدا وهناك ثلمة عريضة يلق منها أهل المدينة قماماتهم والأرض المذكورة يمكن مع ذلك تسلقها وأن كانت شـديدة الأنحدار أما الجهة الرابعة من جهات المدينة وهى التى تتصل بها تلك الصخرة التى تـكون كشبه جزيرة متفرعة عن الهضبة الصخرية فهى عبارة عن برزخ يختلف عرضه بين ثلاثمائة متر وأربعمائة متر وهى الجهة الوحيدة التى يمكن الوصول منها ألى المدينة بسهولة وهى أيضاً الجهة الوحيدة التى أقاموا فيها حصوناً للدفاع عنها ولا تزال الحصون التى بناها البوزنطيون قائمة هناك للآن وهناك أيضاً أسوار بنيت قبل زمنهم وليست قسطنطينه من المدن الحصينة فى الأصطلاح الحديث لأن كل حصونها فيما أحاط بها من الوهاد والأغوار وفى هذه الأسوار القديمة التى أصلحها الفرنسويون سنة ١٨٣٧ وبها ثلاثة أبواب ومن أغرب هذه الحصون برج يعرف ببرج السوس وهو مربع الشكل ومن بناء البوزنطيين أما قصبتها التى بناها الرومان فلم يبق منها ألا صهاريج كبيرة وقد أصلح الفرنسويون هذه القصبة وموقعها فوق قمة ذلك المنحدر الذى يحيط بقسطنطينه وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٤٠ متر وبها الآن ثلاث ثـكنات عسكرية ومستشفى كبير ومخبز للجند ومخازن للسلاح وغير ذلك

وقد تعاقب على صخرة قسطنطينه أمم كثيرة واستفاد العرب من غير

شك من مبانيها الرومانية القديمة ولكنها كلما كانت تتهدم كانوا لا يقيمونها ثانية على ما كانت عليه من متانتها الأولى وأغلب دورها مغطى بالقرميد وهى أقل فخامة بكثير عن دور مدينة الجزائر وغالبها مبنى بالطوب والقليل منها طبقة علوية وليس لها فتحات أوشبابيك تطل على الخارج غير أبوابها وأسواق هذه المدينة تشبه أسواق المدن الشرقية وأعظم الصنائع بها رواجا الدباغة وعمل سروج الخيل والأحبال ونسج الأقمشة الصوفية وعمل البسط وغير ذلك أما الصناعة الأوروبية فأنها أكثر رواجا وحركة وأهمها طحن الدقيق وعمل المعجنات الغذائية وتدير مياه نهر الرمل عدة طواحين وقسطنطينه من أكبر الأسواق بأفريقية الفرنسوية فى تجارة الغلال ولها تجارة كبيرة أيضاً فى الزيوت والأصواف والجلود والبغال وبها عدة جوامع ومساجد وزوايا ورباطات وقصور كانت لحكامها المعروفين بالبكوات منها قصر فخيم بناه آخرهم المسمى الحاج أحمد بك وهو بناء واسع اشتمل على كثير من نفيس الحجر ودقيق الصنعة بحيث لا يضارعه بناء آخر ظهر فيه بهاء الصنعة الشرقية ودقتها وجمالها أكثر من ظهورها فى هذا القصر ويسكنه الآن القائد العام للجنود الفرنسوية التى بتلك العمالة

وبعد ان أخضع الفرنسويون هذه المدينة جعلوا قسمها المنخفض أى الجنوبى خاصاً بسكنى الأهالى أما القسم الأوربى الذى أخذ يشمل تلك لمدينة تدريجياً فأنه واقع فى قسمها المرتفع على الخصوص بين قصبتها وسراى البك المذكورة وقد فتحوا هناك شوارع جديدة أوصلوها الى ميادين حديثة

بنوها وبينما كانوا يشتغلون فى ذلك عثروا على آثار قديمة نفيسة دلت على ما كان لهذه المدينة من الأهمية وقد شيد الفرنسويون بها مبانى لأداراتهم وأعمالهم ودينهم كالمحاكم والبنوك ودور البريد والتياترات والكنائس ومما يجب ذكره من هذه المبانى جمعية الآثار التاريخية ودار التحف والمدارس والمستشفيات وبالمدينة ثلاثة عشر جامعاً ومسجدا من أشهرها الجامع الكبير وجامع سيدى الأخضر وله صومعة مثمنة الزوايا ارتفاعها خمسة وعشرون متراً أذا صعد الأنسان فوقها شاهد منظراً من أبدع المناظر وليست المدينة الأهلية والمدينة الفرنسوية هما كل قسطنطينه بل لها خارج أسوارها أرباض وضاحيات منها سن جان وسن أنطوان وغيرهما ومقابر المدينة خارجها فوق مرتفع هنالك كان مقبرة لها فى كل أدوارها التاريخية

ولما كانت قسطنطينه واقعة هكذا أى على قمة صخرة قاحلة كان الماء فى كل زمن أول مايهتم به سكانها لهذا شيد الرومان بها مواجل وصهاريج لازال بعضها ألى الآن وكان الماء يصل أليها من حوض بجبل يسمى أراش على نحو أثنى عشر كيلومتراً منها ويأتى أليها الماء أيضاً من منبع يسمى بأبى مرزوق بقناة لاتزال آثارها تشاهد للآن وأعجب مبانى هذه المدينة قنطرة فوق الغور الذى يجرى فى قاعه نهر الرمل والقنطرة المذكورة قناة للماء أيضاً وقد بناها الرومان وتتألف من صفين من الحنايا فوق بعضهما ترتكز الأولى منهما على أحدى القبوات الطبيعية التى يمر من تحتها نهر الرمل ويبلغ أرتفاع هذه القبوة عن ماء

النهر نحو ٥٧ متراً وقد جدد العرب بناء هـذه القنطرة سنة ١٧٩٣ م وفي سنة ١٨٥٧ تهدمت قنطرتان من القناطر العليا وسمع لسقوطهما دوى هائل مفزع حتى نشأ من ذلك انهدام القنطرة بأجمعها ثم جدد الفرنسويون بناءها ولكنهم جعلوها من الحديد وارتفاعها عن مجرى النهر ١٢٠ متراً أما الآن فأن الماء يصل ألى المدينة غزيراً من مواجل أربعة قريبة منها تعرف بالفساقى تبعد عنها نحو خمسين كيلومتر ألى الجنوب فى عين مليله ولا يزال بعض تلك القناطر القديمة يشاهد للآن وهو من أجمل ماتركته الأعصر الغابرة من الآثار ويقول العلماء أن الأمبراطور جُستنيانوس هو الذى بناها وبالقرب من قسطنطينه ينابيع حارة غزيرة المياه بعضها كبريتى وبعضها حديدى والبعض الآخر قلوى وكلها تخرج من مغاور هناك وتجرى منحدرة فوق جنادل لطيفة وكثيرا ما يقصدها الاوريون وغيرهم للأستشفاء وتتصل قسطنطينه الآن بمدينتي الجزائر وتونس بطريق حديدى وكانت هذه المدينة تسمي قديماً سِرْتا (Cirta) وكان بها جالية من الأغريق تقلهم أليها بعض ملوكها قال استرابون كانت سرتا أذ ذاك كثيرة السكان زاهية حتى أنها كانت تقدر أن تخرج عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل ثم لما تخربت أقامها الأمبراطور قسطنطين لهذا سماها أهلوها قسطنطينه اعترافاً بفضله عليهم ثم أنه فى سنة ١٥٣٥ م أخضعها أتراك الجزائر وأصبحت يحكمها من ذلك الوقت حاكم يلقب بالبك كان ينصبه داى الجزائر بفرمان منه وآخرهم هو الحاج أحمد المتقدم الذكر وقد استمر على استقلاله بعد أن استولى

الفرنسويون على مدينة الجزائر بسبع سنوات وقد كابدوا فى الأستيلاء عليها مشاق عظيمة وفقدوا من جنودهم عددا كبيراً ويقال أن هذه المدينة حوصرت قبل ذلك ثلاث وعشرين مرة

قال فى معجم البلدان « قُسَنْطِينيه مدينة وقلعة يقال لها قسنطينية الهواء وهى قلعة كبيرة جداً حصينة عاليـة لا يصلها الطير ألا بجهد وهى من حـدود أفريقيه مما يلى المغرب لها طريق وأتصال بأكام متناسقة جنوبيها تمتد منخفضة حتى تساوى الأرض وحولها مزارع كثيرة وأليها ينتهى رحيل عرب أفريقيه مغربين فى طلب الكلاء وتزاورعنها قلعة بنى حماد ذات الجنوب فى جبال وأراض وعرة قال أبو عبيد البكرى من القيروان ألى مَجَّانَه ثم ألى مدينة يُنْجُس ومن مدينة ينجس الى قسنطينيه وهي مدينة أزلية كبيرة آهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف أحصن منها وهى على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن قد أحاطت بها تخرج من عيون تعرف بعيون أشقار تفسـيره سود تقع هذه الأنهار فى خندق بعيد القعر متناهى البعد قد عقد فى أسفله قنطرة على أربع حنايا ثم بنى عليها قنطرة ثانية ثم بنى على الثانيـة قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا ثم بنى فوق ذلك بيت ساوى حافتى الخندق يعبر عليه ألى المدينة ويظهر الماء فى قعر هـذا الوادى من هذا الموضع كالكوكب الصغير لعمقه وبعده » اه

بِجَايه ـ مدينة بحرية على نحو ٢٢٦ كيلومترألى الشمال الغربى من قسنطينه وفى النهاية الغربية من الخليج المضاف أليها وهى على ساحل البحر تماماً ويحيط

بها جبال وأكمات ترتفع بالتدريج وقد أكسبها موقعها على جانب الجبل وكذا ما يحيط بها من مزارع البرتقال والرمان والتين منظراً عجيباً لطيفاً وليس لها مرفأ فى الحقيقة ولا يمكن للسفن أن ترسوا عليها ألا وقت سكون البحر وأحسن مكان تحتمى به السفن من أهوية الشتاء هناك خليج صغير بجوارها يعرف بخليج سيدى يحيى وقد ازداد عدد سكانها وتحسنت حالتها جداً من وقت أن صارت مركز قسم أدارى ومن وقت أن نزلها المستعمرون من الأوروبيين وكان فى موضع هذه المدينة قديماً مدينة رومانية آثارها باقية للآن وقد استولى عليها الوندال فى القرن الخامس من الميلاد ثم استولى عليها العرب سنة ٧٠٨ م وبعد ذلك ضعف شأنها جداً حتى تنوسى اسمها القديم ثم تسمت باسم قبيلة بربرية يقال لها بجاية قال ابن خلدون فى سنة ٤٦٠ من الهجرة استولى الناصر من بنى زيرى على الجبل وشيد به مدينة سماها الناصرية ألا أن الناس كانوا يسمونها بجايه باسم القبيلة وذكر البكرى أيضاً فى كتابة هذه الحادثة وقال أن مرسى بجايه مدينة أزلية فما سماه ابن خلدون تأسيساً لم يكن ألا أصلاحا وتحسيناً فقط قام به الناصر المذكور وذكرها الأدريسى أيضاً فقال أنها بلدة غنية مترقية فى التجارة وأنها محط المتاجر بين شمال أفريقيه وبلاد النصارى وذكرها ليون الأفريقى بما يشبه ذلك أيضاً وقال عن سكانها أنهم قد غرقوا فى بحار الشهوات والملاذ حتى أنه لم يمكنهم أن يدفعوا عنهم تسلط أمير بلاد نافار وقد بقيت هذه المدينة فى قبضة الأسبانيين حتى انتزعها منهم داى الجزائر

سنة ١٥٥٥ م ثم انحط أمرها بعد ذلك جداً وشيد الفرنسويون الآن بجوارها مدينة جديدة ترقت بسرعة ويقدرون سكان هـذه المدينة بنحو (١٦٫٥٠٠ نفس) منهم نحو خمسة آلاف من الأوربيين ويصب بجوارها وادى الساحل ونزل تجار الأفرنج هـذه المدينة من قديم الزمان لجودة موقعها التجارى ولما يرد عليها من الحاصلات المختلفة من الجهات الداخلية لهذا كان للفرنسويين بها قبل استيلائهم على بلاد الجزائر شحنة (قنصل) ينظر فى شؤونهم وربما كانت هذه المدينة الآن أكثر الثغور البحرية ببلاد الجزائر متاجر مختلفة قال فى معجم البلدان « بِجايه بالكسر وتخفيف الجيم مدينة على ساحل البحر بين أفريقيه والمغرب كان أول من اختطها الناصر بن عِلنّاس بن حماد بن زيرى بن مناد ابن بُلُكّين فى حدود سنة ٤٥٧ بينها وبين جزيرة بنى مزغناى أربعة أيام كانت قديما ميناء فقط ثم بنيت المدينة وهى فى لحف جبل شاهق وفى قبليها جبال كانت قاعدة ملك بنى حماد وتسمى الناصرية أيضاً باسم بانيها وهى مفترقة ألى جميع البـلاد لا يخصها من المنافع شيء أنما هى دار مملـكة تركب منها السفن وتسافر ألى جميع الجهات وبينها وبين حيلة ثلاثة أيام» اهـ ثم ذكر بعد ذلك السبب في بنائها مما لم نر فائدة من ذكره

سِتيف ـ هى مدينة واقعة ألى الجنوب والغرب من قسطنطينه لا تزال ألى الآن راقية كما كانت فى عهد الرومان وبها من السكان نحو (٢١٫٧٠٠ نفس) أكثر من نصفهم من الأهالى وهى مركز فرقة من الجنود الفرنسوية ويقوم

بها كل أسبوع سوق يتردد عليه الآف من الأهالى وهى جميلة منتظمة نظيفة الطرق والمبانى وتجارتها واسعة فى الحبوب والثيران والخيل والضأن والأصواف والجلود والأقمشة والبسط العربية ويسقط الثلج فيها شتاء فى غالب السنين وكان يخرج منها فى زمن الرومان عدة طرق كبيرة تذهب نحو المدن الشهيرة ببلاد نوميديا ولما قسم الرومان هذه البلاد ألى أقليمين كانت سيتيفيس أى ستيف هذه عاصمة الاقليم الشرقى وذكر البكرى هذه المدينة وقال أنها كبيرة ذات أهمية كثيرة السكان راقية

الجزائر ـ هى عاصمة بلاد الجزائر وقد أصبحت الآن بين مدن أفريقية الشمالية بعد القاهرة والأسكندرية فى الأهمية وهى فى منتصف ساحل بلاد الجزائر على بعد متساو تقريباً بين مراكش وتونس ومشيدة على الجهة الغربية من خليج عريض مضاف أليها بينها وبين مدينة مرسيليا نحو ثمانمائة كيلومتر وهى تشغل لحف وجوانب أكمة مائلة جداً وعرة تتصل بالجبل فكأنها قلعة فى وضعها وقد كانت لقرصان البحر أمنع ميناء بحيث لم يكونوا يخافون ألا من أطلاق المدافع عليهم من جهة البحر وكانت فى زمن الرومان تدعى ايكوسيوم (Icosium) وسوقاً تجاريا فى الدرجة الثانية وتابعة فى الأدارة لمدينة سيزاريا (شرشيل) التى كانت اذ ذاك مركزا تجارياً لقبائل البربر النازلين بالداخل وفى القرن العاشر من الميلاد أقامها وحصنها بُلُكِّين بن مناد بن زيري الصنهاجى وكان عاملا للفواطم على المغرب الأوسط وسماها بالجزائر من أسم جزائر صخرية

كانت تمتد أمامها على طول الساحل تعرف بجزائر بنى مَزْغَنّة أو مزغناى ثم أن قرصان الأتراك اتخذوا الجزائر المذكورة رصيفاً للميناء الذى شيدوه اذ ذاك وليست مدينة الجزائر الحالية هى تلك المدينة القديمة ذات الطرق الضيقة المتعرجة المائلة غير الممهدة وتلك الأسواق المسقوفة القليلة الهوآء والنور وبالأختصار ليست هى تلك المدينة الشرقية التى ذكرها سياحو الأفرنج بل أنها الآن مدينة تغير فيها كل شيء تقريباً بنظام وترتيب حسن وقامت بجوار المدينة القديمة مدينة جديدة كبيرة أوربية ذات شوارع واسعة ومبان جميلة ضخمة يقوم على جوانبها عقود وحنايا لجلب الظل والهوآء وقد تنازع مدينة الجزائر أمرآء العرب وقواد أسبانيا ألى أن استولى عليها الأتراك العثمانيون سنة ٩٤٥ﻫ (١٥٤٨م) على يد خير الدين بارباروس مدة السلطان سليم الأول ومن ذلك الوقت صار يحكمها عمال من الأتراك حتى سنة ١٨٣٠ واشتهر كثيرون منهم بالقسوة والشدة لا فى حق رعيتهم فقط بل فى حق من كان يقع فى أيديهم من أهل أوربا وكانت همة هؤلاء الولاة منصرفة على الخصوص ألى تحصينها وأقامة المبانى الأميرية بها ولهذا لم يكن بها ألا القليل من المبانى الأهلية المهمة لأنها قبل الفتح العثمانى لم تكن تعد من المدن أصلا ولما قدم عليها الفرنسويون كانت تتألف من قسم مرتفع هو القصبة ومن قلعة لم يمكنها المقاومة بعد أن استولى الفرنسويون على مرتفعات الساحل فدخلها الفرنسويون بسهولة وكان أول عمل عملوه بعد الأستيلاء تمهيد المنحدرات التى بين تلك القلعة والقصبة وفتح

الطرق والشوارع وأقامة المبانى المختلفة بعد أن هدموا عدة مبان تركية من أهمها سجن كبير ثم أنشأوا بجوار هذه المدينة مدينة أخرى جميلة تدعى مصطفى على طرف الساحل وأوصلوا المدينتين ببعضهما بعد أن أزالوا ما بينهما من الأستحكامات القديمة بحيث أصبحت مصطفى المذكورة كأنها من أخطاط الجزآئر وأخذوا بعد ذلك فى أصلاح الميناء أصلاحا كبيراً لتكون من أهم المدن البحرية التجارية ومنظر المدينة من البحر جميل جداً فهي تنبسط من رأس الجبل على شكل مدرج حتى تصل ألى الساحل ويجرى فى أهم شوارعها ترام كهربائى ويقدرون سكانها بنحو (١٥٤٫٠٠٠ نفس) منهم نحو ١١٢٫٠٠٠ من الأوربا ويين ومن هؤلآء نحو ٥٠٫٠٠٠ من الفرنسويون و١٢٫٠٠٠ من اليهود وبها عدة بيوت تجارية فرنسوية مهمة ولجودة هوآئها يقصدها شتاء كثير من الناس وهى فى التجارة أوسع منها فى الصناعة وبها عدة مدارس مختلفة وجمعيات علمية وبستان للنباتات وترسوا عليها سفن كثيرة لأخذ الفحم والمآء العذب والمأكولات وبكل ذلك أصبحت تعد من كبريات المدن الفرنسوية وضواحيها كثيرة الغابات والمياه الجارية والاودية الخصبة الكثيرة السكان والقرى والمناظر اللطيفة وقد نجح فيها الاستعمار الزراعى الفرنسوى نجاحا عظيما قال فى صفوة الأعتبار «وفى هاته السنة (١٢٩٥) أيضاً مررت فى الأياب على مدينة الجزآئر قاعدة هذا القطر وهي لها مرسى على نحو ما تقدم فى عنابه والبلد أكبر من السابقة ومنظرها من جهة المرسى

أبهج وأضخم وقد أنشئ بها طريق للترامواى يخترق البلد من جهة المرسى ويذهب ألى قرية تسمى مصطفى جهة الشرق من الجزائر وأبنية البلاد على نحوماذكر فى عابه وهى أيضاً متصاعدة فى جبل وليس بها عيون غزيرة بل المآء له خزانة فى الجبل تجتمع فيها مياه الأمطار من جهات الجبل ولذلك كانت الطرق الواسعة فى الصيف محتاجة ألي الرش لقلة ماترش به وبهاأربعة جوامع للخطب أثنان مالكيان وأثنان حنفيان والجوامع نظيفة مستقيمة وبقية ما كان بهامن الجوامع هدمت وبدلات وبهاحصون متينة وهاته البلد هى مقر الحاكم العام لقطر الجزآئر ومنظر البلد من جهة البحر جميل لكثرة الديار والبساتين والجبل منحوت به درج يصعد فيها من أسفل البلد ألى أعلى الجبل كما أنه به طرق صناعية قليلة الانحدار يصعد بها فى العجلات ألى قمته وأمام دار الحاكم بطحآء صغيرة منظمة والدار من نوع أبنية الأهالى قديماً وأمامها محل لطائفة من الجند حرساً وفى خارج البلد وداخلها مقامات للأوليآء والعلمآء محترمة منها مقام سيدى عبد الرحمن الثعالبي رضى الله عنه خارج البلد فى الجبل فى مكان منشرح نزه ولضريح الشيخ مهابة ووقار قلبي وحوانيت البلاد على نحو ماذكرنا فى تونس وبساتينها تسقى بآبار عليها دواليب وأغلب القصد منها الأنتفاع بالغلال وأكثرذوى اليسار يسكنون فى بساتينهم فى الصيف وتنور البلد ليلا فوانيس الغاز وبخارجها بستان أنتزاه عمومى قليل الجدوى وبقربه سبيل قديم لازال قائماً وحذوه قهوة على النحوالعربى لكنها

قنرة ينتابها بعض الناس ومنازل المسافرين بالبلد جيدة على النحو الأورباوى» اه

قال فى معجم البلدان «الجزائر جمع جزيرة أسم علم لمدينة على ضفة البحر بين أفريقيه والمغرب بينها وبين بجايه أربعة أيام كانت من حواضر بنى حماد بن زيرى بن مناد الصنهاجى وتعرف بجزائر بنى مزغنّاى وربما قيل لها جزيرة بنى مزغناى قال أبو عبيد البكرى جزائر بنى مزغناى مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأول عجيبة وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار ملك لسالف الأمم وصحن الملعب الذى فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور حيوانات بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولها أسواق ومسجد جامع مرساها مأمون له عين عذبة يقصد أليها أصحاب السفن من أفريقيه والاندلس وغيرهما » اه

البُلَيده ـ مدينة على نحو ٥٨ كيلومتراً ألى الجنوب والغرب من مدينة الجزائر وعلى ١٨٥ متر من سطح البحر وهى فى لحف المراقى الأولى من سلسلة جبال أطلس وأراضيها مشهورة بجمالها وكثرة حاصلاتها وجودة هوائها وغزارة مياهها وحولها بساتين ومزارع كثيرة يزرع بها البرتقال والليمون والتوت والتين والعناب وغيرها ويرويها نهير يسمى وادى سيدى الكبير أو الوادى الكبير ينبع على نحو فرسخ منها ومياهه لذيذة الطعم صافية جداً ولسرعة انحداره يدير عدة مطاحن كبيرة وللمدينة سور يقيها هجمات العرب به عدة أبواب وقد خربت الزلازل هذه المدينة بحيث جعلت عاليها سافلها سنة ١٨٤٥ وكان أستيلاء

الفرنسويين عليها سنة ١٨٣٨ ثم شيد الفرنسويون فى ضواحيها قريتين جميلتين وقد نجح الأستعمار الفرنسوى هناك بسرعة ويقدرون سكانها بنحو (٣٣٠٠٠ نفس) منهم نحو ٩٠٠٠ من الأوروبيين وبين سكانها قوم تناسلوا من مسلمى أسبانيا الذين أخرجوا منها فيما سبق وأهم تجارتها البرتقال

مُستغانِم ـ مدينة على نحو ٧٢ كيلومتراً ألى الشمال والشرق من وهران وعلى نحو عشرة كيلومترات ألى الجنوب والغرب من مصب شِلف وعلى نحو كيلومتر واحد من ساحل البحر ولها تجارة فى الحبوب والأصواف والجلود والتين والزبيب المشهور وبها معامل للأوانى الفخارية ودبغ الجلود ومطاحن كثيرة وبالقرب منها معدن للرصاص ويقطع النجد الواقعة عليه مستغانم جدولٌ يعرف بالعين الصفراء يدير عدة أرحا وفى غور العين الصفراء المذكورة بساتين كثيرة ومعامل عديدة وهذا الجدول يفصل مستغانم الحقيقية عن ضاحيتها المسماة بالمطمورة حيث تقيم الحامية الفرنسوية وحول مستغانم سور يقيها هجمات الأعراب به خمسة أبواب والمدينة كلها مشيدة على الطرز الأوربى وقد زالت الآن كل مبانيها القديمة وميناؤها لا يصلح لرسو السفن فى قسم من السنة وجهات مستغانم معتدلة المناخ جداً قليلة الأمطار وافرة الخصوبة والبساتين والكروم وهى من أصح بلاد الجزائر هواء وقد نجح فيها الاستعمار الفرنسوى نجاحاً لا يعادله نجاح بكل ارجاء بلاد الجزائر الأخرى ويقولون أن اسمها آت من لغة البربر وأصله ميشتاك أغانِم ومعناه كوخ القصب وكانت

هذه المدينة مدة العرب والبربر والأتراك كبيرة الأهمية ونزل بها كثير من مغاربة الأندلس ثم أتابتها الويلات فحطت من شأنها كثيراً وكان أستيلاء الفرنسويين عليها فى سنة ١٨٣٣ ويقدرون سكانها بنحو (٢٢٠٠٠ نفس) نصفهم من الأورباويين تقريباً

وَهْران ـ مدينة بحرية من بلاد الجزائر غرباً وقاعدة العمالة المضافة أليها وألى الجنوب والغرب من مدينة الجزائر بينهما نحو ٣٥٥ كيلومتر وبينها وبين قسطنطينه ٦٦٦ كيلومتر وهى على خليج مضاف أليها وأليها ينتهى الطريق الحديدى الآتى من مدينة الجزائر ويقدرون سكانها بأكثر من (١٠٠٠٠٠ نفس) نحو ربعهم من الأهالى الوطنيين أما الأوربيون منهم فاغلبهم من الأسبانيين وهم يسكنون المدينة القديمة على الخصوص وقد احتكروا بجدهم ونشاطهم عدة صنائع وأعمال ويسمون أنفسهم جزائريين ويهاجر من أسبانيا سنوياً عدد كبير ينزل جهات وهران وبعضهم يقيم بها نهائياً لازدياد الصنائع في وهران هذا وقد أصبح المسلمون من سكانها قلائل جداً ولا تصلح هذه المدينة لأن تكون الثغر البحرى المتوسط الغربى فى شمال أفريقيه لأن البلدة المعروفة بالمرسى الكبير الواقعة على نحو تسعة كيلومترات ألى الشمال والغرب منها أصلح من وهران للتجارة البحرية وقد جرت بين الأهالي والأجانب عدة حروب للأستيلاء على المدينتين المذكورتين وفى سنة ١٥٠٩ م أستولى الأسبانيون على وهران وبقيت فى

يدهم حتى سنة ١٧٠٨ وبعد ذلك احتلوها مرتين أخريين بحجة منع التلصص من بحر الروم وبقيت فى يدهم حتى سنة ١٧٩٢ ولم يعملوا شيئا لرقيها التجارى بل كانت مدة حكمهم عبارة عن ثكنة عسكرية ومنفى لمن يغضب عليهم ملك اسبانيا من حاشيته ثم حاصرتها القبائل حصاراً شديداً الى أن حدثت بها زلزلة سنة ١٧٩٠ وبعد ذلك أخلاها الأسبانيون لأنها كانت تكلفهم أموالاً وافرة فتركوها مرغمين لأن والى مدينة مَسكَرَه انتهز فرصة حدوث تلك الزلزلة وكانت من أشهر ما وقع منها فى أفريقيه الفرنسوية وحاصرها ذلك الحصار الشديد حتى أخلاها الأسبانيون وكانت وهران القديمة عبارة عن قلعة ومدينة متعرجة الطرق متصاعدة فى الجبل ثم جمع الفرنسويون بين قسمى المدينة الآن وكان يفصلهما من قبل وادأما المرسى الكبير فأصبح الآن قرية للصيادين ومرفأ لرسو سفن البترول على الخصوص ومحطاً لسفن التوريد وبوهران مدارس ومعاهد علمية وصناعية وبالقرب منها مكان يعرف بأبى صفر أو سهل الأندلسيين كان نزل به أول من هاجر من مسلمى أسبانيا وقد صارت هذه المدينة الآن أكبر مما كانت عليه قبلاً بخمس مرات وزاد عدد سكانها أيضاً نحو عشرين مرة كل ذلك بعد أستيلاء الفرنسويين عليها وشيدت حولها عدة ضاحيات بسبب حركتها التجارية لأنه يرد أليها قسم كبير من حاصلات عمالتها ولأنها ستكون فيما يأتى من الأيام مورد قسم عظيم من تجارة مراكش وبلاد السودان أيضاً لأنها أقرب بكثير ألى

تمبكتو ونهر النيجر من مدينة الجزائر وفليبفيل وعنابه وتونس ولهذا شيد الفرنسويون بها ميناء صالحة حتى لم يعد يبق للمرسى الكبير أهمية وهو ذلك المرسى الذى كانت تلجأ أليه السفن وقت هياج البحر ومن صادرات هذه المدينة الحلفاء والمعادن والحبوب ويمكن للسفن مهما كانت كبيرة أن ترسوا عليها وأكبر مزية لميناء وهران قربها من أسبانيا فالمسافة بينهما نحو ثمان ساعات فقط وفى القرن العاشر من الميلاد كان الأسبانيون وأهل جنوه يترددون عليها كثيراً وقد أشتغل سكانها بالتلصص فى البحر مثل سكان سواحل بلاد البربر ثم أزدادوا فى التلصص جداً عقب أخراج المسلمين من أسبانيا أى فى نهاية القرن الخامس عشر من الميلاد ويعلم من التاريخ ما بذلته أسبانيا من المساعى للقضاء على هذا التلصص الذى لاشى التجارة وخرب سواحل بحر الروم الغربية قال فى معجم البلدان «وهران مدينة على البر الأعظم من المغرب بينها وبين تلمسان سرى ليله وهى مدينة صغيرة على ضفة البحر وأكثر أهلها تجار لا يعد وتفعهم أنفسهم ومنها ألى تنس ثمان مراحل قال أبو عبيد البكرى وهران مدينة حصينة ذات مياه سائحة وأرحاء ولها مسجد جامع وبنى مدينة وهران محمد بن أبى عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين الذين ينتجعون مرسى وهران بأتفاق منهم مع نفزه وبنى مسقن وهم من أزداجه سنة ٢٩٠ فاستوطنوها سبعة أعوام وفى سنة ٢٩٨ زحف أليها قبائل كثيرة يطالبون أهلها بأسلام بنى مسقن فخرجوا ليلاً

هاربين وأستجاروا بأزداجه وتغلبوا على مدينة وهران وخربت مدينةوهران وأحترقت ناراً ثم عاد أهل وهران أليها بعد سنة ٢٩٨ وابتدوًا فى بنائهاوعادت أحسن مما كانت ولم تزل فى عمارة وكمال وزيادة ألى أن احترقت ثانيةوخربت وبعد سنين تراجع الناس أليها وبنيت » اه

تَمسكَره ـ مدينة على نحو ٩٦ كيلومتراً ألى الجنوب والشرق من وهران بها من السكان نحو(٢٢و٥٠٠ نسمة) منهم نحوعشرة آلاف من الأوربيين وهى فى سفح جبال بلاد التل وعلى ارتفاع نحو ستمائة متر من سطح البحر وقد اتخذها المرحوم السيد عبد القادر الجزائرى المشهور عاصمة لأمارته ولا تزال داره بها للآن وكان استيلاء الفرنسويين عليها نهائياً سنة ١٨٤١ ثم جددوا بناءها وجعلوه على الطرز الأوروبى حتى لم يبق من هيئتها القديمة شيء وهى واسعة التجارة وأراضيها واسعةمنبسطةأصلحها الفرنسويون ومن مزروعاتها الحبوب والكرم والمدينة مبنية على ثنتين يفصلهما وادومقسومة ألى خمس محلات يحيط بها كلها سور له خمسة أبواب وبها ثلاثة جوامع أصبح أحدها كنيسة وثانيها هرياً ومبانيها العمومية الأخرى لا أهمية لها وليست لدينا روايات عن أصل هذه المدينة وذكرها كل من ابن حوقل والأدريسى وقالا عنها أنها بلدة كبيرة فقط وفى نهاية القرن الخامس عشر من الميلاد أى فى حياة ليون الأفريقى صارت مسكره من المدن المهمة لأن قبيلة تعرف ببنى راشد أتخذتها حاضرة لها ولا تزال أعقاب بنى راشد بها للآن وفى أواخر القرن الثامن عشر من

الميلاد أيضاً جعلها الأتراك قاعدة قسم أدارى وبقيت على ذلك حتى سنة ١٧٩٢ وهى السنة التى انتقل فيها عاملها ألى مدينة وهران حينما خرج منها الأسبانيون ولا يزال عرب الجزائر الآن يعتبرونها العاصمة الطبيعية لبلاد الجزائر ويقول بعضهم أن أسمها محرف من كلمة أم العسكر

تِلِمْسان ـ مدينة بعمالة وهران على نحو ١٠٦ كيلومترات ألى الجنوب والغرب من وهران وبينها وبين حدود الجزآئر نحو ٤٢ كيلومتراً وتبعد عن بحر الروم بنحو ٤٦ كيلومتراً ويبلغ أرتفاعها عن سطح البحر ٨٤٠ متراً وهى فوق نجد يطل على وادى صفصف وهو نهير يصب فى نهر يسمى تفنا ويقدرون سكانها بنحو (٣٩٧٠٠ نسمة) منهم نحو ٢٥٠٠٠ من الأهالى الوطنيين وموقعها من أحسن المواقع وبسبب أرتفاعها كان مناخها كمناخ أوروبا ويكثر ببساتينها التين والعناب والعنب والخوخ والكريز واللوز وثمار أخرى وينبت فى سهلها حبوب كثيرة وهى وأن كانت أحدى المدن الراقية الزاهرة الكثيرة السكان بكل بلاد المغرب ألا أنها كانت وقت أستيلآء الفرنسويين عليها ككل مدن المشرق من ضيق طرقها وتعرجها وقلة تهويتها وغير ذلك مما لا يصح أن يوجد الآن فى المدن الحديثة وكانت وقت الفتح الفرنسوى تنقسم ألى ثلاثة أقسام أصلية هى حى القول أوغليه وكان به المشور وحى الوسط وبه يسكن اليهود وحى الحضر وقد أقام بها الفرنسويون الآن شوارع واسعة

منتظمة ومبانى جميلة مختلفة وكان لها قديماً ثلاثة أبواب كبيرة تفتح على أغوار عميقة مثل كثير من مدن المغرب مما يجعل الهجوم عليها صعب جداً ولم يكن يمكن الوصول أليها ألا من الجنوب الغربى حيث يتصل سهلها بالجبال المجاورة لها ويظهر من استحكاماتها وحصونها العربية للمتأمل طريقة التحصين التى كان يعرفها الناس قبل استعمال المدافع وللمدينة الآن سبعة أبواب بناها كلها الفرنسويون وهى لا تعد من الآثار فى شيء وليس بهذه المدينة من المبانى ما يستحق الذكر ألا بعض ما بقى من زمن المرابطين والموحدين وبنى مرين وكان بها فى سنة ١٨٤٦ م واحد وستون جامعاً تهدم أغلبها الآن ولجامعها الكبير منارة أرتفاعها خمسة وثلاثون متراً وأعمدته من الرخام وقد بنى هذا الجامع فى سنة ١١٣٦ م وبها جامع آخر يسمى بجامع أبى الحسن وهو من الآثار النفيسة جداً لما اشتمل عليه من الداخل من النقوش البديعة والأشكال الغريبة مما يجعله يعد من نفيس الصناعة العربية ألا أن منظره من الخارج لا قيمة له وكان تمام بنائه فى سنة ١٣٠٠ م واتخذه الفرنسويون الآن مدرسة وهناك جامع آخر منارته مغطاة بالقاشانى الملون يعرف بجامع ولد الأمام وبه مدرسة أسلامية وكان بناؤه فى سنة ١٣١٠ م ومنها جامع آخر خارج السور بنى سنة ١٣٣٣ يعرف بجامع سيدى الحلوى وهو مغطى بالقاشانى اللامع الأخضر وله ثمانية عمد بديعة من الرخام الشفاف الذى يشبه العقيق ذات تيجان جميلة أفرغت فيها الصناعة العربية كل قوتها من الظرف والحسن مما يجعلها مثالا للزخرفة

العربية ومنارته مربعة الشكل فى جوانبها الأربع بيوت لها قبوات بديعة مغطاة كلها بالقاشانى مما يزيد فى حسنها أما المشور الذى سبق الكلام عليه فهو قصر واسع جسيم بناه الموحدون وأتمه من بعدهم بنو مرين وكان له جامع بنى فى أوائل القرن الرابع عشر من الميلاد لم يبق منه غير منارته وقد بنى الفرنسويون الآن فى المشور المذكور مبانى عسكرية وثكنات وجبخانات ومستشفى وهو بناء مستقيم الزوايا طوله ٤٦٠ متراً وعرضه ٢٨٠ متراً هذا وينحصر جمال هذه المدينة على الخصوص فى غزارة مائها واعتدال هوآء ضواحيها وفى كل ارجائها ومحلاتها جداول ونافورات وسواق يمدها أودية وترعة تأتى أليها من نهر المآء المفروش وبجانب سورها ألى الغرب مسناة تعرف بالصهريج طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ١٥٠ متراً وعمقه ثلاثة أمتار تم بناؤه سنة ١٣٣٧ م فى مدة يوسف بن تاشفين ولا يعلم قصده من بناء هذا الماجل وهو مطلى من الداخل بملاط أوغافق يزيد سمكه عن متر واحد ومع ذلك فالمآء يسيل منه من ثقب غير مشاهد وقد وجد الفرنسويون فى أرض تلمسان كثيراً من العاديات مما يدل على عظمتها القديمة حفظوها كلها فى متحف هنالك وهى عبارة عن تماثيل وقطع من المبانى ونقود وكتابات وأحجار مقابر من عصر الرومان وغيرهم وبضواحى تلمسان أراضى زراعية واسعة يزرع بها زيتون وخضراوات كثيرة وتبغ مرغوب فيه جداً وبساتين مختلفة يتولى أمر كل ذلك الأوربيون والأهالى على السوآء وتقوم بالمدينة يومياً أسواق

تباع بها الماشية والأصواف والحبوب والثمار وتنحصر الصناعة الأهلية في تلمسان في عمل المنسوجات الصوفية والدباغة وطحن الحبوب واستخراج الزيوت وعمل المراكيب وسروج الخيل وخشب البنادق وأهم مايشتغل به الأوروبيون من الصناعة طحن الحنطة واستخراج الزيت وغرس الكروم ومع ذلك فالفرق جسيم بين حالتها التجارية الحالية وبينها حينما كانت قاعدة المغرب الأوسط لأنها كانت أذ ذاك أكبر المراكز التجارية وأعظمها الوصول المتاجر الاجنبية أليها وكان القسم الشمالى منها خاصاً بالتجارة وكان مقسوماً ألى أقسام بكل قسم صناعة ومصنوعات ولم يبق من قيساريتها القديمة الشهيرة ألا ثكنة يقيم بها جنود السپاهى وكان التجار من أهل جنوه وبيشه وكتلان وپروفنسه يأتون أليها بمصنوعاتهم للأتجار مع أهاليها وكان لأهل أوربا أذ ذاك بها قناصل ومبان وأعمال مما تسمح به المعاهدات التى عقدت بينها وبينهم وقد أخذت أهميتها التجارية تزداد الآن لارتباطها مع المدن الكبيرة الأخرى ببلاد الجزائر بالطرق الحديدية وغيرها من طرق المواصلات ولجمال مواقع هذه المدينة واختلاف مناظرها وغزارة مياهها ووفرة نباتاتها وبما لها أيضا من الأهمية التاريخية كانت ضواحيها جديرة بالذكر قال أحد الرهبان من الأوربيين وكان زارها قديماً أن تلمسان تتركب من مدينتين منفصلتين بينهما رمية حجر حول كل منهما سور وتسمى أقدمهما أقادير وهى المعروفة لدى الرومان باسم پوماريا وتسمى الأخرى أى تلمسان الجديدة تاغرت اهـ وبضواحى

تلمسان كثير من مقابر الصلحاء والعلماء والأولياء يتبرك الناس بزيارتها وكلها من الأماكن الجديرة بالزيارة لما اشتملت عليه من بديع الصنائع العربية وجميل النقوش الشرقية ومن هذه المبانى مدرسة كان من مدرسيها عبد الرحمن بن خلدون مؤلف تاريخ البربر المشهور قال فى معجم البلدان « تلمسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة وبعضهم يقول تنمسان بالنون عوض اللام بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر أحداهما قديمة والأخرى حديثة والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب وأسمها تافرزت يسكن فيها الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس وأسم القديمة أقادير يسكنها الرعية فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر ويكون بتلمسان الخيل الراشدية لها فضل على سائر الخيل وتتخذ النساء بها من الصوف أنواعاً من الكنابيش لا توجد فى غيرها ومنها ألى وهران مرحلة ويزعم بعضهم انه البلد الذى أقام به الخضر عليه السلام الجدار المذكور فى القرآن سمعته ممن رأى هذه المدينة » اه

بِسكره ـ مدينة من عمالة قسنطينه واقعة ألى الجنوب والغرب من قسنطينه بينهما نحو ٢٣٣ كيلومتر على السند الجنوبى من جبل أراس وعلى نهير مضاف أليها بها من السكان نحو (٩٠٠٠ نفس) بعضهم من الأوربيين والوصول أليها أسهل منه لكل الواحات الأخرى التى ببلاد الجزائر لهذا اتخذها الفرنسيون مشتى لهم وبها فنادق عظيمة ومنتزهات جميلة وبيوت أهاليها

من الطين يبيضونها بالجير ويزرع بضواحيها النخيل والزيتون والحنطة والشعير وأقبال أهاليها على كل ما يرقى الزراعة أمره مشهور ويذهب كثيرون منهم لمدن الساحل للاسترزاق وبالقرب منها قرية مشهورة للغاية لاشتمالها على قبر عقبه بن نافع فاتح أفريقيه ومؤسس القيروان رضى الله عنه ومن أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم يعظمه الأهالى جداً ويتبركون به وقتل هناك سنة ٦٢ من الهجرة قتله البربر عند عودته من المغرب الأقصى وكان فى نفر قليل من أصحابه كما هو معلوم وقد صارت بسكره الآن من المدن الجميلة واتسعت تجارتها بكل واحات بنى زيان وكانت حاضرة لهم وأليهـا ينتهى الطريق الحديدى الآتى من جهات التل وتمتد منها طرق للقوافل تذهب جنوباً نحو ورقله وصحراء التوارك وبضواحيها منابع حارة المياه ينتفع بها من يقصدها وكانت هذه المدينة فيما سبق عظيمة جداً حتى يقولون أن الطاعون الذى ظهر بها سنة ١٦٦٣ م أمات من أهلها أكثر من سبعين ألف نفس وبذلك وصفها البكرى وقال أنها تسمى أيضاً بسكرة النخيل قال فى معجم البلدان «بسكره بكسر الكاف وراء بلدة بالمغرب من نواحى الزاب بينها وبين قلعة بنى حماد مرحلتان فيها نخل وشجر وقَسْبٌ جيد بينها وبين طُبْنَةَ مرحلة كذا ضبطها الحازمىّ وغيره يقول بسكره بفتح أوله وكافه قال وهى مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات وأهلها علماء على مذهب أهل المدينة وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل وتعرف ببسكرة النخيل » اه

توغرت ـ مدينة بعمالة قسنطينه بينها وبين قسنطينه نحو ٣٦٠ كيلومتر وهى ألى الجنوب والشرق من بسكره فى وادى رير وهى حاضرته بها من السكان نحو(٦٠٠٠ نفس) بين سود وبربروعرب ومن تناسل منهم ويهود أسلموا يعرفون بالمهاجرين بيض الألوان وتقاطيع وجوههم تشبه اليهود وهم لا يتزوجون من غيرهم وكان سبب أسلامهم التخلص من ظلم سلاطين توغرت وتوغرت مدينة صناعية زراعية من مصنوعاتها المنسوجات الصوفية والجلود والأسلحة والحلى ويستدل على عظمتها القديمة بكثرة مساجدها وجميل دورها ومتانتها وهى عند تفرع خطين من الماء من أهم ما يوجد منها بالصحراء للزراعة والتجارة والاستيلاء على الصحراء الكبرى وللمواصلات بين بلاد التل والسودان وكل ذلك مما يصيرها ذات أهمية تجارية ومستقبل زاهر محقق ويلقبها الأهالى ببطن الصحراء وحولها سور تعلوه ابراج ولها ثلاثة أبواب وهواؤها جيد رغماً عن حرارته التى تبلغ خمسين درجة بالمقياس المئينى فى الظل صيفاً والبرد يشتد بها شتاء وألى الغرب منها أراض عالية تحميها من زحف الرمال المتحركة عليها وأغلب دورها مبنى من الطوب المجفف فى الشمس ألا بعض دور الأغنياء والأعيان منهم وبها نحو عشرين مسجداً ليس بها كلها من صناعة البناء ما يستحق الذكر والتجارة بها مترقية بخلاف الصناعة ويكثر النخيل بواحتها ويشرب أهاليها من ابار بعيدة القاع جداً يبلغ متوسط عمقها نحو خمسين متراً وفى النية توصيلها بطريق حديدى مع

بسكره ويخرج من هذه المدينة طريق للقوافل يمر بواحة ورقله أو ورجله وهى واحة تكثر بها أشجار النخيل جداً وتعرف كورتها أيضاً بكورة ورجلان قال فى معجم البلدان « وَرْجَلان كورة بين أفريقيه وبلاد الجريد ضاربة فى البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانه وأسم مدينة هذه الكورة فَجُوهَه » اهثم يمتد ذلك الطريق ألى واحة تعرف بالجوليا حيث يأتى طريق آخر يخرج من النقطة العسكرية المسماة أغواط ثم يذهب ألى جرديه وجرديه من أهم مدن بلاد الزاب ومن الجوليا المذكورة تخرج طرق ألى الواحات الكبرى التى بالصحراء وهى غوراره وتوات وتديكلت وقد استولت فرنسا عليها كلها حديثاً

تونس

سكانها ـ يبلاد تونس من السكان نحو ٠٠ و١٩٢٦و١ نسمة يشغلون من الأرض ما يبلغ مسطحه ٠٠ ٤ و١٦٧ من الكيلومترات المربعة ولو قارنا بين عدد السكان والمسطح لوجدنا عدد السكان قليلاً وذلك لأن المسكون حقيقة من جهاتها هى الساحل الشمالى والشرقى حتى سفاقس ثم بعض الجبال والأودية الداخلية وما عدا ذلك صحرآء (غير الواحات) لهذا يتساءل الناس عن سبب قلة سكان تونس قال الذين أجابوا على ذلك أن سببها الحروب والاغارات وويلات الأزمنة الغابرة ثم معيشة السكان وعدم أحتياطهم الصحى فأن أقل وباء أو ما يكون فى غير هذه البلاد وباء صغيرا كالجدرى والخانوق والتيفوئيد

يموت به من أهاليها عدد عظيم خصوصاً المسلمين منهم بينما لا يموت به ألا القليل من الأوروبيين واليهود كما ثبت من الأحصاآت التي عملها من عنى بهذا الأمر ولو أخرجنا الأوربيين واليهود من بين السكان لما كان بين الأهالى التونسيين الحقيقيين وحدة ألا فى الظاهر لاستعمالهم جميعاً اللغة العربية التي يعرفها كذلك كل الذين يتكلمون البربرية وبسبب تدينهم أيضاً كلهم بالدين الأسلامى وقد امتزج الجنس الأصلى القديم الذى كان يسكن هذه البلاد بغيره امتزاجاً عظيماً وهناك دماء مختلطة أختلاطاً تاماً يستدل على أهلها بما تركوه من المبانى ومن هؤلاء الأمم اللوبيون والنوميديون والجيتول والجرامنت والفينيقيون والقرطاجنيون ثم المجمكون من الجند الذين كانت تستخدمهم قرطاجنه وكالرومانيين والتليانيين بين مستعمرين وجنود وهم من كل أقسام الدولة الرومانية وكالوندال والبوزنطيين والعرب الذين بقيت لغتهم لغة السيادة والحكم حتى الأستيلاء الفرنسوى وكالقرصان والأسرى الذين هم من كل سواحل بحر الروم من أسبانيا وآسيا الصغرى والشام والترك والأنكشارية والأسبانيين الذين فتحوا هذه البلاد وقتاً وكالتليانيين لقرب بلادهم من تونس والسود الذين كان يجلبهم النخاسون فى جميع الأزمنة هذا ومن المحقق أن العنصر السائد بين كل هـذه العناصر المذكورة ليس هو العنصر العربى رغماً عما يظهر من سيادة لغته ودينه وأخلاقه وعوائده وملابسه وأفكاره الأجتماعية وغيرها بل السيادة للأمة القديمة

التي وجدها هنالك الفينيقيون وأهل قرطاجنه والرومان من بعدهم ألا وهي الأمة التي اصطلح الناس على تسميتها بالبربر أي تلك الأمة العظيمة التي لا تزال لها الكلمة في بلاد تونس ولا يزال يتكلم بلغتها ولو على قلة في جزيرة جربة وبجبال القصور بين قبائل مطماطه وغيرهم وهم وأن كانوا جميعاً تقريباً يعرفون العربية ألا أن أغلبهم لا يستعمل عادة ألا البربرية وكلهم في جنوب هذه البلاد أما في الشمال والوسط فلم يبق أثر تقريباً لتلك اللغة القديمة فلغة الدين والسياسة والتجارة والعلوم ألا وهي لغة المدن أي العربية قد أماتت لغة سكان القرى والفلوات والصحاري الكبيرة والصغيرة وكذا لغة سكان السهول وبلاد التل وليس ذلك بالأمر الغريب لأنه ليس ببلاد تونس كما بالجزائر ومراكش جبال شامخة ولا هضاب مرتفعة يمكن للمقهورين الالتجاء أليها من وجه الفاتحين فالبحر وأمامه سهول واسعة ثم سهل مجرده العظيم بالشمال وفوق هذه السهول والأودية جبال لا يزيد أرتفاع أعلاها عن ١٥٠٠ متر ثم أن البلاد ليست كثيرة الجبال لدرجة أن يقاوم من يلتجيء أليها الأغارات الكبيرة الآتية من الخارج مقاومة دائمية فلم يكن في أمكان العرب فيما مضى من القرون كما أنه لا يمكن للفرنسويين الآن مقاومة من يأتي من البحر شرقاً أو ينزل غرباً من نجود بلاد نوميديا العالية ولذلك فأن العنصرين الكبيرين الذين بقيا متعاديين زمناً طويلاً وهما البربر والعرب قد اختلطا ببعضهما بسهولة في المدن أولاً ثم في الأسواق وحتى في أكواخ الأودية السحيقة

وفوق الجبال وقد أستعرب البربر وهم أكثر العنصرين عدداً من حيث اللغة كما تبربر العرب من حيث الدم ولكل ذلك صار التونسي مستعرباً مسلماً ولم يبق محل للبحث في الفصل بين الأهالي وقسمتهم ألى صورتين أصليتين مختلفتين كل الأختلاف تعارض أحداهما الأخرى كما هو الحال في الجزائر حيث القبائل البربرية هناك يوصفون بالنشاط وحب الفلاحة والشهامة مثل سكان بلاد التل الجزائرية بينما يوصف العرب من سكان الأودية المنخفضة والسهول الواسعة بالكسل كثيراً أوقليلاً وأذا تأملنا في البربري حيث بقي بربرياً خالصاً كما في جربه والجبال الجنوبية وقارناه بالعربي لوجدناوجهه أعرض وأقصر وجمجمته ووجهه البيضي الشكل أقل تناسباً وشعره أقل سواداً وأنفه أكثر أرتفاعاً وهو أكثر من العربي سروراً ونشاطاً في حركاته وأعماله قال في صفوة الأعتبار « أن أصل أهالي هذا القطر هم من البربر كانوا قبل الفتح أما نصارى أو وثنيين ثم أسلموا كلهم ولا زال في بعض القبائل شيء من عادات النصارى يفعلونه عن غير قصد وهو الوشم بين أعينهم على جباههم بصورة صليب صغير وكذلك استوطن به كثير من العرب واختلطت أنسابهم بالأصليين ثم استوطن به أيضاً من هاجر من الأندلس بعد المائة الثامنة وقد بنوا بلداناً بالقطر خاصة بهم وكذلك في ربض باب سويقه من الحاضرة بنو احارة خاصة تسمى ألى الآن حومة الأندلس ومن بلدانهم التي أسسوها سليمان وزغوان وطبريه ومجاز الباب وتستور وكلها مؤسسة

بأماكن جيدة على شكل حسن متقابلة الطرق واسعتها مستقيمتها واختلط نسلهم بالقاطنين ثم وفد عليهم الترك واختلط نسلهم أيضاً بالقاطنين ولكن الأكثرهم النوعان الأولان » اهوالأحسن تقسيم أهالى تونس المسلمين ألى رحل وغير رحل أو متوطنين وبعد أن كان الرحل أكثر من المتوطنين انعكس الحال الآن لزيادة الأمن وانقطاع الأغارات والحروب الداخلية ٠

وقد اختلطت العناصر الأصلية المختلفة التى تكوّن منها العرب سكان المدن وهم المعروفون غالباً باسم مغاربة كأخوانهم من سكان المدن بالجزائر ومراكش ببعضهم اختلاطا تاما يستحيل معه تمييزهم وتبيينهم حتى أن المغاربة الذين طردوا من أسبانيا بعضهم فى القرن الخامس عشر وبعضهم فى أول القرن السابع عشر الميلادى وكانوا أنزلوا فى جهات خاصة بهم وعينت لهم أراض زراعية بجوار المدن لم يتركوا نسلا ألا ببعض المدن والجهات المذكورة يمكن تمييزهم من العرب الآخرين سكان المدن اللهم ألا بعض عائلات من الأعيان والأشراف قد حافظوا محافظة دقيقة على أنسابهم أوحفظوا مفاتيح بيوتهم التى كانت لهم فى أشبيليه وغرناطه وفي بعض المدن والقرى زيادة على ذلك صناع أصلهم من أسبانيا يشتغلون ببعض الصنائع الخصوصية يمكن الأستدلال من صنعتهم على معرفة أصولهم ويدخل ضمن المغاربة أيضاً على نسبةٍ ما القوم الذين اعتنقوا الأسلام وأصلهم عبيد هذا وسكان المدن خصوصاً المعروفين منهم بالتوانسة لونهم أقل سماراً من أهل القبائل الرحل وهم يشبهون بلون بشرتهم

الأسبانيين والتليانيين من سكان الجنوب ولم يترك الأتراك في تونس كما لم يتركوا بالجزائر مع حكمهم الطويل لها مايقال له تركى حقيق لامن لغتهم ألا بعض كلمات أخصها ما يستعمل فى الأدارة وجنودهم التى كانت لهم بها كانوا يتألفون عموماً من جراكسه وارناؤد وصقالبة وغيرهم ممن أسلم ولا يزال لهؤلاء بعض الآثار ولما تزوج أولئك الجنود والأنكشارية والموظفين بتونسيات نشأ منهم جنس مختلط يسمى قول أوغلى وقد انحل هذا الجنس الآن تقريبا فى مجموع العرب والمغاربة المسلمين

أما من حيث الدين فأن المذكورين بأجمعهم مسلمون وأغلبهم على مذهب مالك وأقلهم على مذهب أبى حنيفة قال فى صفوة الأعتبار «ثم أن الأهالى الأصليين كانوا فى صدر الملة على مذهب أبى حنيفة هم وجميع سكان الجزائر والمغرب ألى ولاية المعز بن باديس فحملهم على اتباع مذهب مالك وذلك فى حدود سنة ٤٠٦ وبقوا على ذلك ألى أن جاء الترك فكانوا هم ونسلهم على مذهب أبى حنيفة وبذلك كان أكثر الأهالى مالكية » اهو من بين السكان عدد ليس بالقليل يعرفون بالمزابيين كانوا هاجروا من بلاد الجزائر ونزلوا المدن خصوصاً تونس وهم وأهالى جربه بقوا كلهم يتمذهبون بمذهب يخالف مذاهب أهل السنة ويسميهم الأهالى هناك بالخوامس أو الخوارج أما اليهود وعددهم يزيد على خمس وستين ألف نفس فأنهم عنصر مهم جداً من عناصر الأمة ويسكنون المدن على الخصوص وعلى الأخص مدينة تونس ويتكلمون العربية ولا يستعملون العبرية ألا فى أمور الدين ومع ذلك

فقد كادت اللغة العربية أن تزول من بينهم لأقبالهم الآن أقبالا جيداً على التكلم بالفرنسوية وكثيرون منهم يتكلمون التليانية والأسبانية وهم الوسطاء الطبيعيون بين كل التوانسة ولو أضفنا ذلك ألى أستعدادهم الفطرى للتجارة وكل ماالختص بالنقود وأقراضها بالربح وللمبادلات بكل أنواعها كانوا أغنى الطبقات في البلاد وهى صفة لاصقة بهم فى كل جهات الارض بلا جدال وهم من أصول مختلفة فنهم قوم سكنوا البلاد من القديم قبل أغارة العرب بزمن طويل (وربما كان بينهم بقايا السكان القدماء من الفينيقيين وأهل قرطاجنه) ثم اليهود الذين طردوا من أسبانيا وبلاد البرتقال وقد حافظوا على اللغة الأسبانية ومنهم اليهود التليانيون ومعظمهم من مدينة ليفورنو ويهود أتوا من كل جهات أوربا وفدوا على تونس بعد أعلان الحماية الفرنسوية خصوصاً وعددهم جميعاً آخذ في الزيادة السريعة بازدياد مواليدهم وهم يعرفون من صورهم وأزيائهم بمجرد النظر أليهم هذا وخلاف يهود مدينة تونس الذين يزيد عددهم عن الأربعين ألف نفس وكثيرون منهم عملة وفعلة يوجد منهم أيضاً بمدن سوسه وسفاقس وقابس وغيرها عدد كبير ومنهم أيضاً من يقيم بجزيرة جربه وقليلون منهم يسكنون بلاد الجريد وجهات نفزاوه وببلاد تونس أكثر من مائة وثمانية وخمسين ألف من أهل أوربا مابين تليانيين ومالطيين وفرنسويين وأغريق وأسبانيين وألمان ونمساويين وأنجليز وبلجيقيين وهولنديين وبولونيين وروسيين وغيرهم وغير خاف أن أهم هذه الجالية هم الفرنسويون لأنهم أكثرهم

أعمالا وثروة وعدداً وعند ماأعلن الفرنسويون الحماية على تونس لم يكن بها من العائلات الأوروبية ألا القليل كانوا استوطنوها منذ زمن طويل وكانوا كلهم تقريباً فى نفس مدينة تونس يشتغلون بالتجارة وكانت اللغة التليانية اللغة الثانية بالبلاد قبل أعلان الحماية الفرنسوية ويضاف ألى هذه الجاليات بتونس أيضاً المراكشيون والفزانيون أما المراكشيون فكلهم تقريباً بمدينة تونس وحرفتهم على الخصوص حراسة بيوت الأوربيين لأمانتهم وصداقتهم وقوتهم ويشتغلون أيضاً بزراعة الكروم لمهارتهم فى ذلك أما الفزانيون فهم قوم اختلطت دماؤهم قليلا أو كثيراً بالعرب والبربر ويشتغلون فى تونس بالأشغال التى تحتاج ألى قوة وجلد كنقل الأتربة وحمل الأحجار وبناء المنازل وغيرها والفرنسويون هناك يثنون عليهم جداً ويجدون فى هجرتهم ألى تونس فائدة لهم ألا أن المذكورين يتضررون من دفع تلك الضريبة التى يدفعها كل مسلم هناك من الرعايا وهذا بلا شك مما يعيق هجرتهم

الزراعة ـ الأستعمار الفرنسوى ـ أعلم أن أكبر حادث ينذر بالأنقلاب فى أحوال الزراعة بتونس هو الطرق المستحدثة فى أصلاح الزراعة التى يجلبها معهم أهل أوربا ويدخلونها بين أمة شرقية محافظة على أحوالها وعاداتها القديمة هذا من جهة ومن الأخرى أستيلاء أصحاب الأموال من الفرنسيين على أجل الاراضى وأخصبها أستيلاء يمكن القول معه بأن الأراضى حول العاصمة وحول مدن أخرى بالأيالة المذكورة قد انتقلت تماماً من أيدى

الطبقة العالية والمتوسطة من العرب ألى أيدى أصحاب الأموال من الفرنسويين ويؤخذ من أحصاء عمل منذ بضع سنوات أن الأرض التى تمتلكها الجمعيات الفرنسية وأفراد الفرنسويين تزيد بكثير عن ٤٥٠٠٠٠ هكتار وقد سهل الفرنسويون على جاليتهم هناك أسباب النقل والأنتقال فى السكك الحديدية وسفن الملاحة (وأن كانوا اجعلوا ذلك تحت قيد وشروط معلومة) كما سهلوا عليهم أيضاً أمتلاك الأراضى وأستغلالها ثم أن الأراضى التى تعطيها حكومة تونس للجالية الفرنسوية بالبيع أو الايجار أصلها من أملاك الحكومة التونسية القديمة أو من أملاك الأوقاف وبذلك أصبح الفرنسويون يملكون الآن قسماً عظيماً من بلاد التل وفى أجود جهاته وكثيرون منهم يشتغلون بزراعة الحبوب أو بتربية الماشية ومع ذلك فأن أهم مجهوداتهم منصرفة ألى زراعة الكرم كما هو معلوم وأذا كان الكرم وهو تلك الشجرة الأصلية التى تنبت حول بحر الروم ثدى تونس الواحدة فأن الزيتون هو ثديها الثانى وسكان البلاد هم الذين يشتغلون بزرعه وأستغلاله أكثر من الفرنسويين وقد كان الزيتون فى كل زمن من أكبر أسباب الثروة فى تونس وزراعته وأن كانت نقصت الآن بما طرأ على تلك البلاد من التدمير والأغارات والأهمال لعدم وجود الأمن فأنه لا يزال يوجد بها منه مع ذلك أزيد من عشرة ملايين شجرة ويمكن أن يضاعف هذا العدد ألى ثلاثة أمثاله والزيتون كما لا يخفى لا يتأثر كثيراً من التقلبات الجوية والمكسب منه وافر للغاية

ولكنه نادر تقريباً بالجهات الجنوبية حيث يقل سقوط الأمطار جداً مما يساعد على زراعة الحبوب واستغلالها فى أوقاتها ويهدد الزراعة بالجنوب شيئان مضران للغاية هما الجفاف والجراد وقد تمكنت الحكومة من معالجة الأول منهما بأيجاد الآبار والأحواض والترع وغير ذلك من وسائل الرى أما الثانى فلم يتمكنوا للآن من معالجته ألا بأبادته وقت ظهوره

الصناعة ـ لم يوجد الفرنسيون بهذه البلاد للآن ما يمكن أن يطلق عليه أسم صناعة حقيقة وكذا الصناعة الأهلية ضعيفة جداً وتنحصر فى نسج الأقمشة الحريرية ولا يزال لها بعض الأهمية وهى قاصرة على مدينة تونس تقريباً وكانت صناعة الطرابيش أكثر الصناعات رواجاً فيما سبق وكانت فى يد مغاربة الأندلس وكان يصدر من حاصلاتها قدر عظيم ألى كل بلاد المشرق أما الآن فلا وجود لها تقريباً لأن صناعة أوربا قضت عليها ومن الصنائع أيضاً نسج الأحزمة والمناديل المطرزة والبراقع والبرانس والبطانيات وهم يجيدون صنع هذه الأخيرة جداً بجزيرة جربه على الخصوص ومنها عمل الصابون بمدينتى تونس وسوسه ومنها الصباغة ودباغة الجلود وعمل سروج الخيل والفخار والشمع واستخراج الروائح العطرية والصياغة وهى هناك بيد اليهود على الخصوص وعمل الأسلحة وهى بيد اليهود والعرب ومنها عمل الحصر والحبال ومما يدخل فى باب الصناعة أيضاً طحن الحنطة وعصر الزيتون وكل ذلك على درجة محدودة أما الصناعة الأوربية فقاصرة الآن على عمل

البراميل وتقطير المشروبات الروحية واستخراج الزيت وغير ذلك

التجارة ـ أذا كانت الصناعة بتونس لا زالت فى عهد طفولتها فأن التجارة آخذة فى الأنتشار السريع بعد أعلان الحماية وأكثر ما تكون التجارة مع فرنسا وأهم الصادرات ألى فرنسا الحنطة وزيت الزيتون والشعير والنبيذ والخضراوات الجافة والأسفنج وغيرها ويتلو فرنسا فى الدرجة أيتاليا ثم أنجلتره هذا والطرق الحديدية الموجودة فى تونس لا زالت على تعدد فروعها وارتباطها ببلاد الجزائر غير كافية لتسهيل التجارة الداخلية

التعليم العام ـ أذا كانت الحكومة الفرنسوية قد أهملت كثيراً فى مد الطرق الحديدية فأنها فعلت كثيراً فيما يعود على التعليم العام بالانتشار والرقىّ وقد أسست هناك عدة مدارس من كل الدرجات ولكنها مع ذلك لا تزال غير كافية سيما ولغة الدراسة فيها ليست العربية ومن المدارس المشهورة هناك غير ما أسسه الفرنسويون المدرسة الصادقية تأسست سنة ١٨٧٦ والمدرسة العلوية وهى معدة لتخريج المعلمين وتأسست سنة ١٨٨٤ وعدد التلاميذ المسلمين الذين يترددون على المدارس الفرنسوية آخذ فى الزيادة كل سنة هذا والكتاتيب الأسلامية كثير عددها بهذه البلاد والتعليم فيها قاصر على حفظ القرآن وتجويده وعلى الأملاء ويضاف ألى ذلك فى بعضها مبادىء النحو والفقه ومما يجب التنبيه أليه أن الجامع المشهور هناك وهو جامع الزيتونة بمدينة تونس له الفضل الكبير فى حفظ اللغة العربية وآدابها وعلوم الدين

مما يشبه به أزهرنا المعمور وقد نزيد على علومه الآن بعض العلوم الحديثة ويشبهه في ذلك أيضاً جامع مدينة القيروان

الحكومة والأدارة ـ يدير الحكومة فى هذه البلاد فى الظاهر قوتان معاً هما أميرها المعروف بباى تونس وفرنسا أما الحقيقة فأن فرنسا هى صاحبة الأمر والنهى هناك ولها حاكم عام يتبعه كل موظفى الأدارة الكبار كما يتبعه قائد الجنود العام أى الجنود التى تحتل تونس واعلم أن الظروف المختلفة التى حملت فرنسا على أدخال البلاد التونسية فى دائرة حمايتها لا تزال فى ذاكرة الكثير من الناس كما يتذكرون أيضاً الحالة التى كانت عليها تلك البلاد فمن جهة المالية كان نقص الايراد عن المنصرف مستمراً وكانت القروض كلها بربا فاحش والقسم الأكبر من الايرادات كان مرهوناً لمدائنين من الأغراب وكانت الضرائب تجبى بالقوة والثروة العمومية عرضة للسلب والنهب أما من جهة الأدارة فكانت كل دوائر الحكومة ضعيفة أو أكثر من الضعيفة وكل المعاملات بين تجارية وغيرها واقفة ولم يكن بالبلاد طرق ولا ميناآت ولا أعمال نافعة وكان الأهالى فى احتياج ألى الماء فى بلاد الماء فيها هو كل شيء وكانت عرضة للنوازل الطبيعية والأوبئة وليس من يدافع عنها هذا زيادة عن أن حدود بلاد الجزائر كانت عرضة لأعتداء القبائل على الدوام ولذلك لم يكن من الممكن لفرنسا أن تبقى غير منتفعة من حالة كهذه ذات أخطار عليها ولهذا اضطرت للمداخلة وأخذت على نفسها مسئولية

العمل فى أصلاح بلاد كانت فيما سبق زاهية زاهرة ولما كانت بلاد تونس خصبة الأراضى وكان أهلوها يميلون ألى العمل كانت ميدان تجارب موافق جداً لأهل أوربا وقد شرعت فرنسا فى العمل وهى عالمة بدقته وقدمت موظفيها الأداريين وجنودها لحفظ النظام العام وقضاتها لحفظ الحقوق ومهندسيها للقيام بالأعمال النافعة وزراعها لتعليم الناس الأستفادة من ثروة الأرض هذا من جهة ومن الأخرى لما كانت تونس مجاورة لبلاد الجزائر وكانت ثغورها البحرية قريبة من التى لفرنسا على بحر الروم وكانت العلاقات التجارية موجودة بينهما من القديم وكان الناس يثقون بالنظام السياسى الجديد كل ذلك حبب ألى الأمم التى تدين لفرنسا بالطاعة أستيطان تلك البلاد وهذا ما حصل بالفعل لأن خصوبة الأراضى التونسية وخصوصاً صلاحية بعض جهاتها لزراعة الكرم نشأ عنهما انتقال كثير من الفرنسويين أليها بعد أعلان الحماية بقليل وهذه المهاجرة لم تجلب ألى تونس رجالاً فقط بل جلبت أليها أيضاً أموالاً لهذا كان من الضرورى أيجاد نظام قضائى لحفظ تلك الأعمال والمشاريع التى سيأخذ الناس فى القيام بها وألى ذلك يرجع مجموع وتفصيل الأحتياطات التى اتخذتها فرنسا بتحويل تونس القديمة ألى تونس الحالية المستوفزة للوثوب ألى الامام لما فيها من وسائل الحياة هذا ملخص ما يقوله الفرنسويون فى أسباب أستيلائهم على تونس وأدارة أحكامها أوردناه هنا بهذا التفصيل لما لهذه البلاد من الأهمية ولما بيننا وبينها من الروابط

ولما احتل الفرنسيون البلاد التونسية كان النظام السياسي والأداري بها في قبضة الباي لا غيره كما كان في يده أيضاً القوة التشريعية والقوة التنفيذية معاً وأوامره وقراراته كان لها قوة القانون لكن ذلك كان يلطف نوعاً ما جرت به العادة من استشارة مجلس نظاره أو أستشارة رئيسهم على الأقل قبل الأقرار على أمر عمومي المنفعة وكان أهم نظارات المملكة النظارة المكلفة بالأدارة العامة ويرأسها الوزير الأول أو وزير القلم وكانت البلاد مقسمة بين القبائل وأفخاذها وكان لبعض هذه القبائل مكان معلوم من الأرض والبعض الآخر رحل ولكل قبيلة قائد هو المسئول عن الأمن ودفع الضرائب وسلطته واسعة ولم يكن بالمدن نظام للمجالس البلدية ما عدا مدينة تونس وقد احترمت فرنسا بعض هذا النظام الأداري لأنطباقه وموافقته الأحوال الأهلية وعلى منواله سنت نظامها الجديد هناك وقد ترك الباي بمعاهدة سنة ١٨٨١ لفرنسا حق النظر في علاقات البلاد التونسية بالممالك الأجنبية ومنعته من أن يعقد من غير رضاها أي عقد له صفة دولية وبذلك أصبحت فرنسا ضامنة لعلاقات تونس مع الدول الأجنبية ومراقبة كل ما يتعلق بهذه العلاقات ومعارضة كل نظام يظهر لها أنه يعرقل هذا النظام الحالي وقد ضمنت فرنسا الدين التونسي وعلى ذلك تعهد الباي بأن يتبع الأصلاحات الأدارية والقضائية والمالية التي ترى الحكومة الفرنسوية ضرورة وجودها وصادق الباي على اتفاقية بهذا المعنى سنة ١٨٨٤ وهي سجل الحماية الفرنسوية على تلك البلاد الآن

وقد أبقت فرنسا للباى سيادة أسمية فقط فالحاكم الحقيقى هو الوكيل العام الفرنسوى وفى يده كل ما لفرنسا من القوى بهذه البلاد وصرحت له بالتصديق نيابة عنها على القوانين وانفاذها فى تونس وهو الذى يرأس مجلس النظار المكلف بتحضير الميزانية ولما كان الباى قد ترك لفرنسا أدارة علاقاته الخارجية كان الوزير المقيم الفرنسوى هو وزير خارجيته وله حق رئاسة مجلس النظار وهو الوسيط بين البلاد التونسية والحكومة الفرنسوية ويتبعه قواد الجنود البرية والبحرية ألا أن بعض الأدارات الأخرى لما كانت تحتاج ألى معارف خصوصية كان لها رؤساء آخرون ترسلهم فرنسا ألى تونس

واعلم أن الحكومة الفرنسوية قد أبقت بعض النظام الذي كان معمولا به فى البلاد قبل أعلان حمايتها عليها كما قلناه كما أبقت أيضاً بعض الأدارات فى يد الأهالى .

مدن بلاد تونس

تونس ـ هى عاصمة هذه البلاد وأكبر مدن أفريقية الشمالية الساحلية وأشهرها بعد الاسكندرية بها من السكان (نحو ٢٠٠٫٠٠٠ نفس) منهم أكثر من ثلاثين ألفاً من اليهود ونحو ستين ألفاً من الأوربيين وأهميتها آتية لها من وقوعها فى مكان فى غاية الموافقة بالزاوية الشمالية الشرقية من بلاد البربر وعلى مصب وادى مَجَرْدَة وعلى بحيرة تتصل بالبحر من مضيق على جانبيه مبانى مينائها الأمامية المسماة حلق الوادى (غوليطه) وطرق هذه المدينة ليست منتظمة

وهى ذات أقبية فى الغالب ودورها من الداخل كثيرة العمد والأساطين وبأسواقها مختلف الصنائع والمتاجر لكل طائفة وصنعة سوق مخصوص وذلك مما يجعل لهذه المدينة جمالا وبهجة وبجوارها مدينة يسكنها الأوربيون تعرف باسم لامارين (La Marine) وقد شيد بها الفرنسويون بعد احتلالهم هذه البلاد مبانى كثيرة فخيمة فأضحت مدينة حقيقية حتى أن بعضهم يلقبها باريس الصغرى وقد حفر الفرنسويون فى وسط تلك البحيرة خليجا يسمح للسفن بأن ترسوا على مدينة تونس فساعد ذلك على ترقى تجارتها وفى تونس يقيم الباى حاكم البلاد الشرعى وكل الأدارات العليا بين ملكية وعسكرية ومالية وقضائية وبينها وبين مدينة الجزائر نحو ٦٢٥ كيلومتر وبينها وبين مدينة طرابلس ٥٢٠ كيلومتر وبينها وبين مرسيليا ٨١٥ كيلومتر وتخرج منها طرق حديدية تذهب ألى بلاد الجزائر وبنزرت وحلق الوادى وسوسه والقيروان وبينها وبين مرسيليا وأيتاليا والجزائر وطرابلس مواصلات بحرية وقد فتح الفرنسويون بمدينة تونس الآن عدة طرق وشوارع واسعة وبنوا بها مبانى مختلفة وحولها سور تعلوه أبراج هدم الفرنسويون الآن بعضه لأقامة مبانى جديدة وقصبة تونس من بناء العرب وقد وسعها الأسبانيون باضافة مبانى جديدة أليها وهى مربعة الشكل وكانوا يسجنون فيها النصارى الذين تأسرهم القرصان ويقولون أن سجونها كانت تسع منهم نحو عشرين ألف أسير وبها تقيم الآن الحامية الفرنسوية ومتى وقف الأنسان فى أعلاها امتد الأفق أمامه فشاهد منظراً بديعاً أما قصر

الباى أو دار الباى كما يقولون فليست على شيء من صناعة البناء وتشبه من الخارج ثكنة عسكرية وهى من بناء حموده باى الذى امتد حكمه بهذه البلاد طويلا (١٧٨٢ـ ١٨١٤) ومع ذلك فأن صحنها مفروش بالرخام الأبيض والأسود ويحيط به من جهاته الثلاث حنايا وعمدمن الرخام جميلة جداً وبها بهو كبير جميل وبعض غرف ذات نقوش عربية تشبه الموجود منها بقصر الحمراء دقةً وجمالا وبها أيضاً فى الطابق العلوى قاعة للطعام ذات سقف مذهب ونقوش عربية وأخشاب حمراء وخضراء ورخام أبيض ناصع وعمد رفيعة رخامية جميلة كل ذلك مما يستوقف البصر ويستحق الذكر ويقيم الباى فى هذه الدار مدة شهر رمضان ويجلس فى صحنها أذ ذاك لينظر فيما يرفع أليه من القصص وللقضاء بين الناس ومن مبانى تونس أيضاً سراى العدلية الفرنسوية وكانت قصراً للمرحوم خير الدين باشاوزير الباى محمدالصادق الذى استولى الفرنسويون على تونس فى زمنه ومنها البيمارستان وقد بناه العزيز عثمان من بنى حفص ومنها الديوان وهو بناء ضخم بين محلة الأوربيين و البحيرة وغيرها من المبانى الأخرى الكثيرة بين قديمة وحديثة وتونس كثيرة الجوامع والمساجد والزوايا والرباطات ولجامع قصبتها منارتان وهو قريب من دار الباى وكان كنيسة شيدها الأسبانيون مدة شارلكان وهذا يخالف ما أصاب جوامع بلاد الجزائر من صيرورة الكثير منها الآن كنائس وبالقصبة مسجد آخر من بناء الحفصيين أما جامع الزيتونة فهو جامع كبير من أعظم وأشهر جوامع الأسلام به من العمد

مائةوخمسون جلبت كلها من خرائب قرطاجنه وبه دار كتب نفيسة والجامعان الأخيران هما وجامع باب الجزيرة الواقع خارج الباب المذكور أقدم جوامع تونس ومن جوامعها الكبيرة أيضاً جامع سيدى محرز وتعلوه قبة جميلة حولها قباب أصغر منهاوقد بقى هذا الجامع زمناً طويلاملجأيحتمى به كل من عليه دين ولا يمكنه وفاؤه ومنها جامع صاحب الطابع وهو من أجمل وأنفس جوامع تونس ولكنه لم يتم بناء وزخرفة وهناك غيرذلك من المساجدوالزواياوالمدارس والرباطات وكلها عامرة تقريباً فائمة بحاجات له ويظهر من المبانى التى ذكرناها أن تونس ليست من المدن الأثرية القديمة بل من المدن العربية التى تفيد السائح الأوربى لما اشتملت عليه من المبانى العربية والطرق والأزقة والأسواق والدور الجميلة الداخل ولأرتباطها بمدينة أورباوية واطئة واقعة فى منبسط من الأرض ستصير يوما ما جسيمة تشبه مدن أوربا وأمريكا بعضاًأوكلاومع ذلك فأن تونس قليلة الحركة التجارية والمصانع الكبيرة ومستقبلها فى ذلك متوقف على ما يكون لبلاد تونس من الشأن فى التجارة والصناعة بما يعمله فيها الفرنسويون مما يرقى الصناعة والتجارة

ويظهر أن بحيرة تونس التى يفصلها عن البحر برزخ رملى ضيق جداً كانت تتصل فى كل الأزمنة مع بحر الروم فكانت مرسى للسفن الرومانية ويبلغ طولها أحد عشر كيلومتراً ويختلف عرضها بين أربعة كيلومترات وسبعة كيلومترات ومحيطها أربعة وثلاثون كيلومتراً كل ذلك بالتقريب وشواطئها

منخفضة جداً منبسطة بعضها رملى وبعضها مستنقعات ويقدرون مسطحها بنحو ستين كيلومتراً ويصب فيها جداول لا أهمية لها تجرى المياه فيها فى بعض أيام السنة وهذه البحيرة صارت بما يلقى فيها من الأوساخ والأوحال والأتربة والقمامات التى تخرج من تونس منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة مستنقعاً لا يزيد عمقه عن مترين اثنين على الأكثر مع أن السفن الرومانية والقرطاجنية كانت تمخر فيها ذهاباً وجيئة وفى وسطها جزيرة صغيرة تسمى شكلى فوقها حصن صغير كان فيما سبق محجراً صحياً وهو الآن مهمل ويكثر السمك بهذه البحيرة ويقول أهل تونس القدماء أن جودة هوآء مدينتهم سببه البحيرة المذكورة ولكن يظهر أن ذلك غير صحيح وأن كانت شهرة تونس فى جودة الهوآء قديمة جداً قال مستر شاو (Shaw) وهو طبيب وسائح مشهور وكان قنصلاً للأنجليز بمدينة الجزائر فى هذا الخصوص ما يأتى « يحتمل أن يكون هوآء تونس مضراً جداً لما حولها من البحيرات والمستنقعات ألا أن ما يحرقه أهلوها من المصطكى والمر وأكاليل الجبل وغيرها فى حماماتها وأتانينها وما يبخرون به أيضاً من الصموغ والنباتات العطرية الأخرى بكمية كبيرة بحيث تكون الروائح المنبعثة عنها شديدة جداً كل ذلك يمتلىء به الهوآء فينصلح ويجود حقيقة » اه وروى سائح آخر فرنسوى طبيب كذلك قولاً مثل هذا وكان زار تلك المدينة فى سنة ١٧٨٣ قال « أن بالبحيرة والخليج من السمك شيء كثير جداً وألى المدينة تصل كل أحتياجات المعيشة وأن القدر الكبير

من النباتات العطرية التي يحرقها الأهالي تساعد من غير شك على تنقية الهوآء الذي يفسد بما يتصاعد من الروائح الكريهة من شواطىء البحيرة ومن البالوعات التي تنصب فيها أوساخ مدينة عظيمة وبما ينتشر من نتن جثث الحيوانات الملقاة على طول الطريق وفى الحقول المجاورة لها »اه ومع ذلك فيظهر أن أحسن تعليل لذلك هو فعل الرياح فأنها تطرد على الدوام تقريباً ما يتصاعد من الروائح الكريهة هناك وحقيقة الحال أن مدينة تونس ليست صحيحة الهوآء كما يقولون لأن الدوسنتاريا مرض موضعى بها وأن كانت لا تصل ألى الدرجة الحادة غالباً كذا أمراض القلب ليست بها قليلة وتقتل الدفتريا عدداً من أهاليها وتكثر بها الأمراض الديدانية يظهر كل ذلك من الأحصاء الطبى الذى عمل بين الجنود الفرنسوية ولما ظهر الطاعون بها بين سنتى ١٨١٩ و ١٨٢١ قتل من أهاليها قدراً كبيراً وفى سنة ١٨٤٩ انتشرت الكوليرا بين اليهود من سكانها أنتشاراً مريعاً حتى أودت بهم جميعاً تقريباً ثم عادت فانتشرت فى السنة التالية بين العرب والأوربيين وأماتت منهم قدراً كبيراً وفى سنة ١٨٨٨ انتشر بها الجدرى انتشاراً ضاعف عدد موتاها. ولكن هذه الضحايا لا يمكن تقديرها بالأرقام لأنه لم يكن عمل أذ ذاك أحصآء طبى أما الحالة الصحية فى تونس الآن فأنها ليست كما قال ذلك السائح أو غيره لأن الفرنسويين قد أصلحوا كثيراً من تلك الأحوال السيئة بما أجروه من الأعمال وسنوه من النظامات

أما من جهة الصناعة فتونس لا تعد شيئاً تقريباً فقد فقدت شهرتها القديمة وليس من المحتمل أن تعود أليها تلك الشهرة ثانية ويظهر أن سيكون لها مكان بين المدن التجارية ومدن الشتآء وأماكن اللهو والقصف وليس بها الآن من الصنائع ألا صنائع أهلية صغيرة وبعض المعامل الوطنية والمدابغ والمطاحن ومعامل الطوب والتبغ والروائح العطرية والأنسجة الصوفية والحريرية وغير ذلك ومن أشهر صادراتها الحبوب والزيوت والأنبذة والأصواف والجلود والأعطار ومن وارداتها السكر والبن والنبيذ والحديد والسلاح والمصوغات والفحم الحجري والخرداوات والأشيآء الزجاجية والأواني الصينية وأخشاب العمارة وغير ذلك

أما من جهة الحركة العلمية فأن مدينة تونس لما بها من المعاهد العلمية كانت من أشهر مدن أفريقيه فى ذلك ومن أكبر هذه المعاهد وأشهرها جامع الزيتونة وتدرس به كل علوم الدين الاسلامى واللغة العربية وآدابها وقد زاد واعليها الآن بعض العلوم الحديثة كما سبق وبه من الطلبة نحو ألف طالب كثيرون منهم من أهل الجزائر

قال فى صفوة الأعتبار « هو أول جامع بنى بالحاضرة وكان تمامه سنة ١٤١ وقال أيضاً وهذا الجامع هو أعظم جامع بالحاضرة وهو بركة أهلها ولا يخلو من رجل صالح وهو مناخ العلوم وتحت فيه فحول عظام قديماً وحديثاً وان كان أقدم منه فى البناء جامع القصر لأنه كان كنيسة قبل الفتح فصار جامعاً وتشتمل الحاضرة على سبعة جوامع خطب للحنفية وأعظمها جامع محمد باى

وبقية الجوامع والمساجد البالغة نحو ثلاثمائة كلها مالكية وأعظمها جامع الزيتونة وبالحاضرة زوايا كثيرة تبلغ أزيد من مائتي زاوية » اه ومن المدارس المدرسة الصادقية والمدرسة العلوية وهي لتخريج المعلمين وغيرهما وهناك مدارس أخرى أهلية وأجنبية وقد شيد الفرنسويون بعد احتلالهم عدة مدارس أخرى من درجات مختلفة وأقبل الناس عليها أقبالا كبيراً يبشر بحسن المستقبل أو يجعل هذه المدينة القديمة مدينة اللوبيين والقرطاجنيين والرومان والأغريق والترك مركزاً لنشر التربية العلمية الفرنسوية كما يقول الفرنسويون ومياه الشرب تصل ألى تونس وضواحيها من جبل زغوان تجرى فوق حنايا طولها هي وفروعها نحو ١٣١ كيلومتر وهي من عمل الرومان وقد أصلحها الفرنسويون وينصب ماؤها في أحواض كبيرة بالقرب من القصبة ومن هناك يتوزع على المدينة وضواحيها ويصل الى باردو والمرسى وقرطاجنه وحلق الوادى وبالمدينة وضواحيها عيون وآبار وصهاريج أخرى يستقى منها الناس وكلها جيدة الماء ومن ضواحي تونس بلدة باردو وهي ألى الغرب منها وعلى الطريق الحديدى الذاهب ألى الجزائر وباردو قصر كبير جداً حتى أنه لاتساعه وما يلتحق به من المباني يكون كالمدينة وحول سوريه أبراج في زواياه وقد شيده أحد البايات المتأخرين ولهذا كان خالياً من فن المعمار وبه متحف يعرف بالمتحف العلوى يشتمل على أشياء تونسية قديمة نفيسة كثيرة وهو أهم متحف بأفريقية الفرنسوية وبالقرب من هذا القصر قصر آخر يعرف بالقصر السعيد وبهذا القصر وقع

محمد الصادق باى على صك الحماية الفرنسوية مضطراً وذلك في يوم ١٢ من شهر
مايو سنة ١٨٨١ وألى الشمال الشرقي من تونس بلدتا المرسى وسيدى أبي العباس
وخرائب قرطاجنه وكلها في أماكن بديعة وألى الشرق بلدة حلق الوادى (غوليطه)
وهي الميناء الامامية لتونس وألى الجنوب الشرقى بلدة تسمى سيدى فتح الله
ودورها مشيدة على الطراز المغربي الجميل وألى الجنوب منها قصر كبير يسمى المحمدية
من بناء المرحوم أحمد باى بناه في زمن لويس فليب ملك فرنسا وألى الجنوب
والشرق حمام الليف ومياهه معدنية حارة قال بعض العلماء يصف أهمية تونس
بما يأتى «لما كانت تونس واقعة فى مكان حصين جداً فوق أكمة يحيط بها من
الشمال والشرق بحيرة كبيرة متصلة مع البحر ومن الجنوب والشرق مستقذر
أوسبخة بها الماء على الدوام كان من اللازم أن تكون منذ الاعصر الغابرة
أحدى المراكز الأصلية التي سكنها الجنس القديم بتلك البلاد ولذلك نالت
شهرتها التي لازمت أسمها على الدوام حتى أن تونس فى عصر قرطاجنه القوية
صاحبة النفوذ والسلطان كانت المدينة اللوبية الأصلية القائمة أمام تلك المستعمرة
الفينيقية والتي كان يمكن مشاهدتها من أعلى أسوارها لهذا يخطأ من يقول بأن
هناك ارتباطاً فى الاشتقاق بين اسمها وبين لفظ تانيت (Tanit) معبودة الفينيقيين
ولا بد أن يكون فى هذه التسمية أصلا ضاع عنا معناه الحقيقى أى أن هذا
اللفظ لوبى قديم واعلم أن تونس قد لعبت فى الحروب التى كانت ضد قرطاجنه الدور
الذى يسمح لها به موقعها الحربى وعداوتها لتلك المستعمرة الفينيقية وقد استولى

عليها اللوبيون سنة ٣٩٥ ق م ثم أخضعها أغاتوكل (Aguthocle) سنة ٣١٠ ق م وأخضعها أيضاً ريجولوس (Regulus Attilius) فى الحرب القرطاجنية الاولى ثم شبيون (Scipion) فى الثانية وشبيون الافريقى فى الثالثة وكانت موئلا للمجمكين من الجنود أثناء الثورة الدموية التى كابدت قرطاجنه المشاق فى التغلب عليها ولم تكن تونس القديمة حتى زمن الرومان تشغل كل المكان الذى هى فيه الآن وهى وأن كان العرب قد بنوها كلها من مواد قديمة ألا أنه ليس بها بناء عتيق معروف اللهم ألا بعض أماكن فى قصبتها وسورها » اه بصرف وقد استولى المسلمون على تونس فى أواخر القرن السابع الميلادى ومن ذلك الوقت أخذت فى أن تكون مدينة عربية وقد ذكرها البكرى قبل استيلاء بنى حفص عليها بنحو ١٥٠ سنة وقال أنها أشهر مدينة بين مدن أفريقية ولها ذكر كبير فى كل العالم الاسلامى لما بها من المعاهد العلمية ثم بعد ذلك أخذ تاريخها يختلط مع تاريخ البلاد التونسية أو أن تاريخ البلاد التونسية هو حكاية ماوقع بمدينة تونس وقبل بنى حفص كانت فى قبضة بنى الأغلب مدة شر الحان وحكمها أيضا بنو زيرى وفى القرن الحادى عشر من الميلاد أخضعها عبد المؤمن سلطان الموحدين ومنه انتقلت ألى المرابطين ومنهم ألى بنى حفص وأحد سلاطينهم هو الذى قام فى وجه سن لويس ملك فرنسا فى الحملة الصليبية السادسة وقد تغلب عليها بنو مرين وقتا ثم عادت للحفصيين وبقيت فى يدهم حتى أخضعتها الدولة العثمانية تماما وضمتها ألى أملاكها سنة ١٥٧٤ م ومن

هذه السنة المذكورة كان يتولاها ألى المدة الاخيرة حكام يعينهم الباب العالى يلقب الواحد منهم بلقب باى أوبك وكان الواحـد منهم يعين أولا لثلاث سنوات ثم صار مجلس الانـكشارية فى تونس ينتخب الحاكم من أعضائه أى من الانـكشارية ومن سنة ١٦٥٠ صار البايات يحكمون البلاد بالوراثة وفى سـنة ١٦٨٩ استولى الجزائريون على تونس وفى سنة ١٧٠٦ تأسست هذه الأسرة الحسينية وبقيت فى حكمهم حتى أدخلها الفرنسويون تحت حمايتهم سنة ١٨٨١ كما هو معلوم ومن هذا الوقت أخذت تحو نحو المدن الأوربية وتونس هى وطن المؤرخ الـكبير العلامة ابن خلدون قال فى معجم البلدان « تونس والنون تضم وتفتح وتـكسر مدينة كبيرة محدثة بأفريقيه على ساحل بحر الروم عمرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنه وكان أسم تونس فى القديم ترشيش وهى على ميلين من قرطاجنه ومحيط سورها واحد وعشرون ألف ذراع وهى الآن قصبة بلاد أفريقيه بينها وبين سفاقس ثلاثة أيام ومائة ميل بينها وبين القيروان ونحو منه بينها وبين المهدية وليس بها ماء جار أنما شربهم من أبار ومصانع يجتمع فيها ماء المطر فى كل دار مصنع وأبارها خارج الديار فى أطراف البلد وماؤها ملح وعليها محترث كثير ولها غلة فائضة وهى من أصح بلاد أفريقيه هواء وقال البكرى مدينة تونس فى سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو ويدور بمدينتها خندق حصين ولها خمسة أبواب ألى أن قال وفى شرقى مدينة تونس الميناء والبحيرة وباب قرطاجنه ودونه داخل الخندق

بساتين كثيرة وسواق تعرف بسواق المرج ويتصل بها جبل أجرد يقال له
جبل أبى خفاجة فى أعلاه أثار بنيان ثم قال وجامع تونس مطل على البحر
ينظر الجالس فيه ألى جميع جواريه ويرقى ألى الجامع من جهة الشرق على اثنتا
عشرة درجة وبها أسواق كثيرة ومتاجر عجيبة وفنادق وحمامات ودور المدينة
كلها رخام بديع وهى دار علم وفقه وقد ولى قضاء أفريقيه من أهلها جماعة ومع
ذلك فهى مخصوصة بالتشغب والقيام على الأمراء والخلاف للولاة ويصنع
بتونس للماء من الخزف كيزان تعرف بالريحية شديدة البياض فى نهاية الرقة
تكاد تشف ليس يعلم لها نظير فى جميع الأقطار وتونس من أشرف بلاد
أفريقيه واطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة فمن ذلك اللوز الفريك يفرك بعضها بعضاً
من رقة قشره ويحت باليد وأكثره حبتان فى كل لوزة مع طيب المضغة وعظم
الحبة والرمان الذى لا عجم له البتة مع صدق الحلاوة وكثرة المائية والتين
الأسود الكبير وهو رقيق القشر كثير العسل لا يكاد يوجد له بذر وبها
من أجناس السمك ما لا يوجد فى غيرها يرى فى كل شهر جنس من السمك
لا يرى فى الذى قبله يملح فيبقى سنين صحيح الجرم طيب الطعم وافتتحها
حسان بن نعمان بن عدى بن بكر بن مغيث الأسدى فى أيام عبد الملك سنة
٧٠ وأحكم بناءها ومد عليه سلسلة وجعلها رباطاً للمسلمين تمنع الداخل أليها
والخارج منها ألا بأمر الوالى وذكر أخرون من أهل السير أن التى افتتحها
حسان بن النعمان قرطاجنه ولم تكن تونس يومئذ مذكورة أنما عمرت بحجارة

قرطاجنه وبأنقاضها وبينهما نحو أربعة أميال وفى سنة ١١٤ بنى عبيدالله بن الحبحاب مولى بنى سلول والى أفريقيه من قبل هشام بن عبد الملك جامع مدينة تونس ودار الصناعة بها » اه بتصرف

هذا أما أطلال قرطاجنه الشهيرة الواقعة ألى الشمال من تونس فأنها لاتزال قائمة يقصدها السياحون لمشاهدتها قال فى صفوة الأعتبار عند وصفه مدينة تونس « وهناك عدة قرى فى مكان مدينة قرطاجنه العتيقة التى هى الآن خراب ولم يبق منها قائما الا مواجل الماء وقد كانت مسدودة بالتراب ثم فى هاته المدة الاخيرة فرغت منه ووجدت حيطانها وطليها أحسن مما يبنى جديدا وهى نحو أحدى عشرة ماجلا متصلة ببعضها بمنافذ ولا تحتاج ألا لشيء يسير من الأصلاح وهي من المبانى العجيبة التى تقصدها السواح لرؤيتها كما أن خرائب قرطاجنه لازال يستخرج منها الصخور الضخمة والأسطوانات المرمر وكثير من الأفرنج يبحث فيها على الأشياء العتيقة ويستخرج منها تصاوير وأصنام وصناديق من رخام عليها كتابات عتيقة وهى قبور لقدمائهم وتارة يستخرج بعض فصوص منقوش عليها تصاوير فى غاية الأتقان فمنها فص قدر الظفر منقوش به عجلة وأربعة من الخيل ومن أتقان النقش أن صفائح الخيل تظهر مساميرها ولا يستبين عجبها ألا بالمرآة المكبرة كما يستخرج أحيانا قطع من السكة ذهباً أوغيره والحاصل أن هاتيك الجهات وما حولها ألى الجبل الخاوى لازالت تشتمل على عجائب من أثار الأقدمين » اه

القيروان ـ مدينة بالجهات الوسطى من تونس على نحو ٥٨ كيلومتراً ألى الجنوب والغرب من مدينة سوسه بينهما طريق حديدى وسوسة أقرب المراسى للقيروان وللقيروان شأن خطير فى كتب المسلمين لمالها من الأعتبار عندهم وقد بنيت سنة ٦٧٠ م بناها عقبة بن نافع فى سهل واسع كان بعضه سبخات ملحة وقد بقيت مدة قرنين قاعدة أكبر عمالة فى دولة بنى أمية وبنى العباس وعند تجزئة هـذه الدولة صارت قاعدة بنى الأغلب ثم الفواطم وبنى زيرى الصنهاجى قبل بناء المهدية ثم لما دخلها الفرنسويون أخيراً سـنة ١٨٨١ لم يبد أهلها أقل مقاومة أو ممانعة ويقدرون سكانها الآن بنحو (٣٢٫٠٠٠ نفس) وقد انحطت عن منزلتها القديمة الرفيعة ويحيط بها سور من الآجر ارتفاعه عشرة أمتار له شرفات وأبراج وخمسة أبواب وللمدينة سبعة أرباض وهى كثيرة الجوامع والمساجد والمـدارس والزوايا والرباطات وأشهر جوامعها الجامع الـكبير وهو رفيع البناء جميل الطرز بنى عند أختطاطها وشهرته كبيرة جداً فى العالم الأسلامى ولم يكن يسمح لغير مسلم بدخول هذه المدينة أصلا فلم يدخلها من الأوربيين قبل سنة ١٨٨١ ألا ثلاثة أو أربعة فقط وقد وصف سائح أوربى هذا الجامع عما يأتى قال « بنى جامع القيروان بأحجار حملت من خرآئب سبيطله وهو بناء مربع الشكل طول كل جانب من جوانبه الأربع ١٤٠ متراً وارتفاع سوره ثمانية أمتار وعرضـه ستة أمتار تحفظه عضادات ودعامات وله عدة أبواب ومنارته ضخمة مربعة الشكل عريضة جـداً عند قاعدتها ولها ثلاث طبقات

الواحدة فوق الأخرى وترى هذه المنارة للقادم من بعيد وداخل الجامع يشبه غابة حقيقية لكثرة مابه من العمد البديعة التى بعضها من مرمر الأبيض المعرق بالأحمر وبعضها من السماق وبعضها من المرمر الأحمر وكلها ذات نقوش من أجمل وأبدع ماعمله الرومان وتعلوه قبة مسطحة مزينة بنقوش عربية ومدهونة بالمصيص والجص ومن هذه العمد مائة وثمانون حملت من معابد رومانية لاتزال أطلالها وخرائبها فى تلك الجهات ولمنارته ١٢٩ درجة وأذا صعد الأنسان فوقها شاهد منظراً من أبدع المناظر »اه أما عمد الجامع فأنها أربعمائة وخمسين منها عامودان يزعم الناس أنهما باقيان من أقدم عصر المدينة المذكورة وقد حملا من كنيسة مسيحية ويزعمون أيضاً أن من ارتكب أثما لا يمكنه المرور من بينهما وبالمدينة غير هذا الجامع عشرون جامعاً أخرى وثلاثون زاوية ومدينة القيروان جيدة البناء على العموم وأسواقها جميلة بها كل مايحتاج أليه وأزقتها وطرقها نظيفة وميدانها أجمل وأحسن من كل ميادين المدن الأخرى بتونس ومنظرها من جهة العرب جميل مختلف الشكل يتخلله نخيل ألا أن خارجها قحل خال من النباتات تقريباً اللهم ألا ماينبت هنالك من النبات المعروف ببزالكابة (Salicorne) وهو ينبت فى الأرض الكثيرة الأملاح وأهم الصنائع بالقيروان صناعة البسط وسروج الخيل والبلغ والأوانى النحاسية وبسهلها برك ومستغدرات ملحة تكثر مياهها فى زمن الأمطار وقد جلب الفرنسيون أليها الماء من ثلاثين فرسخاً وكان أهلوها وأراضيها قبل ذلك عرضة للعطش

والجفاف من ذلك أنه فى سنتى ١٨٨٧ و١٨٨٨ انحبس المطر عنها ثمانية عشر شهراً فلم يسقط فيها ألا ما لا يروى غليلا وبحالة متقطعة حتى فرغ ثلاثة أرباع الماء الذى بصانعها ومواجلها وهو الماء الذى يدخر للحاجة حتى هم السكان بترك المدينة قال فى صفوة الاعتبار « والقيروان هى المدينة الثانية فى القطر وقد أختطها الصحابة رضوان الله عليهم عند الفتح فى مكان صالح لمعيشة حيواناتهم وقريب من طبيعة أرض الحجار لتأنسهم بها وبعيدة عن البحر حذراً من هجمات المحاربين قبل التمكن وهى فى الجنوب الغربى من الحاضرة وبها الجامع الكبير الذى بنته الصحابة ثم جدده بنو الأغلب عند ما كانت تلك البلدة هى قاعدة القطر ولا زال بعض سقوف الجامع مما صنعه الأغالبة ألى الآن كما أنه فيها ضريح السيد الصحابى سيدنا أبى زمعة الأنصارى رضى الله عنه وعليها بناءآت ضخمة ومدارس للعلوم وأوقاف كثيرة ولتلك البلدة سور وضريح السيد خارج السور وفى السور منافذ ضيقة معرجة للخروج منه راجلا عند غلق الأبواب وعلى السور عدة حصون وهى الآن ليست على ما كانت عليه من العمران وسكانها كلهم مسلمون تقريبا وهم قائمون بجميع ما يحتاجون أليه من صناعة وتجارة ولا زال العلم فى أهلها وبالجامع الأعظم وبمدارس السيد عدة دروس فى علوم شتى» اه وقال فى معجم البلدان « القَيْرَوَانُ قال الأزهرى القيروان معرب وهو بالفارسية كاروان وقد تكلمت به العرب قديماً وهذه مدينة عظيمة بأفريقيه غبرت دهراً وليس بالمغرب مدينة أجل منها ألى أن قدمت العرب أفريقيه وأخربت

البلاد فانتقل أهلها عنها فليس بها اليوم ألا صعلوك لا يطمع فيه وهى مدينة مصرت فى الأسلام فى أيام معاوية رضى الله عنه «اهثم ذكر كيفية تمصيرها ولما كان العرب يسمون مدينة قورينه حاضرة بلاد برقة القيروان القديمة كان يظن أنهم أطلقوا هذه التسمية أيضاً على هذه المدينة التى مصروها

قابس ـ مدينة وقاعدة أقليم هناك ذكرها ابن حوقل والبكرى من بعده وقالا عنها أنها مدينة آهلة بالسكان واسعة التجارة جداً يحيط بها أسوار متينة وخندق عريض ومزارع كبيرة للزيتون والموز والتوت وقصب السكر أما الآن فأن هذا اللفظ يطلق على واحة بها عدة قرى ويبلغ سكانها نحو(١٥٠٠٠ نفس) بينهم بعض اليهود والأوربيين وبساتين قابس مشهورة جداً بجمالها ويرويها وادى قابس وهو نهير جميل دائم الجريان يخرج على نحو سبعة كيلومترات منها وبلدة قابس الحالية ثغر بحرى صغير لا ترسوا عليه ألا سفن الأهالى لقلة عمق المياه أمامه ولها تجارة راقية ومن صادراتها التمر الجيد وزيت الزيتون والثمار والأصواف والجلود وتتردد عليها قوافل تأتى من بلاد الصحراء والسودان وغدامس ولكن الآن قل تردد هذه القوافل عليها وقد شيد الفرنسيون بقربها مدينة حديثة تقدمت بسرعة هى نهاية خط حديدى يخرج من بلاد الجزائر وهى المعروفة الآن بأسم قابس أو قابس الجديدة

جربه ـ وأمام خليج قابس أى سُرت الصغير جزيرة جربه وهى جزيرة مربعة الشكل فى ساحلها الجنوبى خليج عريض ويبلغ أكبر طول لها من

الغرب ألى الشرق ٣٣ كيلومتراً ونحو ذلك عرضها أما محيطها فأنه يبلغ ١٥٥ كيلومتراً بما فى ذلك أنعطافاته وأنحنا آنه الصغيرة ويفصل نهايتها الجنوبية الغربية عن القارة مضيق عرضه نحو نصف كيلومتر وكان فى أضيق مكان من هذا المضيق فيما سبق رصيف من الجانبين وأراضيها خصبة جداً وتروى من الأمطار التى يكثر سقوطها بها ومن حاصلاتها الوافرة العنب الجيد والخوخ والتين والرمان واللوز وكان لتفاحها قديماً شهرة كبيرة ومن أهم موارد الثروة بها غير ما ذكر أشجار الزيتون وبعض أشجاره جسيمة الحجم جداً وزيت جربه مرغوب فيه للغاية أكثر من زيت السوس وسفاقس أما تمرها فتوسط الدرجة وتشتهر أصوافها بجمالها ونعومتها وليس بجربه مدينة فى الحقيقة وأكبر قراها قرية تسمى السوق قريبة من ساحلها الشمالى بها من السكان نحو (٣٠٠٠ نفس) دورها نظيفة جيدة البناء وبكل جهات الجزيرة معامل للنسيج ومع ذلك فأن بلدة السوق المذكورة يمكن عدها مدينة لما اشتملت عليه من الفنادق والأسواق وغيرها من المبانى العمومية ويقيم اليهود من سكانها فى محلة خاصة بهم تعرف بالحارة وبها غير بلدة السوق المذكورة أربع بلاد أو قرى تعرف عندهم بالحومات فيقال حومة كذا وحومة كذا ولتفرق مساكن جربه ودورها وسط مزارع وأشجار كثيرة كثيفة كان منظر هذه الجزيرة من أبدع المناظر وأجملها خصوصاً فى جهاتها الجنوبية التى هى أخصب الجهات بها ويزيد سكان هذه الجزيرة عن أربعين ألف نفس وبذلك كانت بالنسبة

لمسطحها أكثر بلاد تونس سكاناً وهم ليسو من العرب بل هم وبنى مزاب ببلاد الجزائر من أصل واحد بربرى يتكلمون لغة واحدة وينقسم أهل جربه ألى عشرة أقسام لكل قسم شيخ يعرف بالمقدم يستشيره القائد فى كل الأعمال وهو شيئ درجوا عليه من القديم أو بقية ما كان لسكانها من الحرية قديماً وقد قسم بعضهم السكان الى زرّاع وهم الأكثر وألى حاكه وقد اشتهروا بعمل المنسوجات الصوفية وألى مراكبية وألى صيادى سمك وعلى شواطىء جربه ستة حصون أشهرها وأهمها البرج الكبير وهو ألى الشمال بالقرب من بلدة السوق المذكورة وتر .وا السفن على نحو تسعة كيلومترات منه لأن الأعماق المنغيرة فى البحر أمامه لا تسمح للسفن بزيادة القرب وبين جربه وسفاقس ومدينة طرابلس ومالطه مواصلات كثيرة وتتردد عليها سفن تأتى من مرسيليا وتعرف هذه الجزيرة قديما بأسم مِنِنِكس (Mininx) أو بجزيرة لوتوفاج ومعناه آكلو ثمر اللوتس واللوتس يشبه النبق ويقولون أن ثمره كان لذيذاً جدا حتى أن الأغراب متى طعموه ينسون أوطانهم قال بعض العلماء فى ذلك ما يأتى «ظن الناس عموما أن هذه الثمرة العجيبة هى نوع من العناب أو النبق أى السدر ولكنه زيادة عن أن العناب والنبق ليس لهما من المزايا ما يستحقان به هذه الشهرة الكبيرة فأن هذا النبات غير منتشر كثيراً فى جربه أى فى بلاد آكلى اللوتس القدماء بل هناك شجرة منتشرة جداً كثيرة الشوك تسمى دَامُوش تخرج حبوبا مائلة للحمرة ذات طعم لذيذ مختلط من طعم التوت الأرضى أو الشوكى (الفراوله)

ومن عنب الثعلب ويحـدث تأثير هـذه الثمرة فى الجسم أوفى جسمى أنا على الأقل لذة منعشة تجعل فى النفس استعداداً الى السرور والفرح وتترك فى الذاكرة وفى المعدة قابليةشديدةوتشهياً كبيراً لهذا الثمر اللذيذ ولذلك أظن أن هذاهو اللوتس الحقيقى » اهوقد حفر الفرنسويون الآن بجربه آباراً ارتوازية فاتسعت مزارعها وحول بلدة السوق جالية من المالطيين يشتغلون بزرع الخضراوات وقد أشتهر أهل جربه بالصبر فى الأعمال والميل للصناعة وقد أدخلوا فى معاصر زيوتهم الآلات الحديثة ويجـد الأنسان منهم فى كل بلاد تونس تقريبا يشتغلون ببيع المطارات وقد اشتهر أهـل جربه بالترتيب والتنظيم فى أعمالهم هذا وكان لـكبار الموظفين بأفريقية الرومانية وكذا أغنياء التجار بها فى جربه دور ومساكن يمضون فيها أوقات لهوهم وقصفهم لأن هـذه الجزيرة كانت أليهم كما هى الآن جزيرة جرسى للأنجليز ولما كانت هذه الجزيرة عظيمة الخصوبة وكانت حاصـلاتها تنمو وتنضج قبل أوانها كان يظن أنها ستصير يوما مزرعة للباكر من الثمار كما اشتهرت قديماً بأنها جنـة تونس وتجارتها واسعة فى الأسفنج والأصواف وزيت الزيتون والمنسوجات والأغطية الصوفية المعتبرة والأوانى الفخارية ويسميها أهل تونس جنةالعرب ولـكنها جنة قاربت أن تقع فى يد اليهود لأن الثروة هناك فى يدهم كما هى فى كل مكان آخر يبلاد تونس زيادة عن كثرة عددهم بها قال فى معجم البلدان «جربه هى جزيرة بالمغرب من ناحية أفريقية قرب قابس يسكنها البربر وقال

أبو عبيد البكرى وعلى مقربة من قابس جزيرة جربه وفيها بساتين كثيرة وأهلها مفسدون فى البر والبحر وهم خوارج وبينها وبين البر الكبير مجاز » اه

سَفَاقُس ـ مدينة بأمارة تونس جنوباً بينها وبين مدينة تونس ٢٢٥ كيلومتر ألى الجنوب والشرق منها وهى قاعدة وطن سفاقس وقَرْقَنّه واقعة فى أرض سهلة بينها وبين أقرب جزر قرقنه أليها نحو عشرين كيلومتراً وعلى خليج سرت الصغير أو خليج قابس بها من السكان نحو(٥٠٫٠٠٠ نفس)فهى المدينة الثانية بامارة تونس وتنقسم سفاقس ألى مدينة عالية وأخرى واطئة تعرف بالرباط وحول المدينة العالية أو الأسلامية سور عليه أبراج يظن أنه من بناء الأسبانيين وبه بابان وقصبتها جيدة البناء وبالمدينة خمسة جوامع وثلاث مدارس وزوايا أخرى وبيمارستان وآحد أبراجها يسمى بالناظور شيده أسرى النصارى فى القرون الوسطى ومتى صعد الأنسان فوقه اتسع الأفق أمامه فشاهد البر والبحر وجزائر قرقنه والمدينة وبساتينها أما المدينة الواطئة فحولها أيضاً سور وأكثر سكانها من اليهود وتجار الزيت وبين سور المدينة العالية والبحر قامت الآن مدينة أوربية قال سائح أوربى «أن سفاقس مثل سوسه والمهدية ذات منظر عجيب يشاهده القادم عليها وأسوارها ذات شرفات يختلف ارتفاعها بين عشرة أمتار وأثنى عشر متراً وهى تمتد بحالة غير منتظمة لا تمكن الأنسان من أن يرى من المدينة التى تكتنفها ألا مجموعة متكاثفة مختلطة من أسطحتها ودورها لا يعلوها ألا قباب المساجد والأبراج المربعة

والمثمنة الشكل مما يزيد فى تكاثف واختلاط أستحكاماتها الكثيرة التعاريج
وكلها مبيضة بالجص بحيث أن ذلك يخالف منظره منظر شاطئها القاتم وبساتينها
الداكنة اللون ولما كانت مدن ساحل بلاد تونس تختلف عن بعضها اختلافاً
بيناً كان لا يمكن تشبيه سفاقس ألا بمدن مصر وسوريه أى أنها تشبه عكاء
ودمياط فى زمن الحروب الصليبية ومرسى سفاقس أمين ولكنه قليل العمق
لهذا تضطر السفن الكبيرة لان تقف منها على أكثر من ثلاثة كيلومترات
تقريباً ولسفاقس تجارة مع فرنسا وأيتاليا وأنجلتره ومع بقية الثغور البحرية
بتونس وبلاد اليونان وينبت فى بساتينها التى تسقى بماء الآبار الزيتون واللوز والفستق
والتين والبلح والخيار وهو يسمى هناك بالفقوس ويظن بعضهم أن أسم هذه المدينة
محرف عنه ولكنه تخريج بعيد ويقولون أن نحو عشرة آلاف من هذه البساتين
كانت منفصلة عن بعضها بسياجات من التين الشوكى وكان لكل بستان برج
لحمايته ويقولون أيضاً أن زيتونها هو أحسن أنواعه فى كل بلاد تونس
ويشرب سكانها من ثلاثة مواجل كبيرة أكبرها يسمى بالناصرية وهو عبارة
عن ثلاثمائة صهريج وألى خلف منطقة البساتين التى يختلف عرضها بين سبعة
كيلومترات وعشرين كيلومتراً تكون الرمال والصحراء وبالمدينة أسواق
جميلة فخيمة هى أجمل من أسواق مدينة تونس وتجارتها واسعة فى الزيت
والتين والزبيب واللوز والفستق والكمون والأسفنج والسمك والأصواف
والجلود والتمر والحلفاء والجمال وجمالها مشهورة جداً بقوتها ويأتى أليها

منسوجات صوفية جميلة من بلاد الجريد قال بعضهم أن سفاقس هى أحدى المراسى المهمة فى أمارة تونس وقد ذكرها مؤلفوا العرب كالبكرى والأدريسي وأعجبوا بها كثيراً وذكروا آثارها ومبانيها وأسواقها وتجارتها ومنسوجاتها الصوفية وأطنبوا فى ثروة أهاليها وصناعتهم ألا أن سفاقس قد فقدت تلك الشهرة من بعد المؤلفين المذكورين وأصبح لا يتردد على مرساها من السفن ما كان يتردد عليها أذ ذاك ومع ذلك فانها لم تهمل تماماً سيما وأن موقعها لجودته وخصوبة بساتينها ووفرة سمكها وأسفنجها وعلاقاتها المستمرة مع مدينة قفصة التى تجعلها فى مواصلة مع بلاد الجريد كل هذه الاسباب وغيرها تبعد سفاقس عن الانحطاط والسقوط كما حصل لأغلب مدائن تونس وأنها ستبقى أحدى مدنها الكثيرة السكان ولا تزال بها بعض الصنائع منها عمل المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والمراكيب (البلغ) ودبغ الجلود وسروج الخيل ويشتغل بهذه الصنائع كثير من أهاليها وأهل سفاقس من أشد أهالى تونس ذكاء وغيرة على الدين ومحبة للشغل وعلى نحو أثنى عشر كيلومتراً ألى الجنوب والغرب منها أطلال مدينة قديمة تسمى تينا (Thina)كانت مرسى لمدينة يقال لها تيفست (Théveste) وقد احتل الفرنسويون سفاقس سنة ١٨٨١ بعد مقاومة من أهاليها ولهذا أطلقوا عليها المدافع وحاصروها » اه

قال فى معجم البلدان « سَفَاقُسْ بفتح أوله مدينة من نواحى أفريقيه جُلُّ غلاتها الزيتون وهى على ضفة الساحل بينها وبين المهدية ثلاثة أيام وبين سوسه

يومان وبين قابس ثلاثة أيام وهى على البحر ذات سور وبها أسواق كثيرة ومساجد وجامع وسورها صخر وآجر وفيها حمامات وفنادق وقرى كثيرة وقصور جمة ورباطات على البحر ومنابر يرقى أليها فى مائة وستين درجة فى محرس يقال له بطريه وهى فى وسط غابة الزيتون ومن زيتها يمتار أهل المغرب وكان يحمل ألى مصر وصقليه ويكون فيها رخيصا جداً يقصدها التجار من الافاق بالأموال لابتياع الزيت وعمل أهلها القصارة والكمادة مثل أهل الأسكندرية وأجود والطريق من سفاقس ألى القيروان ثلاثة أيام» اهقال فى صفوة الأعتبار «ولأهل سفاقس شهرة بالتجارة فى دواخل القطر وفى الممالك الأسلامية ولهم مزيد محافظة على الصلوات فى المساجد ولهم بقايا من العلوم الدينية والأدبية وتأوى أليها سفن الحكومة فى الشتاء لأنها مأمن طبيعى للسفن واشاطئها مد وجزر ويتبعها جزيرة قرقنه التى بها قرى ولأهلها صناعة الحلفة والحبال » اهوقد تغير شكل سفاقس الآن تغيراً كليا بمبانيها الجديد وبما قام فيها من المصانع والمعامل الحديثة وأصبحت سفن البريد الكبيرة ترسوا على رصيفها وتحمل منها بالآلات الميكانيكية الفُسفات الذى يجلب اليها فى سكة حديد قفصه

قرقنه ـ أما قرقنه المتقدمة الذكر فهما جزيرتان أمام هذه المدينة بينهما وبين الساحل مجاز قليل العمق جداً وأصغرهما الجزيرة الغربية وتبعد عن سفاقس بنحو خمسة وعشرين كيلومتراً وأكبرهما الشرقية وهى على نحو أربعين كيلومتراً

وفى وسطها مستنقع ملح يجف معظم السنة تقريباً يعرف بسبخة الملح أو سبخة الرملة بأسم قرية بجوارها هناك هى أحدى القرى التسع التى بتلك الجزيرة وتسمى هذه الجزائر قديماً سِرْتِسناو بها بعض آثار رومانية كالصهاريج والهياكل والحصون وغيرها وكان بين الجزيرة الشرقية والجزيرة الغربيـة قنطرة يزيد طولها عن ألف متر لم يبق منها الآن الا قواعد عمدها ويظن أنها من بناء الرومان أو من بناء أمة قبل الرومان وبالجزيرة الغربيـة أيضاً مستنقع ملح وبها قرية واحدة فقط تسمى مليطه ويكثر النخيل بالجزيرتين المذكورتين ألا أن ثمره قليل الحجم والحلاوة وبها كذلك بعض أشجار الزيتون والكرم ومن نباتاتها أيضاً الشعير والحنطة والعدس وليس بها شيء من المياه الجاريه ويشرب سكانها من مياه الأبار ويبلغ سكان الجزيرتين معاً نحو ثمانية آلاف نفس كلهم من البربر أو من أصل بربرى ويميلون للعمل والرق ويسكنون عشر قرى ويشتغلون بالزراعة ورعاية الماشية وخصوصاً بصيد السمك وغيره وبناء السفن وعمل الأحبال والحصر يصنعونها من الحلفاء التى تكثر بهاتين الجزيرتين ومن النخيل أيضاً وكانت حكومـة تونس فيما سبق تنفى أليهما الزانيات والبغيات من النساء عقابا لهن قال فى معجم البلدان « قال أبو عبيد البكرى ويقابل سفاقس فى البحر جزيرة تسمى قرقنه هذا يكتب أهل الدراية ويتلفظ بها أهل تلك البلاد بالتخفيف فيقولون قرقنه وهى فى وسط البحر بينها وبين سفاقس فى ذلك البحر الميت القصير القعر عشرة أميال وليس

للبحر هنالك حركة في وقت وبحذاء هذا الموضع في البحر على رأس هذا القصر بيت مشرف مبنى بينه وبين البحر الكبير نحو أربعين ميلا فأذا رأى ذلك البيت أصحاب السفن الواردة في الأسكندرية وغيرها أداروها ألى مواضع معلومة وفي هذه الجزيرة آثار بنيان وصهاريج للماء كثيرة ويدخل أهل سفاقس أليها دوابهم لأنها خصبة» اه

قَفْصَه ـ مدينة بها من السكان نحو (٣٥٠٠ تقس) ببلاد الجريد وبينها وبين قابس الواقعة ألى الشمال والغرب منها نحو ١٢٣ كيلومتر وهي على واد يعرف بوادي بَيّش أو وادي طرفاوي وللأوربيين أقبال على سكناها وهي أزلية والسبب في ذلك جودة موقعها الحربي والتجاري وكثرة ينابيعها وهي في أحدى نقط العبور النادرة بجبال النجد العالي الوعرة الجرداء وكان لهذه النقطة في كل الأزمنة أهمية حربية كبرى وينبع في هذا المعبر على الشاطىء الأيمن من واديه عينان غزيرتان مشهورتان مياههما حارة واحدة منهما في القصبة وثانيتهما في أسفل قفصه وقد اكتشفوا بالأراضي الرسوبية التي حول قفصه كثيراً من الألات والأدوات الحفرية كالبلط والسكاكين والمكاشط والسهام وغير ذلك مما كان يستعمله أهل القرون الأولى من العصر الحجري وقد كانت واحة قفصه أوسع مما هي الآن لأن الرمال أغارت على قسم عظيم منها وسكان واحاتها مصابون كلهم تقريبا بالكساح وبالداء الخنازيري وبأمراض العيون وتنتشر بها الحميات في فصل الصيف لما ينبعث من بساتينها من الابخرة

والصيف هناك شديد الحرارة وكثيراً ما تبلغ خمسة وأربعين درجة فى الظل بمقياس سنتغرادو يشتغل أهاليها بعمل البرانس وحياكة الأغطية الصوفية وتسمى قديما كبسه (Capsa) وكان جوغرتا ملك البربر يحفظ بها خزائن أمواله وبضواحيها بساتين جميلة أنيقة ينبت بها النخيل والبرتقال والليمون والرمان والفستق وقد ذكر البكرى عمل قفصه وقال أن به أكثر من مائتى قرية كلها راقية زاهرة وتعرف هذه القرى بقصور قفصه وبالقرب من قفصه أطلال رومانية وقد بنيت قصبتها من تلك الأطلال وعلى نحو كيلومترين اثنين منها كهف يعرف بغار الجلابة وهو عبارة عن مقطع أحجار قديم أخذوا منه قديما كل الأحجار التى بنيت بها كبسة القديمة قال فى معجم البلدان « قَفْصَه بالفتح ثم السكون وصاد مهملة هى بلدة صغيرة فى طرف أفريقيه من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام مختطة فى أرض سبخة لا تنبت ألا الأشنان والشيح يشتمل سورها على ينبوعين للماء أحدهما يسمى الطرميذ والآخر الماء الكبير وخارجها عينان أخريان أحداهما تسمى المَطْوِيَّة والأخرى بَيِّش وعلى هذه العين عدة بساتين ذوات نخل وزيتون وتين وعنب وتفاح وهى أكثر بلاد أفريقيه فستقا ومنها يحمل ألى جميع نواحى أفريقيه والاندلس وسجلماسه وبها تمر مثل بيض الحمام وتمير القيروان بأنواع الفواكه قال وقد قسم ذلك الماء على البساتين بمكيال توزن به مقادير شربها معمولة بحكمة لا يدركها الناظر لا يفضل الماء عنها ولا يعوزها تشرب فى كل خمسة

عشر يوما شربا وحولها أكثر من مائتى قصر عامرة آهلة تضطرد حواليها المياه تعرف بقصور قفصه » اه

سُوسه ـ مدينة فى تونس شرقا واقعة على نحو ١١٠ كيلومترات ألى الجنوب والشرق من مدينة تونس وهى ببلاد الساحل مبنية على مدرج من الأرض على ساحل خليج يعرف بخليج الحمامات يقدرون سكانها بنحو (٢٠٫٠٠٠ نفس) منهم نحو خمسة آلاف من الأوربيين أغلبهم من الطليانيين وقد أتم الفرنسويون الآن بناء مينائها ويشرب أهاليها من صهريج كبير ومن آبار ولها قناة من بناء الرومان تجلب لها الماء من وادى الخروب وكان قد تهدم بعضها فأصلحه الآن الفرنسويون وبينها وبين القيروان وتونس طريق حديدى وحولها سور محيطه نحو ثلاثة كيلومترات بهشرفات وأبراج مربعة وثلاثة أبواب وقصبتها جيدة البناء فى مكان مرتفع منها وقد قامت بجوارها مدينة جديدة بالقرب من شاطىء البحر سكانها من الأوربيين بها مخازن كبيرة للتجار وصهاريج للزيت وزيتها يرسل ألى مرسيليا لعمل الصابون وبها أيضا معمل كبير لصناعة الصابون وبساحل سوسه زيتون كثير هو من أهم ثروتها وتتجر أيضا فى الحبوب والأصواف والحلفاء والصابون ومن وارداتها الحديد وأدواته والخرداوات والمنسوجات القطنية ومواد الغذاء وأكثر ما تكون تجارتها مع مرسيليا أولا ثم مع صقليه وأيتاليا ومالطة ويتردد عليها سفن بخارية فى أوقات معينة وقد حسنت أحوال هذه المدينة منذ الحماية

الفرنسوية وأخذت المزارع تمتد حولها وتغير على الأراضى الرملية وليس سكانها من أصل عربى بدليل لونهم وزرقة عيونهم وهم يقولون عن أنفسهم أنهم سوسيون لا غير وقد تأكد الآن أن سوسه فى مكان مدينة قديمة تعرف بأسم أدروميتوم أوهدروميتوم (Hadrumetum) كانت أولا مستعمرة فينيقية ثم مدينة قرطاجنيه ثم رومانية من عهد الامبراطور تراجان فكانت تسمى بأسمه ومع ذلك فان بعض الجغرافيين يقولون أن بين هدروميتوم المذكورة وهرجلة مشابهة ومناسبة وهرجلة المذكورة مدينة تونسية أيضا ألى الشمال والغرب من سوسة قريبة من خليج الحمامات وبقربها للآن بقايا قلعة بوزنطية وعمد هى أطلال مستعمرة رومانية وتشغل البلدة المذكورة الآن مكان هدروميتوم القديمة كما يقول أولئك العلماء وكانت هرجلة القديمة أكبر من مدينة سوسه الحالية بثلاث مرات وكان لها مثل قرطاجنه ثلاثة أسوار وقد زال درج سوسه الذى ذكره البكرى تماما كما زال هيكلها الذى كان يسميه البحارة بالقنطاس

قال فى معجم البلدان سوسه بضم أوله بلفظ واحدة السوس الذى فى الصوف قال أبو سعد سوسة بلد بالمغرب وهى مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب ألى الصفرة وبعد أن أنكر روايته عنها وقال أن فى هذا القول تخليط قال والصحيح أن سوسة مدينة صغيرة بنواحى أفريقية بينها وبين سفاقس يومان أكثر أهلها حاكة ينسجون الثياب السوسية الرفيعة وما صنع فى غيرها فمشبه بها يكون ثمن الثوب منها فى بلدها عشرة دنانير وبين

سوسة والمهدية ثلاثة أيام ألى أن قال وهى مدينـة قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح من الشمال والجنوب والشرق سورها صخر حصين منيع يضرب فيه البحر وبها منار يعرف بمنار خلف الفتى ولها ثمانية أبواب وبها الملعب وهو بنيان عظيم بناه الاول له أقباء مرتفعة واسعة معقودة بحجر النشفة الخفيف الذى يطفو على رأس الماء المجلوب من ناحية صقلية وحوله أقباء كثيرة يفضى بعضها ألى بعض وهى مدينة رخيصة كثيرة الخـير ألي أن قال وكان زيادة الله بن الأغلب قد بنى سورها وكان يقول لا أبالى ماقدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات بنيان المسجد الجامع بالقـيروان وبنيان قنطرة الربيع وبنيان حصن مدينة سوسه وتولية احمد بن أبى محرز قضاء أفريقية وخارج سوسه محارس ومرابط ومجامع للصالحين وداخلها محرس عظيم كالمدينة مسور بسور متقن يعرف بمحرس الرباط يأوى أليه الصالحون والعباد وقيل داخلها محرس آخر عظيم يسمى محرس القصب وهو متصل بدار الصناعة وسوسه فى سند عال ترى دورها من البحر ووراءها سورهيكل عظيم سمته البحريون القنطاس وهو أول ما يرى من البحر ولهذا الهيكل أربع درج يصعد من كل واحدة منها ألى أعلاه والحيا كة بسوسة كثيرة ثم قال ومن محارس سوسة المذكورة المناستير اه

بنْزَرت ـ مدينة بحرية فى تونس على الساحل الشمال وعلى المدخل الغربى من خليج يخرج من البحر يتصل ببحيرة تعرف ببحيرة بنزرت وبنزرت ألى

الشمال والغرب من تونس بينهما نحو خمسة عشر كيلومتراً قريبة جداً من رأس أوار المعروف برأس بون وهى أبعد مدن تونس ألى الشمال وبها من السكان نحو (١١٫٠٠٠ نفس) أما البحيرة المذكورة فهى مستنقع قليل العمق جداً فى وسطها قمة مخروطية شجراء يظن أنها كانت قمة بركان ويسكن منحدراتها للآن قطعان من الجواميس الوحشية كما سبق لا يصرح لأحد بالصيد فيها ألا لمن كان من أسرة الباى والبحيرة المذكورة فى الحقيقة بحيرتان داخلة وخارجة بينهما خليج وقبل أن يشرع الفرنسويون فى تحصين البحيرة الخارجة وجعلها ثغراً حربياً كانت تتصل بالبحر من قناة ضيقة لا يسير فيها ألا سفن الصيادين فقط ويبلغ مسطح هذه البحيرة ١٣٠ كيلومتراً مربعاً وعليها من جهة البحر أكمات تنفصل من جبال مجردة وطُبُرْسُقْ تحفظها من فعل الأمواج ويبلغ متوسط عمقها ١٣ متراً فيمكن لأضخم السفن الحربية أن ترسوا فيها وقد حفروا الآن قنالا واسعاً عرضه ٢٤٠ متراً بين البحيرة المذكورة والبحر أما القناة القديمة فقد هدمت وتحولت ألى منتزه عمومى وتسمى هذه المدينة عند الرومان هِبُّوزاريتوس أقيمت على أطلال مستعمرة صغيرة فينيقيــة وقد حرف العرب أسمها فجعلوه بَنْزَرت وعنهم أخـذه أهل أوربا وجعلوه بيزرت وكانت بنزرت وقت أن دخل الفرنسويون البلاد يسكنها صيادون من التليانيين حببهم فى الأقامة هناك وفرة السمك بالبحيرة المذكورة وفرة فائقة وقوم من أهالى البلاد كانوا يشتغــلون بتربية

الضأن وزراعة الزيتون أصلهم من أهالى الأندلس وقد بقيت هذه البلدة القديمة على ما كانت عليه وقام بجوارها مدينة جديدة على الخليج الذى حفره الفرنسيون كما تقدم وموقع المدينة الجديدة موافق جداً لجعلها من أهم مدن بحر الروم وأكبرها تجارة ولكنها مع ذلك لا زالت ألى الآن بلدة حربيةوأخذت حركتها تتناقص بعد أن تمت المبانى الحربية التى أقيمت بها واستمر العمل بها نحو خمسة عشرة سنة وأخذ سكانها من الأوربيين يهجرونها خصوصا التليانيين منهم وهم الذين كانوا يشتغلون فى تلك المبانى والدخول في البحيرة المذكورة ممكن فى كل وقت وفى الليل والنهار على السواء وقدشيد الفرنسيون على تلك الأكمات المطلة على البحر حصونا وقلاعا من أحدث طرز حربى يمكنها أن تجعل نيرانها تتقاطع فى كل الأتجاهات وقد أقاموا بها أيضا ثكنات جميلة ضخمة تسع أكثر من خمسة آلاف جندى ودار صناعتها فى نهاية البحيرة فى مكان يعرف بسيدى عبد الله بها كل ما يلزم من الآلات والأدوات والعدد التى تكون بدور الصناعات الكبيرة ولعمل كل ما يطلب منها من الأصلاح والترميم وبناء الأساطيل مهما كان نوعها وقدرها ويقولون أن لهذه المدينة مستقبلاً جيداً فى التجارة والصناعة قال فى معجم البلدان «بنزرت مدينة بأفريقيه بينها وبين تونس يومان وهى من نواحى شَطفُورَه مشرفة على البحر وتنفرد بنزرت ببحيرة تخرج من البحر الكبير ألى مستقر تجاهها يخرج منها فى كل شهر صنف من السمك لا يشبه السمك الذى خرج فى الشهر الذى قبله

ألى انقضاء الشهر ثم صنف آخر ويضمّنه السلطان بمال وافر بلغنى أن ضمانته اثنا عشر ألف دينار قال أبو عبيد البكرى وبشرق طبَرْقه على مسيرة يوم وبعض آخر قلاع تسمى قلاع بنزرت وهى حصون يأوى أليها أهل تلك الناحية أذا خرج الروم غزاة ألى بلاد المسلمين فهى مفزع لهم وغوث وفيها رباطات للصالحين قال وقال محمد بن يوسف فى ذكر الساحل من طبرقه ألى مرسى تونس مرسى القبة عليه مدينة بنزرت وهى مدينة على البحر يشقها نهر كبير كثير الحوت ويقع فى البحر وعليها سور صخر وبها جامع وأسواق وحمامات افتتحها معاوية بن خديج سنة ٤١ وكان معه عبد الملك بن مروان» اه

المهدية ـ مدينة ألى الجنوب من تونس بينها وبين مدينة تونس نحو ١٧٦ كيلومتر وهى ألى الجنوب والشرق منها واقعة فوق شبه جزيرة مستطيلة تمتد فى بحر الروم وتتصل مع القارة ببرزخ عرضه نحو سبعمائة متر ويقال أنه كان فى هذا البرزخ قديما خليج تسير فيه السفن ألا أنه لم يبق الآن أثر لهذا الخليج ويقدرون سكانها بنحو (١٠,٠٠٠ نفس) وبقربها مقاطع كبيرة لأحجار البناء ومن مصنوعاتها الصابون واستخراج الزيت وتمليح السردين وصيده واستخراج المرجان والأسفنج وتصدير الحلفاء والحبوب والأصواف وقد اكتشفوا فى ضواحيها مقبرة لأهل قرطاجنه وقد فقدت هذه المدينة الآن درجتها القديمة وهى من بناء عبيد الله المهدى فنسبت أليه (٩١٢ م) وكان بموضعها نزلة تجارية فينيقية ثم صارت نزلة قرطاجنية وقد بلغت المهدية

درجة عظيمة وأهمية كبيرة حتى أن نصارى أوربا كانوا يسمونها مدة زمن طويل أفريقيه لاشتمالها على كل ما اشتمل عليه أقليم أفريقيه القديم ولهذا أغار عليها الفاتحون مراراً من ذلك أن روچير (رجار) النورمندى ملك صقليه استولى عليها سنة ١١٤٧ من الميلاد وبقيت فى قبضته ثلاث عشرة سنة ثم أن شرلكان أحتلها سنة ١١٥١ م بعد أن هاجمها هجمات سفكت فيها دماء كثيرة وبقيت أسوارها من ذلك العهد لم يصلح من شأنها ولم يجدد من بنائها قال سائح أوربى «للمهدية أسوار جميلة ضخمة بهاعدة ثلمات وأبراج متهدمة من أعلاها وفى بعضها شقوق تمتد من أعلاه ألى قاعدته وكثير من دورها متخرب أو آيل للسقوط وكذلك الحال فى كثير من جوامعها لعدم العناية بها أو لتقادم عهدها والحاصل أن علامات التخريب والدمار تمتد على كل جهات المدينة ومن يوم ما أمر شرلكان بتخريب أسوارها وقلاعها لم تقم لها قائمة ولم يرد لها ذكر فى التاريخ» اهـ وبالمهدية جامع يشبه جامع القيروان كانت له قديما شهرة كبيرة وقصبة المهدية مبنية فوق أعلى مكان بالبرزخ المذكور وهى متخربة تقيم بها الآن الجنود الفرنسوية وكانت من أضخم القصبات ومرساها الداخلى صغير جداً وهو من عمل الفينيقيين وهو الآن قليل العمق كثيراً ولكن يسهل تعميقه وأصلاحه وهو يتصل بالبحر من خليج عرضه نحو عشرين متراً وكان على مدخله قديماً برجان لحمايته قد تخربا الآن وفى نهاية هذه الشبه الجزيرة مقبرة ربما كانت للفينيقيين وهى عبارة عن عدة مغاور ضيقة محفورة

فى الصخر لم يبق فيها الآن لا نواويس ولا غيرها ويكثر السمك جداً فى مياه المهدية فى شهور مايو ويونيه ويوليه قال فى معجم البلدان « المهدية مدينة بأفريقيه منسوبة ألى المهدى وبينها وبين القيروان مرحلتان القيروان فى جنوبها والثياب السوسية المهدوية أليها تنسب وقد أختطها المهدى وهى على ساحل بحر الروم داخلة فيه كالكف على زند عليها سور عال محكم كأعظم ما يكون يمشى عليه فارسان عليها باب من حديد مصمت مصراع واحد تأنق المهدى فى عمله وقال بعض أهل المعرفة بأخبارهم فى سنة ٣٠٠ خرج المهدى بنفسه ألى تونس يرتاد لنفسه موضعا يبنى فيه مدينة خوفا من خارج يخرج عليه وأراد موضعا حصينا حتى ظفر بموضع المهدية وهى جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند فتأملها فوجد فيها راهبا فى مغارة فقال له بم يعرف هذا الموضع فقال هذا يسمى جزيرة الخلفاء فأعجبه هذا الأسم فبناها وجعلها دار مملكته وحصنها بالسور المحكم والأبواب الحديد المصمت ألى أن قال وقال أبو عبيد البكرى كان شروعه فيها سنة ٣٠٠ وكمل سورها فى سنة خمس وانتقل أليها سنة ثمان وقال أبو عبيد البكرى جعل لمدينتها بابا حديد لا خشب فيهما كل باب وزنه ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً كل مسمار من مساميره ستة أرطال وجعل فيها من الصهاريج العظام وأهل تلك النواحى يسمونها مواجل ثلاثمائة وستين ماجلا غير ما يجرى أليها من القناة التى فيها والماء الجارى الذى بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية ميَّانش وهى على مقربة من المهدية

ويصب فى المهدية فى صهريج داخل المدينة عند جامعها ويرفع من الصهريج ألى القصر بالدواليب ألى أن قال ومرسى المهدية منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبا على طرف المرسى برجان بينهما سلسلة حديد فأذا أريد أدخال سفينة أرسل حراس البرجين أحد طرفى السلسلة حتى تدخل السفينة ثم يمدونها كما كانت تحييسا لها ولما فرغ من أحكام ذلك ارتحل أليها وأقام بها ثم عمر بها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن كل طائفة فى سوق فنقلوا أليها أموالهم فلما استقام ذلك أمر بعمارة مدينة أخرى ألى جانب المهدية وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان وأفردها بسور وأبواب وحفظة وسماها زويله وأسكن أرباب الدكاكين من البزازين وغيرهم فيها بحرمهم وأهاليهم وقال أنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم وذلك أن أموالهم عندى وأهاليهم هناك فأن أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك وبنيت بينى وبينهم سوراً وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهاراً لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبينهم وبين حرمهم نهاراً - وشرب أهلها من الآبار والصهاريج ومهماذكرنا من حصانتها فأن أحوال ملوكها تناقضت حتى أفضى الأمر ألى أن أنفذ رجار صاحب صقلية جورجى أليها فى سنة ٥٤٣ هـ فأخلاها الحسن بن على ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس وخرج هاربا حتى لحق بعبد المؤمن وبقيت فى يد الأفرنج أثنتا عشرة سنة حتى قدم عبد المؤمن فى سنة ٥٥٥هـ ألى أفريقيه تأخذ المهدية فى أسرع وقت فهى فى يد أصحابه ألى يومنا هذا

ولم تغن حصانتها فى جنب قضآء الله شيئاً » اه بتصرف

بلاد طرابلس

سكانها ـ يتركب السكان بهذه البلاد كما هم فى كل بلاد أفريقيه الشمالية من عنصرين أصليين هما العرب والبربر يضاف اليهما طوائف من السود يزداد عددهما كلما تقدم الأنسان نحو الجنوب ويظهر أن بعض هذه الطوائف من السكان القدماء وربما كانوا من نسل أمة كانت تسكن هذه البلاد قديماً تسمى جرامنت [١] والبعض الآخر رقيق جلبوا من بلاد السودان وعلى الخصوص من برنو وهناك قوم من اليهود والأوربيين والتوارك قد اختلطت طوائفهم بغيرها أختلاطا كثيراً جدا بحيث يكون من النادر أن يرى الأنسان أشخاصا من أصل تسهل معرفته ومن جنس خالص أما العرب فقد انتشروا فى بلاد برقه وبلاد طرابلس وفى قسم من فزان من أول القرن السابع الميلادى وأغارة بنى هلال التى سبق الكلام عليها التى وقعت فى القرن الحادى عشر منه هى التى جلبت معها القسم الأعظم منهم فانتشروا بجموعهم فى

(١) الجرمنت (Garamantes) ـ أمة قديمة من أمم أفريقيه كانت تسكن بلاد لوبيه الداخلية بالجنوب الشرقى من نوميديا وكان الفاصل بينهما سلسلة أطلس ومن أمهات مدنهم جاراما وتسمى الآن جرما من واحات بلاد فزان وقد امتدحهم بطليموس الجغرافى وذكر كثيراً من فضائلهم وأرسل عليهم كورنيلوس بالبوس حملة عسكرية سنة ٢١ قبل الميلاد وقد توصلت هذه الحملة للتغلب عليهم ومدت حدود دولة الرومان الى جهات بالوس نوبا (Palus Nubia) أى مستنقع بلاد النوبة

السهول وتغلبوا على العنصر البربرى الأصلى ثم امتزجوا بهم امتزاجا تاما حتى امتصوهم امتصاصا وسادوا عليهم بدينهم ولغتهم حتى لاشوهم تماما وهناك قبائل كثيرة يدعون أنهم من البربر ولكنهم لا يتكلمون غير العربية لغةً وصارت أخلاقهم وعوائدهم وصفاتهم الطبيعية والادبية لا تختلف فى شيء عن أولئك الفاتحين مع أن الفرق فى ذلك واضح بين العنصرين المذكورين فى بلاد البربر الواقعة ألى الغرب من ذلك واختلاط العنصرين المذكورين ببلاد طرابلس الأصلية أتم وأحكم ألا أن العنصر العربى تقل سيادته كلما أوغل الأنسان نحو الغرب ويكثر عدده كثيراً فيما جاور بلاد مصر ثم يأخذ فى التناقص كلما تقدم الأنسان نحو الغرب فالدم العربى فى بلاد برقه أكثر منه لدى سكان بلاد طرابلس الحقيقية وتظهر هذه القاعدة واضحة أيضا ببلاد تونس والجزائر ومراكش وهناك ملاحظة أخرى عمومية هى أن معظم المغيرين من العرب الذين انتشروا فى السهول وقف انتشارهم عند حضيض الجبال ونزل البربر على منحدراتها محافظين على لغتهم وعوائدهم الأصلية والعرب الذين اختلطوا بالبربر قليلا أو كثيراً كلهم رحل على العموم يشتغلون بتربية الماشية وأرشاد القوافل فى سيرها وقد خربوا الغابات فى الجهات التى كثر بها عديدهم ومن أهم قبائلهم أولاد على ولهم أيضا مراعى بقسم لوبيه المصرى وقبائل زُويا وهم ينزلون بلاد برقه بالقرب من درنه ويمتدون حتى واحات أوجله وكفره ومنهم العبيدات والبراعصه والدِرْسا وغيرهم وكلهم بالجبل

الأخضر ثم الحرابى والمغاربة والمجابرة وغيرهم وبعضهم يسكن واحة أوجله ثم أولاد سليمان وهم قبيلة كبيرة حربية يغيرون على كل بلاد الصحراء حتى وداى وهم الذين نشروا الطريقة السنوسية فى تلك الارجاء وأولاد حريس وليسوا برحل وينزلون جهات واحة زِلا وأولاد أرفلا ويشتهرون بالسلب والنهب وشن الغارات وأولاد أبو سيف ولهم شهرة فى تربية الجمال الجميلة ثم أولاد يوسف وترْهُونه وغيرهم ومن قبائل العرب هناك قبائل يدعون نسبتهم ألى النبي عليه السلام لهذا كان الأهالى يعظمونهم ويحترمونهم مع أنه يجرى فى عروق الكثيرين منهم الدم البربرى وحتى الدم السودانى أكثر من الدم العربى كما أن الكثيرين منهم كانوا هاجروا من الجزائر وتونس بعد استيلاء الفرنسويين عليهما أما البربر الذين هم نسل سكان البلاد القدماء فقد أصبحوا لا يُعرفون بعدُ ألا فى جهات قليلة كالجهات الجبلية أو واحات الصحراء حيث أمكنهم الأنفراد بسكناها بعيدين عن العرب وبين أهالى أوجله وجالو قوم من أصل بربرى يتكلمون العربية ويقولون أنهم من نسل سكان البلاد الأصليين ويظهر أنهم متناسلون من الأمة التى سماها هيرودوت ناسامون(١) وهم يشتغلون بالزراعة وغرس البساتين واستخراج الملح ويؤجرون جمالهم

(١) (Nasamons) أمة قديمة من أمم أفريقية كانت تنزل سواحل لوبيه على طول خليج سدره بين أملاك قرطاجنه غربا وأملاك قورينه شرقا وهم من الامم الرحالة يشتغلون برعاية الماشية ويتركون قطعانهم ترعى فوق الساحل وكانوا منكبين أيضاً على الصيد فى البر والتجارة

للقوافل ويتكلمون فيما بينهم لهجة بربرية تقرب من لهجة أهل سيوه ولهجة التوارك وتوجد أيضاً بقايا هذه اللغة القديمة بين سكان بلدة مِسْدة الواقعة ألى الجنوب من مدينة طرابلس وأن كان أهلوها قد استعربوا تماماً وقد بقيت الأرض يملكها البربر فى واحة جُفره الواقعة ببلاد فزان حيث اختلط العرب والبربر مع بعضهم منذ أزمنة طويلة فصار من الصعب تمييز البعض عن البعض فى هيئتهم وأخلاقهم ولا يباح للعربى ألا شراء الأشجار فقط وبقيت أيضاً البربرية اللغة الأكثر استعمالاً وأن خالطها ألفاظ عربية كثيرة أما البلاد التى بقى فيها البربر أكثر عدداً وأقل اختلاطا بالعرب من غيرهم ببلاد طرابلس الحقيقية فهى جهات الجبال وهناك تمكنوا من المحافظة على استقلالهم من العرب أولا ومن الترك ثانياً وأن حدثت ثورة فى بلاد طرابلس فلا بد وأن يكون منشاؤها تلك الجهات وأهلها أصحاب نشاط وصناعة ولهم عدة قرى تحيط بها البساتين وبعض قراهم محفورفى الصخر مثل بلدة زِنْتان (Zenthan) التى يبلغ سكانها نحو ستة آلاف قال أليزيه ريكلوه فى كتابه المشهور ما ملخصه أن النجد فى تلك القرى يقطعه بكل جهاته أخاديد وأودية قليلة العمق هى طرق تلك القرى وقد حفرت المساكن فى جانبيها فى الكتل الصخرية بأن ترفع منها الصخور الأقل صلابة فيتكون من مجموع تلك الكهوف دار مغربية الشكل ذات ساحة ومخادع جانبية والوصول ألى الحجرات العليا منها يكون أما بطنف مصنوع فى الصخر أو

بدرج حفرت فيه» اهوقد حافظ هؤلاء البربر من سكان جبل غوريان (جبل المنارات) وجبل يفرن وجبل نفوسه على لغتهم القديمة وكثيرون منهم يتمذهبون بمذهب الأباضية مثل أهالى بلاد الزاب ويسود العنصر البربرى أيضاً بالواحات الغربية من بلاد طرابلس الحقيقية مثل غدامس وغات ويتكلم أهلها عموماً بلهجة تمازغت

ويلى البربر والعرب فى الأهمية بين سكان طرابلس العنصر السودانى ومما يجب التنبيه أليه أن الدم الأسود منتشر بين كثير من العائلات التى تمد نفسها عربية أو بربرية حتى بين الأشراف منهم فالاختلاط تام بين العنصر البربرى والعربى والسودانى ويظهر هذا الأختلاط على أتم وضوح كلما تقدم الانسان نحو الجنوب بحيث أن أهالى فزان نصفهم سود تقريباً أما كثرة العنصر الأسود بهذه البلاد فتفسرها العلاقات التى بين بحر الروم وبلاد السودان بواسطة بلاد طرابلس كما تفسرها أيضاً تجارة الرقيق وكان عدد الأسرى من السود الذين يجلبون ألى هذه البلاد قديماً يعد بمئات الألوف وأن النخاسة وأن كانت أصبحت الآن ضيقة النطاق أو ممنوعة بمدينة طرابلس ألا أنها لا تزال جارية فى داخلية البلاد ولو على قلة رغما عن ممانعة الحكومة العثمانية التى أعلنت بأبطالها ومعاقبة مرتكبيها وزيادة على ذلك أى على اختلاط الدم الأسود بين العرب والبربر هنالك بهذه الكيفية فأن العنصر السودانى الأصلى يشخصه طوائف من السود الخلص منتشرون فى القرى وهم من كل

أجناس بلاد السودان من أول وادى النيل حتى بلاد سنغال ألا أن ثلثيهم على الأقل أصلهم من بلاد حوصا بدليل أن لغة حوصا هى المستعملة فيما بينهم ولا يسكن هؤلاء السود لا البيوت ولا الخيام بل أكواخاً يبنونها من القش أو القصب وعددهم آخذ فى القلة لأنهم لم يتطبعوا بطبائع البلاد ولم يعيشوا معيشة أهلها ألا قليلا سيما والنخاسة أصبحت لا تأتى كما فى السابق بما يملأ الفراغ العظيم الذى يحدث بينهم بالموت ويضاف ألى العناصر الثلاثة المذكورة التى منها تتألف الأمة الطرابلسية طوائف مختلفة منتشرة فى أرجائها وهم

أولا ـ اليهود وهم فى طرابلس وزنتان وعددهم يزيد عن خمسة عشر ألفا وهم متناسلون من اليهود الذين نزلوا هذه البلاد فى عصر البطالسة والذين يسكنون منهم بلدة زنتان الواقعة ألى الغرب من طرابلس يحفرون بيوتهم فى الأرض كما سبق وبيوتهم أحسن نظاما من بيوت البربر وتمنع عنهم كل اعتداء بخلاف الذين يسكنون منهم مدينة طرابلس فأنهم هم ومن يسكن منهم البلاد الواقعة على ساحل البحر مرذولون محقرون من الأهالى ولهم مهارة عظيمة فى التجارة وثروتهم واسعة جداً ويسكنون هناك محلة خاصة بهم

ثانيا ـ التوارك والتبو وكلهم رحل ويقيمون ببلاد فزان ولكن فى بعض اشهر السنة فقط

ثالثا ـ الجربيون وغالبهم تجار بالمدن ولكثير منهم تجارة واسعة مع بلاد السودان

رابعا ـ المالطيون وينزلون جهات الساحل ومن صفاتهم الاكتفاء بالقليل من العيش والمهارة فى الصنائع

خامسا ـ القوم المعروفون بالغجر وهم ينزلون الأقاليم الشرقية

سادسا ـ الأوربيون وأكثرهم من الأيطاليين

هذا أما الأتراك الذين يوجدون بكل أدارات البلاد تقريبا ومنهم أيضا جنود الحامية ولغتهم هى اللغة الرسمية فى البلاد فلا يشتغل بالصناعة والتجارة منهم ألا القليل ويلتحق بالأتراك القول أوغليه وهم متناسلون من أتراك وطرابلسيات ومنهم أغلب جنود الجندرمه هناك وفرقة أخرى من الجنود ومتى ترك القول أوغليه الخدمة ذهبوا للأقامة فى القرى والفلوات حيث يتلاشون فى بقية طوائف السكان

ولكى يكون لدى المطالع فكرة من الأختلاط الخارق للعادة الموجود بين الأجناس ببلاد طرابلس وفى فزان خصوصاً نورد هنا ماقاله السائح نختيجال قال «أن كل ألوان البشر من أول بياض الأتراك سكان الشمال حتى اللون الأسود الأبنوسى الذى ببلاد التكرور كلها توجد ببلاد مرزوق فهو تدرج كبير من العربى أوالبربرى الضارب ألى الحمرة الذى يسكن الساحل الشمالى ألى البربرى البرنزى اللون النازل بالصحراء ثم أن هناك تدرجاً فى الالوان أكثر من هذا وضوحا بين الذين من التبو والسودانيين الحقيقيين فى كل ألوانهم واختلافاتهم أما من جهة أمم السودان فلم أتمكن من عمل ترتيب لمجموع طوائفهم الأصلية

دفعة واحدة كما لم أتمكن من اكتشاف الأختلافات التعريفية بين أهالي برنو وأهالي بقرمي وبين أهالي مندارا وأهالي حوصا ألا أن من رأيتهم هناك من أفراد هذه الأمة الأخيرة العجيبة التي تسكن داخل أفريقية وتعرف بالفلاته وهي التي أوجدت بين كثير من علماء الأثنولوجيا جدالا ومناقشة بخصوص أصلها فانها بسبب شكلها الظاهر السامي تخرج من ذلك المجموع من الأجناس التي ذكرناها والبعض من هؤلاء الناس يتكلمون العربية والآخر لغة التبو وفي مكان آخر تسمع لغة الحوصا وعلى الخصوص لغة أهالي برنو المعروفة بلسان ماكانوري ويعرف سكان الصحراء الأصليين بين توارك وتبو من بعيد بمشيتهم المتاقلة وبملابسهم التي تميل ألى السواد فالرجل التاركي مشيته تكون من غير هرولة وعلى شفتيه ابتسامة أما الذي من التبو فأنه قبل أن يعرض عليك موضوعا يبصق على الأرض بعيداً ..... ألى أن قال أما العربي الخالص والبربري فأنه يظهر عليهما خيلاء وكبرياء آتية من الشعور بما كان لهما من الحضارة القديمة بخلاف السوداني فأنه مضحاك مكثار لا يبالي بمن حوله وكلهم يختلفون في الأزياء والملابس» اه بتصرف

عددالسكان ـ أن من الصعب في بلاد مثل بلاد طرابلس لا يزال بعض جهاتها غير خاضع خضوعا فعليا للحكومة وضع أرقام مضبوطة لمجموع السكان لذلك كانت كل الأقوال الواردة في هذا الخصوص مبهمة قال بعض الجغرافيين أن سكانها يبلغون ٥٠٠ر١٠٠٠ر١ نفس وقال غيره أنهم لا يزيدون عن ٠٠٠ر٣٠٠ر١

وقدرهم آخرون بأقل وأكثر من ذلك وقالوا أن من هذا العدد نحو ٣٠٠٠٠٠ في برقه واوحات أوجله وجالو وسكان بلاد فزان لا يزيدون عن خمسين ألفاً وأوصلهم بعضهم الى مائتى ألف

حكومتها وأقسامها ـ هذه البلاد تابعة للدولة العثمانية رأساً فحكومتها وأدارتها كأدارة الولايات التي من نوعها فلها وال ودفتردار وقاض ومعاون للوالى وقائد للجيوش برتبة لواء وغير ذلك وتنقسم ألى خمس متصرفيات وثلاثة وعشرين قائمقامية وثمانية عشر مديرية وبجانب هذه الأدارة العثمانية أدارة أخرى وطنية وهي أن كل قبيلة وكل جهة وحتى كل دوار لهم مشايخ وهم الذين يقومون بجباية الضرائب على أنواعها ويكلفون بتوصيل أوامر الحكومة ألى الأهالى وقد أدخل على أدارتها من الأصلاحات الآن ما تقتضيه الحالة بعد أعلان الحكومة النيابية بالدولة العثمانية ويزيد الجيش العثمانى الذى بهذه البلاد عن خمسة عشر ألف جندى من كل الأسلحة يضاف أليه قوة من الجندرمة يؤخذون من القول أوغليه السابق الذكر وهناك قوة أخرى من الأهالى لكنها لم تنظم للآن تنظيما عسكريا تاما ويقدم كثير من الأهالى في فزان على الأنتظام في الجيش من تلقاء نفسهم وأهم الأيرادات هناك هي العشر الذى يؤخذ على الماشية والحنطة والشعير وما يؤخذ على النخيل وأشجار الزيتون ثم ايرادات الجمارك وما يؤخذ على استغلال الملح وغيره مما تسمح الحكومة باستخراجه قال في قاموس الأعلام تأليف المرحوم شمس الدين سامى بك «أن الأدارة في بلاد طرابلس

الغرب كما هى فى سائر الولايات العثمانية غير أن نظام التجنيد العسكرى وما يترتب عليه لم يعمل به للآن فى بعض السناجق والقضاآت وكانت بلاد برقه فيما سبق متصرفية ملحقة بولاية طرابلس ثم انفصلت عنها أخيراً فكانت أولا ولاية بذاتها ثم صارت متصرفية مستقلة الأدارة وتقسم ولاية طرابلس الآن ألى أربع سناجق وواحد وعشرين قضاء وثلاثة وعشرين ناحية» اه

الزراعة ـ تقدم القول على ما فى هذه البلاد من الحاصلات المهمة عند الكلام على نباتاتها واعلم أن أهمال البدو للزراعة أهمالا درجوا عليه من القديم ورداءة الأدارة القديمة وعدم وجود المواصلات الكافية كل ذلك مما يؤخر الزراعة هناك ويجعل الأرض لا تخرج ألا جزءاً صغيراً مما يجب أن تخرجه ويكتفى الأهالى فى حراثة الأرض بنبشها نبشا خفيفا بمحاريثهم الخشبية لزراعة الحنطة والشعير ثم يلقون فيها قدراً صغيرا من البذور وليس للأهالى عناية بتلقيح أشجار الزيتون ألا فى النادر وهم يتركون ثماره تتعفن وبذلك كانوا لا يحصلون منه ألا على قدر صغير من الزيت ومن نوع رديئ عموما وهم فى سنى الخصب يصدرون قدراً عظيما من الحبوب وأن كان نسبيا أما فى سنى الأمحال فأنهم يستجلبون من أوربا ما يلزمهم منها وقد حسبوا سنة الأمحال ببلاد برقه فكانت كل خمس سنوات مرة بحسب المتوسط أما أهم حاصلات بلاد طرابلس فهى التمر بأنواعه وهم بعد أن يأخذون منه حاجتهم يصدرون منه ألى الخارج قدراً وافراً والنخيل ببلاد طرابلس الأصلية يعد

بالملايين وكذا هو ببلاد فزان أما فى برقه وواحات أوجله فأنه يعد بعشرات الألوف قال فى قاموس الأعلام المذكور «أن محصولهم الزراعى يكون وافراً جداً فى الموسم وقت سقوط الأمطار ألا أنهم يرون من العار أن يبيع الأنسان ذخيرته لهذا كانوا لا يزرعون من الأرض ألا بقدر ما يحتاجونه وما بقى يحفظونه فى أبار لوقت الحاجة» اه

وتربية الماشية هناك مهملة كالزراعة فلا يصدرون منها ألا القليل وأهم صادراتهم ألى الخارج الجلود مدبوغة وغير مدبوغة ويصدر من برقه عسل يجمع من الغابات وقد أخذوا يصدرون الآن الحلفاء بكميات وافرة وتنبت الحلفاء هناك بكثرة فى الأراضى الواقعة بين الجبال والساحل

الصناعة — ليست الصناعة بهذه البلاد مما يصح التنويه بذكره لقلتها وتأخرها فهى قاصرة على استغلال بعض المعادن وعمل الحاجيات ويستخرج الملح من جهات أشهرها بنغازى والكبريت من خليج سرت والنطرون من البحيرات التى بالشمال والغرب من مدينة مرزوق ويجمعون قليلا من الذهب من بعض الأودية وهو يكون بها مختلطاً مع الرمال أما المعادن الأخرى التى بهذه البلاد فأنهم لا يستغلونها فقط بل لا يعرفون أمكنتها بالضبط وتنحصر صناعة الأقمشة فى عمل الأنسجة الصوفية فقط بمدينة طرابلس وبين القبائل الرحالة وينسجون ببلاد فزان أنسجة غليظة من الصوف والقطن لا تستعمل ألا فى نفس البلاد ويصنع بعض الأهالى بسطاً معتبرة جداً جميلة الألوان وقلائد

من الخرز بديعة الشكل وعلى الخصوص فى مصراطه ومن مصنوعاتهم أيضاً الحدمر وبعض أدوات جلدية فى غدامس ويستخرج بمدينة طرابلس عطر الورد والياسمين وغيرهما ومع ذلك فأن هذه الصنائع على ما هى عليه من التأخر والوقوف يظهر أنها ستزول لمباراة حاصلات الصناعة الأوربية لها

التجارة ـ اذا كانت الزراعة ببلاد طرابلس قليلة الحاصلات والصناعة قليلة الحركة والانتشار فأن تجارتها عظيمة جداً فى المبادلات العمومية لجودة موقعها الطبيعى لأن بلاد برقه لما كانت داخلة فى البحر الأبيض المتوسط أى أنها فى عتبة الممر بين حوضيه الشرقى والغربى كانت متقدمة كثيراً نحو أوربا ولهذا كانت فى القديم مركز تجارة عظيمة وحضارة راقية ولكن لما كانت أراضيها المنبتة ضيقة تحيط بها الصحارى من كل جهة كانت صادراتها قليلة وكانت السفن لا تتردد عليها كثيراً هذا فيما عدا مدينة بنغازى بخلاف بلاد طرابلس الحقيقية التى وأن كانت حاصلاتها ليست بأكثر من حاصلات برقه ألا أنها تعلو عليها فى الحركة التجارية لوجودها على أحدى الطرق التجارية الكبيرة لأن الأنبعاج الذى أوجده بها خليج سرت جعل بحر الروم فى ذلك المكان أقرب ألى داخل أفريقيه منه أى فى مكان غيره فقلب أفريقيه أقرب أليه عن بلاد الجزائر بنحو أربعمائة أو خمسمائة كيلومتر قال السائح الألمانى رولفس (G. Rohlfs) أن الذى يملك طرابلس يكون بيده مفتاح السودان اه وهذا ما حدى ببعض دول أوربا للحصول على هذا المفتاح وهو يرى

أن الخط الحديدى الحقيقى الذى يخترق الصحراء الكبرى يجب أن يكون أوله مدينة طرابلس أو مدينة أخرى على خليج سرت الكبير ثم يمتد حتى يصل ألى بحيرة شادو قال ألبزيه ريكاو وليس هذا الخط أقصر فقط مما يمكن أن يرسم للطريق الذى سيمر بقلب أفريقيه ويربط ذات يوم حوض البحر الأبيض المتوسط بحوض البحيرات العظمى بل لأنه أيضاً هو الخط الذى سيعين للطريق الحديدى الذى سيخترق القارة ويربط خليج غانه بنهرى النيجر والكنغو ومن رأيه أيضاً أن هذا الخط وأن كانت أهميته لا تفوق الخط الذى سينشأ ألى الغرب منه ماراً ببلاد الجزائر فأنه سيكون عاجلا أو آجلا أحدى الطرق الكبيرة فى تجارة العالم وتجارة بلاد طرابلس الأصلية فى الترنسيت عظيمة وتكون بين أوربا وبلاد السودان الوسطى ومن منذ ما أغلقت بلاد ودّاى أبوابها فى وجه تجارة مصر حينما ثار السودان المصرى تحت زعامة المهدى صارت المتاجر الأوربية تصل ألى السودان الشرقى من هذا الطريق ولم تعد تصدر من الأسكندرية وأهمية واحة فزان الواقعة فى منتصف الطريق تقريباً بين البحر الأبيض المتوسط وبلاد السودان وهى التى يسهل بوجودها على السفار أجتياز الصحراء يرجع قسم عظيم منها ألى تجارة الترنسيت التى تمر بها وبلاد طرابلس غير هذه الطرق التى يمكن أن تسمى طريقاً أصليا والمارة بمرزوق طريق آخر ألى الغرب ليست أقل من الأولى فى تردد القوافل عليها وهى الطريق المارة بغات وغدامس وهذه التجارة تكون بقوافل كبيرة

تخرج من مدينة طرابلس (وكانت تلك القوافل تخرج سابقا من غدامس يجهزها أغنياء التجار بتلك الواحة) وتشتمل القافلة الواحدة على ألف جمل ألى ثلاثة آلاف جمل ولا تعود من سفرها ألا بعد سنة أو سنتين ويكون فى خفارتها وهدايتها فى الطريق آلاف من العرب المسلحين ويقولون أنه يسافر من تلك القوافل من مدينة طرابلس نحو عشر كل سنة وأشهر ما تحمله معها المنسوجات القطنية الأنجليزية (البفتة السمراء أو الخام) والمنسوجات الحريرية الفرنسوية والتليانية والجوخ والأشياء الزجاجية وأهمها الخرز بأنواعه ثم السكاكين والكهرباء والخردوات والأسلحة والريالات ضرب ماريا تريزه (أبو طيره) وغيرها أما أهم ما تجلبه معها فى عودتها فالرقيق وريش النعام والعاج والصمغ وجلود الحيوانات الوحشية والمسك واللبان وقرون الحيوانات وشمع العسل وغيرها وتجارة الرقيق ممنوعة فى طرابلس وهى وأن كانت حاصلة فى فزان لكنها على كل حال أقل بكثير مما كانت عليه فى السابق وقد أصبح المجلوب من ريش النعام والعاج أقل الآن منه منذ بضع سنوات يعلم ذلك من أحصاء تجارى عمله أحد القناصل بمدينة طرابلس ويحصل التجارة مع أوربا وتونس ومصر من ثغور طرابلس وبنغازى ودرنه وطبرقه وتبلغ قيمتها تقريبا ثلاثون مليونا من الفرنكات وأشهرها الحنطة والشعير والحلفاء وزيت الزيتون وريش النعام والعاج وشمع العسل والسمن والماشية والصوف والجلود المدبوغة وغير المدبوغة والتمر والبرتقال والليمون وغيرها من الصادرات

أما الواردات فأشهرها المنسوجات القطنية والصوفية والحديد والصلب والخرداوات والبن والسكر والصابون والشمع والجلود المدبوغة والشاى وغيرها

بلاد برقه

حدودها وموقعها وامتدادها ـ كانت بلاد برقه فيما سبق تابعة من جهة الأدارة لولاية طرابلس أما الآن فهى متصرفية مستقلة بالأدارة كما سبق ومبدأها نهاية خليج سرت الكبير وتمتد شرقا على ساحل بحر الروم حتى نهاية خليج صغير يعرف بخليج الملح وهناك حد الأراضى المصرية (الدرجة ٢٢ والدقيقة ٤٩ والثانية ٥٠ من الطول الشرقى ـ والدرجة ٣١ والدقيقة ٢٩ من العرض الشمالى) ويكون الساحل بين بلدتى المختار وطلميتا (ابطوليمايس القديمة) اتجاهه العمومى من الجنوب ألى الشمال (عبارة عن الجهة الشرقية من خليج سرت) بينما يرسم فى سيره منحنيا مزدوجا داخلا وخارجا يكون اتجاهه العمومى نحو الشرق بين طلميتا وخليج الملح المذكور ويبلغ طول هذا الساحل بين النقطتين المذكورتين ٨٨٠ كيلومتر ولا تكون المسافة بينهما أذا قطعت مباشرة وسط الصحراء ألا ٥٨٠ كيلومتراً فقط والبعد بين ساحل برقه المذكور ورأس متاباًن ٤١٠ كيلومترات على خط مستقيم وأبعد مسافة بين البلاد المسكونة أو القابلة للسكنى من الساحل المذكور

وبين الصحرآء لا تزيد عن ١٥٠ كيلومتر ولا يكون قابلا للزراعة من طول كل هذا الشاطىء الذى يبلغ ٩٠٠ كيلومتر ألا نحو ٥٠٠ كيلومتر لا غير تمتد على بضعة أميال فقط نحو الداخل

منظرها العمومى وطبيعة أراضيها ـ أن ذلك البروز العريض الذى تتجه واجهته المستديرة نحو بحر الروم بين خليجى سرت وبمبا والبالغ عرضه ٣٥٠ كيلومتراً هو ما كان يعرف لدى القدماء باسم سيرينائيك أى بلاد برقة الحقيقية ويتركب من نجد جيرى تقطعه وهاد وأغوار وأودية وتسقط حافاته الشمالية نحو البحر على شكل منحدرات سريعة الميل قائمة فى الغالب وعرة صعبة المرتقى أما جهاته الجنوبية فأنها منخفضة نحو الصحراء على هيئة منحدرات أيضا لكنها أعرض من الأولى وكانت مدينة قورين (Cyrène) القديمة فوق هذا النجد بالقرب من قمته الشمالية وعلى نحو ثلاث ساعات فقط من البحر ولارتفاع هذه السهول عن سطح البحر بنحو ٤٠٠ و ٥٠٠ متر ولما فيها من الينابيع العديدة التى تجرى سواقيها وجداولها فى أوديتها كانت ذات مناخ مخالف تماما لما عداها من البقاع هناك وفيها كان القدماء يقولون بوجود تلك الجنة الغربية البديعة المسماة هسبريد[1] ولا بد من الرجوع الى ما ذكره هيرودوتس عن بلاد قورين هذه من منذ نحو ألفين وثلاثمائة سنة تقريبا خاصا بأهل قورين أنفسهم قال

(١) (Hespéride) ـ وهو بستان كان الشعراء المتقدمون يتغنون بذكره ويقولون أنه واقع الى الغرب من سرينائيك فى سفح جبال أطلس وتارة يقولون أنه ببلاد موريتانيا وحتى جعله بعضهم فى جزائر السعادات أى قناريا ومعنى هسبريد الغربى

«أن بلاد قورين وهى أعلى قسم من لوبية والتى كان يسكنها قوم من الرحل لها ثلاثة فصول ترتيبها عجيب فان الثمار التى يكثر وجودها فوق الساحل هى أول ما ينضج من ثمارها وأذ ذاك يحصد الناس أيضا النباتات ويقطفون الأعناب وبمجرد ما يتمون تخزين ذلك تكون نباتات المنطقة المتوسطة الواقعة على ساحل البحر المسماة ببلاد التلال مستعدة هى أيضا لأن تحصد نباتاتها وبمجرد ما يخزن الناس محصول هذه المنطقة الثانية تكون ثمار الجهات الواقعة ألى الأعلى منها ناضجة وقابلة للحصيد بحيث لا يأتى المحصول الأخير ألا والناس قد انتهوا من شرب وأكل المحصول الأول ويشتغل أهالى قورين بهذه المحاصيل الثلاثة المتتالية ثمانية شهور متعاقبة» اه هذه كانت حالة البلاد حينما كان النجد وساحل البحر يسكنهما سكان كثيرون وكانت بهما مدن زاهية زاهرة تتلو الواحدة الأخرى على مسافة صغيرة ألا أن الخراب قد أناخ هنالك فى كل مكان فلم يبق من كثير من تلك المدن القديمة ألا ركام وأطلال وينزل بتلك البلاد الآن قبائل يشتغلون برعاية الماشية يقيمون فوق ما خرب بعضه أجدادهم وقد تركت الأرض ونفسها فى كل مكان تقريبا فلم تعد تعطى ألا ما لا تزال تسمح لها به خصوبتها الطبيعية وأن السائح الذى يأتى من مصر أو طرابلس ماراً وسط طرق قاحلة وأقاليم رملية يجد هنالك مناخا ومناظر مما يظن معه أنه وسط أجمل بلاد أيطاليا وكل ذلك مما يوجب بلا شك اندهاشه واستغرابه ويكفى للدلالة على ذلك أن نذكر هنا عبارة أو عبارتين من

الأقوال الكثيرة التى ذكرها السياحون فمن ذلك قول الكابتن بتشى (Cap. Beechy) الأنجليزى فى كتاب له على سواحل أفريقية الشمالية قال عند كلامه على أحدى العقبات التى بين أطلال أبطوليمايس والنجد الذى كانت فوقه مدينة قورين «أن جوانب الوادى مغطاة كلها بأشجار متكاثفة من الصنوبر والزيتون وأنواع كثيرة من الغار يتخللها خمائل من النبات المعروف بزهر العسل تعطر الهواء بما ينبعث عنها من الروائح الزكية وهنالك أشجار نضرة من الآس والريحان والقطلب والدفلا وأشجار أخرى مزهرة وأنواع كثيرة من الورد البرى الأحمر والأبيض وغيرها من أشجار السندروس والعرعر حتى أن هذه المناظر لو وجدت فى نفس أوربا لأعجب بها الناس جداً فما قولك فيها لو كانت بافريقية وكنا كلما ظهر لنا منظر جديد فرحنا به جداً ودهشنا لرؤيته» اه ثم لما وصل بعد ذلك بقليل ألى جهات النجد ظهر له ولمن كان يرافقه منظر ليس أقل جمالا من الأول حيث قال «أن المنظر الذى كان يتراءى لنا من فوق قمة الجبل وهو منظر نضر ليس بقحل كما هو منظر الغور كان كافيا لأن يضيف ألى ما استفدناه من هيئة الأفق العريض الذى كان ينبسط أمامنا مشتملا على أودية وتلال مختلفة متعاقبة تختلط ببعضها من بعد ثم تتفانى فى زرقة السماء وهنالك مراع واسعة وأراض مزروعة متفرقة هنا وهنالك تقطعها أشجار متكاثفة وشجيرات مجتمعة وأزهار متنوعة على هيئات جميلة أكثر اختلافا فى أشكالها وكثرتها وانتشارها عن الموجود منها بالوهدة وكلها كانت غضة خضراء

باسمة» اه وقال سائح آخر أنجليزى أحدث من الأول يسمى جيمس هملتون (M. James Hamelton) فى كتاب له على أفريقية الشمالية قولا يقرب من ذلك وقال أيضا السائح التليانى الدكتور دِلاّ سِللا (Dr. Della Cella)وهو أول من كشف لأوربا فى أيامنا هذه جمال هذه البلاد وكانت تجهله من قبل قال «أنها بلاد كثيرة النباتات والأشجار العظيمة بين تين وخرنوب وزيتون وفستق وكمثرى برية وغيرها وقال أن منظر بلاد كهذه متروكة كلها للطبيعة يوجد فى الأنسان فكرة عن خصوبتها أكثر مما توجده لديه أرض أحسن منها زراعة وعناية وقد اندهش هذا السائح لشدة خصوبة هذه الأراضى ونقاوة هوائها واعتداله وقال أن بها شيء كثير من المبانى الباقية مما يدل على عظمة قورين ورقيها القديم وقد تساءل لماذا لم يخطر ببال دولة من دول أوربا أن تستوطن هذه الأرض وتؤسس بها المستعمرات الدائمة» هذا ولأرجاع هذه البلاد لرقيها القديم لا يلزم لها فى الحقيقة ألا الأذكياء وأرباب الحضارة من الناس وقد أطلق العرب على نجد برقه عموماً وعلى ما يحيط به من الفيافى الرملية وخصوصاً على ما فوق قمته جنوباً من المرتفعات أسم الجبل الأخضر وهى تسمية فى غير محلها ومن الصفات التى استغربها الناس فى كل وقت وقد نبه عليها مؤلفوا العرب وألفتوا أليها الأنظار الرمال المحمرة اللون التى تغطى ساحل البحر فى سفح النجد المذكور كما تغطى أيضاً قسما من نفس ذلك النجد قال الدكتور دلاسللا بعد أن امتحن تلك الرمال بالمنظار أن نحو الثلث منها يتألف

من بقايا مرجانية ويظهر من النظر ألى وضع بلاد برقه أنها تتألف من جهتين مختلفتين عن بعضهما اختلافاً تاماً هما جهات الساحل وجهات النجد وسنذكر فيما يلي أولا جهات الساحل نقلا عن كل من دلاسللاوبتشي وهنرى برت (H. Barth) كما نذكر أيضاً المواقع والاماكن القديمة التي فوق ذلك الساحل من أول بلدة المختار حتى خليج الملح وبعد ذلك نلقى نظرة وصفية على السهول العالية حيث خرائب وأطلال العاصمتين قورين وبرقه فنقول

المنطقة الساحلية ـ أن المكان المسمى بالمختار الموجود به قواعد أعمدة من الحجر متراكمة على بعضها والذى هو الحد العادى بين أقليمى سرت وبرقه هو مكان لا أهمية له فى بلاد كثيرة الرمال والمستنقعات ونهاية الحد الجنوبى من خليج سرت الكبير واقع ألى الشرق من ذلك بقليل بالقرب من مستنقع يسمى سكرين (Sakhrin) وكان هناك قديماً حد أراضى قورين من جهة قرطاجنه وقد عينوا ذلك الحد ببناء يسمى بما معناه هيا كل فيلين[1] وبعد سكرين المذكور

(١) (Les Auteles des Philènes) ورد فى الاقاصيص القرطاجنية أن فيلين علم على أخين من قرطاجنه أظهرا الاخلاص والغيرة فى توسيع نطاق وطنهما ثم جعلوهما رمزاً للقتال الحاصل بين قرطاجنه ومستعمرات الاغريق ببلاد برقه بخصوص تعيين الحدود بين البلادين ويقولون أن قرطاجنه وقورين اتفقتا منعاً للشقاق الحاصل بينهما على أن يرسل كل منهما رجلين ويخرج الكل فى ساعة معينة ومتى التقوا يغرسون هناك علامة فاصلة وحصل أن التقوا قرب قورين فلهذا أتهم القوريون القرطاجنيين بأنهم ساروا قبل الساعة المعينة أما القرطاجنيان فقد فضلا أن يدفنا على قيد الحياة خير من الرجوع الى الوراء فكان

ينحرف الساحل ألى الشمال والشرق ثم يصل الانسان بعد نحو ثلاثين كيلومتراً ألى مرسى صغير يسمى بُورَايقه وكان حصينا فيما سبق ويظن السائح بتشى أنه مكان بلدة أوتومالا (Automala) التى ذكرها استرابون ويظنه هنرى برت أنه مكان بلدة كوستيوم (Cocynthium) التى ورد ذكرها فى راهنامج الرومان وعلى نحو عشرة كيلومترات ألى ما بعد ذلك مرسى آخر صغير يسمى تابلبا (Tabiba) به بقايا قصر فوق لسان ممتد فى البحر وخرائب أخرى تدل على وجود بناء بحرى ظنه السائح بتشى أنه المحطة البحرية التى سماها بطليموس هيفَالوَا هُورْمُوا (Hyphaloi Hormoi) (و معناه المراسى المختبة أو الميناءات المخبأة) وعلى بضع أميال من الساحل وعلى نحو خمسة وخمسين كيلومتراً ألى الشمال والشرق من تابلبا المذكورة أطلال مدينة أجدابية ذات الاهمية والشهرة فى القرون الأولى من حكم العرب بأفريقيه وبها صهاريج وأطلال رومانية وكانت أقرب محطة بحرية أليها تسمى المادور أو الماهور قال فى معجم البلدان «أجدابية هو بلدة بين برقة وطرابلس المغرب بينه وبين زويلة نحو شهر سيراً على ما قاله ابن حوقل وقال أبو عبيد البكرى أجدابية مدينة كبيرة فى صحراء أرضها صفا وآبارها منقورة فى الصفا طيبة الماء بها عين ماء عذب وبها بساتين لطاف ونخل يسير وليس بها من الأشجار ألا الأراك وبها جامع

قبرهما الحد لارض قرطاجنه كما يقولون واعترافاً لهما بالحمية أقامت الامة لهما بذلك المكان مذبحين تخليداً لذكرهما

حسن البناء بناه أبو القاسم المسمى بالقائم بن عبيد الله المسمى بالمهدى له صومعة مثمنة بديعة العمل وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة وأهلها ذوو يسار وأكثرهم أنباط وبها نُبذ من صُرّحاء لواته ولها مرسى على البحر يعرف بالمادور له ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلا وليس باجدابية لدورهم سقوف خشب أنما هى أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها وهى راخية الأسعار كثيرة التمر يأتيها من مدينة أوجله أصناف التمور وقال غيره أجدابية مدينة كثيرة النخل والتمور وبين غربيها وجنوبيها مدينة أوجله وهى من أعمالها وهى أكثر بلاد المغرب نخلا وأجوده تمراً » اه ولا يصادف الأنسان من أجدابية ألى المرسى الصغير المسمى كركوره أو قرقوره وهى مسافة تبلغ خمسين كيلومتراً على الساحل ألا موضعين أو ثلاثة كلها لا أهمية لها وقد وجدوا فى كركوره أو قرقوره المذكورة بعض كتابات يونانية والمحطة الرومانية القديمة المسماة كاروتوس (Carothus) قريبة من هذا المكان أن لم تكن هى كركوره ومن البلاد القديمة هناك أيضاً جيمينيس (Ghéminès) وأطلالها أحجار غير مثبتة بالملاط تشبه الموجود منها ببلاد اليونان المنسوبة ألى تلك الأمة القديمة المعروفة بأسم سيكلوب وبالقرب منها مغاور منقورة فى الصخر تسمى ألى الآن كامينوس (Caminos) وكانت محطة رومانية

ومنها أيضاً برنيق (برنيس) وهى أول المدن الخمس المهمة التى تسمت هذه البلاد بسببها أنطابلس (بنطاپوليس) ومعناه المدن الخمس وهذه

المدن هى برنيق وطوشيرا (Tauchira) (وكانت تسمى أيضا أرسينوئى (Arsinoë) وبارس (Barce) (التى سميت فيما بعد أبطولمائيس) (Ptolimaïs) وأبولونيا (Apollonias) وسيرين (Cyrène) أوقورين ويشغل قسم من مدينة بنغازى قاعدة برقه الحالية مكان برنيس القديمة التى كانت تسمى أولا هسبريس أوهسبريد (ذلك بلا شك لأنها كانت أبعد مكان ألى الغرب من بلاد بنطابول (Pentapole) ونقول أن بنغازى تشغل قسما من برنيس لا كل برنيس القديمة لأن بقايا برنيس لا تزال مطمورة تحت الرمال خارج المدينة الحالية قال الكبتن بتشى المتقدم الذكر «أن برنيس قد زالت آثارها من السهل الجميل التى كانت قائمة فيه فيما سبق وقام على أطلالها مدينة حقيرة قذرة عربية أو بالأحرى على الأرض التى تغطيها لأن المهم من تلك المدينة أصبح الآن تحت الارض» اه

ومدينة بنغازى الحديثة واقعة على لسان من الأرض بين البحر ومستنقعات ملحية تجف صيفاً وألى الجنوب منها مرسى ملأت الرمال نحو نصفه كان فيما سبق يحمل السفن العظيمة أما الآن فلا يقبل ألا الصغير منها وهناك قلعة يقيم بها الحاكم وأعوانه وطائفة من الجند واقعة على نقطة متسلطة من جهة الشمال على مدخل المرسى المذكور وهى ألى خارج المدينة بقليل وسكان المدينة بين عرب ويهود وسودانيين وقد اختلف الرواة فى تقدير عددهم والظاهر أنهم أكثر من ثلاثين ألف نسمة

هذا وأشهر ما تصدره بنغازى ألى مالطه الصوف والماشية والحنطة
وعلى نحو خمسة وخمسين كيلومتراً ألى الشمال والشرق أطلال مدينة طوشيرا
القديمة وتعرف تلك الأطلال الآن لدى العرب هناك بأسم طوكره ومما
يهم الباحث عن الآثار من أطلالها سور محفوظ بعضه وكتابات عديدة
ومقبرة كبيرة (كما رواه كل من دلاسللا (١٨٢٣) وبتشي وبَرت
وَوَندر(Wander) وبين طوكره وبنغازى عدة أمكنة لها نوع من الأهمية
لما يرتبط بها من الحوادث منها زيانا (Zeiana) وأزيانا (Azinna) وفريانا
(Feriana)أو دريانا(Ou Deriana)(وكلها ألفاظ تجرى على ألسنة رعاة العرب
هناك)وهى تذكر الأنسان بمدينة أدريانو بوليس التى كانت فى عصر الرومان
وكل هذه المنطقة الساحلية مغطاة بخرائب قديمة وعلى نحو أربعة وثلاثين
كيلومتراً من طوكره مكان مهجور يسمى للآن أبطوليمائيس وذلك متى سار
الانسان على ساحل البحر متجها نحو الشمال والشرق وكانت أبطوليمائيس
أحدى البلاد المهمة فى بلاد بنطابول القورينية وقد وصف دِلاّ سِللا خرائبها
وضواحيها وصفا جيداً فقال ما ملخصه أن أبطوليمائيس كانت تشغل قسما
من الجبل وقسما من السهل وخرائبها منثورة على أرض يبلغ محيطها أربعة أميال
ومن خرائبها برج مربع مائل نحو الشرق يظن أنه كان مدفنا لبعض
الملوك وهناك من المقابر الخصوصية ما يزيد على أربعة آلاف ومرساها القديم
بعضه صناعي وقد طمرت الرمال أكثر من نصفه ويظن أنه كان مرسى

لمدينة ترنس أو برقه التي كانت بالداخل فوق النجد وقد قال بتشى أن من أطلالها ملهيان (تياترو) وسرك أي ملعب خيل

وأول مكان مهم يصادفه السائح فوق الساحل بعد طلميته وبعد أن يجاوز بروزاً كبيراً ممتداً في البحر يسميه العرب رأس الراسات مرسى سوسه وليس به سكان الآن وهو واقع مباشرة في سفح العقبة التي تؤدى إلى حيث كانت قورين قديما وكانت سوسه المذكورة قديما ميناء لقورين وكانت تسمى أبلونياس (Apollonias) وكانت من المدن الكبيرة ببلاد بنطابول وفي القرن الأول من النصرانية تغير هذا الاسم الوثني إلى سوذوسا (Sozoussa) وهو آت من لفظ يوناني معناه رسو السفن آمنة واسمها الحالي محرف قليلا عن هذا الاسم القديم وكانوا يجلبون إليها الماء من الجبال القريبة منها على حنايا بقاياها لا تزال ماثلة للآن وكان بينها وبين قورين طريق محفور بعضه في الصخر لا يزال يشاهد كذلك (روى ذلك كل من بتشى وبرت) /

وعلى نحو خمسة وستين كيلومتراً من سوسه بلدة درنه وهي آخر مكان في ساحل برقه يمكن أن يطلق عليه أسم مدينة وبينها وبين الحدود المصرية مسافة تبلغ ٢٧٠ كيلومتراً ولا زالت درنه حافظة للآن أسم ومكان درنيس القديمة ولكن ليس فيها شيء من مباني الأغريق أو الرومان أصلا فهي مدينة عربية صرفة واقعة عند طرف سهل ضيق وافر الخصوبة تكثر به الأشجار المثمرة ويصب بجوارها واد تجرى مياهه صيفا ولكنها تعظم

بل وتفيض أحيانا مدة الشتآء وتتألف درنه من خمسة أقسام كأنها قرى يفصلها عن بعضها الوادى المذكور والأقسام الغربية منها وهى التى فوق الضفة اليسرى هى المدينـة والجبل والمغارة والشرقية منها هما بو منصور الفوقانية وبو منصور الواطيـة والقسم المسمى بالمدينة المتقدم هو المدينـة الحقيقية ويحيط به سور وبه أسواق ويقدرون سكان درنه بنحو ستة آلاف نفس وليس لدرنه ميناء بل لها مرسى صغير غير أمين ولا يوجد على الساحل بين درنه والحدود المصرية أى على مسافة تبلغ ٢٧٠ كيلومتراً كما تقدم مكان مسكون له أهمية أصلا وبهذه المسافة عدة رؤوس أشهرها رأس التين وهو منها على نحو خمسة وأربعين كيلومتراً نحو الشرق والجنوب ومن درنه يبتدىء خليج عريض يسمى خليج بمبابه جزيرة تسمى بهذا الاسم يمكن أن تكون محطة بحرية جيدة وينصب أمام هذه الجزيرة واد عريض يأتى من مسافة بعيدة من الداخل يسمى تَمِيمْ هو النهير الوحيد تقريبا فى برقه وأن كان يجف هو أيضا فى أشهر القيظ وهو نهاية نجد قورين وبنطابول شرقا وقسم برقه الذى بين هذا الوادى والحدود المصرية واقع فيما يعرف قديما ببلاد مَرْمَريك (١)

(١) (Marmarique) ـ مَرْ مريك أو مرمريكا بلاد واقعة بأفريقية الشمالية بين بحر الروم شمالا ومصر السفلى شرقا وصحراء لوبيه جنوبا وبلاد برقه غربا وكانت تابعـة لمصر قديما وكل البلاد الواقعة بين مدينة الاسكندرية وخليج سُمَيْبَا يبلغ امتدادها نحو ١٥٦ فرسخا من الشرق ألى الغرب وهناك شريط من الارض الزراعية واقع على ساحل البحر يمتا على نحو ١٥ فرسخاً على الاكثر ألى الجنوب وبعد ذلك صحراء قاحلة لا يرى فيها المسافر

وهى بلاد لا يمكن أن تشبه بلاد بنطابول لا من جهة المناخ لأنها ليست واقعة فوق نجد عظيم ولا من حيث جمال المواقع ولا من حيث خصوبة الأرض كما هو الحال فى بلاد برقه فهى نجد تصل جهاته الوعرة ألى الساحل تقريبا ألا أنه أقل ارتفاعا من نجد برقه بنحو النصف ولذلك كان أشد منه

ألاجزائر من الارض المالحة موزعة بها ويقوم فوق الشريط المذكور تلال وكثبان كلما ابتعد الانسان عن ساحل البحر ويدل منظر الارض فى مرمريكا على حصول انقلابات طبيعية كبيرة كما تدل خرائبها على اضطرابات وثورات أسانية «ان القواقع البحرية الموجودة فى الصخور وعرق اللؤلؤ المنثورة فوق التلال وأحجار البازلت والجرانيت التى فوق الاراضى الثانية الجيولوجية ثم مجموع المادن المختلفة وعدم انتظام وضعها وحالتها مما يؤيد ذلك قال السائح باشو أن المسافر يستولى عليه فى اجتيازها تأثيرات تحدث له ملالا وأن خلوها من الحياة يجعله أكثر تأثرا لعدم وجود المدن ولتفرق السكان فلايرى أمامه الاسهولا سنجابية اللون وتلالا قاحلة ومهما تهدم فلايرى دائما الامنظراً واحداً وسط هذا الفضاء العديم الحياة واللون ولا يكاد يستدل على وجود الانسان هناك الا بسماع صوت بعض القطعان وخيام البدو التى ترى على بعد كأنها نقط سوداء» اه وقال باشو أيضاً يظهر أن سكان كل البلاد الواقعة بين الاسكندرية وجبال برقه لايزيدون عن ثمانية وثلاثين ألف نفس ولم يقل أحد ممن أتى بعده من السياحين أنهم أكثر من ذلك وكل رجالهم متسلحون ولكنهم لايملكون جميعاً خيلا فالفرسان منهم لايزيدون عن أربعة آلاف اه واعلم أن مرمريكا أوقسمها الشرقى على الأخص كان ينقسم فيما غبر من الازمان ألى كورتين مصريتين هما مرنوتيد وليبيك ويظهر أن هذه البلاد الآن تابعة لمصر

حرارة بكثير وليس به شيء من تلك النباتات النضة التي ساعدت على وجود تلك الروضة العجيبة المارة الذكر أي هسبريد في بلاد قورين ومن الصفات المميزة لنجد مرمريك أن أغواره التي لا يصح أن تسمى أودية اتجاهها العمومي من الغرب الى الشرق على موازاة الساحل وبالقرب من رأس التين المتقدم أي على النهاية القصوى من النجد المذكور عين تسمى عين أزِيسن أو الراسم أو أرسم يخرج منها جدول سريع الماء ينساب وسط واد جميل يظن أنها عين أَرَاسا (Irasa) التي ذكرها الأقدمون في تاريخ وخرافات بلاد قورين وعلى نحو خمسة وستين كيلومتراً من الشرق والجنوب من جزيرة بمبا مرسى يقال لها طُبُرقه وطبروق وهي مرسى صغير حولها بقايا مبان عربية وعلى نحو تسعين كيلومتراً الى الشرق من طبروق المذكورة رأس الملح وهو في أول خليج آخر يشبه خليج بمبا ولكنه أكبر منه يصب فيه واد يسمى وادي دِفنه وهو واد جاني تنبت به بعض النباتات فهو أقل قحولة عن بقية البلاد ومصبه قريب من مرسى صغير يسمى مرسى سلوم واقع في سفح جبل يختلف ارتفاعه بين ٢٥٠ متراً و ٣٠٠ متر ويعرف لدى العرب بالعقبة الكبيرة وكان الأغريق يطلقون عليه قديماً اسم كاتاباتموس ميغاس (Katabathmos Megas) ومعناه المنحدر الكبير وقد سماه الأدريسي في كتابه عقبة السلوم وكان هذا المنحدر في كل الأزمنة حداً طبيعياً بين البلدين ويعتبره القدماء نهاية بلاد مرمريد وابتداء بلاد قورين وهو الآن الحد العادي بين البلاد المصرية وبلاد برقه

النجد ـ قد وصفنا فيما تقدم ساحل نجد تورين ونريد الآن وصف نفس النجد المذكور فنقول مر بك الكلام على أوصافه الطبيعية العمومية ورأيت ما هى الصفات الخصوصية لمناخه المعتدل ونباتاته الجميلة مما يوجده فيه ارتفاعه عن سطح البحر ارتفاعاً يختلف بين أربعمائة متر وخمسمائة متر يضاف ذلك ألى مابه من الينابيع التى تمد بعض أوديته بماء دائمى وألى الأمطار المفيدة التى تنزل فوقه وهذه الأمطار تسقط باستمرار مدة أشهر الصيف على قسم منه خصوصاً جهاته الشمالية وقد شاهد بعض السياحين أن الترمومتر فى الشتاء ببلدة تورين ينخفض عادة ألى ١٥ درجة وأحياناً ألى أثنتي عشرة درجة ونصف ويبقى وقت الظهيرة بين ١٩ و٢١ درجة بمقياس سنتغراد وقد اندهش كل من السائح باشو (E. Pacho) والدكتور دلاسالا والكبتين بتشى من اختلاف المناظر هنالك ومن الطراوة المحسوسة التى يصادفها الأنسان متى انتقل من المنطقة الساحلية ألى سهوله العالية والسهول العالية الشجراء بهذا النجد تمتد من الجنوب ألى أن تصل ألى منحدرات الجبل الأخضر الخضراء كما سبق القول وبعد ذلك تأخذ المنحدرات المذكورة فى الانخفاض متجهة نحو الصحراء ولا يكون بها من النباتات أذ ذاك ألا النباتات الحشيشية التى تأخذ فى القلة والندورة شيئاً فشيئاً ألى أن تقوم مقامها أراض رملية جرداء وقد ذكر السائح باشو مناطق النباتات بهذا النجد وعينهامن الشمال ألى الجنوب وشاهد على ساحل البحر جذور عنب عتيقة عالقة حول شقوق

الصخور وهي مما كان يزرعه الأغريق وقال أنه رأى فوق المنحدر الأول من النجد المذكور أشجار الصنوبر الأبيض والزيتون والآس والغاروزهر العسل واللادن والمريمية والفستوس أو الغبرة أو لحية التيس وغيرها وشاهد فوق درجاته العليا غابات من القطاب والعرعر ومروجا جميلة ومزارع حبوب وبأعلى جهات السلسلة الساحلية غابات كثيفة من المصطكي وهذا الشجر الأخير هو أكثر ما يكون بهذه البلاد وقد رأى السائح المذكور أيضاً فوق النجد الداخلي أشجاراً متكاثفة من الخرنوب مختلطة مع أشجار المصطكي ومتى تقدم الأنسان نحو الجنوب ظهرت له أشجار لوز البربر وأشجاره هناك مجتمعة ألى بعضها غالباً موزعة فى أرجائه ثم أن الأشجار العالية تأخذ فى أن تقوم مقام النباتات الحشيشية بالتدريج وأخص تلك الأشجار نوع من الأرتمزيا يصدره التجار ألى بلاد السودان لأنه عندهم من الأعطار هذا وقد اشتهرت بلاد قورين قديماً بنبات يسمى الأنجدان أو السلفيون كانوا يستخرجون منه مادة صمغية كانت تباع بوزنها ذهبا لما لها من الخواص الطبية ولحرص الرومان عليها أذ كانوا يتعطرون بها كما يقول المؤرخ بلين وقد قل الآن هذا النبات جداً ولقد قامت المناظرات بين علماء النبات بخصوصه طويلا واحتدم الجدال بسببه كما مر الكلام (صحيفة ١٥٦) على ذلك والنبات المذكور من الفصيلة الخيمية

واعلم أن نجد برقه صار منذ أثنى عشر قرناً ملكا خاصا للقبائل البدوية لا غير وكلهم به رحل ينتجعون الكلاء ويطلبون مواقع الغيث فليست لهم هناك

لامدن ولاقرى والأطلال الاغريقية وخصوصاً الرومانية به كثيرة كما هى بجهات الساحل ومن أهمها قورين وبرقه وقد وصف الأولى منهما قنصل فرنسوى يسمى لومير(Lemaire)كان بمدينة طرابلس سنة ١٧٠٦م ثم شاهدها أيضاً بعد ذلك بقليل كثير من مشاهير السياحين ووصفوها أخصهم سرفللى (Cervelli) سنة ١٨١١ ودلاسللا سنة ١٨١٧ والكبتين بتشى سنة ١٨٢٢ والسائح باشو سنة ١٨٢٥ ثم هنرى برت سنة ١٨٤٦ وغيرهم وقد ذكرنا ذلك فيما سبق ثم قام ضابط فى البحرية الأنجليزية يسمى الكبتين اسميث (١٨٦٠) وأجرى الحفر على حساب دار الآثار الأنجليزية وألف في ذلك كتاباً سماه تاريخ الاكتشافات الحديثة فى قورين طبع فى لندن سنة ١٨٦٥[١]

وانا لا نري لزوماً لأن ننقل شيئاً من هذا الكتاب لأن مشتملاته أرخيولوجية صرفة بل ننقل قول السائح الدكتور دلاسللا أذ يقول «قد شاهدت الأرض على نحو ساعة من قورين (وكان آت من بنغازى أى من الجنوب الغربى) مغطاة على مسافة يبلغ محيطها نحو ميل ببقايا جسيمة من المبانى ورأيت القبور والنواويس محفورة فى جوانب الجبل ومن هذه الأطلال التى يسميها العرب صَفْصَفْ حوض واسع أوحنايا للماء تتجه فى قسمها الشرقى نحو قورين وبقاياها تشاهد من مسافة ألى أخرى كلما قرب الأنسان ألى المدينة وقد

(١) Cpitain R. M. Smith, History of the recent discoveries of Cyrene. Lond. 1865

تمكنتُ من مشاهدتها بأجمعها من فوق الجبل المشرف عليها ولازلت أشعر بما أعترانى من الدهشة من رؤية منظر كهذا يمتد أمام عيناى وكانت الأرض مغطاة بالخرائب ألى مايصل أليه البصر وهذه الخرائب هى أطلال أبراج وأسوار متراكمة على بعضها وشاهدت طرقا طويلة يحفها من اليمين واليسار قبور ونواويس والحاصل أن الأنسان يرى فى كل جهة أطلالا وخرائب من كل أنواع المبانى مما يوجد فى الذهن والخيال صورة مدينة جسيمة ووسط هذه الأطلال العتيقة الفخيمة خيام للبدو نصبوها هنا وهناك مما يستنتج منه الأنسان مرور عصر طويل ودهر مديد بين عصر تخريب يفصل الأزمنة القديمة عن الزمن الحالى وقد حرف الأعراب أسم هذه المدينة القديمة ولاكوه فى أفواههم حتى جعلوه كِرِنّه أو قرنه أو جِرِنّه واعلم أن قسماً كبيراً من المباني وكل مااختص بفن العمارة التى وجدت ألى الآن فى قورين هو من العصر الرومانى والقليل منها من عصر البطالسة أى من عصر استقلالها الداخلى وهناك ملهيان (تياترو) وانفتياتر وهيكل وميدان للعب وبازان[1] شهير ينسب لابلون معبود الأغريق كل ذلك غير المساكن والقبور » اه

(١) البازان معرب آبزَنْ بالفارسية حوض من نحاس يتخذ للمرضى يجلسون فيه للتعريق ثم توسعوا فيه فأطلقوه على كل حوض وأهل مكة يقولون بازانا للحوض الذى يأتى أليه ماء العين عند الصفا لانه شبه حوض وأقول لعل لفظ (Bassin) الفرنسوى مأخوذ منه

واعلم أن المدينة العربية المسماة برقه لايوجد منها الان كما لايوجد من قورين ألا أطلالها وهى على نحو ١١٠ كيلومترات ألى الجنوب والغرب من قورين وعلى نحو ٢٤ كيلومتراً ألى الجنوب والشرق من طلميته (كما ورد فى خريطة بتشى) وقد بنيت بعد قورين بثمانين سنة بناها جالية أصلهم من قورين وسموها برقه أو برّس (٥٥١ قبل التاريخ الميلادى) وقد أخذت أهمية برقه فى التدنى مدة البطالسة لأنها صارت داخلة ضمن المدن الخمس الكبيرة التى يبلاد أنطابلس وسميت أبطوليمائيس ومما هو ثابت فى التاريخ أن العرب فى أغارتهم الأولى (٦٤٢م) نهبوا قورين وتركوها واختاروا مدينة برقه وجعلوها عاصمة البلاد أطلقوا على تلك البلاد أى بلاد قورين القديمة أسم بلاد برقه ومع ذلك فان العرب لم يشيدوا لها سوراً ألا بعد أغارتهم بنحو قرنين وفى عصر ابن حوقل (النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى) كانت برقه بسبب أهميتها التجارية أحدى المدن الشهيرة بأفريقية وكانت مبنية فى سهل كبير أوفى واد عريض تحيط به الجبال على مسافة قصيرة من البحر وكانت طاميته (بطوليمائيس) مرسى لها وقال أحد جغرافيي العرب انه كان لها مرسى آخر يسمى أجيه كان منها على نحو ستة أميال فقط وهذا الأسم الأخير لايعرفه أحد الآن وكانت برقه فى زمن البكرى (النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى) لاتزال زاهية زاهرة وبعد ذلك بثلاثة قرون عم الخراب برقه وبلادها كما قاله ابن خلدون ثم بعد ذلك كان يتناوب عليها الشقاء والسعد كما ذكره عبد اللطيف البغدادى

وكان الدكتور دلاسللا المذكور أول من عثر من الاوربيين على موقعها الذى لايزال يعرف للآن بالمَرْجَه وقال أنها عبارة عن أطلال وقبور وأسوار متورة فوق أرض مستوية وأبار بعيدة القاع جداً لايزال ماء بعضها لذيذ الطعم للغاية ويطلق الأعراب النازلين بالقرب منها على هذه الأطلال أسم المدينة وهناك أماكن أخرى قديمة واقعة فوق النجد نكتفى بذكر أسمائها وهى بَلَنْج بين المرجه المذكورة وقورين وكأنها هى المحطة الرومانية التى كانت تسمى بَلاَكرائى ومنها أيضاً لَمْلُوده بين قورين ودرنه وهى من غير شك لِمْنيَاسْ القديمة وبالقرب من الشاطىء وفوق النجد المذكور مكان يسميه العرب الساخيط به أطلال منثورة ونواويس كثيرة وهو أقرب ألى درنه منه ألى مرسى سوسه

سكان نجد برقه ـ أعلم أن سكان هذا النجد صاروا منذ عصر طويل كلهم من العرب لاغير ويتألفون من قبائل ثروتهم فى تربية الماشية أشهرهم أربع هم الحرابى والأواغير والمغاربة والمرابطين ولكل قبيلة أفخاذ عديدة قال باشو أن كل بدو برقه يعرفون بأسم الحرابى وقدرهم تقديراً تقريبياً جداً بأربعين ألف نفس وقال أنهم كلهم فى عداء مستمر مع بعضهم بعضا وأسلحتهم فى العادة البنادق والطبنجات والخناجر أما السيوف فلا يحملها منهم ألا المشائخ وغذاؤهم لبن المعز ولحم الضأن والتمر والعسل ودقيق الشعير والحنطة يجهزونها على طرق مختلفة أما ثروتهم فهى فى ماشيتهم كما قلناه وهى عبارة عن الخيل والحمير والجمال والثيران والضأن والمعز وقد اشتهرت بلاد قورين قديماً بخيلها

المطهمة ألا أن الخيل الموجودة بها الآن لا توصف بذلك وأصواف برقه أقل في الجودة عن أصواف ضأن مصر ويكثر بها حيوان الصيد ولا يدخل الأسد في بلاد النجد ورجالهم ونساؤهم كلهم على السواء يستعملون الوشم في أذرعتهم وسيقانهم وفوق ذقونهم ويشتغل النساء عادة بغزل الملابس ونسجها قال في معجم البلدان «برقه بفتح أوله والقاف أسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الأسكندرية وأفريقيه وأسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن وأرض برقه أرض خلوقية بحيث ثياب أهلها أبداً محمرة لذلك ويحيط بها البرابر من من كل جانب وفي برقه فواكه كثيرة وخيرات واسعة مثل جوز ولوز وأترج وسفرجل وفي مدينة برقه قبر رُوَيفِع صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وأهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية ويفيض ألى برك بناها لهم الملوك ولها أبار يرتفق بها الناس ولها ساحل يقال له أجيَه وهي مدينة بها سور ومنبر وعدة محارس على ستة أميال من برقه وساحل آخر يقال له طَلَمِّيثة وبين الأسكندرية وبرقه مسيرة شهر ألى أن قال وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول ما أعلم منزلا لرجل له عيال أسلم ولا أعزل من برقه ولولا أموالي بالحجاز لنزلت برقه» اهـ

بلاد فزان

فزان أحدى بلاد أفريقية الشمالية تابعة لبلاد طرابلس فهي قائمقامية منها

موقعها وحدودها ـ أعلم أن الجغرافيا السياسية من موضوعها تعيين حدود الممالك وتحديدها بالضبط ألا أن فزان ليست من البلاد التي تحتمل هذه الدقة في التحديد لصفاتها الجغرافية الطبيعية ولما لسكانها من العوائد والحالات التي لاتبقى على نمط واحد لهذا كانت تخومها ترسم مبهمة بغير تحديد على مسافة كبيرة في أمتدادها في صحاري غير مأهولة ليس بها مايقبل السكنى ألا بعض أودية تنزلها بعض القبائل وحد فزان الشمالى يمر جنوبى سُوينة العَلوِى وبئر الجدّافية ببضع كيلو مترات وهما بئران واقعان على طريق القوافل بين مدينة طرابلس وبلدة سُكنه وبين بئرى بوجيله وأم الخيل على الطريق بين غِريا الغربية وسُكنه ويمتد شرقاً حتى الدرجة ١٥ والدقيقة ٣٠ من الطول الشرقى بحيث يدخل فى ذلك مدينة زلاّ وقرية تسمى أُوَاء أما فى الجنوب فأن حدودها تمتد حتى جبل تِجِرَنْدُماً (الدرجة ٢٠ والدقيقة ٥٥ من العرض الشمالى) الواقع على طريق بلما وحدودها من الغرب واقعة على نحو خمسة كيلومترات ألى الغرب من ينابيع تسمى عيون تَرْدِلِيسْ وعلى ذلك يكون طول فزان ١١٨٠ كيلومتر تقريباً من الشمال ألى الجنوب وأكبر عرض لها يبلغ خمسمائة كيلو متر من الشرق ألى الغرب وهى فى الشمال متاخمة لقائمقامية الجبل وتمتد في الشرق حتى سهول ساحل خليج سرت الكبير ونجد صحراء لوبية وألى الجنوب منها صحراء كبيرة تفصلها عن واحة كوّار التى يسكنها التبو وتمتد غرباً حتى بلاد توارك أزجرأو أزقر وقاعدتها بلدة تسمى مرزوق ألى الجنوب

من مدينة طرابلس بينهما نحو ٧٧٠ كيلومتراً وبينها وبين أوجله ١٠٥٠ كيلومتر الى الجنوب والغرب وبينها وبين غدامس ٦٥٠ كيلومتراً الى الجنوب والشرق وبينها وبين كوكا ١٤٠٠ كيلومتر

أوصافها العمومية وطبيعة أراضيها ـ لو نظرنا الى بلاد فزان بوجه عام لوجدناها مشتملة على واحات كثيرة يسميها هنرى دوڤرييه بما معناه أرض النجعة وهي قفار وأودية ينزلها قبائل رحل هم وقطعانهم والاودية الجافة التى بهذه البلاد تقطعها فى اتجاهات مختلفة منها ولكن أغلبها يسير من الغرب الى الشرق وبعضها عظيم الاتساع جداً ولا تخفى ما تكون عليه هذه الاودية التى لا ماء فيها كما لا تخفى أهميتها لدى قبائل الصحراء (وسنشبع الكلام على ذلك عند ذكر الصحراء الكبرى) ومن أشهر هذه الأودية وادى عُتْبَه وهو أسفل مرزوق بقليل ووادى إرجُوش وينحدر من جبال أمساك ويتجه الى الشرق والوادى الغربى والوادى الشرقى وهما عبارة عن الجهة الشرقية والغربية من واد كبير يقطع كل البلاد عرضا وهو على يومين الى الشمال والغرب من مرزوق وبالجهة الغربية من هذا الوادى كانت فيما سبق مدينة جرَامه العاصمة فى زمن الرومان ثم وادى الشاطى على أربعة أيام الى الشمال من الوادى الغربى ووادى حيران على ثلاثة أيام من وادى الشاطى وهو واقع فى السفح الجنوبى للنجد الكبير أى الحمادة الحمراء التى تغطى بلادفزان الأصلية شمالا ومتى اتجه الانسان الى الشمال نحو مدينة طرابلس وجاوز

الحماده المذكورة التي لا ينقص عرضها عن ٢١٥ كيلومتراً أو ٢٢٠ كيلومتراً قابل في غير بلاد فزان أودية كبيرة كثيرة كلها تمتد من الغرب ألى الشرق ومياهها تنصب في بحر الروم أشهرها وادى بنّ ووادى زمزم ووادى صفجين وهو من أشهر الأودية في هذه البلاد لاتساعه وخصوبته ويمكن أن تكون بلاد فزان في مجموعها نجداً يختلف ارتفاعه عن سطح البحر اختلافا بيناً لأنه يتراوح بين مائتى متر و ٧٥٠ متر وينفصل عنه هنا وهنالك مرتفعات منعزلة بل وجبال منفردة قائمة بذاتها وأذا أراد الأنسان أن يكون له فكرة صحيحة وتخيل مضبوط لهذا الوصف وجب عليه أن يتصور سياحة يقتفى فيها أثر المكتشفين من طرابلس ألى مرزوق ومتى تم له ذلك فأنه يجد على نحو ثلاثة أيام من الساحل بعد أن يجتاز طريقاً متحدة المناظر مملة وسط سهول كثيرة التضاريس حاجزاً حقيقياً من الجبال الوعرة المرتقى فهتا مرتفعة عن الوادى الجنوبى بنحو ٥٠٠ متر تسمى جبال غريان أى جبال المغارات ومتى تسلق منحدراتها كان النزول منها أسهل من الصعود بكثير مما اقتضاه صعودها ومتى اجتاز ذلك أصبح عند مدخل سهول تختلف فى السعة بعضها يكثر به الزيتون والنخيل وغالبها قاحل عار من النبات بها أغوار عميقة ينساب فى باطنها أودية مما يساعد على تربية الماشية وليس لهذه الأراضى الواقعة على عشرة أيام أو أثنى عشر يوماً من الساحل أسم يشملها بأجمعها وهى داخلة مع ذلك ضمن أيالة طرابلس وهنالك يكون وادى صفجين ووادى

زمزم المذكورين ثم يصادف عقبة أخرى تعرف بمدار الحماد وهى أول النجد الحقيقى أى الحمادة الحمراء وهى ليست الجبل الأسود الواقعة عليه بلدة سكنه والحماد المذكور عبارة عن سهول عالية كبيرة وصحارى حجرية وجيرية خالية من السكان والماء والنبات قليلة الحيوان جداً فلا يشبهها هناك قفر ما ويختلف متوسط ارتفاع هذه السهول بين ٤٢٥ متراً و٤٤٥ متراً عن سطح البحر وفى الطريق مكان يتلاقى فيه المنحدران المتقابلان يظهر أنه أعلى نقطة لهذا النجد ويعرف برجم الارحاء وارتفاعه عن سطح البحر ٤٧٨ متراً كما يقول السائح بَرت ولكن بعضهم يظن أن هذا الارتفاع أقل من الحقيقة بكثير وبالجنوب من الوادى الغربى المتقدم الذكر أحدور وعر هو نهاية الحمادة المذكورة وبعد ذلك تأخذ الأرض فى الأرتفاع بالتدريج حتى تصير بلاد فزان الوسطى فى أرتفاع الحمادة المذكورة تقريباً وبلدة مرزوق مرتفعة عن سطح البحر بنحو ٥٥٩ متراً وبلدة زويله على نحو ٥٣٩ متراً أما من جهة مجموع النجد الذى يكون قسمه الأعلا المنبسط عبارة عن الحماد المذكور فأن وعورته تكون ظاهرة جداً خصوصاً فى جهته الغربية من ناحية بلدة غات التى يكون الوصول أليها من أحدور فجائى وقد رأينا فيما سبق أن ميل هذا النجد فى الشمال يمتد على مسافة أطول مما هو بالجنوب وبه أحدورات فجائية ذات تضاريس واضحة فى عدة نقط منه أما فى الجنوب فأن أحدوراته أقل ظهوراً وليس لدينا عن جهاته الشرقية معلومات مضبوطة كالمعلومات المتقدمة

والمعروف عنها فقط أن الحمادة الحمراء تقوم فيها مقام تلك الكتلة الصخرية المعروفة بالجبل الأسود الذى يمتد شرقا ويعرف بأسم جبل الحَرُوج وهو كتلة بركانية فى الزاوية الشمالية الشرقية من فزان وهناك غير ماذكر جبال لم تتعرض لذكرها ويعلم من الأوصاف والصفات التى مرت أنه لولا جريان بعض الأودية بعد سقوط الأمطار على ندورتها ولولا وجود الينابيع المتفجرة هناك لكانت بلاد فزان خالية من المياه الجارية وبجهاتها الغربية بحيرات إلا أنها كلها صغيرة جداً ومياهها مالحة وكل النباتات تسقى هناك بمياه الآبار

مناخها وحاصلاتها وحيواناتها ـ أعلم أن مناخ فزان شديد الحرارة جداً بل محرق فى الصيف ومتى هبت رياح الجنوب أصبح الحر مما لا يحتمل حتى بالنسبة للأهالى وقد شاهد السائح دوڤرييه المتقدم درجة الحرارة فى مرزوق زادت مرتين فى الظل عن ٤٤ درجة (٥ يوليه و٢٦ منه ١٨٦١ م) ويحصد الزراع الزرع فى شهر مايو والأمطار فى فزان قليلة الكمية ونادرة وتثور بها زوابع يرتج لها الجو ترفع الرمال وتملأ بها الفضاء هذا فى الصيف أما فى الشتاء فأن ريح الشمال يجلب معه برداً قارسا ولجفاف الهواء لا يسقط الثلج بها وكثير من أراضيها تغطيها رمال دقيقة مائلة للحمرة وتتركب أراضيها من طبقة جيرية أو صلصالية خالية من المياه على العموم ولكن هناك أماكن كثيرة أخصها الأغوار ومجارى الأودية بها ينابيع غزيرة تخرج على عمق بضع أقدام وتكفى لأرواء الأراضى التى متى جرى عليها الماء اهتزت وربت

وأخرجت من النبات شيئا كثيراً ومما يزرعه الأهالى هناك الذرة الصغيرة (العربجة) والذرة البيضاء والسوداء والشعير والحنطة ولكنها قليلة وأهم حاصلاتهم بل أولها فى الأهمية التمر وعليه اعتمادهم تقريبا فى الغذاء وهو أيضا من أهم المتاجر لديهم وهم لا يربون الماشية الكبيرة ألا فى وادى الشاطى أما فى غيره فلا يكون لدى الأهالى عادة ألا المعز والجمل هو حيوان الحمل لديهم عموما والخيل والحمير والجمال قليلة وغالية الثمن بالنسبة لما عداها من الحيوانات وخرافهم سمراء وأذنابها كثيرة الدهن ولحومها هى المستعملة فى فزان ولدى العرب عموما وبالجهات الجنوبية نوع من الغنم طويل الشعر أصله من السودان أما حيواناتهم البرية فأكثرها وجوداً النعام والغزلان والغنم البرية والضباع وبنات آوى والثعالب .

سكانها ـ أن تقدير عدد سكان هذه البلاد تقديراً مضبوطا أمر غير ممكن ولكن لما كان المسكون منها قسما صغيراً فقط وكان لا يوجد فى أى جهة من جهاتها مركز مهم مسكون كان عددهم لذلك قليلا جداً , لان بلدة مرزوق وهى أهم مدنهم لا يزيد سكانها عن خمسة آلاف تقريبا وينقسم السكان واحات فزان بطبيعة الحال ألى طبقتين هم الرحل والمتوطنون ويقيم المتوطنون داخل مدن وقرى أما الرحل فأنهم ينتقلون وقطعانهم من مكان ألى آخر بين تلك المدن والقرى وهم عرب فى الغالب وقبائلهم ببلاد فزان الأصلية أى فزان الوسطى ثلاث كبيرة هى الرياح بين سكنه والخروج غربا والحضمان وينزلون ألى الغرب

من القبيلة الأولى ثم المجارحة ومنازلهم حول وادى الشاطى المتقدم وفوق الحماد وألى الغرب من بلدة مرزوق قبائل من التوارك أى البربر وفى الجنوب الغربى قبائل من التوارك كذلك وبالشمال قبائل كثيرة أخصهم الجُنْتَرار وينزلون وادى صَفْجين وأولاد بوسيف والأورْفِلا وغيرهم وكلهم برابر استعربوا قليلا أو كثيراً وسكان الجبال الشمالية التى على سهل الساحل مباشرة أى جبال غريان وكذا جبل تَفُوسه وغيرها لا يزالون للآن كلهم بربر تقريبا ويساكنهم كثير من العرب الخلص بين الحماد الكبير وجبل غريان ومما هو ثابت أن أصل السكان الأقدمين عنصر سودانى وبين الفزانيين الحقيقيين وقبائل كانورى والتبو قرابة قريبة يدل على ذلك ألوانهم وصورتهم الأصلية وتقاليدهم وقد وصفهم بعض السياحين بما تقبح معه صورتهم حيث قال أن بشرتهم معتمة اللون ووجوههم مفرطحة وخدودهم بارزة وعيونهم صغيرة وأفمامهم عريضة ومناخيرهم نائتة غير عريضة وكذلك أنوفهم مفرطحة كما هى الحال عند السود الخلص أما شعورهم فأنها تشبه الصوف تقريبا وليست متكاثفة على بعضها وليس فى مجموع جنسهم ما يدل على الشدة والقوة والعزم اه واللغة السائدة بينهم الآن هى العربية يتكلمها الكل على السواء أما البربرية وتنقسم ألى عدة لهجات فيتكلم بها أهالى سكنه وغيرهم كما يتكلم بها التوارك والجميع من الجنس الأبيض ومن البربر وقد اختلف السائحون فى تقدير عدد سكان فزان قال بعضهم أنهم ستة وعشرين ألفا وقال آخرون أنهم مائتى

ألف ويتركبون من عناصر وأجناس كثيرة مختلفة لأنه يوجد غير الفزانيين الاصليين أقوام من التبو ومن أهل تيبستى بالجنوب وتوارك بالجنوب الغربى وبربر بالشمال والشرق ثم عرب متوطنون وعرب وبربر رحل وعبيد من برنو وغيرها من بلاد السودان حيث تنتشر لغة حوصا وعبيد آخرون من بقية جهات أفريقيه الوسطى ثم محررون وعبيد متناسلون من السود المذكورين وأكثر اللغات انتشاراً هناك لغة كانورى أدخلها سودان برنو ثم لغة حوصا وقد أدخلها سودان حوصا ويتكلم التوارك بلغتهم وللتبو لغة تسمى تيدا وأهالى سكنه وتيمناووادان وكلهم بربر يتكلمون لهجة بربرية تشبه كثيراً لهجة غدامس واللغة العربية منتشرة بين الجميع مع ذلك أماسبب انتشار لغة كانورى ولغة حوصا بهذه الكيفية فيفسره جيداً كثرة البنات والنساء المجلوبات من السودان وقد استمر جلبهن قروناً كما لا يخفى كما تفسره أيضاً العلاقات التجارية التى كانت أكثر بكثير فيما سبق منها الآن بين فزان والبلاد الواقعة جنوبى الصحراء وقل أن تخلو دار فى فزان من أولاد مختلفى الألوان بين الأبيض ألى الأسود وكل هؤلاء الأولاد مهما كانت أمهاتهم يمضون كل طفوليتهم تحت نظر أماء سودانيات فيتعلمون منهن لغات السودان ومتى كبروا تعلموا العربية التى لما كانت تدرس هى بمفردها فى المكاتب كانت اللغة العمومية فى البلاد ولما لها أيضاً من المزايا والفوائد التى لا تكون لغيرها

الحالة الاجتماعية والسياسية ـ أعلم أن الصناعة فى فزان معدومة تقريبا فهى قاصرة على عمل منسوجات غليظة من الصوف والقطن ويصنعون حصراً من خوص النخيل ويستورد أغنياؤهم الأقمشة من مدينتى طرابلس والقاهرة ودورهم منخفضة جداً وأغلبها كالأكواخ يبنونها من الطين أو الطوب المجفف فى الشمس وفى فزان نحو مائة مكان بين قرية ومدينة منها نحو سبعة يمكن اعتبارها مدنا هى مرزوق وزويله وسكنه وتراجن وزلاّ ونسلوه وتكرتيبه وسنجه وأغلبها واقع فى الجهات الشرقية والجنوبية منها ويمر الطريق بين مرزوق وطرابلس مباشرة بأراض قاحلة (الحمادة الحمراء) لهذا لم يقم بها لا مدن ولا قرى أصلا وكان صاحب فزان قبل الفتح العثمانى يلقب بسلطان فيقال سلطان فزان كما يلقب غيره من سلاطين أفريقيه على صغر ممالكهم هذا وتنقسم قائمقامية فزان ألى سبعة أقسام قال فى معجم البلدان « فزان بفتح أوله وتشديد ثانيه وأخره نون ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس بها نخل كثير وتمر كثير ومدينتها زويلة السودان والغالب على ألوان أهلها السواد » اهـ ملخصا

مدن طرابلس وبرقه وفزان

طرابلس ـ مدينة بحرية وعاصمة ولاية طرابلس ألى الجنوب والغرب من القسطنطينية بينهما نحو ألف وستمائة كيلومتر وألى الجنوب والشرق من تونس بينهما نحو خمسمائة كيلومتر وبينها وبين مدينة الجزائر ٩٨٠ كيلومتراً

ويقدرون سكانها بنحو ٤٠٫٠٠٠ نفس وميناؤها واقع فوق الجهة الغربية من خليج صغير يحميها من الغرب لسان ينتهى بطرف مستطيل يمتد من الجنوب الغربى ألى الشمال الشرقى وعلى استطالة هذا اللسان صخور وجزر صغيرة تمتد فى الأتجاه المذكور ولو ردمت المسافات التى بين الجزر المذكورة وأطيلت نهاية اللسان المذكور بأقامة جسر لأوجدوا لطرابلس بغاية السهولة ميناء مأمونة جداً من فعل الرياح الغربية ورياح الشمال ورياح الشمال الغربى أما الآن فأنه بمجرد ما يقوى هبوب الأرياح يدخل فى الميناء من الممرات التى تفصل تلك الجزر عن بعضها أمواج ضخمة جداً والسفن التى تحتاج لماء عميق ترسوا خارج الخليج المذكور وهو صعب المدخل جداً وأعماقه متغيرة وساحل البحر هنالك منخفض مستو حتى لا تمكن مشاهدته من بضع كيلومترات وأول ما يشاهده القادم على تلك المدينة بحراً رؤوس النخيل ومتى هبت الرياح من الشمال أو الشمال الشرقى أصبحت السفن على خطر أن يقذف بها على الساحل ويحمى الميناء أستحكامات مهمة تمتد حولها ففى الغرب على اللسان المذكور ثلاثة حصون هى القلعة الجديدة وهى فى نهايته والقلعة الأسبانية وهى خلف الأولى بقليل والقلعة الفرنسوية وهى على جزيرة صغيرة بالجنوب الغربى وفى نهاية الخليج قصر كبير داخل قلعة يقيم به الوالى ويحميه من الشرق حصنان أحدهما القلعة الهولندية وثانيهما القلعة الأنجليزية وللمدينة فنار بنى سنة ١٨٨٠ واقع فى الزاوية الشمالية الغربية منها

وليس لطرابلس ذلك المنظر الكبير المهيب الذى لمدينة الجزائر وليس لها أيضا جمال مدن السواحل التونسية مثل سوسه ومنستيروغيرهما ومع ذلك فأن لها منظراً يأخذ باللب فيشاهد بالجهة الغربية من خليجها خلف أسوارها النظيفة البيضاء التى تحيط بها جملة دور ومبان يعلو بعضها بعضا تمتد من ساحل البحر وبين دور المحلة العليا منها وهى المحلة التركية عدة منارات وقباب لجوامعها أما قسم المدينة الواقع ألى الجنوب والمجاور للبحر فأن به سراى الوالى وما يتبعها من المبانى الجميلة المنظر ويتخلل هذا المنظر البديع نخلات شاهقة منثورة ومتى دخل الأنسان طرابلس رآها على هيئة تخالف ظاهرها وهى صفة تلازم كل المدن الشرقية تقريبا ومع ذلك فأن طرابلس نظيفة الطرق أى أنها ليست كما كانت مدينة تونس قديما وبها شارعان عريضان معتنى بهما جيداً يمتد أحدهما بجانب البحر جهة سورها تحف به من الجانبين دور جميلة واسعة وبه مساكن قناصل أوربا وتجارها وثانيهما يمتد داخل المدينة وهنالك شوارع أخرى لبعضها حنايا وقبوات وهى ممهدة جيداً نظيفة على العموم ومما تمتاز به طرابلس ميدان صغير فى الشارع الأول المذكور يقوم فى وسطه برج عليه ساعة كبيرة ومن أسواقها سوق العرب وبناؤه عقود وتباع به الأقمشة وسوق الترك وهو أكثر الأسواق تجارة وبه مخازن لمختلف المتاجر وسوق الخياطين (الترزية) وبه مخازن الخياطين وأغلبهم من اليهود وسوق الحرايره وبه معامل لنسج الحرير وبالجهة الجنوبية الغربية من

المدينة محلة اليهود وتعرف أيضا بالحارة وهى قذرة الطرق ولكنها كثيرة الحركة أما من جهة المبانى فليس بطرابلس منها ما يذكر ألا الجامع الكبير وسراى الوالى وهى بناء ضخم يشبه القلعة به غير مساكن الوالى وحاشيته أماكن كثيرة لكبار الموظفين وطرق ودهاليز وساحات كبيرة وصغيرة مما لا يمكن السير فيه ألا بدليل ومن المبانى أيضا قوس نصر جميل قريب من الميناء كان شيده أحد موظفى الرومان أحتفالا بالأمبراطورين مارك أوريل وفيروس ولكنه قد تهدم الآن بحيث أن جوانبه التى كانت من الرخام الأبيض أصبحت لا ترى أما الماء فأنه قليل فى طرابلس وهم يأخذونه من صهاريج قديمة العهد جداً وقد حفروا بها من بضع سنوات أبارا أرتوازية ألا أن مياهها لا تصلح للشرب تقريبا وتجلب الرياح معها فى الغالب رمالا من الصحراء فتلقيها على المدينة بحيث يتراكم منها تلال كبيرة ربما غطت دورهم وحول المدينة سهل جميل به نخل كثير جداً وبساتين جميلة ودور لكبار الموظفين من الأتراك والأوربيين ودواوير عربية وقرى يسكنها قوم من السود ولا يقل سكان هذا السهل عن ٣٠٫٠٠٠ نفس وقد ازداد عدد سكان مدينة طرابلس منذ بضع سنوات حتى أصبحوا أكثر من أربعين ألف نصفهم تقريبا من الأجانب ومنهم نحو ثمانية آلاف من اليهود وبعضهم فى ثروة واسعة وكثيرون منهم يرسلون قوافل ألى بلاد السودان وعدد الأوربيين نحو خمسة آلاف أغلبهم من المالطيين يشتغلون بالتجارة ويتلوهم فى العدد

الطليانيون ومن سكانها أيضا قدر كبير من الأتراك بين موظفين وتجار وغيرهم ومنهم أيضا بعض القول أوغليه وقوم من جربه وغدامس وتونس وكلهم يشتغلون بالتجارة ثم قوم من كل أجناس السودان يضاف ألى ذلك عرب وبربر بحيث يمكن القول بأن مدينة طرابلس عبارة عن ملتقى طرق يتلاقى فيها كل أمم أفريقيه وأوربا تقريبا وتجارة طرابلس عظيمة جداً لجودة موقعها فهى أهم مكان للتجارة بين أوربا وبلاد السودان وقد بلغت صادراتها سنة ١٨٩٨ ٠٠٠ر٠٠٥ر٩ من الفرنكات للواردات و٠٠٠ر٩٥٨ر٩ للصادرات وتبلغ قيمة التجارة بين بلاد طرابلس والسودان ألى ما زيد عن خمسة ملايين من الفرنكات سنوياً وأشهر الواردات ألى طرابلس المنسوجات القطنيه والصوفية والحريرية والخرداوات والسكاكين والأوانى الفخارية والسكر والبن والشاى والشمع والتبغ وغيرها أما صادراتها فأشهرها الحلفاء والملح والجلود والثيران والضأن وريش النعام والعاج واعلم أن طرابلس مدينة أزلية كانت تسمى أُوَايَاتْ وهو لفظ يظهر أنه بربرى الأصل وحرفه الرومان ألى أُوَا وقد استعمرها الفينيقيون ثم تبدل أسمها فى وقت لا يمكن تعيينه فصار طرابلس وكان هذا اللفظ يطلق على كل الأقليم المشتمل على مدن سَبْرَاتَا (Sabrata) ولِبتيس (Leptis) وأُوَا (Oea) التى صارت عاصمة له وقد احتل الفرنسويون مدينة طرابلس بين سنتى ١٥١٠ و١٥٣٠ ثم استولى عليها فرسان مالطه من ١٥٣٠ ألى ١٥٥٠ ثم انتزعها منهم القائد التركى المسمى طورغود بعد أن حاصرها وهى الآن عاصمة أيالة

طرابلس ومقام قناصل أوربا بها وورد فى النشرة الفرنسية المسماة نشرة جمعية أفريقيه الفرنسية الصادرة سنة ١٨٩٩ (١) أن الأتراك يهتمون الآن ويبذلون نشاطاً غير معهود ببلاد طرابلس فقد ضاعفوا منذ بضعة شهور حاميتها تقريباً وهم يسعون الآن فى أعمار جهاتها الخصبة الغير المأهولة ولهذا فأنا نراهم يرسلون ألى أقليم برقه الذى خربه تيفوس سنة ١٨٩٣ المهاجرين المسلمين من أهالى كريد الذين صمموا على عدم العودة ألى جزيرتهم وقد أنزلوهم حول بلدة كرنه فى جهات صحيحة الهواء جداً وافرة الخصوبة ولا يخفى أن مدينة قورين القديمة قامت فوق نجد كرنه المذكورة واشتهرت بنجاحها وفلاحها ورقيها الذى كان لها بسبب المساعى التى بذلتها جالية من أهالى أقريطش كما لا يخفى وتتألف هذه الجهات التى نزلتها جالية كريد الآن من أراض واسعة اشتهرت بخصوبتها ووفرة مراعيها فى كل بلاد طرابلس وأن بقايا المبانى التى يشاهدها السائح ماثلة بين درنه وكرنه تؤيد ما كان لهذه البلاد من الأهمية والخصوبة قديماً وفى أسفل نجد قورين ينبسط سهل واسع بالجهة الشمالية منه يمتد ألى مرسى سوسه المسماة قديماً أبولونيا والتى كانت السفن تتردد عليها كثيراً وقد تداول الناس الآن أشاعة حاصلها أن الحكومة العثمانية عزمت على الأستفادة من هذا المرسى وأنها عينت جمعية مهندسين كلفتهم بدراسة الأعمال التى فى النية عملها فى مرسى سوسة وأصلاحه وجعله فى حالة تسهل

(١) Le Bulletin du Comité de l'Afrique française de 1899.

الأستفادة منه وأن هؤلآء المهندسين على وشك مغادرة الأستانة للنظر فيما كلفوا به وأنه لو أصلح مرسى سوسه لصار بذلك للأقليم ثغراً بحريا هو فى شدة الحاجة اليه وأن نشاط المهاجرين الكريديين وزكاءهم سيوجدان فيها بلا شك ما كان لها من الحياة القديمةوليست يقظة الأدارة العثمانية قاصرة فقط على الجهات الشمالية بل يؤكد العارفون أنها تنوى أجراء أعمال سرية بالجهات الجنوبية ومما يذيعونه أيضا أن الأتراك يتقدمون نحو بلاد كانم ووداى ألى أن قال وقد وجد الكابتين كازماجو آثاراً لهذه الحركة فى بلدة زندر (دامرجو) وأشاعوا أيضا أن سلطان العثمانيين قد تصالح مع شيخ الطريقة السنوسية القوية وأن هذا الشيخ بعد أن أقام فى جغبوب ثم فى كفره جنوبى بلاد برقه قد تركها وذهب ألى السودان الأوسط ليمهد كما يقولون الوسائل للجنود التركية ويؤكد بعض الناس أنه ذهب ألى برنو ولكن يظهر أنه ذهب ألى بلاد وداى لا ألى برنو لأن ودّاى أصبحت الحصن الحصين للسنوسية ألى أن قال وليس كل هذا ما يشاع بل أن الأتراك يسعون فى الأتفاق مع رباح لتوطيد دعائم التجارة بالصحراء التى قداضطربت منذ بضع سنوات حتى صيرت الوصول ألى نهاية طريقها بالسودان غير ممكن ولكن هذا القول الأخير ربما كان غير صحيح بل المحتمل جداً أن رباح يرغب فى الحصول على أسلحة من طريق طرابلس أذا قلنا أنه لا يمكنه الحصول عليها من طريق آخر اه بتلخيص واختصار قال فى معجم البلدان

«طَرَابُلُس بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضا مضمومة وسين مهملة ويقال أَطْرَابُلُسُ وقال ابن بشير طرَابُلُسُ بالرومية والأغريقية ثلاث مدن وسماها اليونانيون تَرَابليطة ألى أن قال وتسمى أيضا مدينة أُناس وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان وهى على شاطىء البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى وبها أسواق حافلة جامعة وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود وحولها أنباط وفى بربرها من كلامه بالنبطية فى قرارات فى شرقيها وغربيها مسيرة ثلاثة أيام ألى موضع يعرف ببنى السارى وفى القبلة مسيرة يومين ألى حد هواره وفيها رباطات كثيرة يأوى أليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب ومرساها مأمون فى أكثر الرياح وهى كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة فى شرقيها وتتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير وداخل مدينتها بئر تعرف ببئر أبى الكنود يُعَيِّرُونَ بها ويحمق من شرب منها فيقال للرجل منهم أذا أتى بما يلام لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبى الكنود وأعذب أبارها بئر القبة » اه

غدامس ـ ويقال لها أيضا ردامس وتسمى قديما سيداموس وهى مدينة وواحة بصحراء طرابلس على نحو ٤٩٥ كيلومتراً ألى الجنوب والغرب من مدينة طرابلس وعلى ٤٢٠ كيلومتراً ألى الجنوب والغرب أيضا من قابس واقعة فوق نجد يسمى تِنْجِرت وترتفع عن سطح البحر بنحو ٤٢٣ متراً ويحيط بواحتها سور دائرى تقريبا يبلغ أكبر قطر له ١٥٠٠ متر من الشمال ألى الجنوب

و١٦٠٠ من الشرق ألى الغرب وبلدة غدامس واقعة فى الجنوب والغرب من واحتها وسكانها كما هم فى أغلب قصور الصحراء منقسمون ألى أقسام صغيرة كل قسم فى محلة يحيط بها سور ويسكن غدامس قبيلتان هما بنى أوليد وتسكن قسمها الشمالى وبنى أوازيل وتسكن قسمها الجنوبى وكل منهما ينقسم ألى أفخاذ والقبيلتان المذكورتان من البربر وبالمدينة أيضا غير ذلك طبقتان من السكان أحداهما عرب وهم ولد بليل والأخرى خليط من المحررين من العبيد والخلاسيين وهم متناسلون من غدامسيين وأماء سودانيات وتعرف هذه الطبقة الأخيرة أيضا بأسم أترية ولغة أهالى غدامس بربرية تشبه لهجة نفوسه ولهجة التوارك ولكنهم يتكلمون العربية مع العرب والتماهاج مع التوارك ولغة حوصا مع العبيد السود ويقدر العارفون سكان بلدة غدامس بنحو ١٢٫٠٠٠ نفس وأغلب طرقها جيد جداً مسقوف مما يصيرها مظلمة كثيراً ويتفرع عنها شمالا ويمينا أزقة أظلم منها بحيث أنها تشبه كثيراً سراديب الحصون الحربية كما قال أحد السياحين واعلم أن هذا الشكل فى الوضع الذى يقتضيه وقوع المكان بالقرب من مدار السرطان يشاهد أيضا فى واحات أخرى بربرية كثيرة مثل واحة سيوه ولغدامس صفة أخرى هى أنه لما كانت دورها متصلة بعضها ببعض تقريبا بأسطحتها التى تغطى طرقها فتكون لها سقفا كانت تلك الأسطحة عبارة عن طرق مكشوفة متراكبة فوق الطرق السفلى وقد خصصوها باستعمال النساء ففيها أسواق بها ما يحتجن

أليه أما الطرق المظلمة السفلى التى يدخل أليها الضوء من منافذ قليلة ذات شبابيك فتكون للرجال والعبيد والأماء ويوم الجمعة يوم عيد عندهم يختلط الناس فيه ببعضهم وهم يجتمعون بعد صلاة الجمعة فى ميدان صغير فى وسط المدينة تقريبا تقوم به فى ذلك اليوم سوق تباع فيه بالمزاد جمال وضأن وخرز وغير ذلك من الأشياء الكثيرة والبساتين التى تحيط بغدامس دائمة الخضرة وينبت بها أشجار النخيل والتين والمشمش والسفرجل ونباتات بقولية كثيرة ويزرعون فى أماكن من ضواحيها الحنطة والشعير والذرة ولكن بمقادير قليلة ومزروعاتهم لا تسقى من مياه الأمطار لأن المطر هنالك نادر جداً بل شربهم وسقى مزروعاتهم من عين غزيرة الماء فى وسط المدينة ومن آبار محفورة أيضا بالقرب من العين المذكورة والعين المذكورة هى السبب فى وجود غدامس وبقائها وسط بلاد جرداء وتبلغ درجة حرارة هذه العين فى ماجل كبير قديم البناء هنالك حيث تخرج السواقى التى توزع الماء ثلاثين درجة وربع لا تتغير لا صيفاً ولا شتاء يدل ذلك على أن ماءها معدنى حار والسور الذى يحيط بهذه الواحة يقيها أيضا من الرمال المتحركة وهو متخرب ومع ذلك فأنهم لو تعهدوه بالأصلاح لكان غير كاف بالمرة لحفظ البساتين من النهابين السلابين ومن باب أولى من حفظ المدينة من عدو يهاجمها فلو احتيج لحماية ذلك السور الذى يبلغ طوله نحو ستة كيلومترات للزم أعداد قوى أكثر بكثير مما يمكن أن تخرجها الواحة المذكورة ويشتغل بزراعة البساتين

نفر قليل من سكانها لأن كل أعمال أهالى غدامس منصرفة فى الطرق الكبرى بالصحراء وفى أسواق سواحل بحر الروم وأسواق بلاد السودان لأنهم قوم كأنهم لم يخلقوا ألا للتجارة فهم يترددون على أسواق تونس وطرابلس ومصر وتركيتى أوربا وآسيا وأن كان ذلك فى القليل كما يترددون على أسواق أن صالح وتمبكتو وكانو وكوكا حيث قد احتكروا التجارة فيها غالبا وكلهم مسلمون على مذهب مالك وبعضهم على مذهب الأباضية كالكثير من البربر ولما كانت غدامس واقعة فى مكان قريب نوعا من ثغور بحر الروم (قابس وطرابلس) بحيث يمكنها أن تأخذ مصنوعات أوربا وتصرف فيها ما تجلبه قوافلها من السودان من المتاجر كانت ولا بد أن تبقى زمناً طويلا أحدى المراكز المهمة لتجارة بلاد السودان الأسلامى وقد كان للأنجليز بها فيما سبق قنصل واعلم أن غدامس مدينة قديمة جداً فى التاريخ وقد ورد ذكرها باسم سيداموس فى جدول المدن والأمم الأفريقية العديدة التى تزين بها أنتصار القائد كورنليوس بلبوس (Cornelius Ballus) فى سنة ١٩ ق م وقد اكتشفوا فى الأيام الأخيرة بواحاتها كتابات رومانية مما يؤيد حكم رومية لها قال أبو الفداء عند ذكره غدامس أنه يوجد ألى ما فوق ينبوعها بقايا بناء جميل لا يزال للآن وهو من عمل الرومان وقال أيضا ليس لأهالى غدامس رئيس مطلق التصرف بل يحكمهم شيوخ المدينة وذكر ابن خلدون تقدم غدامس فى التجارة وقال أنها أحدى المنازل التى ينزلها الحجاج القادمون من السودان

ومنها تخرج التجار ألى الأسكندرية والقاهرة بعد الأستراحة من سفرهم في الصحراء وقد كانت غدامس في زمن تسلط المسلمين تابعة أولا لتونس ثم أضيفت ألى بلاد طرابلس وهي الآن قاعدة قائمقامية تشغل الشمال الغربي من فزان ولا تبعد حدود بلاد الجزائر عن غدامس ألا بنحو خمسين كيلومتراً ألى الشمال والغرب وهو تحديد أسمى كما لا يخفى وقد نجم عن الروابط الحديثة مع بلاد السودان من وقت استيلاء فرنسا على بلاد الجزائر تردد الأوربيين على غدامس

غات ـ ويقال لها أيضا رات مدينة بالصحراء الوسطى على نحو ٥٨٢ كيلومتراً ألى الجنوب والشرق من غدامس و٣٩٥ كيلومتراً ألى الجنوب والغرب من مرزوق وترتفع عن سطح البحر بنحو ٧٨٧ متراً وتشغل واحة غات قاع واد يمتد من الجنوب ألى الشمال يشرف عليه من الشرق جبال يقال لها أكاكو ويظن أن هذا الوادي كان فيما سبق نهيراً يصب في حوض نهر أغرغر ولكن الرمال قد سدته الآن شمالا وتذهب المياه التي تسيل فيه في بعض الأوقات فتغور في الرمال أما مدينة غات فأنها مختطة على نشز من الأرض واقع في أسفل جبل صخري وحولها سور وهي مقسومة تقسيما هندسياً تقريبا ألى ست محلات يفصلها طرق تنتهي بستة أبواب وهذه الطرق التي على مثال ما كان منها بغدامس وسيوه وغيرهما من مدن البربر القديمة تشبه الدهاليز وهي ذات قنوات لا يدخلها الضوء ألا من فتحات

المعروفة فى كتب العرب بأسم تنتانا والتقاليد التجارية القديمة لم تتغير أصلا بتلك الجهات فالتجار منذ قرون يسيرون فى طرق لم تتغير وهى طرق عينتها العادات والقبائل التى يدفع لها التجار أموالا في مقابلة المرور والحماية وعلى ذلك كان يتعين على أهالى غات فى ذهابهم ألى تمبكتو أن يقطعوا مسافة طويلة مارين بواحة تُوات سيما والتجارة مع بلاد الجزائر الفرنسوية مباشرة يمنعهم منها الأتراك والسنوسيون الذين أصبح نفوذهم كبيراً فى غات من نحو نصف قرن ولهذا اضطرت غات لأن تجلب ما يلزمها من الأقوات والحاجيات من الأسواق البعيدة التى بالبلاد الواقعة بين النيجر وبحيرة شاد لأن زراعتها وصناعتها لا يقومان ألا ببعض ما تحتاجه من ذلك وليس بالبساتين التى حولها من النخيل ألا نحو أربعة آلاف وبين هذا النخيل يقيم التوارك فى دور صغيرة مبنية من الحجر أو الطين أو فى أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر أو تحت خيام من الجلد ولا يوجد فى ذلك الوادى غير غات من المدن ألا مدينة يقال لها بركات وسكانها من التوارك وهى على نحو عشرة كيلومترات ألى الجنوب من غات وهى بلدة صغيرة نظيفة لطيفة أكثر ماء ونباتات من غات ومنظرها من المناظر الجميلة التى يصادفها السائح فى تلك الأرجاء أما الجبال التى بخارجها فأنها جرداء سوداء وعرة ومع ذلك فأن فى تلك البلاد من الاطلال وبقايا المدن ما يدل مع قحولتها على أنها كانت عامرة فى وقت من الأوقات وحتى يقول الأهالى أنه قد كانت بجبل أكاكو المذكور مدينة

قديمة تدعى تَدْرَزْت حيث لا تزال توجد شجيرات من الآس جلبتها ألى هناك من غير شك أمة اشتغلت بالزراعة كما يوجد نقوش محفورة فوق الصخور والحيوانات المنزلية في غات هى الأبقار الدريانية وهو الحيوان الوحيد الباقى من نوع كان يكثر فيما سبق ببلاد طرابلس أى وقت أن كانت الأمطار بها أكثر مما هى الآن وكانت أوديتها الجافة الآن نهيرات حقيقية وألى الشمال من غات هضبة صخرية على شكل هلال أحديذابها ألى الجنوب ولها قمة مسننة وهى واقعة بين درب أجيلاد الضيق المذكور وبين واد واقع عند القاعدة الغربية من جبال أكاكو وتسمى هذه الكتلة المنعزلة أيدينين وتعرف أيضاً بقصر الجن يقولون أن الجن يأتون أليها من البلاد الواقعة حولها على نحو ألف فرسخ ويجتمعون بها لتدبير مفاسدهم وشرورهم وقد كاد السائح ريشردسن (Richardson) يهلك عند ما أراد الصعود عليها وحاول كذلك السائح برت ولكنه لم يتمكن من الوصول ألى قمتها ويعتقد الأهالى أن عدم نجاح كل من ريشردسن وبرت سببه ما استولى عليهما من الفزع والذهول عند اقترابهما من قمتها ويعلم من بعض الروايات أن غات ليست من المدن الأزلية بل قد مر عليها من يوم أن أسسها بربر أهاجن وغيرهم من برابر تلك الأطراف نحو خمسة عشر جيلا ولم يذكرها أحد من جغرافيي العرب بالقرون الوسطى غير أبن بطوطه فيما نعلم (القرن الرابع عشر من الميلاد)

وقد أصبحت هذه الواحة تابعة للدولة العثمانية بصفة رسمية منذ سنة ١٨٧٤

ولها بها جند وموظفون وكان التوارك هاجموها واستولوا عليها سنة ١٨٨٦ ألا أن الأتراك عادوا واستردوها منهم بعد ذلك بسنة وأول سائح زار هذه الواحة هو ريشردسن المذكور فى سياحته الأولى سنة ١٨٤٥ ذهب أليها كآحاد الناس بمفرده وليس معه لا سلاح ولا آلات وفى سنة ١٨٥٠ سافرت أليها البعثة المؤلفة من ريشردسن وبرت وأوفرفيج (Owerveg) وكان معها كل ما يلزم للسياحة والأكتشاف ومع ذلك فقد كابدت مشاق كثيرة والذى أثار عليها الأفكار وسبب لها العداء مكتوب الحكومة الأنجليزية الذى كانت تحمله وكان يختص بمسألة منع تجارة الرقيق الأسود وفى سنة ١٨٥٨ سافرت أليها قافلة فرنسية صغيرة كان دليلها شاب جزائرى يسمى أسماعيل بودربا كان ترجمانا ببعض مصالح بلاد الجزائر ألا أنها مُنعت من دخول المدينة المذكورة وفى سنة ١٨٦١ عزم السائح الفرنسى دوفرييه على زيارة غات ولكنهم أوقفوه على نحو ثمانمائة متر من أسوارها لأن السكان كانوا أقسموا بأنهم يقتلونه اذا دخل مدينتهم وحاول بعده آخرون زيارة غات فلم ينجحوا ثم تمكن سائح ألمانى يسمى أرِوِن فون بارى (Erwen Von Bary) من دخولها سنة ١٨٧٦ ولكنه قتل فى عودته سنة ١٨٧٧ وهمّ بعده مكتشفون آخرون بزيارتها فلم يوفقوا

مرزوق ـ قاعدة بلاد فزان وعلى نحو ٧٧٥ كيلومتراً ألى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس وترتفع عن سطح البحر بنحو ٤٥٠ متراً ويقدرون سكانها بنحو سبعة آلاف وهى مختطة فى النهاية الشرقية من وهدة تعرف بالحفرة

يزيد طولها عن مائة كيلومتر ويختلف عرضها بين خمسة عشر كيلومتراً أو عشرين كيلومتراً وليس سور مرزوق بالمرتفع ولا بالقوى وهو من الطين وعليه أبراج ويعتنون بالمحافظة عليه جيداً ويقسم المدينة طريق كبير ألى قسمين متساويين تقريباً بكل منهما طرق وأزقة أغلبها ضيق متعرج ودورها من الطين الذى يخالطه الملح ولمرزوق قصبة بها ثكنة عسكرية ومسجد صغير كما بها القصر أو القلعة الحقيقية وبه يسكن القائمقام هو وموظفو الأتراك وسكان مرزوق خليط من كل أمم أفريقيه وغيرهم من التركى الأبيض الأوربى ألى الأسود الأبنوسى الأفريقى ويتكلم الناس فى مرزوق بكل لغات أفريقيه الشمالية تقريباً كالبربرية والعربية والتركية ولغات التبو وحوصا وبرنو وغيرها وفى سوقها كل المأكولات كاللحم والخبز والخضراوات وكل حاصلات أفريقيه الوسطى وحاصلات أوربا ومع ذلك فليس لسوقها أهمية أسواق واحة تافيللت ويقول الأهالى أن مرزوق بنيت من نحو ستمائة سنة ولا يعلم السبب الذى حمل حكامها على بناء هذه المدينة فى سهل كثير المستنقعات يتصاعد منه فى الصيف أبخرة مضرة بالصحة جداً مع أن هناك من الأماكن الصحيحة الهواء ما كان يجب أن تبنى فيها وربما كان أصدق تعليل لذلك كون مرزوق مبنية على الطريق الأصلية لمرور القوافل الواقعة عند مدخل المسالك والدروب التى تخترق نجد أفريقيه ذاهبة نحو بلاد السودان ولرداءة مناخ مرزوق كان كل الأجانب تقريباً حتى السود منهم

يصابون صيفاً بالملاريا وبالحميات الخبيثة والحر هناك شديد لا يطاق كما هو فى كل بلاد فزان ودرجة الحرارة تكون بين ٥ و٦ فى الشتاء فقط وفى الصيف تتراوح عند شروق الشمس بين ٤٤ و٤٥ درجة فى الظل وتصل ألى خمسين وستين درجة فى الشمس وروى السائح نختيجال عن الشيخ محمد التونسى (١) السائح وكان نزل مرزوق منذ أكثر من خمسمائة سنة قوله فى وصف مرزوق «كيف تمكن المعيشة فى بلاد ليس بها طعام يتلذذ به آكله ولا تسقط بها قطرة ماء والأنسان هناك كالحيوان يكتفى ببعض تمرات وتنتشر بها الحمى انتشاراً مريعاً والحنطة فيها غذاء الملوك والزبدة ليست بأقل من حجر الفلاسفة وجوداً وحيث الأنسان هو والجمل يتنازعان البرسيم الذى تأكله الحترات

(١) هو الشيخ محمد بن عمر التونسى سائح شهير ولد بمدينة تونس سنة ١٨٨٩ أتى القاهرة صغيراً ثم دخل الازهر وبعد أن نال منه درجة علمية ذهب للالتحاق بوالده سنة ١٨٠٣ وكان والده من حاشية سلطان دارفور فأقام بدارفور عدة سنوات كان اثنائها موضع احترام السلطان محمد فضل ثم غضب عليه السلطان وسجنه ثم عاد فأطلق سراحه وبعد ذلك سافر ألى بلاد وداى ومنها عاد ألى مدينة تونس ثم عاد فغادر تونس ذاهباً بعد موت والده ولم يأخذ شيئاً مما تركه له ميراثا وعاد ألى القاهرة حيث توظف بوظيفة كاتب فى بعض الآلايات العسكرية المصرية وذهب ألى بلاد موره ثم تعين سنة ١٨٣٢ مصححاً لما يطبع من الكتب بمدرسة أبى زعبل وشهرته باوربا بسبب سياحته بأفريقيه الوسطى وقد سمع منه هذه السياحة الدكتور الفرنسى مسيو برُّون (Perron) ناظر مدرسة الطب بالقاهرة وطبعت بالعربيه لاول مرة فى باريس سنة ١٨٥٠ وقد ترجمت مرتين ألى الفرنسيه الاولى سنة ١٨٤٥ والثانيه سنة ١٨٥١

من الحيوانات وتساوى البيضة نصف مثقال من الذهب » اهـ ويحيط بحفرة مرزوق كثبان ومستغدرات ملحة ولكن الشيء المدهش أنه ينبع بتلك الحفرة عيون عذبة الماء ومزارعها موزعة بغير نظام فتارة تكون شريطاً ضيقاً وتارة تكون أرضاً شجراء وتكاد الصحراء تلامس أسوار المدينة من الجنوب الشرقى وأجمل مزارعها ما كان ألى الشمال منها وهم يزرعون بها الحنطة والشعير والخضراوات وبواحة مرزوق أكثر من ثلاثين نوعاً من التمر والنخيل بها كثير جدا حتى يزيد ما تأخذ عليه الحكومة العثمانية منه من الضرائب عن المليون عدا ويقيم بهذه المزارع والبساتين من السكان ما يزيد عددهم عن سكان المدينة ودورهم ومساكنهم موزعة فى كل أرجائها بحيث لا يكون من ذلك قرية أو مدينة وحماد مرزوق الذى بالشمال والغرب من واحتها يفصلها عن واد يدعى لاجال وهو نجد مستوى السطح كثيراً ألا ما كان منه فى النهاية الشمالية حيث يوجد جبل أجر ديسمى أمسالك وبهذا الحماد فجوات حفروا بها آباراً وقامت ببعضها واحات منها واحة تدعى جُودوا يمر بها أغلب القوافل المترددة بين مرزوق وبلاد طرابلس والحماد المذكور ضيق كثيراً فى جهاته الغربية بحيث يمكن أن يقطع فى يوم وهو عريض فى جهاته الشرقية وينتهى باراض حجرية تعرف بالسرير تشرف من الشمال على مرتفعات حجرية يسميها الأهالى الحروج الأبيض ويقول العرب أن بهاهيا كل تامة من حيوانات بحرية كبيرة كما رواه السائح هنرى دوفرييه فى كتابه الذى ألفه فى

توارك الشمال المطبوع فى باريس سنة ١٨٦٤، أما الجزء الغربى من هذا الحماد فيحده جنوباً واد ضيق جداً يدعى إيرجُوش وبعده تكون نجود حجرية تمتد حتى بلاد التبو ليس فى قرارآتها من النبات ألا أشجار صمغية ومع ذلك فهى نادرة والجهة الشرقية من الحفرة الكبيرة التى بها مرزوق تقسمها أراض واسعة جرداء حجرية ألى قسمين متميزين أحدهما غربا وبه واحة مرزوق كما تقدم والآخر شرقاً وبه عدة واحات تمتد على مسافة طويلة تسمى بالواحات الشرقية

سُكنه ـ أوسُوكنه مدينة واقعة ألى الشمال والشرق من فزان على نحو ٤٨٠ كيلومتراً ألى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس وعلى نحو ٣٨٠ كيلومترا ألى الشمال والشرق من بلدة مرزوق وهى قاعدة واحة جُفْرَه وترتفع عن سطح البحر بنحو ٣١٥ مترا وقد بقى سكانها زمناً طويلا على استقلال لا يدفعون أموالا لا ألى طرابلس ولا ألى مرزوق فكانت جمهورية صغيرة قوية وكان كل من ناله أذى أوحيف التجأ اليها وسكانها الآن يبلغون نحو ٦٠٠٠ نفس وكانوا من قبل أكثر من ذلك كثيرا ومسطح واحتها يبلغ ألفى كيلومتر وهى مستطيلة ممتدة من الشرق ألى الغرب ويطل عليها من كل أطرافها جبال ترتفع عما جاورها من السهل بنحو مائتى متر وفى جنوبيها منحدرات الجبال السوداء وبها صف من التلال يمتد من الشمال ألى الجنوب ولا يتصل بعضه فى بعض نقطه والتلال المذكورة تقسم هذه الواحة ألى قسمين متساويين

تقريباً فى كل منهما بساتين وغابات من النخيل وسهول وأراض حجرية وبحيرات ملحة وفى قسمها الشمالى وهاد رملية لا يظهر الماء فيها على وجه الأرض ألا نادرا فى واد يعرف بوادى مِسِّيغِر وهو يمتد حتى خليج سُرت الكبير ولا يشغل النخيل والمزارع والبساتين ألا نحو العشر فقط من مسطحها والماء فى بعض هذه المزارع لذيذ الطعم ومع ذلك فأن السكان يفضلون السكنى بجانب العيون المرة المياه وهواء هذه الواحة من أصح الأهوية فى بلاد الصحراء وليس بها من الأمراض غير الحميات المتقطعة والرمد نادر بها والأمراض العادية الأخرى التى تكون فى واحات فزان لا تدخل هذه الواحة ومع ذلك فسكانها بين سودان وبربر وأن كانوا أصحاء الأجسام أقوياء البنية ألا أن هيأتهم تدل على السقم وبشرتهم مصفرة وقل أن يوجد بينهم شخص يتصف بانتظام الملامح والعرب وأن كانوا هم أصحاب النفوذ وهم الذين أدخلوا الدين الأسلامى بهذه الجهات وأرقى من البربر ألا أنهم مع ذلك يعترفون للبربر بحق ملكية الأرض ولذلك بقيت الأرض لهم فليس للعرب ألا حق امتلاك الأشجار وكثيرا ما تحدث بينهم لذلك مشاغبات ووقائع حتى يضطر الحرس العثمانى بفزان للفصل فيها واعلم أن السكان بهذه الواحة قد اختلطوا ببعضهم اختلاطا يصعب معه الآن تمييز العربى من البربرى وهنالك تقاليد قديمة جروا عليها تحفظ بموجبها الحقوق الأولى فى الملكية فأن الأبن مهما كانت أمه يعتبر دائما تابعا للأمة التى منها

والدەوسكنه أوسوكنه مدينة جيدة البناء وعلى سورها ثلاثة وثلاثون برجا ولها سبعة أبواب أخشابها من النخيل وبها خمسة مساجد وأربع مدارس وقلعة كبيرة بعض جهاتها متخرب يمكن للانسان الاشراف منها على كل جهات الواحة والسكان جلهم من البربر وفى لغتهم ألفاظ عربية كثيرة والبساتين التى حول سكنه معتنى بامرها جدا ومن حاصلاتها الوافرة الحبوب والباذنجان الأحمر والأسود والثوم والبصل وغيرها من الخضراوات وسكانها هم وعبيدهم لا يكفون للحصيد لهذا كان كثير من أهالى فزان يأتون ويشتغلون بالكراء مدته ولا يشتغل أهلوها الآن بتربية النعام مع أنهم كانوا يكتسبون من ذلك مكاسب وافرة والتجارة كلها تقريباً فى يد غير أهاليها لأن أهاليها يميلون ألى الأشتغال بالزراعة على الخصوص ومنها تكون ثروتهم

زُوَيلة ـ مدينة فى فزان واقعة ألى الجنوب والشرق من مرزوق بينهما نحو ١٥٠ كيلومتراً وترتفع عن سطح البحر بنحو ٥١٣ متراً وسكانها قلائل يبلغون نحو ألف نفس وهى مختطة وسط الواحة الشرقية المتصلة بواحة مرزوق وكانت زويله فيما مضى قاعدة لفزان ولا يزال أهل السودان يسمون بلاد فزان بلاد زويله وأغلب سكانها أشراف يتصلون نسباً بالنبى عليه الصلاة والسلام لهذا كانت زويله تلقب بلد الأشراف وهم متحمسون فى دينهم ويمنعون الأجانب من دخولها قال السائح هورنمان (Hornemann) «كانت زويله فيما سبق مكاناً لملتقى القوافل وكان لها سلطان وكانت أكبر مما هى الآن بنحو ثلاث

مرات ولا يزيد محيطها فى الوقت الحاضر عن ميل واحد ودورها مثل دور اوْجِلة طبقة واحدة لا ينفذ أليها الضوء ألا من الأبواب وفى نحو وسط المدينة بقايا بناء قديم يتألف من عدة طبقات وحيطانه سميكة ويقولون أنه كان فيما سبق قصراً وخارج المدينة مسجد عتيق قريب من سورها الجنوبى لا يزال على حالة جيدة يستدل به على ما كان لزويله من الأهمية والرقى السابقين وفى وسطه صحن واسع حوله أعمدة ضخمة خلفها ممشى عريض يؤدى ألى أماكن مختلفة تابعة للجامع المذكور وعلى مسافة صغيرة من المدينة مبانى قديمة مرتفعة هى قبور أشراف استشهدوا فى قتال مع كفار تلك النواحى وكانوا أغاروا على بلادهم والأرض حول زويله منبسطة خصبه كثيرة المياه والنخيل بها كثير جداً ويظهر أن سكانها يقبلون على الزراعة أكثر من سكان البلاد المتاخمة لهم» اه وقد فتحها عقبة بن نافع بعد فتح برقه

بنغازى ـ مدينة بحرية وقاعدة أقليم برقه واقعة على الساحل الشرقى من خليج سرت وهى تشغل بعض المكان الذى كانت فيه مدينة برنيق القديمة التى كانت تسمى قبل ذلك هسبريد (ذلك بلا شك لأنها كانت أبعد مكان للغرب ببلاد بنطابول) وقولنا أن بنغازى تشغل بعض لا كل مكان المدينة القديمة ذلك لأن أنقاض برنيق مدفونة تحت الرمال خارج المدينة الحالية قال الكبتن بتشى أن برنيق قد زالت من السهل الجميل الذى كانت فيه فيما سبق وقام على أطلالها مدينة عربية حقيرة أو بالأحرى قامت هذه المدينة

فوق الأرض التي تغطيها لأن أهميتها وآثارها هي الآن تحت الأرض وبنغازي الحالية مختطة فوق لسان من الأرض محصور بين البحر ومستنقعات ملحة تجف صيفاً ومينائها الى الجنوب منها وقد أغارت عليه الرمال وكانت السفن الكبيرة ترسوا فيه فيما سبق أما الآن فهو لا يقبل ألا السفن الصغيرة وفي بنغازي قلعة يقيم بها الحاكم والحامية مبنية فوق رأس من الأرض يطل شمالا على مدخل الميناء وهي خارج المدينة بقليل وسكان بنغازي عرب بينهم بعض اليهود ويبلغون ٢٠٫٠٠٠ نفس ومن صادراتها الأصواف والماشية والحنطة ترسلها ألى مالطه على الخصوص

درنه ـ مدينة بحرية ببلاد برقه بينها وبين مدينة طرابلس ٩٢٦ كيلومتراً على خط مستقيم وبينها وبين بنغازي ٢٣٣ كيلومتراً يفصلهما عن بعضهما الجبل الأخضر ويقدرون سكانها بنحو ٣٫٠٠٠ نفس وهي رأس عمل أداري وبها قلعة صغيرة وحامية كذلك وضواحيها غاية في الخصوبة لوجود مجرى ماء غزير يسقي بساتينها وهو بعد أن يخترق المدينة يصب في البحر وتجود بها كل أنواع الثمار كالموز والليمون والبرتقال والكباد وهو بها في غاية الجودة والجمال ولها ميناء لا يسع ألا الصغير من السفن أما الكبيرة فترسوا على نحو ثلاثمائة متر من الساحل حيث عمق الماء نحو عشرة أمتار وليس بين درنه والبلاد الأجنبية مواصلات مباشرة ألا ما كان بينها وبين جزيرتي كريد ومالطه وتصل أليها ما تحتاجه من بنغازي في البحر صيفاً وبالقوافل

شتاءولولا كثرةشغب البدو النازلين حولها لوصلت ألى درجة تجاريةمعتبرة لتوسطها بين بنغازى والأسكندرية وكان لهذه المدينة أهمية مدة الرومان وكانت تسمى دِزنيس يدل على ذلك كمية الأحجار التى أخذها العرب من أطلالها وبنوا بها سور المدينة الحالية وكذا دورها وقلعتها ودرنه واقعة فى وهدة من الأرض بين جبلين وهواؤها ردىءلوجود مستنقعات حولها ولفيضان المياه فى فصل الأمطار بحيث يتخلف عنها نقائع تنبعث عنها روائح كريهة وقد هم الأميرال الفرنسوى غَنْتُوم (Ganteaume) بأن ينزل فيها جنوده وقت أن أغار الفرنسويون على مصر ولكنه لم ينجح واضطرت أيضاً الممالك المتحدة بأمريقا لأخلائها لرداءة مناخها بعد أن احتلتها زمناً فى القرن الماضى

طُبُرْقه ـ ويقال لها مرسى طُبْروق وهى مرسى بأقليم برقه ألى الشرق من بنغازى بينهما نحو ٣٨٠ كيلومتراً فى مكان موافق جداً بين طرابلس والأسكندريه ويمتد خليجها من الغرب ألى الشرق على نحو ثلاثة كيلومترات ومتوسط عرضه كيلومتر واحد وهو بين شبه جزيرة جبلية تمنع عنه فعل البحر والرياح من الشمال وبين صخور نجدمرمريك من الجنوب ويمكن للسفن الكبيرة أن ترسوا فيه لأن عمقه فى كل جهاته يساعد على ذلك ويخرج منه جون صغير عريض مأمون من كل الرياح ألا رياح الشرق ومع ذلك فهى أقل الرياح شدة فى هذا الساحل ولو أقيم على مدخله جسر

لصد الأمواج لكان هذا الميناء كميناء الأسكندرية وسرقوسه فى الأتساع أى كان من أحسن ميناءآت سواحل أفريقيه ولهذا كان الملاحون والتجار يترددون منذ الأزمنة الغابرة على هذا الخليج وكان الأغريق أسسوا عند شبه الجزيرة المذكورة الواقعة ألى الشرق منه مدينة أسمها أنتيبرغُوس (Antybergos) بقيت قائمة زمن الرومان وبعض أطلالها ماثل للآن وهناك خرائب قصر عربى فوق الحافة الشمالية من الخليج المذكور يستدل منها على أن هذا المكان كان مسكونا فى الأعصر الوسطى مع أن ما جاوره من البلاد كان غير مأهول ويتردد عليها الآن بعض الزوارق والسفن وقد شاهد بَرْت السائح سنة ١٨٤٧ سوراً من الحجر كان بعضه قائما وهو يقول أن هذا المكان كان فيما غبر من الأزمان مرسى للحجاج الذين يقصدون واحة جوپيتير أمُّون (سيوه) وفى سنة ١٨٦٩ أقام الأتراك به ثكنة من الأخشاب وأنزلوا بها حامية صغيرة وفى سنة ١٨٨٣ تمكن موسيو مامولى (Mamoli) الذى كانت أرسلته الجمعية الجغرافية التجارية فى ميلان من الوصول ألى طبروق فلم يجد بها ألا القليل من السكان وليس لهم قائد كما لم يجد بها جنديا واحداً تركيا وفى السنة المذكورة وصلت ألى تلك النقطة مدفعية ألمانية كان عليها السائح شوَينفُرت (Schweinfurth) وتمرنت على أطلاق النار هناك ولهذا السبب من غير شك عادت الحكومة العثمانية فاحتلتها بفرقة من الجندرمة أنزلتهم فى الثكنة المذكورة سابقا وليست طبروق بلد أو قرية

بالمعنى الصحيح بل سكانها قوم من البدو يقيمون فى خيام ويتردد عليها بعض السفن الشراعية لأن زاوية جغبوب التابعة للسنوسى تأخذ ما يلزمها من هذا المرفأ

مصراطه ـ مدينة من أعمال بلاد طرابلس الحقيقية على خليج سرت بالقرب من رأس يسمى بأسمها وهي ألى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس بينهما نحو ١٩٠ كيلومتراً ومصراطه وأن كانت رأس عمل يتبعه أكثر من أربعين قرية ألا أنها بلدة صغيرة تتألف من دار من الحجر وفنار لهداية السفن وأكواخ متوزعة تحت أشجار الزيتون والنخيل ومع ذلك فأنها ذات أهمية لأنها مكان بيع وشراء للقبائل النازلين فى أطرافها ومن أهم مصنوعات أهاليها البسط والحصر وغرارات يصنعونها من شعر المعز والجمال وفى مصراطه دار سيدى المدنى شيخ الطريقة المدنية وكانت مصراطه فيما سبق مهمة مثرية فكانت تتجر مع البندقية ومنها كانت تخرج أغلب القوافل الذاهبة ألى فزان هذا ولا تزال قوافل مدينة طرابلس تسير للآن على ساحل البحر حتى مصراطه لتتجنب فى سيرها جبال غوريان لأن سكانها كثيراً ما يعتدون على القوافل فينهبونها

أوْجَلَه ـ واحة فى الحد الشمالى من الصحراء الكبرى على نحو ستين ساعة ألى الجنوب والشرق من بنغازى وعلى نحو تسمين ساعة ألى الغرب من سيوه وعلى نحو ٢٢٨ ساعه ألى الشمال والشرق من مرزوق وقداشتهرت

منذ الأزمنة الغابرة بجودة تمرها وهى فى وهدة تكتنفها الرمال من كل جهاتها والقادم عليها من بعد يشاهد كتلة من الأشجار والنباتات قائمة وسط الصحراء وطولها من الشرق ألى الغرب يوم تقريبا وبهذه الواحة بلدتان يمكن أن يكونا مدينتين هما أوجله وجالو وأوجله مختطة فوق ربوة صغيرة حولها سور من الطين يمكن أن يسع خمسمائة دار وقال البكرى عند كلامه عليها أنها كثيرة السكان جداً بها أسواق ومساجد كثيرة وقال أن اوجله أسم للبلاد أما المدينة فأسمها أرزاقية وقد أضحت جالو الآن ذات أهمية أكثر من أوجله سواء فى سكانها أو كثرة نخيلها كثرة عظيمة جداً حتى أنه يغطى كل أراضيها وهى على نحو ثمان ساعات ألى الجنوب والشرق من أوجله ويقول سكانها أنهم عرب من المجابرة بخلاف سكان أوجله فأنهم من أصل بربرى ولغتهم بربرية وأن كانوا يعرفون العربية أيضاً وبواحة أوجله قرى أخرى كثيرة ومن حيواناتها الثعلب وابن أوى والذئب واليربوع والدلق لا غير ويأتى أليها كل سنة أحد موظفى الحكومة العثمانية لجباية الخراج وهو هناك على النخيل وبين واحة أوجله والقاهرة مواصلات كثيرة بواسطة سيوه وقد زارها أربعة من سياحى الأفرنج ووصفوها فيما كتبوه وهم هورنمان (Hornemann) سنة ١٧٩٨ وباشو (Pacho) سنة ١٨٢٥ وجيمس هملتن (James Hamelton) سنة ١٨٥٢ وبورمان (Beurmann) سنة ١٨٦٢ قال فى معجم البلدان « أوجلة بالفتح ثم السكون

وفتح الجيم ولام وهاء مدينة فى جنوبى برقه نحو المغرب ضاربة ألى المغرب قال البكرى من مدينة أجدابية ألى قصر زيدان الفتى ثلاثة أيام ثم تمشى أربعة أيام ألى مدينة اوْجَلَه وهى عامرة كثيرة النخل وأَوْجَلَه أسم للناحية وأسم المدينة أرزاقية وأوجله قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثير وفواكه ولمدينتها أسواق ومساجد ومنها ألى تاجَرّفت أربعة أيام ومن أوجله ألى سَنْتَرِيّه لمن يريد واحات عشرة أيام فى صحراء ورمال » اه

كُفْره ـ ويقال أيضا الكفره مجموع واحات فى صحراء لوبيه ألى الجنوب من بلاد طرابلس وألى الشرق من فزان وتشغل وهدة واسعة أوعدة وهاد وهى فى منتصف الطريق تقريبا بين بحر الروم (ساحل برقه) وبلاد السودان (وداى) وبينها وبين اخر بئر ألى الشمال مسافة تبلغ ٣٤٧ كيلومتراً يقطعها المسافر فوق نجد لا ماء فيه وبينها وبين واحتى جالو وكَبَابو أبعد واحاتها ألى الجنوب نحو ١٣٥٠ كيلومتراً وهى ألى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس بينها وبين بنغازى نحو تسعمائة كيلومتر والوهدة التى فيها الواحات المذكورة تمتد من الجنوب الشرقى ألى الشمال الغربى وسط نجد صخرى بصحراء لوبيه يبلغ طوله ٣٦٠ كيلومتراً وعرضه يختلف بين أربعمائة متر جنوبا و٢٥٠ متراً شمالا أما الواحات المذكورة فعددها خمس وهى الآتية مرتبة من الجنوب ألى الشمال كَبَابو وأرْبيناو بُوَزْيما وزيجن أوزيغن وتايِزِربو ويبلغ مسطحها جميعها نحو ١٧٫٨٢٤ كيلومتراً مربعا ويفصلها عن بعضها

أودية كثيرة الحصباء قالوا أن كفره لفظ عربى محرف من كَفَرَه جمع كافر وقال ركش أن لفظ كافر بالقبطية بلد صغير يسكنه وثنيون أقول وربما كان أسم هذه الواحة آت من اللفظ القبطى المذكور كما يمكن أن يكون لفظ كَفْرأى القرية كما هو معلوم قبطى أيضاً

وصفها الطبيعى ـ أراضى واحة كفره كلها مغطاة بالرمال وهناك سلسلة قصيرة من الكثبان المتغيرة تمتد من الشرق ألى الغرب على حافة وهدة هذه الواحة ألى الشمال من تازربو وزيجن وسلسلة أخرى كذلك تأتى من الشمال الشرقى وتمتد على واحة بُوزَيما التى بوسط الوهدة ويظهر أن السلسلتين يتلاقيان شرقا عند الكثبان الجسيمة التى بصحراء لوبيه ويمتدان ألى الواحات المصرية ويقطع هذه الكثبان من مسافة ألى أخرى كتل أو سلاسل صخرية صغيرة منها جبل زيغن وجبل بوزيما وجبل غور العبيد وجبل أريبنا وجبل غور الهوارى وغيرها وكلها تحيط بالواحات التى بالوسط والجنوب وتتركب هذه الجبال المقطوعة القمم من صخور جيرية وليس بواحة كفره مياه جارية ولا مجارى أودية ولكن الماء يستنبط فيها على عمق قليل يختلف بين متر واحد وثلاثة أمتار وهو عذب راكد وبالجهات المنخفضة منها مستنقعات ملحة متسعة (كما فى أريبنا وبوزيما) وأخرى ملحة تجاورها بحيرات دائمية (كما فى تازربو وكبابو وبوزيما) ومما يستحق الألتفات ويستغرب أنه حيث تكون المياه الملحة والملح توجد عيون عذبة

الماء وليس هذا بقاصر على هذه البلاد بل هو شيء موجود بكل البلاد الأخرى بالصحراء وجميع الأمكنة المنخفضة بالواحات الخمس المذكورة تغطيها حشائش متنوعة أهمها العليق وهو مما تتغذى به الجمال هناك قال السائح رولفس وكان عليه اعتمادنا فيما كتبناه عن هذه الواحة ما يأتى أيضا عن بقية أجزائها «أن واحة تيزربو وهى الشمالية من الواحات المذكورة تمتد من الشمال الغربى ألى الجنوب الشرقى على مسافة تبلغ مائتى كيلومتر تقريبا وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠ متراً وفى وسطها المغطى بالنباتات مستنقع ملح وليس بها قرى بل ينزل سكانها فى خيام وهم رحل وبها خرائب مساكن كانت للتبو ومقبرة قديمة لهم أيضا وأطلال زاوية للسنوسية كانوا أقاموها بتلك الواحة قبل أن يهاجروا ألى كبابو وأرض تيزربو ترتفع تدريجيا من الجنوب الشرقى وعلى نحو مائة كيلومتر من تيزربو تكون واحة بوزيما وهى فى النهاية الجنوبية من سلسلة جبال صغيرة هى جبال بوزيما وارتفاعها نحو ٣٨٨ متراً عن سطح البحر والمنطقة الخصبة بهذه الواحة عرضها نحو كيلومتر واحد وهى واقعة حول بحيرة ملحة تمتد من الشمال الغربى ألى الجنوب الشرقى ويبلغ محور هذه البحيرة نحو عشرة كيلومترات وقد اكتشف رولفس فى بوزيما المذكورة خرائب شكلها يختلف جداً فى أحوال كثيرة عن خرائب التبو وتتركب أراضى هذه الواحة من أحجار جيرية يعلوها طبقة يمكن أن تكون طفحات بركانية وألى الجنوب والغرب من بوزيما كثبان

بعضها مرتفع جداً وهناك سلسلة جبال تسمى نيرى تمتد من الغرب ألى الشرق وبعدها واحة كبابو المذكورة وهى أكبر الواحات مسطحا» اه

الصحراء الكبرى

الصحراء الكبرى صقع كبير واسع بأفريقيه الشمالية يمتد من وادى النيل ألى المحيط الأطلسى ومن مراكش والجزائر وتونس وطرابلس من الشمال ألى ممالك السودان بالجنوب ولو نظرنا اليها من الوجهة الطبيعية لكانت تشمل كل المنطقة الشمالية من أفريقيه لأن أراضيها تشبه الصحراء لعدم سقوط الأمطار المنتظمة بها

موقعها وحدودها وامتدادها ـ الصحراء الكبرى واقعة بين الدرجة ١٧ و٢٩ من العرض الشمالى وبين الدرجة ١٩ والدقيقة ٢٢ من الطول الغربى والدرجة ٣٤ تقريبا من الطول الشرقى ومن الصعب جداً تعيين حدودها لأن الحدود الجنوبية لبلاد مراكش والجزائر وتونس وفزان وطرابلس لم تعين للآن وتحدد تحديداً واضحاً وأن الحدود الشمالية من ممالك السودان لازالت أكثر أبهاماً وأقل تحديداً عن الأولى هذا من جهة ومن الجهة الأخرى فأننا متى نظرنا أليها من حيث شكلها الطبيعى وجدنا على حافتها أصقاعا يصعب فيها جداً تعيين الصحراء من غير الصحراء لهذا كان تحديدها مشكوكا فيه كل ذلك زيادة على أن الجغرافيين لم يتفقوا أبداً على

تعيين حدودها ولذلك لم يتفقوا على مقدار امتدادها قال البروفسور زتّل (Zittel) أنها تبتدىء مباشرة من السفوح الجنوبية لجبال أطلس وتمتد فى جهات خليجى سُرت حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط وحتى السلسلة التى على البحر الأحمر أى أنه يدخل فيها قسم جسيم من بلاد مراكش والجزائر وتونس كما يدخل ضمنها كل بلاد طرابلس وفزان شمالا وكل بلاد مصر تقريبا وقال أن حدها جنوبا خط يبتدىء من مصب نهر سنغال مارا بمدينة تمبكتو وبلاد دامرغو والقسم الشمالى من بلاد كانم (الشمال من بحيرة شاد) وبلدة الدبه وأبو حمد (وهما بين الشلال الرابع والخامس) فلو اعتبرنا حدود الصحراء كذلك لزاد مسطحها عن أحد عشر مليونا من الكيلومترات المربعة وهو يزيد عن مسطح أوربا ويبلغ أكثر من ثلث قارة أفريقيه ومع هذا فلا يمكن قبول جعل الديار المصرية الحقيقية أى وادى النيل من الصحراء وأن كانت المنطقة التى بين النيل والبحر الأحمر يمكن اعتبارها داخلة فى الصحراء بشكل أراضيها لأننا لو قبلنا ذلك لترتب عليه أن نلحق بها أيضا بلاد العرب والصحارى بآسيا لأنها لا تختلف عنها اختلافا حقيقيا كما هو معلوم قال الدكتور شافان (Dr. Chavanne) وهو أكثر من مسيو زتل اعتدالا فى تقديراته أن الصحراء الكبرى لا تبتدىء حقيقة ألا من غربى وادى النيل ولكنه يدخل فيها أيضاً السفح الجنوبى من أطلس وكل بلاد طرابلس وفزان وعلى ذلك يبلغ مسطحها نحو

٩،٩٥٠،٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وقال ألبزيه ريكلوه « يمكن تقدير مسطح الصحراء الكبرى بنحو ٦،٢٠٠،٠٠٠ من الكيلومترات المربعة غير داخل فيه واحات برقه وكفره ولا بلاد طرابلس وفزان ولا الصحارى الصغيرة التي بتونس والجزائر ومراكش ولا الفيافى التى تجاور الجهات الخصبة من بلاد السودان » اه هذا وسنقتصر فى وصفنا للصحراء الحقيقية هذا التحديد الأخير الضيق وهو وصف غير تام كثيراً كما لا يخفى لقلة المعلومات المضبوطة التى حصلنا عليها حتى هذه الأيام متعلقا بداخلية بلاد الصحراء

منظرها العمومى ـ أعلم أن الصحراء الكبرى ليست سهلا عظيما من الرمال ولا وهدة سطحها أكثر انخفاضا عن سطح البحار التى تجاورها وليست أيضا كما يقول بعضهم قاع بحر جفت مياهه بل هى أصقاع ذات ربوات وتلعات وهضاب وجبال وأودية ومجارى أنهار ويقولون أن متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٣٥٠ متراً وأن سطحها لا يكون أخفض من سطح البحر ألا فى أماكن قليلة جداً ونحو النصف من مسطحها جميعه صحراء حقيقية به سهول شكلها واحد ونجود كثيرة الحصباء وكثبان كثيرة ممتدة على مسافة طويلة قال ألبزيه ريكلوه « أن ما يجعل لهذه الصحراء الجسيمة تلك الصفة أى صفة الأتحاد فى الشكل بالرغم عن اختلاف تضاريسها هو ندورة أو عدم وجود المياه الجارية فى كل أرجائها ألا ما كان من جهاتها الجبلية ذات القمم الشامخة التى تدخل فى الطبقات العالية من الهواء ولا

يُبحث عن أصل وجود الصحراء فى نفس أراضيها بل يجب أن يبحث عنه فى أصقاعها الشامخة ذلك لأن تلك الأراضى البيضاء التى تقسم قارة أفريقيه ألى قسمين ليست ألا انعكاس أشعة السماء التى تنيرها ووجود الصحراء الكبرى الأفريقية يجب أن ينسب من غير شك ألى نفس هذه الأسباب التى نشأ عنها تكون صحارى أخرى بقارة آسيا والصحراء الحقيقية هى الممتدة فقط نحو الغرب من ذلك أما منطقة الأراضى الخالية من الأشجار تماماً تقريباً وهى التى تخترق بلاد المغول وكشغر وتوران وأيران وجزيرة العرب فأنه يقطعها على مسافات كبيرة أودية أنهار يقوم على شواطئها أشجار وسلاسل جبال ذات أودية كثيرة النباتات والسبب فى وجود هذا الشريط الطويل من الصحارى الذى يبلغ نحو ١٢٫٥٠٠ من الكيلومترات يرجع ألى جفاف الأرياح التى تخترق كل القارة القديمة بانحراف وما بتلك القارة من السهول والقفار المتوازية» اهـ

التضاريس العمومية ـ لقد اعتاد الناس اعتبار الصحراء الكبرى سهلا جسيما من الرمال أو وهدة سطحها أوطأ عن سطح البحار أو أوطأ عن سطح ما يجاورها من الأراضى ولما كانت هذه الأقوال بعيدة عن الحقيقة رأينا من الصواب أظهار ذلك بأدلة وأمور عملية فنقول قال الدكتور نختيجال الذى اخترق الصحراء الكبرى من طرابلس ألى بحيرة شادما يأتى« يظن الناس عموماً أن بالجهة الأخرى من سلاسل الجبال التى تمتد على موازاة الساحل الشمالى من أفريقيه من مراكش ألى تونس وألى طرابلس

والتي تمتد على نحو ١٥ درجة من درجات العرض سهل من الرمال أوطأ من سطح البحر يفصل الساحل الشمالى عن الجهات الخصبة التي فى داخل القارة وهو ظن فاسد كان يجب رده منذ زمن طويل ومع ذلك فأننا لا زلنا نرى من وقت لآخر من يؤكد بأن الصحراء الكبرى معظمها منخفض عن سطح البحر أما الحقيقة فهي أن مجموع الصحراء أعلى عن سطح الأوقيانوس علوا ظاهراً وليست أغلب أراضيها رمال بل أغلبها أرض صلبة ذات حصباء وليس سطحها بالمستوي بل فيه مرتفعات مختلفة وأودية لم نكن نظنها من قبل» اه وقال الدكتور لِنز (Lenz) مؤكداً وكان اخترق الصحراء مراراً فى جهاتها الغربية بين الحدود الجنوبية من مراكش والأنحاء العظيم الذى بنهر النيجر ما يأتى « ليست الصحراء سهلا كبيراً تغطيه الرمال أصلا بل هى نجد مختلف التركيب جداً به جبال ومجارى نهيرات عديدة جافة وأصقاع بها كثبان وسهول من الحلفاء وأرض حماد وصحارى رملية» اه وبذلك نكتفى بهذه الأقوال والشهادات ثم ننتقل ألى الواقع فنقول لو أردنا دخول الصحراء من أى جهة كان لا بد لنا من تسلق منحدرات تكون أحيانا سريعة فعلى ذلك كان الأنسان لا ينزل أليها بل يصعد أليها وهذا يكفى فى تفنيد قول من قال أن الصحراء تشغل وهدة أو أنها على هيئة طست ولو نظرنا أليها فى مجموعها لكانت نجداً حافاته قائمة وعرة قليلا أو كثيراً ولو نظرنا ألى قسمها الذى يشاهد من وادى النيل لرأيناه يشبه قمة جبل حتى

أنهم سموها سلسلة لوبيه مع أنها ليست سلسلة فى الحقيقة لأنها ذات منحدر واحد وألى الغرب منها صحراء لوبيه وهى عبارة عن القسم الشرقى من الصحراء الكبرى وقد حاول الدكتور رولفس اختراقها من الشرق ألى الغرب سنة ١٨٧٤ فلم ينجح ألا أنه تمكن من قياس بعض مرتفعاتها التى يظهر منها أن الأرض هناك ترتفع بالتدريج عند حافة الصحراء لأن الأنسان ينتقل فيها بسرعة من ٢٧٣ متراً (ألى ما فوق سطح البحر) ألى ٣٤٣و٣٨٠ متراً ثم بعد قليل يصل ألى ٤٤٠ متراً وهو أرتفاع أبعد نقطة وصل اليها العالم الجيولوجى زتل المتقدم الذكر وكان يرافق بعثة علمية وفى سنة ١٨٧٩ جدد الدكتور رولفس مساعيه ثانية وسار من طريق غير طريقه الأولى وما زال يتوغل حتى وصل واحات كفره الواقعة فى قلب صحراء لوبيه وتأكد حينئذ من أنه متى وصل الأنسان ألى هذه الصحراء تأخذ الأرض فى الأرتفاع ارتفاعا تدريجيا غير محسوس من الشمال من أول واحة جالو الى أن يصل ألى أرتفاع ٢٥٠ متراً عن سطح البحر ثم يصل ألى ٤٠٠ متر وقد عين هذا المكتشف سنة ١٨٦٦ على الخط الذى يقطع الصحراء الكبرى من الشمال ألى الجنوب بين مدينة طرابلس (أو مرزوق) وبحيرة شاد عدة أرتفاعات يعلم منها أنه بعد أن يجتاز الأنسان جبال تمو (بالنهاية الجنوبية من فزان) يصل ألى ٦٩٥ متراً عن سطح البحر مع أن مدينة مرزوق ليست مرتفعة عن سطح البحر ألا بنحو ٥٠٣ أمتار أى أننا لا نكون قد صعدنا ولا هبطنا وبعد ذلك

تختلف ارتفاعات الصحراء وهى تهبط بسرعة زائدة فى أقرب الطرق ألي بحيرةشادويلغ متوسط ارتفاع هذهالبحيرة عنسطح البحر ٢٥٠ متراً ويظهر من ذلك أن القوافل الآتية من السودان الأوسط تريد دخولالصحراءمن الجنوبلابد وأن تصعد هى أيضاً ويظهر هذا الأمر بوضوح أكثرفيجهة الغرب على الطريق الذى اتبعه الدكتور لنز المذكور سنة ١٨٨٠ بين جنوبى مراكش ومدينة تمبكتو لأن الانسان أذا أراد دخول الصحراء الحقيقية تسلق منحدرات الساحل الأيسر من وادى درعه ثم يصل ألى نجد يزيد ارتفاعه عن ٤٠٠ متر عن سطح البحر ولا يشاهد فى أكثر من نصف هذه الصحراء وهدة تستحق الذكر ومتى وصل ألي الدرجة ٢١ والدقيقة ٤٠ من العرض الشمالى صادف مكاناً لا يعلو عن سطح البحر ألا بنحو ١٤٨ متراً ثم تأخذ الأرض فى الارتفاع بعد ذلك ألى أكثر من ٢٠٠ متر وتبقى هكذا طول المسافة المذكورة ولا تكون الصحراء فيأى جهة من جهاتها على طول هذا الخط أوطأ من سطح البحار فالفكرة الغريبة القائلة بأمكان جاب مياه الأوقيانوس اليها بخليج يحفر لذلك فى الساحل الغربى ليست على ذلك غير قابلة للتحقيق وأذا دخل الأنسان الصحراء من الجهة الغربية أى من ساحل المحيط الأطلسى وأخذ يسير نحو الشرق رأى الأرض ترتفع تحت قدميه تدريجياً حتى تكون على ٣٥٠ متراً عن سطح البحر ويظهر من المقاسات والتحقيقات التى أجراها كلمن مسيوسرفيرا وكيروجا(Cervera, Quiroga)

(فى الاكتشاف الذى قاما به سنة ١٨٨٦ بين ريوا ورووسبخة أيجلى) أن هناك نجدا يتراوح ارتفاعه عن سطح البحر بين ٣١٥ متراً و٣٤٦ متراً وهو يمتد على موازاة الساحل ثم ينخفض نحوه حتى يصير بطيء الأنحدار أما فى الداخل فأن سبخة أيجلى المتقدمة تقطعه فجأة ويكون قاعها على ١٥٠ متراً فقط فوق سطح البحر ثم أن الارض ترتفع مرة واحدة فوق الشاطىء الآخر من السبخة المذكورة ويمتد ذلك السهل نحو الشرق ويبتعد فى امتداده ألى مسافة مجهولة أما الأماكن التى شوهدت ألى الآن أنها أخفض عن سطح البحار فى شمال أفريقية فلا توجد فى الصحراء الحقيقية بل بجهات الشطوط التى فى جنوب الجزائر وتونس وعلى خط الواحات المبتدىء من قاع خليج سرت الكبير ذاهباً نحو بلاد مصر ومع ذلك فأن هذه المنخفضات لو كانت واقعة فى الصحراء ذاتها اشغلت مكاناً صغيراً جداً بالنسبة لاتساع الصحراء بحيث تكون غير كافية لتحقيق تلك الفكرة التى كانت مقبولة فيما سبق وهى فكرة كون الصحراء قاع بحر انحسرت عنه المياه وأنه من الممكن أسالة الماء فيه ثانية متى أمكن التغلب على الموانع القائمة فى وجه ذلك الأمر وكان علماء الجيولوجيا يظنون أنهم عرفوا صخور هذا البحر الداخلى وآثار شواطئه القديمة وأن وفرة الرمال ووجود الأملاح وقحولة الأرض كل ذلك تعلم من نفسها مع القول بنظرية البحر القديم ألا أن الأسباب الحقيقية لوجود هذه الأشياء ترجع ألى أمور أخرى كما سنراه فيما يأتى

متى تحققنا من أن الصحراء الحقيقية ليست حوض بحر انبعج فى نحو وسطه بل هى على العكس من ذلك نجد له حافات وجوانب مرتفعة قليلا أو كثيراً وأن متوسط ارتفاعه عن سطح البحر يبلغ نحو ٣٥٠ متراً تقريبا (وربما كان أكثر من ذلك فى جهاته الوسطى) بقى علينا أن نُبعد عن الأذهان قول من يقول أن سطحها منبسط تماما وأنها مغطاة بالرمال فى كل جهاتها ومتشابهة فى كل أجزائها وعلى ذلك نقول

أعلم أن الصحراء هى مثل الجهات الأخرى بها جبال وآكام وربوات وأودية تخترقها مجارى نهيرات جافة على الدوام تقريبا تابعة لأحواض مائية ممينة تماما والسهول الرملية بها نادرة فهى لا تشغل منها ألا نحو التسع من مسطحها العمومى وليس منظر الصحراء واحداً فى كل أجزائها فتارة يكون بها نجد صخرى خال من النبات قاحل بالمرة (وهى الأراضى التى يسميها العرب بالحماد) يقطع سطحه المتحد الشكل أو ذو التضاريس القليلة مسايل ماء أو وهاد تمتد على مدى البصر يسير بها الأنسان أياما لا يقع بصره على ما يرتاح أليه أصلا فهذه الأمكنة هى الصحراء الحقيقية الخالية من كل الحاصلات ولما كانت تختلط فى الأفق مع السماء الزرقاء كانت تجلب ألى ذهن الأنسان صورة البحر على غير أرادة منه وأراضى الحماد صلبة حجرية وما يقع بها من الأمطار القليلة لا يرطب أراضيها لأن ما زاد منها انحدر فى الحال وانصب فى الوهاد المجاورة لها وجرف معه الرمل القليل أو الارض النباتية التى يمكن أن

تتكون من نحات الصخور والريح الذى يكنس على الدوام أسطحة هذا الحماد الجرداء يكفى مع ذلك لأن ينزع منها كل الجزيئيات العالقة بها ويلقيها ألى بعيد وأحياناً نرى وهدة أو واديا انحفر فى الحماد أووجد بجانبه وأحيانا يكون بعض الأودية عظيم الأتساعات جداً فتبتعد شواطئه وتأتى وهاد جانبية تلتصق بالوادى الأصلى فتصيره سهلا فى الشكل يقوم فوقه تلال صخرية مفرطحة القمم وربما كانت هذه التلال المنعزلة هى علامات النجد القديم الذى كان يغطى هذه الجهات فيما سبق ومنه تخلفت هذه الوهاد والأودية بالتآكل والتحات الذى استمر قرونا وأرض الصحراء وأن كانت رملية ألا أن بها نوع تماسك لأن الرمل الأصفر الصوانى يلتصق مع بعضه قليلا أو كثيراً بمادة من الجبس أو الطفل ومرور القوافل لا يثير به دائما عثيرا كثيراً حتى مع هبوب الريح بشدة وكثيرا ما ينتهى الوادى بسبخة أى وهدة لا مصرف لمائها ذات جوانب عالية ترى فى الأفق كأنها سلاسل جبلية حقيقية وتتغطى هذه السبخات التى يتعاقب عليها الفيضان والجفاف مدة الجفاف بأملاح ومتى كان التبخر سريعا أحدث الملح قشرة حقيقية تتكسر تحت أقدام السياحين حتى يسمع لها صرير والصحراء فى غير هذه الأمكنة متسع جسيم من الرمال المتحركة أوهى كثبان عديدة جداً يعقب بعضها بعضا وتعرف هذه الأصقاع الأخيرة لدى الأهالى بالعروق واحدها عرق وانتقال المسافر من النجد ألى جهات الكثبان يتم بدون أن

يشعر وأول ما يشاهد من ذلك بعض كثبان بعيدة متوازية يفصلها عن بعضها أراض عريضة رملية ثم تأخذ تلك الكثبان تقرب من بعضها شيئا فشيئا بحيث لا تترك بينها ألا ممراً ضيقا وربما تماست عندقواعدهاوهي ليست واقعة على الدوام على خط واحد بل الغالب الكثير أن تكون بغير نظام وهى غريبة الأشكال وربما وصل ارتفاع الكثير منها ألى مائة متر أومائةوخمسين متراً وكلما توغل الأنسان فى جهات الرمال المتحركة كلما شعر بانقباض فى الصدر وسآمة يشعر بهما كل أهل القافلة وهذا التأثر الذى يظهر أنهيستولى على الحيوان الأعجم أيضا سببه من غير شك أن قحولة الأرض قد انضم ليها شيء آخر يؤذى المسافر وهو تحركها وعدم ثباتها تحت الأقدام ومن لأغلاط الشائعة عن تحرك هذه الكثبان القول بأنها تبتلع القافلة بتمامها بهذا الرمل متحرك فى الحقيقة وكثيراً ما يرى الكثيب يدخن بمعنى أن لطبقةالسطحيةذات الرمال الدقيقة التي تتغطى بهاقمة تلك الطبقة تثور فتكون غشاء دقيقا من الرمل الناعم يطرده الهواء أمامه ولكن هذا الرمل لا يكون متحركا حركة يمكنه بها ابتلاع الأنسان والدواب أصلا ومهما كانت الزوابع التى تقوم هناك شديدة مخيفةوحتى حينما يظلم الجو تماما بسحب الرمال المتطايرة فأن الأنسان يتخلص منها متى سكن الهواء بتنفيض ملابسه ومتى هدأت الزوبعة تبدد العثير الذى جلبه الريح معه وأصبح فى الأفق كأنه ضباب محمر اللون ظهرت البلاد فى شكلها الأول لم يعتورها تغيير أو تبديل وتكون الربوات

فى مكانها الأول لم تصب ألا بتغير خفيف فى جوانبها ويبقى كذلك محيط المنافذ الضيقة التى يسير فيها الأنسان بين هذه الكثبان على ما هو عليه وتشاهد الآبار والينابيع سليمة وفى أما كنها الأولى وألا فكيف يتسنى لأدلاء القوافل أن يعرفوا بعد مضى عدة سنوات أصغر الربوات بلا تردد وكلها ذات أسماء خاصة بها أذا كان شكل الأرض عرضة لتغيرات فجائية ومع اعترافنا بأن طبوغرافيا هذه الأصقاع قليلة التغير وأن انتقال الرمال بطيء جداً لدرجة اعتباره كلا شيء تقريبا مدة جيل ومع ذلك فأن الرمل الذى تطرده الرياح ينتهى أمره بأن يتراكم ويجتمع فى بعض الجهات ويحدث منه مع مرور الأزمنة تغيرات والأمثال على ذلك كثيرة يرويها سكان الصحراء

الجبال والنجود ـ بالصحراء الكبرى من الجبال والنجود ما يخرجها عما توصف به من اتحاد الشكل وربما اعتبرت هذه النجود فقط علامات فى الوصف الطبيعى لهذه الجهات الواسعة وهذه الجبال هى جبال تيبستى وتسيلى الشمالية وهكّار وأهير أو أسبين وجبال أدرار الشرقية وجبال أدرار الغربية أما جبال تيبستى فأنها تقطع الخط العشرين من المتوازيات وهى على نحو ١٫٢٠٠ كيلومتر ألى الجنوب من خليج سرت الكبير وهى سلسلة جبال تعرف لدى الأهالى بأسم تُو و معناه الصخور وتمتد هذه السلسلة من الشمال الغربى ألى الجنوب الشرقى على مسافة قدرها نحو خمسمائة كيلومتر وقسمها الشمالى يعرف بأسم طارسُو وهى تشرف على سهول ويسهل الصعود فوقها

ويعلوها قمم عديدة بعضها منفرد وبعضها يجاور غيره وتمتد على مسافة عظيمة وهى مخاريط طفحات بركانية وقد غطت بالحمم والرماد ما يجاورها من الصخور الرسوبية وأشهر هذه المخاريط يسمى تُسِّدى (٢٫٥٠٠ متر) وعلى جوانبها فوهة بركان أسفل القمة بنحو ٣٠٠ متر وعلى المنحدر الجنوبى من هذه السلسلة فوهة محيطها بين ١٥ و٢٠ كيلومتراً وعمقها نحو ٨٠٠ متراً ولا يعرف الجغرافيون شيئاً عن سلسلة تيبستى وجهاتها الجنوبية التى لم تكتشف ألى الآن متسمة جدا وربما زاد ارتفاعها عن ٢٫٥٠٠ متر وفى الشمال الغربى من جبل طارسو المذكور على استطالة محور جبال تيبستى تقوم عدة مجاميع جبلية هى جبال آفُو أو آبو (٥٥٠ متر) ثم جبال أفيفى (٧٠٠ متر) ثم هضبة تُمُّو وكلها هضاب انتقال بين هضبة تيبستى وهضبة تسيلى الشمالية ولما كانت تقطع الصحراء بالميل كانت كالحاجز أو الحائل ويكون ألى الشرق منها بلاد فزان وصحراء لوبيه وألى الغرب الصحراء الكبرى أو الصحراء الوسطى والصحراء الغربية أما تسيلى الشمالية المعروفة بجبال أَزْقِر أو أَزْجِر فهى مجموع أراض عالية كثيرة التضاريس يتجه محورها من الجنوب الشرقى ألى الشمال الغربى فى استطالة السلسلة التى تبتدئ من بلاد تيبستى ويظهر أن صخور نجدها الذى يحده من الجنوب الغربى أرض رسوبية من الأراضى الرابعة التى تتكون منها سهول الصحراء تستمر كذلك وبحالة منتظمة فى محور جبال الصحراء ويقوم فى نحو منتصفها عدة ذرى تعرف عموما باسم أدرار

(معناه الجبل فى لغة البربر) وأعلى ذروة بها تسمى إِنْ أَسْوُكال (ويزيد ارتفاعها عن ١٥٠٠ متر) وهى كما يقول مسيو دوڤريه فوهة بركانية انسكبت طفحاتها على صخور تلك الهضبة وتنقسم جبال تسيلى فى جهاتها الغربية ألى قطع تشبه الجزائر بين كبيرة وصغيرة والوهاد الى تحدثها الأودية بجهاتها الشمالية تكون كالخلجان والفرض ضاربة فى جسم تلك الكتلة وبذلك انقسم النجد المذكور ألى قطع عديدة لكل قطعة منها أسم خاص بها

ولو نظرنا ألى جبال هكار نراها واقعة بالوسط الهندسى من الصحراء تقريباً ويزيد محيط هضبتها الوسطى الدائرية الشكل عن ٦٠٠ كيلومتر وتتركب من نجود يعلو بعضها بعضاً كأنها المساطب ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ متر و٢٠٠٠ متر عن سطح البحر أى أنها فى جهات ثلج الشتاء وفى وسطها هضبة شامخة تسمى أَتَاكُورْنْ هكار ومعنى ذلك ذروة هكار وفى نهايتها ثنيتان متماثلتان وبالشمال من هذه الهضبة ذروة تسمى تِيفِيدِسْت تنتهى بمخروط بركانى يسمى أودان ويعرف لدى الأهالى عادة بأنف هكار وألى الشرق من هذه الهضبة سلسلة تسمى أَ نِيهفْ تتراوح قممها بين ١٥٠٠ متر و١٨٠٠ متر أما هكار الجنوبية فلم يردها للآن أحد من مكتشفى أوربا فهى مجهولة كالنجد الذى يحدها جنوباً والذى يعرف فوق الخرائط باسم تسيلى الجنوبى أو تسيلى هكار أما جبال أهير أو أزبن فأنها ألى الجنوب

والشرق من هكار السابقة واقعة تقريبا فى منتصف المسافة بين تيستى والمنعطف الكبير فى نهر النيجر وهى هضبة عالية يحيط بها من كل جهاتها رمال ونجود صخرية فهى سلسلة جبال متميزة بذاتها تمتد جوانبها العالية جهة الشمال والجنوب فتشغل بذلك متسعا جسيما وطولها من الشمال ألى الجنوب على خط مستقيم نحو مائتى كيلومتر ويختلف عرضها من الشرق ألى الغرب بين ستين كيلومتراً ومائة كيلومتر فيبلغ ما تغطيه من الأراضى نحو ٠٠٠ر١٥ من الكيلومترات المربعة ويزيد ارتفاع بعض قمم جبال أهير عن ٥٠٠ر١ متر وأهير المذكورة تشبه فى عمومها هضبة لم تقطعها المياه بمدو تحدث منها سلسلة منتظمة ذات جبال وجبيلات جانبية وأودية عرضية وليس بها فى داخلها ولا فى جوانبها وديان تشبه وديان أوربا بل بها مضايق ووهاد تجرى بها سيول شديدة بعد هطول الأمطار أما جبال أدرار أو أدرار الشرقية فهى ألى الغرب من أهير وألى الشمال والشرق من المنعطف الكبير لنهر النيجر وهي أصقاع جبلية لم يزرها الآن أوربى ويبلغ مسطحها ٠٠٠ر٢٠٠ من الكيلومترات المربعة على الأقل وهى وأن رسمت على الخرائط كأنها نجد ألا أن لفظ أدرار ومعناه الجبل يسمح لنا بأن نقول عنها أنها هضبة تشبه هضاب هكار وتيستى أما أدرار الغربية فواقعة بالصحراء الغربية على نحو ٢٥٠ كيلومتراً تقريبا من ساحل المحيط الأطلسى وهى صقع صخرى كثير الجبال الصغيرة مما يتغير به شكل الصحراء ويقدرون ما تغطيه من الأراضى

بأكثر من ٧٤٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وتعرف خصوصا بأسم جبال تامار ولا تشبه هذه الكتلة الكتلات التي سبق الكلام عليها لأن ذراها لا ترتفع عما يجاورها من الأراضي الرملية بأكثر من تسعين متراً وأن كانت الأراضي الرملية المذكورة تعلو على سطح البحر بنحو ٥٠٠ متر وقد قلنا فيما سبق أن هضبة تيستي وجبال آفو وأفيفي وتموالتي هي استطالة للهضبة المذكورة نحو الشمال الغربي تفصل الصحراء الحقيقية عن صحراء لوبيه وسنتكلم على صحراء لوبيه عند كلامنا على الديار المصرية أما هنا فلا نشتغل ألا بوصف الصحراء الكبرى أي الصحراء الوسطى والصحراء الغربية وتأخذ جبال تيستي في الأنخفاض التدريجي غربا مائلة نحو السهول حتى تصل ألى خط الواحات الممتدة من الشمال ألى الجنوب على طريق القوافل المترددة بين مرزوق وبحيرة شاد وتخترق هذا الطريق جبال تمو من ثامة تعرف بالبيبان أي الابواب وهي تنحدر في سهل أرضه محمرة اللون ينخفض بالتدريج نحو الجنوب ولما كانت الأبواب المذكورة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٥٠ متراً وكانت بحيرة شاد على نحو ٢٥٠ متراً منه كان مجموع الأنحدار فوق هذا الطريق الذي يبلغ طوله ٩٥٠ كيلومتراً على خط مستقيم هو ٤٠٠ متر غير أن هذا الأحدور ليس منتظما في ميله لأنه شديد الميل بالقسم الشمالي وألى الجنوب من ذلك يتعادل الميل حيث يبقى متوسط الأرتفاع يتراوح بين ٣٥٠ مترا و٤٠٠ متر ويستمر كذلك على

مسافة قدرها أربع درجات من درجات العرض ويوجد فوق هذه المضبة الكثيرة الحلمات والتضاريس تلال بعضها من الكلس والبعض الآخر من حجر المسن وبها أيضا هضاب صخرية قاحلة تمتد فى جهاتها التى تنقبض منها النفس سآمة وبين صخورها وفى أراضيها الجيرية فى جبالها وكثبانها مياه وآبار وقتية تتردد عليها القوافل وبالفجوات الكبرى من هذه الفجوات واحات مثل واحة يَات وهى تمتد على مسافة تبلغ عشرين كيلومترا من الشرق ألى الغرب وعلى نحو ثلاثة كيلومترات من الشمال ألى الجنوب وواحة يجّيَا وهى ألى الجنوب والغرب من يات وأصغر منها مسطحا بكثير ومنها أيضا واحة كُوَار ويفصلها عن يجّيَا المذكورة حماد صخرى وتمتد هذه الواحة على مسافة تبلغ ٨٠ كيلومترا ومحورها يتجه بالضبط من الشمال ألى الجنوب وبالقسم الجنوبى منها ملاحات بِلْما والصقع الذى يفصل واحة كوار عن المنطقة التى تحد بلاد السودان صقع يصعب السير فيه جدا لأنه كثير الكثبان فيتلو الواحد الآخر بلا انقطاع ممتدا من أفق ألى أفق ومن الشرق ألى الغرب أى فى نفس الأتجاه الذى تهب منه الرياح المنتظمة بالصحراء ويبلغ ارتفاع الكثيب الواحد منها نحو خمسة عشر مترا ويبقى هذا المتسع العظيم من الرمال المتحركة بلا تغير ألى أن يصل ألى نقطة تسمى بلغة البربر كاوْتِيلو ومعناه الصخرة المنعزلة ثم بعد أن يجتاز الأنسان واحة صغيرة تسمى زَاوْكُورا يدخل ثانية فى جهات الكثبان ويستمر كذلك نحو مائة

كيلومتر يرتفع الطريق أثنائها تارة وينخفض أخرى والحدود الجنوبية من هذه الجهات الرملية صخور تسمى دِبِيلاَ ومتى وصل الأنسان أليها يكون قد خرج من الصحراء الحقيقية ودخل في منطقة السهول التى تحد أراضى السودان ذات المياه الكثيرة وألى الغرب والشمال الغربى من الابواب التى تمر بها الطريق التى وصفناها صخور شامخة قاحلة يبلغ ارتفاعها نحو ١٫٥٠٠ متر تكون نجداً كثير الوهاد والأغوار وألى الجنوب من غات ثلمة ضيقة يقطعها أغوار يمر بها السياحون الذين يقصدون بلاد أهير قال بعض السياحين يصفها « ليس فى الأرض مكان تظهر فيه الطبيعة أنها أكبر جفاء وأكثر خشونة منها فى هذه المضائق الجبلية وأن قحولة الصخور هناك وكونها جرداء تماما وكذا لون أحجارها المائل للسواد وشكل قممها الغريب الذى لا يتغطى بأقل نبت ولا بشيء من الأشنان أصلا كل ذلك منضما ألى بعضه يحدث فى نفس السائح انقباضا وملالا أكثر مما تحدثه فيه تلك الرمال التى لا منتهى لها » اه وتنحدر الأرض سريعا ألى الجنوب من هذه الثلمة ذاهبة نحو السهول يعلوها فى جوانبها صخور كلسية وألى الجنوب منها صخور حبوبية والأصقاع المحصورة بين طريق القوافل الذى بين مرزوق وبحيرة شاد شرقا وجبال تسيلى وهكار وهضبة أهير غربا كلها مجهولة تماما ولم يردها أحد من سياحى أوربا ألا فى طرفها الغربى وترسم على الخرائط كأنه يشغلها سهل جسيم من الرمال يمتد غربا من واحة كوار حتى واحة

أهير شمالا ويمتد ألى الجنوب منها حماد جسيم وسلسلة تسيلى الشمالية أو جبال أزقر مبدؤها غربى الثلمة المذكورة مباشرة وفى زاويتها الشمالية الغربية نجد يسمى أيجلى ويحيط بها من الشمال والشرق والغرب رمال تعرف لدى بأسم الأهالى أدين ويمتد ألى الشمال منها نجد يسمى تنزرت أو تنجرت وهو حماد طويل يتصل غرباً ومن الجنوب الغربى بالحماد الكبير الممتد ببلاد طرابلس وألى الغرب من تنجرت هضبة تسمى. تادميت يتفرع عنها شمالى توات كتلة جبلية تشبه البرج المستدير ومن هناك تمتد حتى تتصل بنجد الجوليا بالصحراء الجزائرية ويمتد ألى الشمال والشمال الغربى من الحماد الأحمر وتنجرت وتادميت صقعان كبيران من الكثبان يعرف الواحد منهما بأسم العرق أحدهما شرقاً والآخر غرباً وتغير الرمال والكثبان فى عدة مواضع على المنحدر الشمالى الشرقى من تادميت لأنها مائة ميلا خفيفاً من جوانبها بينما هى فى منحدرها الجنوبى والغربى تنتهى بصخور حقيقية تمنع أغارة الرمال عليها ووادى أيغرغر يقسم العرق الشرقى ألى قسمين وقد زار قسمه الغربى حديثاً سائح فرنسوى يسمى مسيو فورو(J. Foureau) ومما قاله عنه أنه ليس كتلة من الكثبان متحدة فى الشكل ولكنه كثبان كثيرة عالية مجتمعة يعرف الواحد منها بأسم عجزود وبه جهات تكثر بها الفجوج والأغوار وأماكن كثيرة يصعد تاريخها ألى ما قبل زمن التاريخ لم يزرها للآن أحد من الأوربيين ولا يعرف العرب عمرها ولا فائدتها وألى الجنوب الغربى من

هذا العرق وألى الشرق من تادميت واحة تسمى مَادِر وأكثر أراضيها حماد وطفل أحمر لا نبات فيه وسهل قحل صلب الأراضى يظهر فيه السراب على الدوام وقد تكونت واحة مادر المذكورة من أفمام الأودية الآتية من الشمال والشرق من تادميت وهى التى تصب فى العرق تحت الرمال حيث تذهب من هناك وتتصل بالشاطىء الأيسر من مجرى أغرغر غير أن مادر الجنوبية المسماة بمادِرسُوف عبارة عن مجار صغيرة كثيرة تجرى بين تلعات مكونة من الطفل والرمل تغطيها النباتات وهذا السهل بأجمعه تغمره المياه وقت فيضان وادى سوف وألى الجنوب من مادر قمم كثيرة ممتدة من الشمال الشرق ألى الجنوب الغربى وهى مطلة على أرض منبسطة صفراء كثيرة الحصباء خاليه من النبات تعرف بأسم رَجْب الأصفر والمنحدر الجنوبى أو الأطلسى من هذه السلسلة يذهب ماؤه ألى حوض وادى مَسيّن وبهذه السلسلة عدة ذرى عالية من أشهرها كُدْية أُمرُكْبَة وهى أعلى نقطة وصل أليها مسيو فورو المتقدم الذكر وهى تطل على وادى مَسيّن وارتفاعها نحو ٤٥٠ متراً ويسكن هذه الجهات الكثيرة الأغوار قبائل يعرفون بأولاد بَهامو ويمتد ألى الجنوب من ذلك بين تادميت ومادر وتسيّلى الشمالية وجبال هكار نجد مثلث يسمى المُويدِر يقوم على حافته الشرقية ذروة تسمى أيفيتِّسن ظنها السائح دوفرييه فوهة بركان قديم وألى الشمال من هكار نجد يسمى أجيرِى أحجاره جرانيتية بها شقوق بركانية وألى الجنوب والغرب من

هكار تمتد تسيلى الجنوبيه أو هضبة هكار كما قلناه وألى الغرب من أهير تقوم هضبة معروفة قليلا لدى الجغرافيين تسمى أدرار الشرقيةولو امتدخط من توات واتجه ألى الجنوب بحيث يكون ألى الشرق منه كل هذه التضاريس المذكورة لكان معيناً للحد الذى تبتدىء منه ما يعرف عادة بالصحراء الغربية والصحراء الغربية تخالف الصحراء التى تقدم وصفها لانه لا يوجد بها مرتفعات جبلية شاهقة أذ هى فى مجموعها الذى يزيد مسطحه عن مليونين من الكيلومترات المربعة كثبان كثيرة يتلو بعضها بعضا وأغوار وحماد قليل الأرتفاع وسلاسل صخرية وجبال صغيرة لا يزيد ارتفاع أعلاها عن خمسين متراً وتكثر الربوات والكثبان خصوصا فى قسمها الشمالى وربواتها هضاب صغيرة موزعة فى أرجائها كالجزائر فى البحر وطريق القوافل الذاهبة ألى تمبكتو وألى الجنوب من وادى درعه حماد يختلف متوسط ارتفاعه بين ٣٧٥ متراً و ٤٠٠ متر يفصلها عن بعضها وهاد وفجوات وسطح هذه النجود قديم التركيب تغطيه أراض حديثة العهد قد أوجد بها التآكل والتحات أشكالا غريبةجداً بحيث جعل منها ما يشبه الأبراج والأسوار ذات الشرفات والمزاغل وتعرف هذه الأراضى بالسرير وبعضها يتغطى بما يشبه الفسيفساء ويتألف من ملايين من حصباء الكوارتز والعقيق اليمانى وغيرهما من الأحجار الجميلة وألى الجنوب من هذه الهضاب والنجود أراض واسعة جداً من الرمال هي العرق الكبير أو عرق أجيدى وهى تمتد من الشمال

الشرق ألى الجنوب الغربى ومبدؤها واحة توات سائرة نحو الرأس الأبيض وألى مافوق منطقة الرمال المذكورة وبين الخطين ٢٤ و٢٥ من المتوازيات سلسلة جبال تسمى الأجلاب وتتركب من صخور حبوبية وسُماقية وترتفع عن أرض الوادى بنحو ٣٠٠ متر أو ٤٠٠ متر وألى الشرق من ذلك صحراء تنزرفت وتخاف القوافل السير فيها ونهايتها غير معروفة ثم ألى الجنوب من ذلك أى ألى ما بعد دائرة السرطان صقع يسمى أفيليلى وألى الغرب والجنوب منه صحراء رملية واسعة تعرف بالجوف وجهات الجوف المذكور مجهولة لدى الجغرافيين أكثر من كل جهات الصحراء الغربية ولهذا يترك مكانها على الخرائط بلا لون فلا يرسم به طرق للقوافل ولا راهنا مجات للسياحين والمكتشفين ويزيد مسطحها عن ٣٠٠٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وألى الجنوب والغرب من الجوف المذكور أراض وأصقاع تعرف بالمرايه (المرآة) سميت كذلك للأشعة الفضية التى تنبعث عن نبات الحلفاء الذى يغطيها حين تماوجها بفعل الرياح وتفصل هذه الأراضى صحراء الجوف عن أرض تعرف بالحوض واقعة ألى الجنوب من نجد يسمى تاغنت واقع ألى الجنوب والغرب من أدرار تامار وألى الغرب من أدرار تامار هذه على ساحل البحر بين الرأس الأبيض ومصب الساقية الحمراء أودية واسعة تعرف باسم تيريس وتكثر بها الكثبان والأكمات الحادة الذرى ممتدة على موازاة الساحل مياهها وشواطئها ـ سواحل الصحراء مبدؤها مصب وادى درعه

(الحدالجنوبى من مراكش)حتى مستنقع يسمى أَنْدِيادِيه واقع على نحو ٦٥ كيلومتراً ألى الشمال من مدينة تَسنلويس ويعرف أيضاً بمستنقع مار نجُوان وكان هذا المستنقع فيما سبق فرعا لنهر سنيغال كان يصب منه في الأوقيانوس مباشرة ويزيدطول هـذه السواحل عن ١٫٧٠٠ كيلومتر وهى فى مجموعها منحن كبير تحديبه نحوالأوقيانوس وليس بهمن التضاريس ألاالقليل واتجاهه من مصب وادى درعه المذكور حتى رأس جوبى يكون من الشمال الشرقى ألى الجنوب الغربى وليس به من الأوضاع الأرضـية الشهيرة ألا مصب وادى شبيكه وجون يسمى پُورتو كَنسادو(Puerto Cansado)وقد طمرت الرمال نحو نصفه الآن ورأس جوبى وأن كان يعتبر على الخرائط أحدالنقط البارزة على هذا الساحل ألاأن بروزه قليل فى الحقيقة لأنه عبارة عن أرض واطئة رملية تمتد فى البحر وتنتهى بأكمة مغطاة بالعوسج وبالقرب منه مرسى تسمى ماتاس دُوسآن بارْتُولُوميو(Matas de san Bartolomeo) وحولها منطقـة من الصخور وهناك أيضـاً نزلة تجارية أنجليزية تسمي طَرْفايه (پورت فكتوريا) وألى الجنوب من ذلك خليج صغير يسمى ماتاس دولوس ماجـيريروس (Matas de los Majireros) ويتردد عليـه صيادو جزائر قناريا بكثرة

ومصب الساقية الحمراء أودلتاها واقع على نحو ٤٥ كيلومتراً ألى الجنوب الغربى من رأس جوبى لأن هـذا النهر يفتح له مجرى بين الـكثبان هناك

حتى يصل ألى البحر وتمتد هذه الكثبان على الضفة اليسرى من النهر المذكور موازية للساحل على نحو مائة كيلومتر ثم تنتهى فى جنوبى المتوازى ٢٧ بقليل ثم تختلط ببعضها فمنها ما يتجه فى موازاة الساحل ومنها ما يكون عمودياً عليه ولما كانت تلك الرمال تمتد فى البحر وعليها تنكسر أمواجه كان يصعب جدا رسو السفن هناك بل ربما كان خطراً ورأس بُجَادور أحد النقط الشهيرة فى هذا الساحل هو أكمة من الكاس ترتفع بلطف من الشمال ألى الجنوب وتنتهى مرة واحدة بصخرة ارتفاعها نحو ثلاثين متراً ويسمى البربر هذا الرأس رأس كِدّه وسهله من أحسن سهول الصحراء الغربية لهذا كانت البدو تنزل به مدة طويلة من السنة والساحل بين رأس بجادور المذكور والرأس الأبيض به فرض واجوان تلجأ أليها صيادو قناريا عند الحاجة وأشهر هذه الفرض فرضة أوروأ وَرِيو أورو (Rio de Oro) وقد أنشأ به الأسبانيون هناك نزلات تجارية على أمل أن يجلبوا أليها المتاجر والقوافل أما الرأس الأبيض فأنه فى نهاية شبه جزيرة طولها من الشمال ألى الجنوب نحو ٤٥ كيلومتراً ولكنها ضيقة قليلة الأرتفاع وبها خليج يسمى خليج لِڤْرِييه (Lévrier) وأكبر انبعاج فى هذا الساحل بين الرأس الأبيض ورأس مِيرِيك يعرف عموماً بأسم خليج أَرْجين (Arguin) وتبلغ فتحته نحو ١٦٠ كيلومتراً وعليه منطقة من الصخور بينها منافذ كثيرة تدخل منها السفن وبها مراسى جيدة ويبلغ امتداد الماء الذى بين هذه الصخور والساحل المحفوظ بهذه الصخور من فعل الأمواج نحو

مائتى كيلومتر وعرضه نحو ٨٣ كيلومتراً وبه عدة جزائر من أشهرها جزيرة أرجين وكان بها فيما سبق عدة نزلات تجارية ويقولون أن هذه الجزيرة الصخرية التى تشغل كل القسم الجنوبى من هذا الخليج كثيرة السمك جداً حتى يمكن أن تكون للفرنسويين أصحابها مركز صيدهم وألى الجنوب من الصخرة المذكورة وألى الشمال من خليج هناك يسمى سَنْجان(Saint-Jean)ونهير صغير يسمى كذلك أرخبيل صغير من أشهر جزره نِدره وتَغَانِتْ وتِينَا وغيرها وألى الجنوب الشرقى من رأس ميريك المذكور خليج يسمى تَانِيتْ وقد طمرته الرمال تقريباً ويصعب على السفن دخوله ولكنه موافق جداً لصيد السمك وبعد ذلك يمتد الساحل على خط مستقيم تقريبا ألى الجنوب الغربى وهو رملى منخفض على العموم وفى عدة مواضع منه كثبان تفصله عن بحيرات ومستنقعات هناك يدخلها ماء البحر فى بعض أيام السنة وعلى الخصوص وقت هبوب الرياح الغربية التى تهب هناك مدة طويلة من السنة وتصير هذه البحيرات بالتبخر ملاحات أشهرها ملاحة تِنِيَاهِيَا وهى تتصل من الجنوب بمستغدر أَنْدِيَادِييه السابق الذكر وهناك فوق هذا الساحل المنخفض كميات جسيمة من مواد رملية تجلبها معها من الصحراء الرياح الشرقية ثم تعود فتطردها الرياح الغربية نحو الداخل وهى التى جعلت كما يقولون لكثبان رأس بجادور (كما جعلت كذلك لكثبان الرأس الأخضر الواقع ألى الجنوب من ذلك) ارتفاعه الذى يبلغ ١٨٠ مترا

أنهارها ونهيراتها ـ ربما ظن ظان أن من السهل وصف بلاد من أهم صفاتها أن لم تكن صفتها الأصلية عدم وجود المياه النهرية بها غير أن الحال بخلاف ذلك تماما لأنه يوجد بالصحراء الكبرى عدة نهيرات تضيع مياهها فى الرمال أو أن تلك الأنهار كانت فيما سبق أكبر مما هى عليه الآن وأصبحت اليوم مجار جافة وربما كان من الصعب معرفة اتجاهها الأصلى وتفرعاتها هذا غير الأنهار التى لايزال العلم بمجاريها قليلا وهى التى تذهب فتصب فى المحيط الأطلسى وبالصحراء غير ما يجرى فوقها من المياه مياه تظهر فى عدة نقط من باطنها وعلى بعد قليل من سطح الأرض ولكن من الصعب بل ومن المستحيل تعيين توزيعها الجغرافى وكيفية جريانها ونهر درعه هو النهر الوحيد الذى تمكث به المياه طول السنة هناك وهو مع ذلك لا يسير فى الصحراء ألا من ضفته اليسرى من أول انحنائه العظيم عند نقطة المحاميد فقط لأنه بعد خروجه من الجبل هناك ينعطف بجأة نحو الغرب ولا يوجد ألى الجنوب منه ألا وادى شبيكه والساقية الحمراء وهما يجريان فى موازاة نهر درعه ولا تجرى المياه بهما ألا فى فصل الأمطار أما فى فصل الجفاف فالماء فيهما قليل جداً ولا يكاد يصادف الأنسان فى مجاريهما أذ ذاك ألا نقائع من الماء الراكد موزعة هنا وهناك ومع ذلك يظهر أن الساقية الحمراء وما لها من الفروع العديدة كانت فيماسبق نهرا جسيما ذا مياه غزيرة وليس بالأصقاع الواقعة ألى الجنوب

من الساقية الحمراء المذكورة حتى بلاد السنيغال من المجارى ما يمكن أن يسمى نهرا وتلك مسافة تقدر بعشر درجات من درجات العرض أو نحو ألف كيلومتر وقدروى المكتشفون القليلون الذين خاطروا بحياتهم وساحوا فى هذه الجهات الصعبة أنهم شاهدوا وهادا وأودية وفجوات فى الأرض ظنوها مجارى أنهار قديمة ألا أنه لم يذكر واحد منهم أنه شاهد نهراً هناك ولا ما يمكن أن يصدق عليه تعريف النهر وبشواطىء الأوقيانوس ثلمات وفرجات تنصب منها المياه فيه ولكن ليس لواحدة منها صفة مصب النهر الحقيقى حتى أن نهير ريُوأ ورُوالشهير الذى كان يرسم على الخرائط فى القرن السادس عشر كأنه من النهيرات الكبيرة والذى لا يزال يرسم على الخرائط الحديثة أصغر مما كان يرسم سابقا لم يعد فيه بعد من الذهب ما تجرفه مياهه زيادة على أنه لا وجود لهذا النهير بالمرة والماء فى جميع الصحراء الغربية بين الساقية الحمراء والسنيغال لا يكون ألا فى وهاد هى مستغدرات تعرف بالسبخات لا منفذ لها اللهم ألا تلك النهيرات الواقعة ألى خلف قمم الساحل وهي التي تجرى فى الجنوب والشرق وتغور فى رمال أجيدى ثم النهيرات التي تنحدر من جبال أدرار تامار وتذهب نحو الجنوب فتنصب فى مستنقع فى جنوب الصحراء وبالجهات الداخلية من الصحراء ألى شرق منحنى وادى درعه مجرى صغير يسير من الشمال ألى الجنوب يظن أنه قاع نهر ويسمي وادى أجيدين وقسمه الأعلى مؤلف من فروع كثيرة تجتمع كلها فى وهدة

تسمي الدُّوَّارَه ثم يخرج منها فرعاً واحداً يسير نحو الجنوب ألى أن يغور في رمال أجيدى المذكورة هذا على فرض أن يبقى فى مجراه ماء وألى الشرق من المجري المذكور نهير يعرف بوادى الزُّوْرَاء ويقال له أيضاً وادى مسَاورَه ويعرف هذا الوادى فى بلاد توات بأسم وادى مُسَوّد وفى نحو الدرجة ٢٦ والدقيقة عشرة من العرض الشمالى يتفرع من الضفة اليسرى من وادي مُسَوِّد المذكور عدة نهيرات تخرج من بين نجد تَاذمَايت ونجد مُوَيدر وكلها تتصل بنهير يسمى وادى أَ كَرابا وذلك قبل اتصاله بوادى مسود ثم أن وادى مسود يغير اتجاهه بعد ذلك لأنه لايستمر سائراً نحو الجنوب الغربى بل ينعطف نحو الغرب.ويصب فيه من شاطئه الأيسر وادى تِيجِرت الآتى من القسم الشمالى من جبال هكار ثم يضرب فى الصحراء ثم تزول أثاره ولا يحتمل أن هذا النهر يذهب ويتصل بوادى درعه لأنه لا بد له من اختراق منطقة رمال أجيدى سيما وصحراء تنزرفت المخيفة تقف حائلا فى طريقه من الجنوب ولم يشاهد أحد من المكتشفين القلائل الذين جابوا الصحراء غرباً مجرى نهر يمكن اعتباره استطالة لوادى مسود المذكور ونهير تاجيت أوتارهيت الذى يخرج من المنحدر الغربى من جبال هكار ويتجه نحو الغرب كذلك غير محقق المجرى كالنهير الذى يصب فيه من ضفته اليمنى ويسمى أنْ أَمَاجِرْ ويأتى من الشمال الشرقى وهناك أيضاً مجرى يعرف بوادى الحجرَ وهو يمر شمالى واحة أَرُوان ويقطع

الطريق التى سار فيها الدكتور لنز فى سياحته ألى تمبكتو وهناك أثار بعض نهيرات كانت تصب قديما فى نهر النيجر (منها نهير تسيليتن أو ترارات وهو شرقى أروان ومبروك ومثل أكريرواسا كان وفروعهما ويظهر أنهما يخرجان من جبال أدرار الشرقية ويتصلان بنهر النيجر فى القسم الشمالى الشرقى من منحنيه الكبير) ويخرج من هضبة هكار نهيرات تجرى فى اتجاهات متعاكسة وألى الشمال منها نهر كان من الانهار الكبيرة جداً فيما سبق هو وادى أغرغر وقد اكتشفوا أثاره حتى واحة ورقله ويظن بعضهم أنه كان فيما سبق يتصل بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة الشطوط التى فى الجنوب من بلاد الجزائر وجميع النهيرات ومسايل المياه التى تخرج من المنحدرات الجنوبية من هضبة هكار وكذا كل النهيرات التى تصب فى وادى تن ترابين الذى يجرى على المنحدر الشرقى تساعد على تكوين نهر يسمى وادى تافساست وهو يسير نحو الجنوب ويعرف بأسم دلوريامندا ثم يتصل بوادى سكتو على نحو خمسين كيلومتراً ألى الجنوب والغرب من بلدة سكتو ويتصل بنهر النيجر ويظهر أن للقسم الشرقى من الصحراء تقل به النهيرات كثيراً لأنه لا يعرف به شيء منها وربما كان ذلك لأن القسم الأكبر منها لم يكتشف للآن بالتمام ولهذا نرى على الخرائط أصقاعا واسعة به لاتزال ترسم بيضاء فلم يكن فى أمكان الجغرافيين أن يرسموا ولو على وجه التقريب المجارى التى تخرج من المنحدر الجنوبى من جبال تسيلى أزقر

ويظن بعضهم أن هذه المجارى ساعدت على وجود بعض نهيرات كانت تجرى هناك مثل وادى فَالِنسلِسْ الذى يقول عنه الأهالى أنه كان يجرى قديماً فى الجنوب الشرقى ذاهباً نحو واحة كُوّار وكذلك لا يمكننا ونحن على ما نحن عليه من نقص المعلومات فى هذا الباب أن نعين مجارى المياه التى تنحدر من جبال تيبستى وهل هى تغور فى الرمال أو تنضم ألى بعضها وتحدث وادياً واحدا أو عدة أودية هذا ما لا تمكن الأجابة عليه حتى يظهر أن أودية القسم الجنوبى الغربى من ذلك النجد التى يجب أن تكون مسايلها الطبيعية نحو بحيرة شاد ليس بينها وبين البحيرة المذكورة ارتباط ما لأن بحر الغزال الذى يوصلها بهذه البحيرة ليس ألا وصلة جافة من مستنقع بلاد برنو كما يقول السائح نختيجال أما صحراء لوبيه وهى النهاية الشرقية من الصحراء الكبرى فحالتها مجهولة جداً وليس هناك ما يحملنا على الظن بوجود مجارى مياه كبيرة بها ولو توصل الجغرافيون ألى معرفة جميع الأودية التى تشق الصحراء فلا يصلون ألا لمعرفة المجارى القديمة لأن المياه لا تجرى فوق الأرض بها ألا فى أحوال نادرة جداً أى أنها لا توجد ألا تحت طبقات الأرض هذا ويظهر أن النظام الحالى لنهيرات الصحراء هو كالآتى

ذلك أن تلك النهيرات تكون فى مبدئها سيولا تنحدر من الجبال بعد كل مطر وربما نقضت تلك الأمطار بشدة عظيمة فتجرف معها كل ما تصادفه فى طريقها ويكفى أن يستمر سقوط الأمطار بضع ساعات لتمتلىء من ذلك كل الأودية وبعد

مرور السيول يجف الوادى أما الماء القليل الذى يبقى ينحدر من فوق الجبل فأنه يختفى تحت الصخور والانقاض المتجمعة في أسفل ذلك المنحدر ومتى وصل النهير بعد ذلك ألى السهل صادف أرضاً رملية أسفنجية مسامية فتغور المياه فيها قليلا أو كثيراً ألى أن تصادف طبقة أصلية لا ينفذ فيها الماء وبذلك يكون سير الماء تحت الأرض لا فوقها أما عند سقوط أمطار العواصف فتكون شدة انحدار الماء وكميته فى النهير عظيمتين جداً حتى لا يمكن أن يتحلب منه شيء ألى الأرض فى الحال بل تجرى المياه فى قاع تلك النهيرات الرملى مسافة بعيدة قبل أن تتمكن الأرض من امتصاصها وأثار مجارى المياه الباقية للآن فى الصحراء يدل على أن حجم الماء الذى كان يجرى بها سابقاً عظيما جداً ولولا ذلك لما بقيت الآن ومع كل ذلك فأن المياه التى تختفى الآن فى هذه المجارى القديمة التى طمرت الرمال بعضها لا تتبخر بل تستمر على الجريان زمناً أطول مما أذا كانت تجرى فوق الأرض مباشرة ويمكن الظن بأن تلك المياه تتبع فى سيرها تحت الأرض الأتجاه الأصلى للنهر لأنهم متى حفروا أباراً فى هذا الأتجاه الجاف فى الظاهر وجدوا على العموم ماء فى عمق يختلف قلة أو كثرة وربما كانت تلك المياه الأرضية تسير فى موزاة جانب الوادى الذى يتغطى الآن أما برمال أو أراض زراعية ثم تجتمع على هيئة بحيرات تحت الأرض متى وصلت ألى وهاد وقيعان لا تسمح جوانبها بنفوذ المياه

مناخ الصحراء ـ يعلم من المشاهدات والملاحظات التى قام بها علماء الحوادث الجوية فى تقس الصحراء وعلى شواطئها ان السير العادى للأهوية هنـالك يكون من البحر الأبيض المتوسط نحـو مركز الصحراء الـكبير ولا يقع ذلك فى كل القسم الشرقى من الصحراء حتى بلاد التوارك حيث تـكون التيارات الجوية متغيرة جدا ألا أن الرياح المتسلطنة بالصحراء ليست هى الآتية من الشرق أو من الشرق الشمالى لأنها تـكون أذ ذاك فقدت كل ما اشتملت عليه من قطرات الماء أثناء سيرها سيراً طويلا فى قارة آسيا وعلى ذلك كان الأتجاه الذى تتبعه أغلب التيارات الهوائية المنجذبة نحو الصحراء كاف فى تفسير سبب قلة اشتمالها على بخار الماء أما فى آسيا فأن الرياح القطبية التى تـكون ألقت كل ما تحمله من دقائق الماء فوق جبال بايكال وألتائى وتيانشان وقوقاز التركمان وسلاسل آسيا الوسطى العالية بحيث لا يبقى بها من الماء ما تلقيه على بلاد الصين الغربية وأيران وجزيرة العرب وكذلك الحـال فى الرياح التى تـكون قد جفت باختراقها أوربا وهى لا تأخذ فى اجتيـازها بحر الروم كمية من البخار تـكفى لأرواء قارة أفريقيه ولأن ما بها من السحب يتلاشى فوق الربوات والجبال الواقعة حولها بحيث لا تحمل بعد ذلك ألا كمية ضعيفة من المـاء قل ما سقطت مطرا (مع أنها كلما تقدمت نحو الجنوب أى نحو منطقة مرتفعة الحرارة ازدادت قابليتها لامتصاص بخار الماء وتبقى جافة شيئاً فشيئاً بنسبة ذلك

الأبتعاد) وأكثر ما يكون سقوط الأمطار بالصحراء الكبرى متى كانت الشمس فى سمت الرأس هناك أى فى شهر أغسطس ومن أشهر مميزات مناخ الصحراء عند الخط ٢٠ تقريبا من المتوازيات الفرق الجسيم بين حرارة النهار المحرقة وبرودة الليل فبينما تصل حرارة الرمل بتأثير الشمس ألى ستين درجة أو ألى سبعين وفى الظل ألى أربعين أو خمسة وأربعين يحصل أحيانا أن برودة الليل تخفض الترمومتر حتى تجعله على درجتين أو ثلاث درجات بحيث يتكوّن فوق البحيرات والجداول فى الجبال طبقة رقيقة من الجليد والهواء هناك جاف جداً على الدوام تقريبا بحيث يصل جفافه ألى أن الكهربائية التى تتولد عند تنفيض الملابس أو عند ما يهز الفرس ذنبه تظهر على هيئة شرر ولقلة بخار الماء فى الجو كان الضباب من الحوادث المجهولة تقريبا بالصحراء وربما وجد الندى فوق النباتات عند طلوع الشمس أو حينما تنخفض درجة الحرارة فجأة والأمطار الغزيرة قليلة الحصول بالصحراء وربما انتظرها الناس أعواما ولكن متى أخذت فى السقوط تتابع سقوطها غالبا فى أى فصل كان من فصول السنة ولما كانت الصحراء يحدها من الشمال والجنوب بلاد أمطار منتظمة كان نظامها غير معروف أصلا فى حوادثها الجوية فهى كمنطقة حائدة ينقطع فيها تعاقب التيارات الهوائية والريح المحرق على ساحل المحيط هو الريح التجارى الآتى من الشمال الشرقى انحرف عن طريقه كثيرا أو قليلا لمجاورته البحر وتنعقد السحب فى الفضاء

فى نحو الخط ١٧ من المتوازيات عند حدودها الجنوبية فتنهمر أمطار غزيرة بحيث يقوم مقام القحولة نباتات جميلة وهناك تنتهي منطقة الرياح الدائمية ويحل محلها منطقة الرهو الأستوائى ذات التيارات المشبعة بالأبخرة المائية ومن الحوادث الجوية المخوفة هناك الريح الجنوبى المعروف بالسموم وهو الذى يفاجيء السياحين أحياناً وهبوبه شديد جداً فى تلك الأرجاء الواسعة التى لا يعوق هبوبه فيها عائق ومنها زوابع الرمال وهى مخيفة جداً كذلك خطرة وتنتشر بسرعة لا يمكن تصورها فيظلم بها الجو تماما وكثيرا ما يومض البرق ويزمجر الرعد وتسقط أمطار غزيرة فى تلك الأثناء ومتى حدث هذا توقفت القوافل عن السير وبركت الجمال واجتهد الناس فى حفظ أنوفهم وأعينهم خصوصا ومع ذلك فليس الخطر الحقيقى فى خوف القافلة من أن تطمرها الرمال ولكن الخوف كل الخوف من أن السموم يجفف قربها فيجعل أهلها عرضة لأن يموتوا عطشا خصوصا أذا دهمهم هذا الأمر وهم على بعد كبير من الماء وفى هذه الحالة لا يكون موتهم أقل منه تحققاً مما أذا كانوا فوق أرض حماد صخري

وليس السراب من الظواهر الخاصة بالصحراء الكبرى دون غيرها ولكن ربما كان حدوثه بها أكثر مما هو بغيرها وكذلك كانت نتائجه أشد أثراً وأكثر خطراً فمتى سكن الهواء وسخن سطح الأرض جداً بأشعة الشمس أظهر السراب أحياناً لنظر السياحين الضالين في الرمال الذين

أشرفوا على الموت عطشا صورة واحـة غضة ذات نخيل يتماوج يعلو ماء نميرا فالويل كل الويل لمن اغتر وحاد عن طريقه قاصداً هـذا المنظر الخادع لأنه يضل وبدل أن يجـد ماء لا يجد ألا الموت

أرض الصحراء - يؤكد العارفون وأرباب الدراية أن الرمال وأن كانت لا تشغل ألا نحو التسع من الصحراء ألا أنها مع ذلك تـكفى لوصفها بما توصف به الصحارى الرملية ويتساءل الناس عن السبب الذى أوجد هذه الـكميات الجسيمة من الرمال والأراء فى ذلك مختلفة جداً ويظهر أن التعليـل الذى أورده مسيو ألبزيه ريكلوه فى كتـابه أقرب للحقيقة من غيره حيث يقول «أن التحول الجيولوجى العظيم فى الصخور الصلبة بأحالتها ألى رمال وكثبان متحركة يحصل جميعه بفعل عوامل الظواهر الجوية وذلك أنه بمجرد ما تنثلم أحجار النجود السهلة التشقق ويدخل فيها الهواء الخارجى يبتدىء عمل التحليل فتصير الركام والجبس وغيرهما قابلة للتفتت فتتغير بالتدريج ألى رمل أو ألى تراب أما الجزء السطحى من الصخرة فأنه يتآكل شيئا فشيئا بحيث لا يترك ألا ما كان منه أكثر مقاومة فتكون تلك الأجزاء هنا وهناك كأنها الأهرام أو العمد قائمة وسط الرمال يسحقها كلها الهواء ويطحنها وهناك فوق المنحدرات بروز بعضها يشبه الأفاريز أو كرانيش البناء ظاهرة لم يات عليها الزمن بعد فيسحقها كغيرها وتتكون الأراضى الطفلية بالـكيفية المذكورة فترى أشجار الأثل وغيرها من

الشجيرات يحيط بجذوعها كيمان من التراب قد حفظتها تلك الجذوع من أن تتبدد بينما تكون الأرض بجوارها قد كنستها الرياح وبمجرد ما تنفصل هذه البقايا والأنقاض لا تبقى فى مكانها وعند ذلك يحصل أن الجزيئات الأخرى كالطفل والجبس والكلس والصوّان وكل ما كان من قبيل التراب تحملها الرياح جميعها وتلقيها فى مكان بعيد فتساعد بذلك على تكوين أراض طفلية فى القيعان والوهاد مما يجعلها تشبه الأرض المعروفة فى بلاد الصين بالأراضى الصفراء ولكن هذه لا تسقط بها مثل تلك أمطار غزيرة مخصبة فلا تكفى لتغذية الملايين من الناس بما تنتجه من الحبوب أما الأجزاء الضخمة وهى التى لا يقوى الهواء على رفعها لثقلها فتبقى فى مكانها وتكوّن أرضا مبلطة مما يشاهد فى عدة أماكن بالصحراء أما جهات الكوارتز المشتملة على الصوان المختلف القدر فأن الرياح تجرفها وتنقلها من مكان ألى مكان ثم تعود فتستقر أخيرا على هيئة كثبان يتغير شكلها وموضعها بحسب حركات التيارات الجوية ودورانها ومع أن أراضى الصحراء مغطاة بالرمال ألا أنها لا تكون كثبانا فوق كل جهاتها بلا فارق لأن تضاريس النجود وانخفاض الوديان وتعاكس تيارات الهواء كلها تؤثر على اتجاه الرمال فتمنع هذه الجهة مثلا من أن تصل أليها تلك الرمال بينما هى تعرض جهة أخرى لأن تنزل بها الرمال ثم أن حبات الرمل بانتقالها من كثيب ألى آخر بفعل الرياح تجتمع كما يجتمع الثلج فى الأمكنة المحفوظة من تأثير الرياح ويشبه هذا الفعل موج

البحر فى أن الواقف على ساحله يرى أن الأمواج التى تتكسر أمامه كأنها واحدة لاتتغير مع أن ماءها يتغير على الدوام ومع ذلك فيرى الأنسان بالصحراء كثبانا قد استقرت وثبتت فى أماكنها نهائيا بسبب ما ينبت فوقها من النباتات الحشيشية التى تمد جذورها الأفقية لتبحث على الماء فى أعماق الارض ويمكن توقيف حركة الكثبان فى الواحات بأن يزرع فيها من النبات ما يلائم الرمال وهناك أيضا كثبان مؤلفة من مواد جسيمة لا تغير أماكنها ألا عند هبوب الرياح الشديدة جداً وبها أماكن كثيرة خالط رمالها مواد جبسية أو كلسيه فتلصقها ببعضا حتى تصيرها صلبة يسهل السير عليها وأماكن أخرى خالط رمالها مواد ملحية تمتص رطوبة الهواء فتقوّى الأرض » اهـ بتصرف قليل

وهناك نظرية أخرى حديثة قال بها ضابط مهندس فرنسوى يدعى كوربى (Courbis) درس أحوال كثبان بلاد الجزائر من سنة ١٨٨٧ ألى سنة ١٨٨٩ وقدم مذكرة بذلك ألى أكاذيميا العلوم الفرنسويه سنة ١٨٩٠ قال فيها مايأتى ملخصا « ليس السبب فى وجود الكثبان ممانعة تضاريس الأرض لمرور الرمال التى جرفتها الرياح أولوجود مانع آخر أيًا كان بل سببه هو الماء خصوصًا ما كان منه تحت الأرض وهو الذى يظهر على سطحها بفعل الأمتصاص الشعرى فيسمح بتكوّن الكثبان فى أمكنة يصير الرمل فيها رطبا بمجرد استقراره وقد شاهد كثير من السياحين الرطوبة فى الرمال كما شاهدوا وجود ماء

على عمق قليل عند سفح الكثبان ويعرف العرب ذلك جيدا منذ أزمنة طويلة وهو دليلهم فيما لو ارادوا حفر الآبار وفسر كل من دوفريه وفورو(Foureau) ولارچو [١] وفلتر [٢] وكلهم ممن شاهد وجود الكثبان بالقرب من الآبار

(١) Largeau (Victore) ـ سائح فرنسوى ولد فى نحو سنة ١٨٤٠ ثم انه فى سنة ١٨٧٥ قام بسياحة فى غدامس وبعد ذلك أخذ يتعرف أحوال الصحراء الجزائرية بالتفصيل وجلب منها أشياء كثيرة مما يختص بالجيولوجيا والمعادن ومن تآليفه رسالة فى الصحراء الكبرى وأخرى فى نباتات الصحراء طبعت فى سنة ١٨٧٩

(٢) Flatters(Paul François Xavier) ـ ضابط فرنسوى ولد سنة ١٨٣٢ قتله التوارك سنة ١٨٨١ وهو بعد أن تقلب فى عدة وظائف عسكريه ببلاد الجزائر وغيرها عين عضواً فى اللجنة التى عهد أليها النظر فى أمر السكة الحديديه التى تخترق الصحراء وسافر يقود بعثة قصدها البحث عن البلاد التى تمر بها تلك الطريق وتنتهى أليها من بلاد السودان بين نهر النيجر وبحيرة شاد فخرج فلتر المذكور من فرنسا فى أول سنة ١٨٨٠ وبعد أن أنتخب من يرافقه فى تلك البعثة خرج من ورقلة فى تلك السنة هو ومن معه واخترق جهات الكثبان ثم وصل ألى العين الطيبة وألى واحة تيماسنين وكان يجتهد أثناء سيره فى أيجاد أسباب التعرف مع التوارك بقدر الأمكان ليسهل عليه القيام بما كلف به وكان توارك أزقر صرحوا للبعثة بالمرور فى بلادهم فى مقابلة ثلاثة الاف فرنك وبعض البنادق والهدايا الا أن شيخهم الكبير الحاج أكنوكن المرابط رأى أن من الواجب عليه أخبار الوالى العثمانى بمدينة طرابلس بما تريده البعثة المذكورة ولكن أعضاء البعثة خافوا من طول زمن المخابرة وبقائهم مدة طويلة فى تلك الارجاء وربما انتهى الأمر اخيراً برفض مطلوبهم ولم يكن لدى البعثة أوامر باستعمال القوة ألا فى حالة الضرورة القصوى وكانت القبائل ترد يومياً وتنزل حول مضارب فلتر على بعد قليل منها لمراقبة احوالها ولذلك رأى من الصواب وهو فى تلك الظروف أن يعود ألى بلاد الجزائر فحل خيامه وسافر فى الصباح ولما رأى التوارك ذلك هاجوا وماجوا حتى كأنهم هوجموا فجأة ولم يكونوا ينتظرون ألا كلمة من رئيسهم لينقضوا على البعثة ولما رأى فلتر ذلك وخاف من أن يهاجموه اجتهد حتى

جعلهم على الحياد فى مقابلة مبالغ دفعها لهم فابتعدوا عنه وعادت البعثة ألى ورقله ومنها ألى فرنسا حيث قدم تقريراً بما رآه وعلمه ثم رسموا له خطة بعثة ثانية ظنوا فيها النجاح بعد أن استأمنوا رؤساء التوارك فخرج فلتر من فرنسا ثانية ثم عسكر هو وبعثته فى بلدة لغواط وقبل أن يبارحها وصله من شيخ توارك هكار المسمى أهيتارن ثلاثة مكاتيب غير مشجعة ومكاتيب مشجعة من أهيتوكن شيخ توارك أزقر وأرسل قنصل فرنسا من طرابلس مكتوبا يقول فيه أنه يخاف على تلك البعثة ثم خرج فلتر فى شهر ديسمبر سنة ١٨٨٠ واخترق الطريق المار باراضى مجتمعات ثلاثة من مجتمعات التوارك وهم توارك أزقر شرقا وتوارك هكار غربا وتوارك أهير جنوبا وتوارك هكار شديد والعداوة للفرنسويين وكانت تلك الطريق كثيرة المشاق والمصاعب خالية من المياه فمات كثير من دواب الحمل وبعد أن مضى على البعثة المذكورة نحو شهرين وهى سائرة أخذ القلق والرعب يستوليان على فلتر لأنه شاهد عدة فرسان يتبعون البعثة منذ أيام فى سيرها ويمشون فى موازاتها وبينما كانت البعثة تظن يوما أنها قادمة على آبار أذ بالأدلاء قالوا أنهم تركوا تلك الأبار خلفهم وعلى يمينهم بقليل وعرضوا على فلتر أنزال الاحمال فى المكان الذى كانوا فيه وأرسال الجمال تشرب ثم تعود فى الحال لأن الأبار كما يقولون قريبة جداً من ذلك المكان ثم طلبوا من فلتر وممن معه أن يذهبوا ألى تلك الأبار فلم يشك فلتر فى صدقهم وسار التوارك أمامهم بعد أن أبقوا البعض منهم فى حراسة الأمتعة وساروا فى طريق ضيق جداً حتى لم تكن الجمال تسير فيها ألا واحداً واحداً وبعد نحو ساعتين وصلوا الى الآبار وبينما هم يستقون أذ بصرخات مفزعة علت من فوق المرتفعات هناك وبعد قليل انحدر منها قوم من التوارك يعدون على خيولهم مسلحون تمام التسليح ثم انقض بعض الأدلاء على واحد من أعضاء البعثة وقتله بالسيف ولما علم فلتر بالفخ الذى نصب له تقدم هو وبعض رجاله لمقابلة المهاجمين وأطلق عليهم مسدسه ولكنه وقع قتيلا بعد قليل أذ ضربه تاركى بسيفه وقتلوا من معه من الفرنسويين وغيرهم وتمكن ثمانية من الجمالة فقط من العودة ألى مضارب القافلة وقام أذ ذاك مقدمها المسمى عبد القادر بن حميده ونصح من بقى على قيد الحياة بحل المضارب والعودة فى الحال ليلا بعد أن اقتسموا مامعهم من الأغذية والنقود والأشياء الاخرى وعادوا فى طريق طوله ١٥٠٠ كيلومتر وقتل

ذلك بقولهم أن الرمال تخزن المياه النهرية كما يخزنها الأسفنج وهذا التفسير الدقيق الذى قال به مسيو كوربى يظهر لنا بعض الخواص الغريبة الموجودة فى طبوغرافيا الصحراء وعلى الخصوص علة وجود الكثبان على خطوط متعرجة هى نفس الخطوط التى ترسمها مجارى المياه فى باطن الأودية وتفسر من جهة أخرى لماذا كانت توجد أرض واسعة ألى الجنوب من ورقله يبلغ عرضها من خمسين ألى ثمانين كيلو متراً خالية من الماء فى باطنها تماما وخالية كذلك من الرمال وعلى ذلك فأذا كانت الكثبان لا وجود لها فى جهات النجود الجيرية فليس ذلك لأنها لا تجد فيها ملجأ يقيها من الرياح فأن هذه النجود بها أودية وتضاريس تشبه الموجود منها بأرض الصحراء الحقيقية بل لأن الأرض ليس بها من الماء والرطوبة مايجعل الرمل يستقر بها وكان العلماء ينسبون قحولة الصحراء لوجود الرمال بها ولكن هذا السبب بمفرده لا يكفى لجعل خروج كل نبات بها مستحيلا لأنه يوجد على سطح الكرة أقطار رملية أخرى ليست صحارى وهى خالية من النبات بالمرة وأن كانت قليلة الخصوبة ويضاف ألى ضعف الأرض أيضا عدم نزول الأمطار فأن وجد ذلك كانت القحولة الحقيقية فالصحارى الحقيقية لا توجد على سطح الأرض

بعضهم فى الطريق وباع لهم التوارك فى عودتهم تمراً مسموما وكثيرون منهم أصيبوا بالجنون حتى أطلقوا النار على بعضهم بعضاً ثم قاتلهم التوارك فى طريقهم وقتلوا منهم جملة واضطر من بقى لأكل بعضهم بعضاً بحيث لم ينج من تلك البعثة ألا عشرة أنفس ليس بينهم فرنسوى وكانت عودتهم ألى ورقله فى اليوم العاشر من شهر أبريل (سياحة بعثة فلتر ببلاد توارك أزقر ـ باريس ١٨٨٣)
(Voyage de la mission Flatters au pays des Touaregs Azdjers Paris 1883)

ألا حيث يقل سقوط الأمطار

أما الصحراء الكبرى فأن هناك أموراً أخرى تساعد على صيرورتها قاحلة هى أولا وجود بعض عناصر معدنية تمنع خروج النبات خصوصاً متى كثرت هذه العناصر فى جهة من جهاتها ثم شدة التيارات الجوية لأنها تمنع الأرض من الصلابة الضرورية لنمو النبات وأذا تمكن الأنسان فى بعض جهات الصحراء من منع ما زاد عن الحاجة من المادة الجبسية والملحية لتغير منظر تلك الجهات وصار على غير ما هو عليه الآن ولاكتست فى جهات أخرى بالنباتات أذا امتنعت الرياح عن كنس سطحها على الدوام لأن استمرار هبوب هذه الرياح يمنع نمو أصغر نبات برى وأحسن أثبات على أن وجود الرمل ليس هو السبب الأصلى فى قحولة الصحراء بل أن السبب هو عدم وجود الماء ذلك أنه بالرغم عن قحولة سطحها وجفاف مناخها فأنها تشتمل على واحات مهمة كثيرة النباتات أى حيث توجد المياه سواء كانت تلك المياه تجرى على سطحها أو فى باطنها فيمكن للأنسان أن يوجد واحات كبيرة وصغيرة فى الأماكن القاحلة منها أما بحفر الآبار الأعتيادية أو الأرتوازية لاستنباط ماء للرى وعلى ذلك يكون زوال الواحة أما بأغارة الرمال على أبارها أو بجفاف ينابيعها وعلى هذا فوجود الواحة مرتبط أتم الأرتباط بوجود الماء وكل واحة يمكن ريها بكيفية من الكيفيتين السابقتين أو يكون بباطنها من الماء ما يكفى لذلك على الأقل

وبعض تلك الواحات واقع فى قاع الأودية الصحراوية وهى أودية يدل ظاهرها على الجفاف ولكن بها فى العادة بعض سواق تتخلل رمالها وحصبائها ومن تلك الواحات ما هو عند مدخل الوهاد والخيران فى الجهات الجبلية فيمكن حجز المياه بها بأقامة السدود ومنها ما تشغل بجوات من الأرض رطبة ولكن فى أغلبها ينبوع أو عدة ينابيع طبيعية أو آبار صناعية وحاصل الكلام أن الواحات قائمة دائما على خطوط مجارى المياه وفى مناطق ينابيع وبحيرات على عمق قليل أو كثير من سطح الأرض

حاصلاتها ـ مزروعاتها ومعادنها ـ أهم الحاصلات المعدنية بالصحراء الكبرى الملح وهو على العموم فى فجوات أرضها التى لا تنصرف مياهها ألى جهة من الجهات حيث تترك المياه بتأثير التبخر الشديد مواد ملحية بعد أن تكون غسلت بجريانها الأراضى التى تحيط بها ويظهر الملح فوقها أو تتكون عليها قشرة حقيقية من الملح يسمع لها قرقعة تحت الأقدام وللملح المذكور تجارة مهمة لاحتياج أهالى السودان أليه احتياجاً شديداً ويشتغل باستخراجه هناك عدد عظيم من الناس ويؤكد العارفون أن عدد الجمال التى تشتغل بنقله سنوياً يزيد على ثمانين ألف جمل وأهم مراكز تصديره المستنقعات الملحة فى بلما (الجهة الجنوبية من واحة كوار) وسبخة إيجلى (بالصحراء الغربية) وملاحة أماغور (بالشمال من الصحراء بين تسيلى أزقر وهكار) ولكن الناس تركوها الان بسبب تعديات ومطالب

التوارك وملاحة تَاوْدِينى (على الطريق بين تندوف وتنبكتو) وبهامناجم للملح الجبلى المعروف بالمعدنى ثم أن الملح الذى يتكون فى مستغدرات ساحل الصحراء الغربى بالتبخر يجمعه الأهالى ويكتسبون منه مكاسب وافرة فتأتى قوافل تأخذه ألى بلاد السنيغال والسودان

النباتات ـ النباتات بالصحراء قليلة ولم تأخذ الصحراء من نباتات ماجاورها من البلاد ألا الشيء القليل وفى ذلك دليل أيضاً على أنه لم يكن يشغلها فى أول العصر الجيولوجى الحالى بحر عظيم كما يظن بعضهم لأنها لو كانت كذلك لكانت نباتاتها فى هذه الحالة قد تكونت وتعينت بانتقال أنواع منها أتت من الشواطىء المطلة على ذلك البحر فالذى حصل هو على العكس من ذلك تماماً لأن الصحراء بالرغم عن أنها ليست منطقة تحول وانتقال بين نباتات الجهات الواقعة على بحر الروم وجهات بلاد السودان فأنها تختلف عن كليهما تماما فهى بينهما حاجز لا يمكن اجتيازه وربما عد البعض الكلام على نباتات الصحراء من الأمور الغريبة لأن الوصف الحقيقى الذى ينطبق عليها وتوصف به هو خلوها من النباتات ومع ذلك فأنها ليست خالية من النباتات فى كل جهاتها فالجهات المعروفة بالحماد يوجد بها فى بعض الأوقات نباتات قصيرة وأشجار أخرى ليست مجتمعة من النباتات الصودية والثُّمام وفى وسط الكثبان الكبيرة فى الغالب خمائل واسعة من العُلّيق وغيره وينبت بجانب هذه الخمائل أو فى وسطها نبات من الفصيلة النجيلية صالح جداً لغذاء الحيوان والأنسان وهو يشبه الحلفاء

ويقوم هناك مقامها وينبت فى باطن الأودية أنواع من العليق مختلطة بأنواع أخرى صغيرة من النبات حتى أن بعض الأماكن التى يظهر أنها قاحلة بالمرة ينبت بها أحيانا نباتات موزعة هنا وهناك يكون نموها بنسبة الماء فى باطن أرضها وجوداً وعدماً وكلما تقدم الأنسان نحو الجهات الواقعة باطراف الصحراء كلما أخذت الحشائش فى الظهور والكثرة فتكون هناك أولا فى القيعان بين تضاريس الأرض ثم فوق المرتفعات بحيث يقوم مقام لون الصحراء المصفر أو السنجابى لون أخضر جميل هو لون تلك النباتات وأذ ذاك يكون المسافر قد اجتاز الصحراء بأكملها ومع هذا فأن الصحراء الغربية لا تدخل مع مجموع الصحراء فيما توصف به لأن مجاورتها للبحر وكونها فى منطقة الأمطار المدارية المنتظمة كل ذلك يجعل بها من الرطوبة والماء ما يكفى لعدم حرمانها من النباتات ولأن تجد بها القبائل الرحالة الغذاء الكافى لحيواناتها وتأخذ غابات الأقاقيا والأشجار التى من فصيلة المستحية فى الظهور جهة الجنوب حيث تكثر أشجار الصمغ مما يكون مدار تجارة كبيرة وأشجار الصمغ تكون عظيمة بصحراء مادر شمالا حتى يزيد ارتفاع الشجرة الواحدة عن ١٥ متراً كما يزيد محيطها عن مترين وبأودية السفح الجنوبى من جبال تاذميتَ والجبل الأبيض فى مجاريها العليا أشجار صمغ وينبت فى جهات العِرق على يسار إغَرْغَرْ عند سفح الكثبان نباتات جميلة غضة جداً بحيث لا تجعل الحيوانات التى تتغذى منها فى حاجة ألى الشرب

مدة طويلة وينبت فوق القمم المعروف واحدها هنالك بأسم عَجْرُود نوع من الطرفاء يسميه العرب بالعريش وشجيراته الدقيقة اللطيفة ترى عالقة فوق رؤوس الكثبان وسفوحها الحادة كما وصف ذلك السائح فورو المتقدم الذكر وتشتمل الصحراء ألا سهولها القليلة المرعى التى يتنقل بها الرحل هم وقطعانهم وألا ما يحيط بها من المناطق الخضراء التى ليست بتابعة للصحراء على عدة جهات ذات واحات مزروعة ومسكونة أهم نباتاتها النخيل وهو بها غابات كثيفة تنبت تحته وفى ظلاله نباتات أخرى مما يغير لون الصحراء ويمكن سقى أراضى كل واحة بطريقة من الطرق المستعملة للرى أو يكون بها على الأقل ماء لأنه يستحيل الأنبات مع وجود الجفاف التام اذا لم تسق أو لم يكن بها ماء كما أنه يستحيل على النخيل أن يثمر كما يستحيل على كل نبات اخر أن ينمو وأرض هذه الواحات ليست ألا جزءا صغيراً من مجموع الصحراء العظيم فهى كالجزر الخضراء تارة تكون على امتداد طويل وتارة تكون مجتمعة مع بعضها كالارخبيل المنثورة جزائره فى المحيط ويقول العارفون أن مسطح الواحات مجتمعة لا يزيد على ٢٠٠،٠٠٠ من الكيلومترات المربعة ألا أن هذه الواحات الصغيرة المسطح والموزعة بغير انتظام والتى يقتصر عليها عمل السكان بالصحراء والتى هى أفقر جهات الأرض بها مع ذلك قوة انبات وعناصر ثروة زراعية لا مثيل لها فى جهة أخرى وفى مسطح مساو لمسطحها بالنسبة لخصوبة الأراضى فى البلاد التى تساعدها طبيعتها ومناخها على الأنبات

والفضل فى كل ذلك عائد ألى النخيل ومع ذلك فكل الواحات ليست متساوية فى هذا الأمر فالأختلاف بينها كبير فى نوع حاصلاتها وكثرتها بحسب أنواع النخيل الذى يزرع فيها وبحسب الأحوال الطبيعية لمناخها وأرضها وريها ونفاسة النخيل ليست لثمره الذى يكون غذاء لسكان الواحات ولهم فيه تجارة مهمة فقط بل أن كل جزء من أجزائه نفيس فجزعه يستعمل فى بناء الدور كما يكون عمداً وأساطين ومنه تؤخذ ألواح الأبواب والشبابيك وبه تطوى الآبار ويقوم مقام أخشاب النجارة ومن جريده تبنى الأخصاص وتصنع السياجات والعدى والأسفاط وبعض النعال ويكون وقوداً ومن ليفه تصنع أحبال متينة ومن عصارته الغزيرة يستخرجون مشروباً حلواً يكون مسكراً شديداً بعد تخميره أما بقية المزروعات هناك فأشهرها الشعير والحنطة والذرة والدخن والجزر والبنجر والبصل والثوم والقاوون والخيار والبطيخ والباميا والباذنجان والبقلة الحمقاء (الرجلة) والبسلة والفول والفاصوليا والكمون والفلفل الأحمر والكزبرة ومن أشجارها المثمرة التين واللوز والمشمش والرمان والكرم والخوخ والبرقوق والتفاح والليمون والبرتقال والزيتون والبرسيم والتبغ والقنب والحناء والقطن

الحيوانات ـ الحيوانات بالصحراء الكبرى قليلة كالنباتات لا بل هى أقل منها من حيث التخصيص والتعيين لأن خاصية الأنتقال فى الحيوانات تسمح لها بمجاوزة حدود مناطقها ومع ذلك فليس بين حيواناتها وحيوانات

السودان مشابهة ماوهى بأنواعها موافقة لاحتياجات سكانهاوالحياةالحيوانية بها قاصرة كلها تقريباً على الواحات ويظهر أن الأسد لاوجودله بجبال هكار بل الموجود بها أنواع من الذئاب والضباع وتكثرالغزلان بالنجودوالسهول التى حول السلسلة المذكورة وفوق هضبة تسيلى أزقر حمر وحشية وتكثر الأسود بواحة أهير حتى ترى مجتمعة مع بعضها وليس لأسودهالبد والنمر وأن كان بها أقل من الأسد وجوداً ألاأن الأهالى يهابونه جداً والضبع بها نادر للغاية أما الحلايف وبنات آوى والقرود فأنها كثيرة فى الغابات وفوق الأشجار وغزلانها كثيرة الأنواع بعضها أصله من الصحراء الشمالية وبعضهامن السودان وهى تسرح وتمرح فى السهول وفى مضايق أهير والحيوانات البرية قليلة فى تيبستى فليس بها ألا الضباع وبنات آوى والفَنَك أو ثعلب الرمال والغزلان والقرود وقد أصبحت النعامة نادرة جداً بالصحراء ألا فى جهات أدرار تامارهى والحمر الوحشية أوالأراقط وتعيش الطيور بالصحراء على شواطىء المستنقعات وفى القيعان الشجراء ألا أنها نادرة وأنواعها قليلة وربما سار السائح فى بعض جهاتها أسبوعا فلا يصادف طيراً واحداً أما الزواحف فكثيرة بكل جهاتها وكذلك السمك بسواحلها الغربية لذلك يتردد عليهاصيادوجزائر قنارياووفرةالسمك هناك وعلى الخصوص بعض أنواعه هى السبب فى اقامة مبان مهمة للصيد على صخرة أرجين ويظن بعضهم أن حيوانات بحيراتها الملحة تشبه التى منهابالصحراءالجزائرية لأنهم وجدوافى بحيراتها

الملحة سمكا وحيوانات مائية من ذوات القشر

أما الحيوانات الداجنة فمنها الثيران وهى صغيرة القد نحيفة الجسم والخيل والحمير والضأن والمعز وأنواعهما كثيرة وبعضها طويل الشعر وبعضها قصيره والكلاب والجمال ولم يكن الجمل يوجد بها فى أول التاريخ الميلادى ويظهر أنه أتى أليها من بلاد العرب عن طريق مصر ويستعملونه فى الحمل والركوب ونقل المتاجر والمسافرين ولبعض القوافل خصوصاً فى الصحراء الغربية جمال كثيرة جداً يأكلون ألبانها ولحمها ويصنعون من أوبارها خياماً وملابس ومن جلودها نعالا وغيرها وهناك نوع من الجمال سريعة العدو جداً تعرف بالمهارى وتمتاز بارتفاع جسمها ودقة ولطافة ساقها وعنقها وسرعة عدوها وصبرها على الجوع والعطش صبراً عجيباً فبينما الجمل العادى يقطع فى الساعة الواحدة من ثلاثة كيلومترات ألى أربعة عادة أو يقطع فى اليوم الواحد من ٢٥ ألى ٢٦ كيلومتراً على الأكثر تقطع المهارى فى الزمن المذكور أكثر من ذلك باربع مرات أو خمس حتى ذكر بعضهم أن واحداً منها قطع فى يومين نحو ثلاثمائة كيلومتر وهى تصبر على الجوع والعطش حتى سبعة أيام صيفاً فى السفر أما فى الشتاء فأنها تبقى فى المرعى نحو شهرين ولا تشرب فيهما مرة واحدة لذلك كانت المهارى أفضل حيوانات الركوب لدى التوارك أذ بها يمكنهم الأغارة فجأة على فريستهم كما تمكنهم من الهرب سريعاً ولدى سكان تيبستى جمال سريعة العدو أيضاً لكنها تختلف عن المهارى قليلا وهى تتحمل التعب وتتسلق

الصخور جيداً بحيث يستحيل على جمال الشمال أن تقتفى أثرها

سكانها ـ سكان الصحراء النازلون فى أرجائها الواسعة بين متوطنين ورحل ترجع أصولهم وأنسابهم جميعهم أما مباشرة أو بواسطة ألى مجتمعات متميزة أشهرهم ما يأتى

التوارك ـ ويعرفون أيضاً باسم إعوهاج أو إعوشاك وهم يشغلون نحو نصف الصحراء لا يشاركهم فيه غيرهم أى أنهم ينزلون فى كل المنطقة الوسطى الواقعة بين بلاد الجزائر وتونس جنوبا والحدود الشمالية من بلاد السودان الوسطى وينقسمون ألى توارك شماليين (أو أزقِر وهكار) وألى توارك جنوبيين (والمنيدن ـ أولِمِّدن) والأولون منهم نحو ٣٠٫٠٠٠ نفس والأخيرون نحو ٤٥٫٠٠٠ نفس وكل قبائلهم متحدة فيما بينهم وقد مضى عليهم الآف من السنين وهم بالصحراء الوسطى المذكورة ويشتغل الأشراف أى الأعيان منهم على الدوام بشن الغارات وغزو القبائل المجاورة لهم ويعيشون من الحرب والنهب والغنائم أما الزراعة وغيرها من الأعمال فيقوم بها العبيد والخدم وللأشراف دون غيرهم الحقوق السياسية فى القبائل وتختلف عوائد أخلاق توارك الجنوب عما يماثلها لدى توارك الشمال قليلا ويسكن توارك الجنوب فى خيام من الأدم أو من نباتات بعد أن يجعلونها كالحصر وينقسمون أيضاً ألى أشراف وسوقة أو مستعبدين والحرب لا تكاد تنقطع بينهم وبين جيرانهم

التبّو ـ وأهم مراكزهم بلاد تيبستى ومنازلهم ألى شرقى التوارك فى قسم

عظيم من الصحراء الشرقية وطريق القوافل بين مرزوق وبحيرة شاد المار بواحة كوّار هو الحد الفاصل بين التوارك والتبو الا أن هذا الحد يتغير بطبيعة الحال عقب الأغارات التي يقوم بها كل من الطرفين ويقدرون مسطح أراضي التبو بنحو ٥٠٠٫٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وربما كانت تشمل سابقا واحات كفره شمالا ويظهر أن التبو متناسلون من قبائل سودانية وعلى كل حال فأن دماءهم أقل اختلاطا من غيرهم وكل سكان تيبستي من جنس واحد فليس بينهم أحد من أصل عربي أو بربري وهم قليلو العدد مع أنهم من أشهر الأجناس في أفريقية بسبب اتساع بلادهم قال الدكتور نختيجال أنهم لا يزيدون عن ٢٨٫٠٠٠ نفس (منهم ١٢٫٠٠٠ فى كل بلاد تيبستي) ومعيشة التبو حقيرة لأنهم فى بلاد ليس فيها شيء من وسائل الحياة تقريبا ولكل واد أمراء والأمير عندهم يقال له دَرْدَاى ويتلوه فى الدرجة أعيان الأهالى ثم بقية الأهالى وسلطة الأعيان والأشراف منهم محدودة جداً لأن العرف هو الحاكم هناك فليس لهم الا أصدار الحكم فى النوازل كأنهم قضاة ولهم حق النظر فى أمر الصلح والحرب وكلما أشاروا به ينفذ على العموم

المغاربة ـ (هو أسم عام يدخل تحته جميع القبائل المختلطة الأنساب من بربر وعرب وسود) ومنازلهم غربى التوارك بكل بلاد الصحراء الغربية حتى سواحل المحيط والشاطىء الأيمن من نهر سنيغال ومن الصعب جدا معرفة أنساب القبائل العديدة التى بالصحراء الغربية وألى أى الجنسين

تنسب ألليربر أو للعرب ومع ذلك فالظاهر أنهم من أصل بربرى وأن كانوا يتكلمون العربية التى قامت لديهم مقام لهجتهم الأصلية وقدسمى الفاتحون من العرب كثيراً من القبائل هناك باسماء أمرائهم ورؤسائهم أى رؤساء وأمراء العرب مع أن عددهم كان هو الأقل فى تلك القبائل ويضاف ألى ذلك أن بعض القبائل البربرية اتخذله شجرة أنساب تصعد به ألى جدود أصلهم من بلاد العرب ولذلك لم تكن الاسماء ولا اللغة ولا التقاليد كلها كافية للتمييز والجزم بما اذا كانت هذه القبيلة أو تلك بربرية أو عربية الأصل وربما أمكن فى بعض الأحيان الرجوع ألى الصفات الطبيعية ولكنها هى أيضاً قد زالت كثيراً لاختلاط وامتزاج دمائهم بالدماء السودانية بحيث صارت لا يمكن الاعتماد عليها والقبائل فى القسم الشمالى من الصحراء الغربية كلهم رحل على العموم أما فى القسم الجنوبى فكلهم متوطنون وأقوى هذه القبائل وأشهرها الرّجيبات وأولاد بُوسبَا وأولاد دِلِيم وكلهم بالشمال والمغاربة (طرارزه وبراكنه ودَوَايِش) كلهم فى الجنوب وعلى الشاطىء الأيمن من نهر سنيغال

ولما كانت هذه الأمم ذات ارتباط بالمشرق والمشارقة من حيث التاريخ والعادات والأخلاق والدين والجغرافيا رأينا من الموافق ذكرها بتفصيل أوفى وعبارة أوسع فنقول

التوارك

التوارك أقوام من البربر ينزلون الجهات الوسطى من الصحراء الغربية على الخصوص فهم الآن على ذلك فى منطقة نفوذ فرنسا وقد أخذ أهل أوربا اسمهم عن العرب الذين سموهم بالتوارك والتوارك يكرهون تسميتهم بهذا الأسم وهم ينقسمون الى أربعة أقسام سياسية كبرى كل منها يقيم فى امكنة وأصقاع خاصة به وهى

(١) قبائل أَزْقِر أو أزجر المتحالفة وتسمى أيضاً كِيل أزقر وهى بالشمال الشرقى وموطنهم نجد تَسِّيلي الشمالى وما يتبعه من الأراضى

(٢) قبائل هُكار المتحالفة أو وكيل هكار وهى بالشمال الغربى فيما يعرف بهضبة هكار

(٣) قبائل أهير المتحالفة أو كيل أهير ويقال لها أيضاً كيل أُوِى أو كِيلوى بالجنوب الشرقى من هضبة أهير أو أسبين

(٤) قبائل أَوْلِمِّيدِن المتحالفة بالجنوب الغربى وبعض بلادها جبلى هو بلاد أدرار وبعضه سهل هو بلاد أَهَاواج

فقبائل أزقر وهكار هم توارك الشمال وتوارك أهير وأَوْلِمِّيدِن هم توارك الجنوب وقد اتخذ توارك كل قسم من هذه الأقسام الأربعة له مركزاً لحياته السياسية هى هضبة جبلية منفردة تكون له ملجأ استقلال وعش حرية

وبهضبتين من الهضاب المذكورة وهما النازلة بهما توارك الشمال أرفع القمم التى بالنجد المتوسط من الصحراء كما بهما خط تقسيم الماء بين حوض البحر المتوسط الأبيض وحوض المحيط الأطلسى والهضبتان الأخريان تابعتان لحوض نهر النيجر وبين الهضاب الأربع المذكورة سهول واسعة وصحارى قاحلة بعضها رملى وبعضها صخرى وبعضها طباشيرى وبعضها أراضيه مكونة من رواسب أتت أليه من حوض السبخات المالحة وأذا أردنا تعيين موطن خاص موروث لكل مجتمع من المجتمعات الأربع المذكورة بالهضبة النازلة بها لصعب علينا تعيين مبدأ ذلك الموطن ونهايته كما يصعب أن نعين بالضبط الحدود التى تفصله عما يجاوره من بلاد القبائل التى ليست من التوارك والحق الذى يكون لأول محتل وهو الشيء الوحيد الذى يعتمد عليه فى مثل هذه السباسب والأصقاع الواسعة لا تكون له قيمة حقيقية ألا أذا كانت تؤيده قوة كافية لجعله محترما ومع ذلك فمن الممكن تعيين حدود عمومية لما تنزله المجتمعات التاركية الأربع المذكورة من الأراضى أذا قطعنا النظر عن التغيرات والحوادث العارضية التى تحصل من الأغارات والحدود المذكورة هى الآتية (١) بالشمال خط مستقيم يبتدىء من الحماد الأحمر ببلاد طرابلس ذاهبا نحو غدامس ـ (٢) خط مستقيم أيضاً من غدامس وينتهى ألى الحد الشمالى من بلاد توات ـ (٣) بالغرب الحدود الشرقية والجنوبية من نجد تادمينت وطريق القوافل الذاهب ألى تنبكتو ـ أما فى الجنوب

فخط من تنبكتو ممتد ألى شمال زندر وفى الشرق خط مواز للطريق الذى بين كوكا ومرزوق أولا ثم الطريق الذى بين مرزوق ومدينة طرابلس حيث ابتدأنا ويفصل الحد الشمالى توارك الشمال عن قبائل بلاد الجزائر ويفصل الحد الغربى أولا هكار عن واحات توات كما يفصل القبائل الرحالة التابعة للواحة المذكورة ثم يفصل ثانياً الصحارى الواسعة التى بين هكار واوليمدن القبائل الرحالة بين عربية وبربرية النازلة على سواحل المحيط الاطلسى عن بعضها ومع وجود تلك الصحارى الخالية المخيفة التى تفصل هذه القبائل المتعادية عن بعضها فأنها تتلاق أحيانا مع بعضها للقتال أما الحد الجنوبى فهو الذى كان يفصل قديما توارك الجنوب عن دولة سنغاى (١)

(١) السنغاى أو السنجاى أمة من السودان الغربى تنزل الآن على شاطىء نهر النيجر الأوسط من تنبكتو حتى نهر سكتو وكانت لهم فيما سبق دولة قوية والمعلومات عن أصلهم قليلة جداً ويعلم من التاريخ أنهم أتوا من بلاد اليمن فى نحو القرن السابع من الميلاد وينتسبون ألى رجل يسمى (زا) أو (ظا) وأسسوا مملكة عظمت بسرعة ثم أسلموا فى نحو سنة ١٠٠٩ من الميلاد وكانت لهم تجارة مع بلاد المغرب ومصر وبقوا على استقلالهم حتى سنة ١٣١١ من الميلاد وفيها أغار على بلادهم ملك بلاد مالى من ممالك السودان وأدخلهم تحت طاعته ثم قامت لهم دولة ثانية من ملوكها الملك سنى على وقد طار ذكره وعظمت شهرته حتى أن حنا الثانى ملك البرتقال أرسل له سفارة ثم استولى أحد سلاطين مراكش على هذه البلاد ثم استولى عليها الفلاته فأزالوها وتفرق السنجاى بكل بلاد السودان الوسطى

القديمة ولما كانت قبائل أولميدن استولت من عدة سنوات مضت على شاطىء نهر النيجر من قبائل الفلاته حيث كانت تنزل قبائل سنغاى القديمة وجب أن يكون الحد الجنوبى ألى الجنوب أ كثر مما كان ويفصل الحد الشرقى توارك أهير عن أمة التبو كما يفصل جهات أزقر عن فزان وينزل الأزقر بهذا القسم الأخير فى أراض تابعة للحكومة العثمانية ولكنهم لايعترفون بسيادتها عليهم اعترافا فعليا ومجموع أراضى الأقسام الأربعة التاركية تحدث بهذه الحدود بين أفريقيه الشمالية وأفريقيه الوسطى مربعا جسيما تقسمه دائرة السرطان ألى قسمين متساويين تقريبا ويعرف لدى الجغرافيين بأسم نجد الصحراء الأوسط ويسمى التوارك بلادهم عموما أجما ومعناه الصحراء ويقولون أن أماكن تمساو الواقعة على وادى ترهيت وأسيو وأن جزام على وادى تافساست هى التى تفصل توارك الشمال عن توارك الجنوب وأن مسيلى الماء الكبيرين اللذين ببلادهم وهما أغرغر ووادى تافساست الأول فى الشمال والثانى فى الجنوب يعتبرهما عموم التوارك كخطين فاصلين بين المجتمعين المتحدين الشرقى والغربى ولما كان وصف بلاد التوارك هو أعادة لوصف معظم بلاد الصحراء الغربية والوسطى التى تقدم الكلام عليهما بما فيه الكفاية اقتصرنا هنا فقط على بيان أحوال وأصول كل من المجتمعين الكبيرين المذكورين فنقول

أن الأقوال والروايات التى لدينا على عدد التوارك كلها تقريبية مبهمة

ويقول السياحون القائل الذين جابوا بلادهم أن عدد قبائل المجتمعات الأربع نحو ٢٠٠٫٠٠٠ نفس تقريبا ويقول بَرت أن عدد توارك الجنوب الذين فى الحماد الأسود وعلى النيجر وحدود برنو نحو ١٢٠٫٠٠٠ نفس

توارك الشمال ـ قلنا فيما سبق أن توارك الشمال ينقسمون ألى قسمين كبيرين هما أزقر شرقا وهكار غربا وينقسم كل من هذين القسمين ألى قبائل بعضهم أشراف أى أعيان ويعرفون بلقب أَهجَّارن وبعضهم خدم خاضعون للأعيان خضوعا تاما ويعرفون بأسم أِمرَاد أو أِمجَاد ومنهم من هم لا من أولئك ولا من هؤلاء ويعيشون فى نفوذ قبيلة من قبائل الأعيان ويدفعون لها أتاوة ومن التوارك قبائل المرابطين وعملهم تدبير الأمور والشؤون ومصالحة القبائل وتعليمهم أمر دينهم وهى وظيفة مهمة فى جمعية مثل التوارك ليست خاضعة لنوع ما من الحكومات النظامية ولكنها بقوة التماسك التى فيما بينها تمر عليها القرون لا يطرأ عليها تغييرات مهمة مع انتقالها الكثير من مكان ألى آخر ومع حروبها الداخلية ودفاعها عن استقلالها وليس فى بلاد هكار ألا أعيان وعبيد ومن يسكن القرى منهم فى بلاد توات لا يعتبرهم التوارك قسما من مجتمعهم وكان توارك هكار قديما قبيلة واحدة هى قبيلة كيل أَهَاِمَّن وهى تنقسم ألى أفخاذ عديدة ثم أن ازدياد أفرادها اضطرها للتفرق فى أماكن واسعة لتتمكن من الحصول على معيشة حيوانتها وربما كانت العداوة بين العائلات وبعضها هى التى سببت تقسيم القبيلة الأصلية المذكورة ألى قبائل مستقلة بلغت أربع عشرة قبيلة بدل قبيلة

واحدة أشهرهم قبيلة تسمى أُوزَاغِن وهى ذات شهرة فى تاريخهم ويقول ابن خلدون أنها متصلة النسب فى البربر بقبيلة أُوريغا وربما كان لفظ أفريكانى أو أفرى الذى يطلق على أمة كانت تسكن أرض قرطاجنه فى الأزمنة الغابرة آت من لفظ أوريغا المذكور ثم أخذ الرومان هذا الأسم (أوريغا) وأطلقوه أولا على الأقليم الذى افتتحوه ثم توسع الناس فيه فيما بعد فأطلقوه على القارة بأجمعها وذكر البكرى قبائل أوريغا فى عصور التاريخ التى سبقت الفتح العربى الذى وقع سنة ١٠٤٥ من الميلاد ويقول أيضاً أن لهم بقايا فى قابس وضواحى برقه ولما التجأت قبائلهم ألى الصحراء حافظوا بها على ما كان لهم من الرفعة التقليدية القديمة وبأسمهم تسمت أحدى اللهجات الأكثر انتشارا بين التوارك وكان يحكم كل قبائل أزقر وهكار من نحو قرنين مضيا قبيلة جمعت ألى شرف الأصل الشرف الدينى أيضاً لانتسابها ألى البيت النبوى الكريم وهى قبيلة أِمَانَان ويلقب رئيسها بلقب أِمَانُوكَالْ وهو لفظ بربرى معناه سلطان وحصل أن قام رعاياها عليها وبعد حرب انهزم الأمانان وكان يساعد الثوار قبائل أوراغن ومن ذلك الوقت صار للأوراغن اعتبار ونفوذ وكون الأزقر والهكار أمارتين متحالفتين يحكمهما شيوخ وراثيون يعرف الواحد منهم بلقب أمنجار ومعناه شيخ وأصبح الآن لكل أمجار أمارة من الأمارتين ما كان للأمانوكال القديم من السلطان ونفوذ هؤلاء الشيوخ لا يحدده عهد ولا تقليد أصلا فهو يختلف بحسب النفوذ أو الثقة التى ينالها

كل أحجار ومع ذلك فأنهم يراعون بقدر الأمكان ما ورد فى الكتب الشرعية الأسلامية ما للسلطان من النفوذ

الأزقر ـ يظهر أن قبائل أزقر أو أزجر يشغلون الدرجة الأولى فى ترتيب مجتمعات التوارك لا لكثرة عددهم لأنهم من أصغر القبائل عدداً ولا لثروتهم لأنهم من أقل القبائل ثروة ولكن أوليتهم للحضارة التى بانوها ولما هم عليه من النظام ولما حازوه من الشهرة فى الخارج ولما لهم من النفوذ الشرعى على بقية المجتمعات ولنصيبهم فى التجارة بين الصحراء وأفريقيه الوسطى واعلم أن أهل أوربا لم يتمكنوا من الدخول والوصول ألى أفريقيه الوسطى واكتشافها ألا من بلاد هؤلاء الأزقر وبمساعدة شيوخهم والطرق التجارية المارة ببلادهم هى آمن الطرق وأكثرها تردداً وبنفوذهم أيضاً أصبحت غدامس ثغراً للتجارة وأضحت غات سوقا لها فوصلتا ألى درجة من الفلاح يحسدهما عليه بقية المدن التجارية بالصحراء ثم أنه بواسطة الأزقر لا غيرهم أمكن لأوربا والممالك التى بشمال أفريقيه أن تكون فى مواصلة مع بقية التوارك ومع بعض الشعوب السوداء التى بأفريقيه الوسطى وهذه القوة المعنوية هى نتيجة الرجحان السياسى الذى نالته أوراغن فى القرنين الأخيرين على الأقل وللنفوذ الدينى الذى لطائفة المرابطين منهم المعروفين بأسم ايفوغاً على كل القبائل التى تنزل بجوارهم ثم أن مجاورة الأزقر لأمم غير رحالة فى مرزوق وغات وخصوصاً فى غدامس التى هى من أقدم مراكز

الحضارة فى الصحراء قد ساعد كثيراً على جعل الأزقر يتصفون بصفة غالبة عليهم هى تسهيل المواصلات على الغير ومما يجب التنبيه أليه ميل الأزقر ألى اتخاذمساكن ثابتة ولذلك لم يكن بين توارك فزان رحل أصلا وهم فى معيشتهم كأهل الواحات أى أنهم يقيمون فى قرى حولها غابات ونخيل وكان أهالى غات فى القديم رحلا مثل أهالى بلدتى البِرْكة وجانت الواقعتين ألى الجنوب من غات ومما يدل على شدة استقرار التوارك فى الأرض أن لهم فى مدينة غدامس ضاحية ينزلونها خلاف هذه المدينة وليس ببلاد التوارك على اتساعها ألازاوية واحدة للسنوسيين فى بلدة تيمساً نين ببلاد الأزقر ومن الأدلة أيضاًعلى ميل الأزقر الأستقرار فى الأرض أن الرحل منهم يميلون ألى الوجود داخل حدود معينة من الأرض وهو ما لا يكون فى المجتمعات الأخرى وفى قبائل تماثلهم وسبب ذلك ميلهم ألى اتخاذ مزارع والسعى فى توسيع نطاقها

الهكار ـ المشهور عن توارك هكار أنهم بأجمعهم يتصفون بحب الاستقلال وشراسة الأخلاق وسرعة الغضب مما يجعل المواصلة والمخابرة معهم صعبة جداً وليس ذلك مع الغير فقط بل حتى فيما بينهم لهذا نراهم يعدون من الفخر والشرف عدم أمكان المخابرة معهم فى شيء ما أصلا وشراسة الأخلاق التى جعلت الهكار أكثر أهالى الصحراء أخافة هى نتيجة أسباب مادية بقطع النظر عما عليه بلادهم وحالتهم من عدم الألتئام والتشتت وأول الأسباب وأهمها سكناهم فى جبال ممزقة مشتتة قرعاء يدل منظرها على الوحشية التامة

أو فى صحارى قاحلة نباتاتها كلها تقريباً من النباتات الشوكيةومن الأسباب أيضا عدم قدرتهم على المعيشة من حاصلات أرضهم اللهم ألا أذا كان الواحد منهم كالجمل قناعة ثم أهمال القوافل للطرق التجاريه المارة ببلادهم أو قريبا منها لقحولة جبالهم وصحاريهم وغير خاف أن خلق الشخص وطبيعته يخضعان لتأثير الوسط النازل به ذلك الشخص أما بقية قبائل التوارك فهم وأن كانوا من جنس الهكار ألا أنهم ألين عريكة وأسهل أخلاقا لأن بلادهم أقل قحولة وألين معيشة وعلى ذلك يمكن بلا شك تليين طباع الهكاروتسهيل أخلاقهم بأدخال ما يمكن أدخاله فى بلادهم من النباتات وأعادة فتح طرق التجارة المتروكة وتحسين حالتهم المادية ببلادهم

توارك الجنوب ـ تتألف توارك الجنوب من المجتمعات الآتية هى كِلوى وكِيلْ جيرِس وكيل أَوِلِمّيدن وينزل الأولان منهم عند حدود بلاد حوصا وبرنو وبحيرة شاد وينزل الأخيرون عند حدود السودان وسوقهم التجارى هو مدينة تنبكتو وليس للجغرافيين من أهل أوربا كبير علم بأحوال توارك الجنوب خلاف مساكنهم الجغرافية لأنه لم يكن بينهم وبين أولئك التوارك علاقات ما حتى هذه الأيام والمعروف بالأجمال فقط أن قبائل أَوِلِمّيدن هم أقوى قبائل التوارك وأشجعهم وأميلهم للحرب وهم ينزلون جهات النيجر الوسطى وتنزل قبائل كلوى وكيل جيرس على الشاطىء الشمالى من بحيرة شاد

قبائل كلوى ـ لا تزال هذه القبائل للآن صاحبة السيادة فى واحة أهير أو أسبين الواسعة وفى الصحراء الجنوبية كذلك وهم فرع من الأوراغن وتعرف لهجتهم بالأوراغنية وكل قبائل مجتمعهم الكبير يسبق أسمها لفظ كيل وليس ذلك لقبيلة أخرى من التوارك ويقول السائح برت أن لفظ كلوى يدل على قبيلة مستقرة فى أرض ويؤيد ذلك أن قبائل كلوى تسكن قرى مؤلفة من أخصاص

قبائل كيل جيرس ـ تنزل هذه القبائل جنوبي بلاد أسبين قال برت «أنهم من البربر وقد اشتهروا بالقوة واللطف والجمال ولونهم أقل سواداً بالنسبة لغيرهم وهم يفتخرون بنقاء دمهم كما يشتهرون بالشجاعة والأقدام وهم وأن كانوا أقل بكثير من جهة العدد عن أصحاب جبال واحة أهير الحاليين ألا أنهم يمتازون عنهم بأنهم بأجمعهم تقريباً يركبون الخيل بينما أعداؤهم يركبون الجمال على الخصوص لأن المحاربين الذين يحاربون وهم على الخيل تكون لهم الحرية والخفة فى حركاتهم أكثر من راكبي الجمال» اه

قبائل أولميِّدن ـ هـذه القبائل أكثر قبائل التوارك عدداً وقوة وهم ينزلون كل الصحراء الجنوبية ألى الغرب من أهير حتى نهر النيجر وهم أصحاب تنبكتو ولم يزر بلادهم للآن أوربى ويقدر العارفون مسطحها بنحو ٢٠٠٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وتعرف بلادهم بأسم أذرار وأذجاج وهى كثيرة الجبال والمراعي والأمطار لوقوعها فى منطقة الأمطار الدورية وتنبت بها

أشجار ونباتات أخرى على مجارى المياه مما يساعد على تربية الجمال والماشية وكثرة السكان وقد أطلق بعضهم على بلادهم لذلك سويسره أفريقية ويظن برت أنهم هم قبائل لَمطة التى يذكرها مؤلفو العرب كما يظن أيضاً أن لفظ أولِمّيدن فى شكله التماشكى معناه أولاد لمطه وكانوا يسكنون قديماً فى جوار أولاد دليم وهم قبيلة من البربر ثم استولوا فيما بعد على مملكة سُنغاى والكثيرون منهم يشبهون الحوصا فى هيئة وجوههم وقد أدخلوا فى لغتهم كثيراً من الألفاظ والتعبيرات السودانية أما من حيث الدين فأنهم ليسوا بمتغالين فيه فهم أقل غيرة عليه وعملا به عن سواهم فهم لا يصومون ولا يصلون وليس لهم جوامع ولا مدارس ولهم فى تنبكتو شيخ يلقب عندهم بلقب بَكّاى يحملون أليه نذورهم وهداياهم وهو الذى يرشدهم ألى أمور دينهم وهم يسكنون خياماً من الأدم أو القش وينقسمون ألى أعيان وسوقه مستعبدين ويحتقرون الزراعة ويشنون الغارة على من يجاورهم من القبائل وليس ببلادهم الآن ما يستحق أن يطلق عليه أسم مدينة

صورة التوارك الأصلية الطبيعية ـ أن التوارك فى القبائل العالية النسب وهم الذين لم تختلط دماؤهم بدم سودانى أصلا صورتهم أنقى وأخلص صورة فى جنس البربر الذين هم من أسرة الأمم البيضاء كما تقدم (راجع الكلام على البربر) وهم على العموم طوال الأجسام نحفاء البنية عصبيون كالعرب حتى قال عنهم السائح دوفريه أن عضلاتهم يشبه أن يكون لها زنبركات

من فولاذ وبشرتهم بيضاء فى طفولتهم ألا أن الشمس تصير لونهم فيما بعد برنزيا مثل لون سكان الجهات المدارية وصورتهم قفقاسية الأصل فوجوههم بيضوية مستطيلة عند البعض وجباههم عريضة وعيونهم سوداء وأنوفهم صغيرة وخدودهم بارزة وأفامهم متوسطة السعة وشفاهم دقيقة وأسنانهم بيضاء جميلة ألا من استعمل منهم النطرون ولحاهم سوداء قليلة الشعر وشعورهم منسدلة سوداء وربما وجد منهم من عيونه زرقاء وأعضاؤهم العليا والسفلى طويلة وأيديهم صغيرة قوية متناسبة وأرجلهم جميلة كذلك لو لا أن أبهامهم بارز غير مقبول الشكل وربما كان ذلك نتيجة أو سبب ما يستعملونه من الأحذية والرجال على العموم أقوياء أشداء يتحملون المتاعب مع الصبر عليها وأن كان متوسط كمية غذائهم أقل بكثير من متوسط غذاء الاوربى وليس بينهم شخص هزيل أو مصاب بالكساح ومناخ بلادهم يساعد جدا على أصلاح ما فسد تركيبه من أجسامهم ونساؤهم طوال القامة أيضاً وتلوح عليهن دلائل من الكبرياء والعظمة وهن على العموم جميلات جمالا غير مجلوب وهيئتهن تقربهن كثيراً من النساء الأوربيات أكثر مما تقربهن من العربيات ومن الصفات الطبيعية التى يعرف بها التاركى من بين ألف مشيته الوقورة البطيئة المهتزة معسعة فى الخطا وارتفاع فى الرأس مما يجعله يشبه النعامة أو الجمل ولكن ذلك آت أليهم على الخصوص من حمل الرماح كما يقول دوفريه أما لون بشرة عبيدهم فأنها أشد دكانة وربما كانت سوداء تماما ويظهر أن

السبب فى ذلك اختلاط دمائهم بدماء سوداء

أسمهم ـ يظهر أن لفظ توارك ليس بقديم جدا وهو لفظ عربى قال فى صفوة الأعتبار « واسم التوارك أطلقه عليهم العرب وهو بمعنى التاركين لتركهم الحق فى الصدر الأول » اه وعن العرب أخذه الأوربيون ويكره التوارك تسميتهم بهذا الأسم وكان التوارك فى زمن كل من ليون الأفريقى وابن خلدون ينزلون فى بلادهم الحالية من غير شك ويذكرهم المؤلفان المذكوران باسم تارجا ألا أن البكرى واليعقوبى لم يذكرا التارجا ألا فى داخل بلاد المغرب (مراكش الحالية) وفى بلاد سجلماسة بالصحراء المراكشية أما لفظ توارك فلا وجود له بين الاسماء التى ذكرها ابن خلدون عند ذكر قبائل البربر وأفخاذهم العديدة ولا يطلق التوارك هذا الاسم عليهم أصلا فهم يسمون أنفسهم أيموشاغ أو أيموشاك كما سبق وهو بمعنى مستقلين أو أشراف كما يقول صاحب صفوة الأعتبار

وهذا الأسم الأخير لا يطلق فقط على التوارك الذين هم فرع من البربر بل يطلق أيضاً على الجنس بأجمعه ويقول مؤرخو البربر أن أب هذه القبائل جميعها أسمه أمازيغ أو مازيغ ومعنى ذلك الرجل الحر أما مؤلفو الأغريق والرومان فأنهم ذكروا هـذا اللفظ غالبا فى أطلاقاته الخصوصية من غير تعريف معناه العام ويسميهم هيرودتس بأسم مكسى (Maxyes) روى بعضهم

أن عمرو بن العاص لما افتتح الأسكندريه أتته رسل من البربر فسألهم من أى الأمم أنتم فقالوا نحن أولاد مازيغ ثم أن مرور الأزمنة والفتوحات الأجنبية وخصوصاً تجزئة تلك الأمة ألى قبائل بحيث لم تعد تؤلف جسما سياسياً واحداً منذ قرون كل ذلك أزال من ذاكرة تلك القبائل المشتتة لفظ أمازيغ فلم يعد يعرف ألا لدى التوارك ومع ذلك فأنهم نسوا أصله ألا شلوح أو بربر بلاد مراكش فأنهم قد حفظوا أثره فى كلمة تمازغت التى لا يزالون يطلقونها على لهجتهم الملية التى هى أخت لهجة التوارك المسماة تماشك وقد استمر التوارك دون بقية قبائل البربر على استعمال حروف هجائية يسمونها تفيناغ (انظر الكلام على البربر) ويقول العلماء أن هذه الحروف شكل قديم للحروف الأبجدية القرطاجنية أو الفينيقية وهى قريبة الشبه من الأبجدية المستعملة فى الكتابات الحميرية التى فى الجنوب من جزيرة العرب

حالتهم الاجتماعية ـ دينهم ومعيشتهم وأخلاقهم ـ اعلم أن البربر كانوا قد تنصروا مدة الرومان ولا تزال آثار ذلك ظاهرة للآن فى كثير من العوائد المنزلية التى اعتادها التوارك وهم يطلقون على المولى سبحانه وتعالى لفظ ميسى ثم أنهم أسلموا بعد الفتح العربى فى القرن السابع من الميلاد وهم فى أسلامهم مثل كثير من القبائل الرحالة التى بالصحراء الكبرى أى أنهم ليسوا بمتشددين فى دينهم فأنهم لا يصلون ولا يصومون ولا يتوضؤون ألا فى القليل ولا يسيلون الدماء من ذبائحهم وفى الأعياد الأ . لامية لا يصلون بل

يلعبون ويلهون ويتصارعون وليس عندهم من الأسلام ألا اسمه قال السائح رولفس« أنه لا يمكن أن يطلق عليهم أسم أسلام ولقد ساعد تهاونهم فى دينهم والخوف الذى أوجدوه منهم لدى العرب على المبالغة من غير شك فى تسوىء شهرتهم وتقبيح سمعتهم ويذكر سكان الخيام من بلاد التل التوارك بما كان أهل أوربا يذكرون به الترك فيما سبق» اه وحكومة التوارك على العموم فردية فكل قبيلة لا تعترف ألا بسلطة شيوخها ويحمل التاركى رمحا وسيفا هما أهم سلاحه ويحمل معهما سكينا طويلا يثبته مع غمده فى ساعده الأيسر ويحمل أيضاً درقة مصنوعة من جلد الفيل أما البندقية فقد أخذ استعمالها ينتشر الآن ويتزايد من يوم ألى يوم

ولون التوارك الخلص فاتح نوعاً فى بعض الأصقاع وكثيرون منهم يشبهون فى بياض اللون أهل كلابريا وفلاحى الجنوب من أسبانيا وعيونهم كبيرة حادة مثل سكان الجنوب من أوربا ومنهم من شعره فاتح اللون وعيونه زرقاء (راجع الكلام على البربر) ولكن عيون أغلبهم هى عيون أهل الجنوب من أوربا وهم يعفون شواربهم ويجعلون فى وسط رؤوسهم خصلة شعر (شوشه) يتركونها تطول كما يفعل أهل الصين ثم يجد لونها ويحلقون دائر رؤوسهم وحلق الرأس واتخاذ الضفيرة يختلفان باختلاف القبائل فهى علامة تميزهم عن بعضهم وذكر هيرودتس هذه العادة لدى الكثير من القبائل النازلين حول سُرت ولباسهم قميص طويل واسع جدا

وعريض كذلك يكون أبيض عند البعض وأسود عند أغلبهم وهو السبب في قسمة التوارك ألى توارك سود وتوارك بيض ويلبسون تحت ذلك القميص أو الجبة كما يقولون سروالا عريضا يثبتونه في خاصرتهم ويلبسون منطقة من الصوف ويضعون فوق رؤوسهم عمارة عالية تسمى شاشيه يثبتونها بقطعة من القماش يديرونها حول رأسهم كالعمامة ثم يرخون أحد طرفيها ويجعلونه على وجوههم بحيث لا تظهر ألا أعينهم وهو اللثام أما مشايخهم فأنهم يفرغون فوق تلك الملابس برنسا كما يفعل العرب وغذاؤهم في العادة اللبن ولحم الضأن والجمال وصوف ضأنهم قصير جدا وألياها جسيمة وتنحصر ثروة بعض القبائل في قطعانها يزيد على ذلك عند البعض الآخر ما يأخذونه من القوافل التي يتكفلون بحراستها وكثيرا ما يغيرون على القبائل النازلة في حدود الصحراء أو على القوافل التي تظن في نفسها قدرة على عدم دفع الاموال التي تدفعها القوافل عادة في مرورها وقد صيرت هذه الأعمال التلصصية التوارك مخوفين ومكروهين جدا لدى تجار العرب ولدى البربر النازلين في صحرآء بلاد الجزائر

قال بعض أهل توات لم أر شيئا طيبا لدى التوارك ألا جمالهم وجمالهم وهم شجعان صبورون فلا تركن أليهم وأذا أضافك واحد منهم فلا خوف عليك منه ما دمت في خيمته وحتى متى تركته وسافرت ولكنه يخبر أصحابه بك فيقتلونك ويقتسمون أسلابك ولكن الظاهر على هذا القول

المبالغة لكراهة الناس للتوارك الذين أصبحوا لصوص الصحراء منذ أن أخرجوا قديماً من ديارهم الموروثة لهم فصار لهم من ذلك الوقت بعض الحق في اعتبار أنفسهم كأنهم فى حالة حرب طبيعى مع الذين أخرجوهم هذا وللتوارك نصيب فى المبادلات التجارية لأنهم يذهبون فى بعض أيام السنة قوافل ألى واحات توات وغوراره وغات وغدامس وورقله وغيرها لمبادلة حاصلات قطعانهم بحنطة وتمر وسلاح وغيرها مما يستعملونه فى حاجاتهم ولكل قبيلة سوق تتردد عليه فى البيع والشراء فلا تغيره فى العادة وقد اختلفت روايات السياحين عن أخلاق البربر على العموم والتوارك على الخصوص فبعضهم وصفهم بالأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة كما رواه عنهم ابن خلدون وبعضهم وصفهم بما يخالف ذلك بالمرة كما قاله عنهم ياقوت فى معجمه ولقبائلهم عادات مستغربة فى الزواج فيكون للرحل فى قبيلة كلوى زوجة شرعية واحدة وله أن يتزوج منهن ما يشاء فله امرأة فى كثير من القرى يتردد عليهن قال فى صفوة الاعتبار ومن عادتهم أن لا يتزوج الرجل ألا امرأة واحدة شرعية وله غيرها» اه ومهر الزوجة عادة ثلاثة جمال أو أربعة

قالوا أن لنساء التوارك حرية واسعة النطاق وأنها ليست قاصرة على التوارك بل شاهدها الكثير من السياحين الحديثين لدى عدة من الأمم والقبائل البربرية التي بالصحراء الغربية وعند برابرة النيل وبجا النوبة وقبائل الأطلس من بلاد الجزائر وشلوح بلاد مراكش وذكر هيرودتس للقبائل النازلة

حول خليجى سرت من الصفات والعوائد ما ينطبق تماماً على عادات التوارك الحالية وقد استقى ذلك من أهل قورينه وروى پلينوس الجغرافى اللاتينى عبارة تشمل كل أخلاق البربر قال « ليس للواحد منهم أمرأة خاصة به والأولاد الذين يولدون من هذا الزواج الموكول أمره للصدفة يستلحقهم من كان قريب الشبه منهم فيجعلهم أولاده »اهوهو يريد بهذا القول أمة الجرامنت أى أهل فزان لأن فزان من بلاد البربر قديماً ويقول عن الجرامنت أيضاً أن الجرامنت لا يعرفون ما هو الزواج فالواحد منهم يكون تارة مع امرأة ثم يتركها ويكون مع أخرى اه

ويؤكد بعض العلماء أن هذه العادة وهى عاده كثرة الزوجات والأزواج المتفشية بين البربر نشأت من أن الولد لا يرث أو يخلف والده فى الرياسة بل الذى له ذلك هو ابن بنت ذلك الرئيس يؤيد ذلك قول أحد أهالى غات وكان فى حضرة السائح ريشردسن « كيف يمكن معرفة ما أذا كان ابن السلطان هو ابنه حقيقة أفليس من الممكن أن يكون ابن أحد العبيد ولكن متى كان سلطاننا الشاب مولودا من أخت الشيخ نعلم أذ ذاك أنه من دم السلطان اه

قال فى صفوة الأعتبار « وجميع قبائل البربر ينقسمون ألى أربعة أقسام كبرى وهى توارك هكار وتوارك أزقر فى غات وتوارك كلوى وتوارك والى منيدن فى شرق تمبكتو والقسمان الأولان معروفان لكثرة التجارة معهم

من الجزائر ويدعون أنهم أشراف البربر وهم بيض حسان الخلقة شجعان يحملون الرماح والسيف والمكحلة أى البندقية والسكين ويركبون المجين السريع للغاية مع قوته ويلبسون قيصاأبيض أوأسود وعلى رؤوسهم شواشى طوال ولثام بحيث لا تظهر ألا أعينهم ولهم ملك يحكم مع كبار القبائل وولد أخت الملك هو وريث الملك هكذاقانونهم وحكمهم ليس بقهرى مطلق بل لهم نوع من الحرية ومن عاداتهم أن لا يتزوج الرجل ألا امرأة واحدة شرعية وله غيرها ودياتهم الآن الأسلامية ليسوا بمتغالين فيها كما هى حالة مجاوريهم ولهم غنم أصوافها قصيرة وألياها كبيرة للغاية ولهم معز وأبل لحمل الأثقال وهجائن للركوب ولهم نوع من الخيل من أجود الجياد وفى جزائر الصحراءلهم نخيل كثيروالقبائل الرحالةهم الحارسون للقوافل المارة فى بلادهم بين شواطىء أفريقيه الشمالية والسودان بأجرة مقوننة معروفة اه

وقال ابن بطوطه فى الجزء الثانى من رحلته عند كلامه عن مَسّوفَه وهم من قبائل البربر كما لا يخفى ما يأتى

وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم ألى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل ألا أبناء أخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته فى الدنيا ألا عند كفار بلاد المليبار من الهنود وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات

ومن أراد التزوج منهن تزوج ولكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت أحداهن ذلك لمنعها أهلها والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك اه وقد أورد فى ذلك حكايتين شاهدهما بنفسه

التبو

التبُّو أمة متجانسة الصفات جداً كبيرة الأجسام على العموم متناسبة الأعضاء تميل أجسامهم ألى النحافة وأيديهم وأرجلهم صغيرة جداً وعضلاتهم دقيقة قويه أقوياء الأجسام جداً ويضرب المثل بخفتهم ونشاطهم وهم أقل سواداً عن سودان برنو وأكثر سواداً عن عرب وبربر الصحراء وتقاطيع وجوههم لا تدل فى مجموعها على أنهم من أصل سودانى وأنفهم مستقيمة وربما تكون منحنية وفمهم متوسط السعة وشفاههم متناسبة ووجوههم بيضوية ولحاهم قليلة وشعورهم أطول وأقل تجعداً عن شعور الأمم النازلين حول بحر الروم ونساؤهم ظريفات القد جداً خصوصا فى شبابهن وكن قديما يبعن فى أسواق الرقيق بفزان بأثمان عالية جداً وهن نحيفات عادة وهيأتهن فى الغالب كهيئة الرجال لمشاق معيشتهن وأجسامهن جافة مما يبعدهن كثيراً عن اللطافة ولا يظهر على وجه الرجال والنساء منهم أثر للصراحة

وحرية القول بل يظهر عليه تحرز ومكر ودهاء وملابس التبو بسيطة للغاية ففي الشتاء جلدشاة وفي الصيف قميص واسع من القطن من عمل السودان قاتم اللون عادة ويضعون على وجوههم في السفر لثاما كالتوارك لمنع الرمال من الوصول ألى أفواههم وخياشيمهم ولمنع الغشاء المخاطي من أن يجف بسرعة ويلبس الرجال عمامة وخفين ويلبس النساء ثوبا طويلا من القطن من عمل السوداني هذا في الصيف أما في الشتاء فجلدشاة متقن الصنع وهن على العموم نظيفات وشعورهن منسدلة على أصداغهن وظهورهن ويجعلنها ضفائر كثيرة رفيعة ويدهنها بالشحم ويحملن في سيقانهن خلاخيل من النحاس أو الفضة وفي أذرعهن أساور من العظم والعاج أو الفضة أو العقيق اليماني ويلبسن قلائد من الزجاج أما الاطفال فيتركون عراة الأجسام تماما حتى سن البلوغ ويترك البنات منهم بعد ذلك السن رؤوسهن والقسم الأعلى من أجسامهن عاريا ما لم يتزوجن وهن يمتزن عن المتزوجات بشكل شعورهن ويحمل الرجل منهم على الدوام رمحاً يختلف طوله بين مترين وثلاثة أمتار وله زج عريض من الحديد من صنع بلاد برنو أو وداي ومتى خرج الرجل منهم ألى القتال أخذ معه خلاف ذلك الرمح حربة طولها نحو مترين ذات زج مسنن من الحديد مما يجعل الجرح شديد الخطر وللتبو سلاح للرماية يسمى مجري وهو نبلة قصيرة يلنصق بها نبلتان حادتان أو ثلاث تختلف في الشكل والانحناء وأحيانا يحملون سيفاً عريضا ذا حدين ودرقة أهليليجية الشكل يصنعونها من

جلود الحيوانات وهم يحملون على الدوام تقريباً خنجراً طويلاً عريضاً يربطونه في ذراعهم الايسر كما يفعل التوارك ويحمل النساء ايضاً هذا الخنجر تحت ثيابهن وغذاء التبو بسيط جداً تقشفي في الغالب الكثير وهو في الخريف التمر على الخصوص يجلبونه من فزان وغيرها ثم لبن النياق والمعز وأن لم يجدوا ذلك أخذوا حبوب بعض النباتات وجعلوا منها دقيقاً يتغذون منه أخصها دقيق المقل وربما وصلت بهم الحال عند القحط الى أكل ثمار الحنظل ولهم في إذهاب مرارته وطعمه طريقة تجعله مقبولاً لديهم واللحم عندهم نادر فلا يأكلونه ألا في الأعياد والمواسم وفي أحوال استثنائية فتى مرض جمل من جمالهم نحروه وجعلوا لحمه شرائح يجففونها في الشمس ثم يأكلونها من غير أنضاج عند الحاجة بعد أن يدقونها دقاً على جسم صلب وهم لا يذبحون المعز ألا في الزواج وما ماثله من الولائم

ولمعيشة التبو في الهواء المطلق ولجفاف بلادهم كانوا غير معرضين للأمراض التي تصيب السكان الجيدي التغذية أي سكان بلاد الماء كما يقولون في تعبيراتهم والحميات البطائحية وكذا التيفوئيد وأمراض الكبد والديسنتاريا والألتهابات المعدية كلها نادرة بينهم ولم تصل بلادهم لا الكوليرا ولا الجدري أصلا وحتى أنهما لو وصلا لكان تأثيرهما قليلا جداً وداء الزهري المنتشر في فزان مجهول في بلادهم بالمرة وأكثر الأمراض انتشاراً بينهم الروماتزم والتهاب الملتحمة وأمراض الجلد وأعضاء التنفس واذا اتصف التبو بالقناعة في الطعام

فانهم غير ذلك في الشراب والتدخين وهم يكثرون من تعاطى الشراب المسمى لَنبكِي وهو نبيذ النخل وكثيراً مايصادف الأنسان منهم سكارى فى الطّريق وهم يدخنون ويمضغون التبغ على الخصوص حتى النساء والاطفال منهم ولذلك كانت شفاههم وأسنانهم سوداء تقريباً ويشتهر أقوام التبو بصفات طبيعية تميزهم عن غيرهم فهم ماهرون جداً فى الوثب والعدو حتى أن جيرانهم يسمونهم بالطيور وقد أعجب الشيخ محمد بن عمر التونسى بمهارتهم فى جعل الجمال تعمل ماتعمله الخيل ويومهم فى السير أطول من يوم العربى بنحو الثلث كما يقول السائح نختيجال الذى يقول أيضاً أنهم بعد أن يكونوا مشوا يوما بتمامه فى شمس محرقة وطرق مخيفة يكونون كما كانوا وقت سفرهم أى يشتغلون مع المواظبة والعناية بجمالهم وأحياناً يأخذونها الى المرعى التى تكون على بعد عدة فراسخ من مضارب القافلة قبل أن يستريحوا ومما هو جدير بالذكر وحرى بالقول تحملهم الجوع والعطش بكيفية عجيبة غريبة فيسير الواحد منهم وهو على جمله أربعة أيام من غير أن يأكل أو يشرب ولا يسير ألا فى الليل وملثما ولا يدخن لئلا يعطش ولا يعمل حركات عنيفة أولا لزوم لها قال ريشردسن «أن الواحد من التبو اذا مضت عليه أربعة أيام من غير أكل ولا شرب نزع نعل رجله اليسرى وسحقه ثم قطع جلده وشواه ثم أكله واذا لم يهتد فى اليوم الخامس الى مضرب أو الى طعام يفعل بنعل اليمنى كما فعل أولاً ثم يشعر بالحاجة الى الطعام حقيقية فى اليوم السادس

والسابع فقط وبعد ذلك يأخذ يلتقط ما يصادفه من العظام فى الصحراء ويدقها ثم يمزجها بدم يأخذه من مطيته ثم يلتهم هذا العجين ومتى أصبح على آخر رمق من الحياة واضطربت حواسه ربط نفسه جيداً على دابته وتركها وحبلها على غاربها تسير الى ماتوحى اليها به غريزتها أما الى ماء أو مضرب من المضارب »

اه وقد شهد نختيجال بنفسه حادثة من هذه الحوادث العجيبة لأنه بينما كان هو ومن معه من الأعراب على آخر رمق من الحياة تعباً وجوعاً كان التبو الذين يرافقونه لايزالون فى قوتهم وفى استعداد للقيام بأكبر الأعمال

هذا أما من حيث الصفات الأدبية فأن للتبو نقائص كبيرة لأن خشونتهم فى النضال عن معيشتهم صيرتهم أنانيين للدرجة القصوى فلا يظهرون عطفا على أحد قساة القلوب قليلو الثقة بالغير خائنون ينهبون بعضهم بعضا ويميلون الى معيشة الانفراد وفى حالة اختلاطهم ببعضهم اختلاطا وقتيا فى بعض المواسم أو الأعياد أو اشتراكهم معا فى بعض الأعمال العمومية تراهم لا يثقون ببعضهم أصلا وهم فى السرقة لا نظير لهم بين كل أمم أفريقيه ومهما احترس السياح منهم فلا بد وأن يصيبهم شيء من ذلك ومن صفاتهم أيضا الأعجاب بالنفس والكبرياء والألحاف فى الطلب واللجاجة فيه وهم وأن اتصفوا بالقناعة الشديدة عادة ألا أنهم يلتهمون الطعام التهاما متى وجدوه ولا يصيبهم من ذلك أذى ومع ذلك فأنهم شجعان لا يهابون التعب ولا الأخطار فصحاء فى القول يقنعون خصومهم فى المحادثة والخطابة

ويعرفون بلادهم معرفة جيدة وهى صفات تولدت فيهم من الأسباب الأولى (ويقول رولفس أنهم فى ذلك أقل من العرب ويؤيده فى ذلك نختيجال) نشيطون لهم مهارة فى التجارة مستقيمو الأحوال أمناء حيث تطلب الأمانة كما هم فى فزان ثم أن ما هم فيه من الفقر والأغارات المتكررة عليهم من ولد سليمان والتوارك وحكام طرابلس كلها ساعدت من غير شك على اتصافهم بهذه الأخلاق ويظهر أن التبو لم يعتنقوا الأسلام من زمن طويل جداً وهم لا يزالون يحافظون على أوهام وخزعبلات بقيت لديهم من دينهم القديم ولا يفقهون معنى لما يقرؤونه فى صلواتهم لأنه لا يعرف العربية منهم ألا القلائل ولشيوخهم المعروفين بالمرابطين تفقه فى الدين ومعرفة بالقراءة والكتابة وأقوام التبو مع ذلك مسلمون متشددون فى دينهم يقومون بكل الفرائض الدينية ويجتنبون المحرمات ألا تعاطى الخمر عند بعضهم وأخوان الطريقة السنوسية منبثون فى بلادهم وقد دخل كثير من نساء التبو فى الطريقة السنوسية وتعلموا القراءة والكتابة قال رولفس كثيراً ما يشاهد الأنسان بعض النساء يمشين ومعهن ألواح من الخشب يتعلمن فيها القراءة والكتابة أوكأنهن يظهرن بذلك للناس أنهن مهذبات وأقوام التبو يشبهون التوارك من حيث أمر الزواج فلبعض الرجال منهم خلاف زوجته الشرعية غالباً امرأة فى وادى برداى[1] يقيم معها حينما يأتى

---

(١) برداى أقليم فى تيبستى ببلاد التبو ويقال لسكانه البردوا ويقول ليون الافريقى أن البردوا أحد الفروع الخمسة الكبيرة فى أمة البربر والاماكن التى ينزلونها الآن بالصحراء الشرقية هى أماكن التبو الحقيقيين تماماً وقال المقريزى أن البردوا قبيلة من البربر

هنالك لجمع التمر وتكون له أخرى فى فزان أو كوّار حيث يذهب للتجارة ولكن ليس للرجل على العموم ألا امرأة واحدة والطلاق عندهم نادر جدا لهذا كان للمرأة منزلة رفيعة ونفوذ كبير وقول مسموع قال نختيجال « أن الزوج يبقى بعيداً عن بيته شهوراً بل وسنوات وزوجته هى التى تنظر مدة غيابه فى أمر بيته وأولاده ومعزه وجماله وتراقب كل شيء وتهتم بكل شيء وتحسب ما يشترى ويباع وتدبر أمر الأنتقال من مكان ألى مكان وتسافر فى الداخل لقضاء الأعمال فالنساء فى تيبستى كالرجال عملا وتصرفا وهن عفيفات صادقات فى الدرجة القصوى وسبب ذلك استقلالهن التام وماعليهن من المسؤلية التى هى نتيجة معيشتهن عيشة حرة »اهألاأن رولفس يخالف نختيجال فى ذلك ولكن نختيجال رأى نساء التبو فى بلادهم الأصلية أى فى نفس وطنهم أما رولفس فأنه لم ير ألا من هاجر منهن أى اللاتى تخلقن بأخلاق أهالى فزان وبذلك يمكن التوفيق بين القولين والزواج عندهم يسبقه الخطبة ومدتها أحيانا تكون طويلة جداً والخطبة فى متانة الزواج حتى لو اتفق ومات الزوج قبل الدخول بزوجته حل أخوه أو أحد أقاربه محله أذا كان غير متزوج وبعد الاتفاق على المهر يدفعه الزوج وتأخذ الزوجة بعض المهر والأحتفال بالزواج عندهم يشبه ما هو معروف عند غيرهم من الأمم التى استعربت ومتى غاب الزوج بعد الزواج عادت الزوجة ألى بيت والديها وأقامت به مدة غيابه ثم لو غاب ثانية أقامت الزوجة فى بيته تدبر أعماله

والمرأة مهما علت منزلتها لديهم تبقى خاضعة لزوجها فى أحوال كثيرة ومن عادتهم أن لا تأكل معه أصلا أو فى حضوره ومتى كلمته أدارت وجهها ولا تذكره ألا بالخير ومن عوائدهم أيضاً أنه متى ارتبط الشخصان بالزواج وجب عليهما أن لا يقابل الواحد منهما الآخر فى طريق كما يجب عليهما التظاهر بعدم معرفة الواحد الآخر مخافة الريبة

وينقسم التبو ألى طبقتين الأعيان ويقال لهم تَمْنا والسوقة ويجتمع الأعيان من وقت لآخر فى مجالس يصدرون منها أحكامهم ويتناظرون فيها فى أحوالهم السياسية وأمور حربهم وصلحهم ورئيسهم ينتخب انتخابا مدة حياته ويكون عادة من العائلات النبيلة من قبيلة التماغرة ويسمى هذا الرئيس فى لغتهم دَرْدَاى وهو لا يقضى فى النوازل منفرداً بل يكون رئيساً للمجلس ولرأيه نفوذ كبير دائماً وهو الذى يعين الرؤساء والنقباء والقواد قال نختيجال « أن هذا الدرداى بقطع النظر عن مكانته العليا لا يتمتع بفوائد مادية كبيرة ومتى تم انتخابه أهدته أمته خيمة وبساطا وطربوشا تونسيا وعمامة وهى علامة الأمارة الصحيحة عندهم وليس له مرتب يتقاضاه وليس للتبو بيت مال وهم فى تيبستى لا يدفعون شيئاً من الضرائب أصلا ومتى كان الدرداى لا يمكنه الحصول بنفسه على ما يتعيش به عاش فى فقر رغما عن منزلته العليا ولديهم عادة قديمة هى أن الدرداى يأخذ جزءا من ثلاثين مما تحصل عليه أمته من القوافل المارة ببلادهم ويأخذ أيضاً جزءاً من غنائم الحرب وهو كل ما يتقاضاه الدرداى من المرتب

الخاص » اه وقد أصبحت الواردات المذكورة قليلة منذ زمن طويل

والقضايا لديهم ينظر فيها مجالس أى جميات من الاعيان أوالمينا وبعد سماع أقوال المتخاصمين ومرافعاتهم يجتهد فى الصلح بينهم ومتى رفض الصلح رفعوا الأمر ألى نقيب الأخوان السنوسية فى واحة أواوحيث توجد زاوية للسنوسيين ويكون له القضاء الأخير ومن العادات التى لها قوة القانون فى عرفهم بخلاف بقية المسلمين أن لا يدفع القاتل فى حال من الأحوال دية المقتول بل يجب على القاتل أن يخرج من البلاد ويبقى بعيداً ينتظر أن تسمح له عائلة المقتول بدفع مبلغ من المال وكثيراً ما ينتظر سنين طويلة واذا اتهمت مرأة بالزنا سلمت هى ومن ارتكبه لزوج تلك المرأة وعقاب السرقة وسب لأعراض وغيرهما من الجرائم التغريم بحسب نوع الجريمة هذا وللحدادين لدى لتبو منزلة منحطة جداً فهم طبقة محتقرة مخوفة معافلا أحد يزوج ابنته حداداً ولا يعلم أولاده الحدادة واذا قيل لواحد ياحداد عدوا ذلك مسبة كبرى بحيث لا يزيلها الا سفك الدماء ولكن هذا اللفظ لا يقال لمن يحترف الحدادة لاعتقادهم فى الحداد قوة خفية ولذلك كانت هذه الصنعة محصورة فى عائلات قليلة لا تتزوج ألا من بعضها بحيث أن دمها لم يختلط أصلاً بدم بقية التبو منذ قرون وهذه الخرافة منتشرة كذلك عند كثير من الامم السوداء بافريقية

ظهر مما سبق أن أقوام التبو يعانون المشاق فى معيشتهم وتربية قطعانهم ولما كانوا لا يزرعون الأراض صغيرة المسطح كانوا كثيراً ما يصابون بالمجاعة

رغماً عن اكتفائهم بالقليل مما هو خارق للعادة ومن ذلك أيضاً كانت تجارتهم قليلة لأن بلادهم لاتخرج تقريباً من الحاصلات ما يمكنهم به أجراء المبادلات مع جيرانهم سيما والصناعة عندهم قاصرة على عمل الحاجيات ومساكنهم قلما تكون مجتمعة في قرية أو ما يشبهها وهي مختلفة الاشكال أبسطها المغاور أو الجحور يحفرونها في الصخور وهي تقيهم الشمس والأمطار ومنهم من يصنع من الطين مأوى يقيم به ولذلك نرى بعض الجغرافيين يعتبر التبو من نسل أمة التُّروجلُوديت[1] التي ذكرها هيرودوتس وبعض مساكنهم تكون حظيرة مستديرة الشكل مبنية من أحجار توضع فوق

١ (Traglodytes) ـ التروجلوديت يطلق القدماء هذا الاسم على أمة كانت تسكن المغارات بالجنوب والشرق من الديار المصرية على سواحل الخليج العربي أي البحر الأحمر ويقول بطليموس أن بلادهم تشمل كل سواحل الخليج العربي وروى بلينوس أن التروجلوديت كانوا يمشون عراة الاجسام ولا يلبسون الا جلداً يغطي وسط جسمهم ويقول أسترابون أنهم يعيشون في ثنايا الصخور ولا يعرفون الزراعة أصلا ومعيشتهم قاصرة على تربية الماشية ونساؤهم وأولادهم كانوا مشتركين بينهم وغذاؤهم من اللحم يدقونه مع العظام دقاً ثم يلفون ذلك بجلد ويضعونه فوق النار ويأكلون أيضاً الدماء يمزجونها باللبن ويقول بلينوس أيضاً أنهم كانوا يأكلون الثعابين ومتى مات أحدهم ربطوا رأسه ورجليه مع بعضها ثم يحملون جثته ألى نشز من الارض ويغطونها بالحجارة ثم يجعلون فوق ذلك قرن معز ولغتهم عبارة عن أصوات لا حركات فيها وما رواه القدماء عن أحوال هؤلاء القوم به كثير من الخرافات بحيث لا يعرف صحيحها من فاسدها

بعضها فقط ويصنعون لها سقفاً من أغصان الأقاقيا أو جريد النخل وفى وسطها عمود يرتكز عليه وفى أسفلها فتحة تكاد تكفى لأن يدخل الرجل منها حبواً ويبنون جنوبى فزان خصوصاً بيوتا تكون تارة مستديرة وتارة تكون مربعة يصنعونها من جذوع النخل وأخشاب الأقاقيا وغيرهما ويعملون لها سقفا من حصر جيدة الصنع وهى مساكن جميلة المنظر صالحة للسكنى نظيفة على العموم ولحيواناتهم بجوارها أماكن مخصوصة وهم يحملون أرواثها ويلقونها بعيداً عن المساكن ويفرشون أرض هذه الأماكن برمل دقيق يغيرونه على الدوام وصناعة التبو قاصرة فى غير ما ذكر على عمل أوان من الطين مما يستعملونه فى منازلهم وعلى عمل القرب والملابس وأقتاب الجمال يصنعونها من جلود الضأن والمعز ويدهنونها بقشور الأقاقيا وغيرها وعلى جدل ألياف النخيل وعمل الحصر والحبال وعمل نوع قطران يعالجون به حيواناتهم يستخرجونه من العظام ونوى البلح

أما تجارتهم فهى عبارة عن شراء الأغذية والأقمشة والمصنوعات الأوربية من أسواق فزان ويأخذون معهم ألى فزان متاجر قليلة سيما وأن نبات السنا الذى يأتى ألى تيبستى بكثرة أصبح غير رائج السوق فى فزان والكبريت الذى كان لتجارته فيما سبق فى تيبستى الشأن الكبير صار لا يرى فى فزان الآن ويؤجر التبو جمالهم للقوافل أو يكونوا أدلاء لها وكثيرون منهم يرحلون ألى البلاد القريبة من بلادهم ويشتغلون بالتجارة عدة سنين ولهم فى ذلك مهارة

كبيرة وحرص على المكسب وبعد ما يجمعون مبلغا من المال يعودون ألى بلادهم المقفرة فيقضون بها بقية أيامهم ولو لا ذلك لما تمكن التبو من الحصول على شيء مطلقا مما لا يصنعونه بأنفسهم وحتى لكانت معيشتهم فى نفس بلادهم مهددة

أصل أقوام التبو ـ لقد اختلفت آراء العلماء فى أصل وتناسل هذا الجنس الغريب أى أقوام التبو الذين هم أخوة الأمم المعروفين بأسم دازا(١) وهل هم من العائلات الكبيرة القديمة كالبربر والسودانيين والمصريين أو أنهم من عائلة بذاتها كل ذلك مختلف فيه ولكل قول أنصار وكان العلماء يعتبرونهم منذ نحو قرن أنهم من أفخاذ من البربر ألا أن الجغرافى الألمانى أوكرت(٢) لما قابل فى سنة ١٨٢٦ بين لسان التبو الذى جمعه السائح ليون (٣) وبين لسان

١ (Daza)ـ هم أحد فرعى الجنس الأسود من التبو (السودان الأوسط) ويوجدون فى كانم وبرنو وغيرهما أى أنهم تبو الجنوب وقد زار السائح نختيجال بلادهم

٢ (Ukert (Frédéric-Auguste ـ مؤرخ ألمانى ولد سنة ١٧٨٠ وهو بعد أن تلقى دروسه وتقلب فى بعض الوظائف تعين سنة ١٨٠٨ معلماً فى التاريخ والجغرافيا بمدرسة غوثا وترجم من الأسبانية والأنجليزية والفرنسوية عدة مؤلفات فى التاريخ والجغرافيا ثم انكب بعد ذلك على دراسة الجغرافيا القديمة وله فيها مؤلفات شهيرة منها كتاب فى كيفية تعين المسافات عند القدماء وكتاب فى جغرافيا هو ميروس (طبع فى ويمار ١٨١٥) وكتاب فى جغرافيا الأغريق والرومان فى ثلاث مجلدات (طبع فى ويمار ١٨١٦ــ١٨٤٦) وهو من شهر مؤلفاته وكتاب فى وصف النصف الشمالى والجنوبى من أفريقيه (ويمار ١٨٢٤) وله غيرها من المؤلفات الكثيرة

٣ (Lyon (George Francis ـ سياح أنجليزى ولد فى مقاطعة ششستر سنة ١٧٩٥

البربر أثبت أنه لا اتصال ولا قرابة أصلا بين اللسانين وأظهر السائح بَرت أن لغة التبو وهى منقسمة ألى لهجتين لهجة تيستى ولهجة دازا قريبة جدا من لغة كانورى القديمة وهو استنتاج لم يكن بمنتظر لأنه لا يرى فى صورة هؤلاء الأقوام صورة سودانى أصلا كما أن هذا الأستنتاج قضى أيضا على نظرية كونهم من جنس مستقل يسكن أواسط أفريقية أى أنهم بقية قدماء الجَرَمنت وتاريخهم مجهول كله تقريبا وربما يكاد يقول المطلع على أحوالهم أنهم هم الأتيوبيون التروجلوديت الذين ذكرهم هيرودوتس ولم

ومات سنة ١٨٢٢ دخل فى خدمة البحرية وعمره ١٣ سنة ورافق السائح رِتشى (Retchie) فى أسفاره بشمال أفريقيه وتوغل معه حتى بلاد فزان ثم لما عاد ألى لندن عينته الحكومة قومندانا لسفينة تسافر فى خفارة الكبتن بارى (Parry) الذى كلف بالبحث عن طريق يؤدى ألى البحر القطبي ولما لم ينجح بارى فيما كلف به سافر ليون بمفرده لاكتشاف سواحل بحر هُدسون وقد وصل ألى مرغوبه ولكن بعد مشاق وأهوال ولما عاد ألى انجلتره كافئته الحكومة برتبة كابتن

وفى سنة ١٨٢٦ أبحر ألى بلاد المكسيك وكاد يهلك فى عودته ألى انجلتره ثم بعد أن استراح مما اعتراه من الأتعاب والمشاق طلب منه بعض الماليين الذهاب ألى أمريقا الجنوبية للوقوف على أحوال مناجمها المعدنية فقبل طلبهم وسافر ألى أمريقا وبعد أن أتم عمله اضطر للعودة ألى أوربا لمرض أصابه فى عينيه وبينما هو فى الطريق مات أمام مدينة بوينوس أيَرِس وله عدة مؤلفات أشهرها رحلة بأفريقيه الشمالية فى سنة ١٨١٨ وسنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٠ ورحلة أخرى لما رافق بارى لاكتشاف طريق القطب طبعت فى لندن سنة ١٨٢٤ وغيرهما من كتب السياحة

يتكلم عن أوصافهم وربما كانوا هم أيضاً الزغاوة(١) والبَرْدُوَا الذين ذكرهم مؤلفو العرب فى القرون الوسطي ويظن السائح برت أنهم كانوا فيما غبر من الأزمان أصحاب السلطان على بلاد فزان وقد أقره مسيو دوفرييه على هذا القول وقال أن كثيراً من أسماء الأماكن فى فزان مسمى بأسماء كانوريه ويقول فوجل أيضاً أن بالوداى الغربى من فزان مقابر قديمة تشبه كثيراً المقابر الحالية لدى أمة التِّيدَا أو التبو وقد استنتج كل من إسكاير الـ دولوتور(٢) من أقوال مشابهة لما ذكره فوجل ما يدل على أصل هذا الجنس

(١) الزغاوة قبيلة من التبو تنزل أودية تيستى وفى الحدود الشمالية من دارفور ومنهم قوم فى كردفان وكلهم أنجاذ وبقية أمة كبيرة كان لها فى القرن الثانى عشر من الميلاد النفوذ الراجح بالصحراء الشرقية وكانت بلادهم تمتد من فزان ألى النيل ألا أن نفوذهم هذا لم يدم زمناً طويلا لأن أمير بلاد كانم أخضعهم لحكمه فى النصف الثانى بن القرن الثالث عشر ويقول ابن خلدون أن الزغاوة من قبائل البربر الكبرى من جنس صنهاجه وهواره ولهم ذكر فى تاريخ بنى مرين بمراكش وقد فقدوا الآن كل أهمية لهم فهم أحدى القبائل الرحالة يؤجرون أنفسهم للقوافل أما البردوا فقد سبق الكلام عليهم عند ذكر وادى برداى

(٢) (Comte d'Escayrac de Lauture) ـ سائح فرنسوي ولد سنة ١٨٣٠ ومات سنة ١٨٦٨ وكان ميالا منذ شبوبيته للاسفار العلمية فابتدأ ببلاد المشرق ولما عاد ألى بلاده كلفته حكومته بعدة مأموريات فى جنوب بلاد الجزائر فقام بما عهد أليه وتوغل كثيراً ببلاد الصحراء الكبرى ثم ذهب بعد ذلك ألى بلاد مصر وكلفه المرحوم سعيد باشا والبها أذ ذاك سنة ١٨٥٦ برئاسة بعثة لكشف منابع النيل ولكن هذه البعثة لم تنجح كأمثالها ألا أن أسكايراك

وأنه كان يسكن قديماً بلاد السودان ألى الجنوب من مساكنهم الحالية ثم أنهم اضطروا ألى الهجرة وسكنوا صحراء لوبيه فنزلوا منها كل ما يقبل السكنى حتى بلاد فزان وواحة كُفره

ولم يرد عن مؤرخى العرب قول يركن أليه عن التبو أوالتيدا فلذلك لايعلم شيء من تقلبات أحوالهم الماضية فى تيبستى ولا يعلم كذلك العصر الذى دخل فيه الأسلام بلادهم ثم أنه فى القرن السابع عشر والثامن عشر فقط أخذت المواصلات تحصل بين بلاد طرابلس وبين أقوام التبو الذين كانوا كثيراً مايغيرون على القوافل المترددة بين فزان وبرنو وكان المسافرون

استفاد من ذلك زيادة البحث والتنقيب فى أحوال بعض جهات أفريقية التى لم يزرها حتى ذلك الوقت ألاالقلائل من سياحى أوربا وكان نشر قبل ذلك فى سنة ١٨٥١ رسالة على بلاد كردفان ونشر كتاباً آخر سنة ١٨٥٣ بعد سياحاته فى الجزائر وعلى سواحل أفريقية به خرائط وصور أسمه «الصحراء والسودان» وله غير ذلك من الكتب والرسائل ثم عين عضواً فى اللجنة العلمية التى أرسلت مع الحملة العسكرية الفرنسوية ببلاد الصين سنة ١٨٦٠ وبينما كان الجيش الفرنسوى الانجليزى يقوم بعأموريته السريعة العجيبة التى كانت غايتها الاستيلاء على مدينة بيكنغ عاصمة الصين ونهب القصر الملوكى بها كان أسكاير الكدولوتور المذكور يتوغل من غير تبصر فى البلاد الصينية لحبه فى الأكتشافات فأسره الصينيون وسجنوه وعذبوه عذاباً أليما وقد نشرت كل الجرائد أذ ذاك قصته وما أصابه ثم لما نجحت تلك التجريدة فى أعمالها أطلق سراحه ورفعت حكومته منزلته فأهدته نشاناً علياً بعد عودة التجريدة المذكورة سنة ١٨٦١ وبعد ذلك نشر كتاباً سنة ١٨٦٤ تكلم فيه عن دولة الصين به عدة خرائط ونشر أيضاً فى مجلة الجمعية الجغرافية مقالات مهمة جداً على بلاد الصين وسكانها وأخلاقهم وعاداتهم وأديانهم وعلومهم

يخافونهم جداً وذكر لوقا (١) أن أحد سلاطين فزان أراد أخضاعهم وألزامهم بحمل الخراج أليه وكان ذلك في منتصف القرن السابع عشر من الميلاد فأرسل عليهم جيشا عدده نحو أربعة آلاف مقاتل ولما وقع القتال خاف التبو جداً من بنادق ذلك الجيش فأرسلوا ألى قائده رسلا يطلبون الصلح ويتعهدون بدفع أتاوة سنوية قدرها عشرون حملا من نبات السنا وهدايا اتفقوا عليها

١ Lucas (Paul) – سائح وأثري فرنسوي ولد سنة ١٦٦٤ بمدينة رون ومات في مدريد سنة ١٧٣٧ وهو ابن جوهري وقد مال من صغره ألى التجارة في المصوغات والأحجار الكريمة ولهذا فأنه ساح في بلاد الأغريق وتركية أوربا وآسيا الصغرى ومصر ثم التحق في خدمة البنادقه (١٦٨٨) واشترك في حصار جزيرة نغريبنت (Négrépont) ثم عاد ألى فرنسا (١٦٩٨) ومعه كثير من التحف وغرائب المصنوعات ولما كان يميل ألى الأسفار عاود السياحة ثانية من سنة ١٦٩٩ فذهب ألى المشرق وساح في مصر وبلاد البربر وآسيا الصغرى وبلاد الفرس وسوريه وأرمينيه وكان يجمع من كل تلك الأماكن مايعثر عليه من الأيقونات والأحجار المكتوبة والاوراق المخطوطه ثم نهبت منه كثير من تلك النفائس في بغداد حتى اضطر لأن يودع مابقي منها لدى أحد القرصان وعاد هو ألى باريس سنة ١٧٠٣ وبعد ذلك بسنة عينه لويس الرابع عشر مديراً لدار عادياته ثم عاود السياحة سنة ١٧٠٥ متجولا في البلاد التي كان زارها من قبل وقد فقد أيضاً قسما مما كان عثر عليه (١٧٠٨) ثم عين في مأمورية ببلاد المشرق سنة ١٧١٤ وفي سنة ١٧٣٧ ذهب ألى أسبانيا ومات بعد وصوله ألى مدريد بقليل ومؤلفاته بها كثير من الغرائب وكثير من وقائعها ورواياتها غير محقق أو مبالغ فيه ومن كتب سياحاته كتاب سياحة في تركيا وآسيا وسوريه وفلسطين ومصر العليا والسفلى

ويقول لوقا أيضاً أنه من هـذا الزمن (١٧٨٨) لم يجرأ أولئك الجبليون أصلا على نهب القوافل وهم زيادة على عدم اعترافهم بنفوذ سلطان فزان عليهم وزيادة عن عدم دفعهم الأتاوة التي كانوا تعهدوا بدفعها فأنهم يجلبون كل مايحصلون عليه من نبات السنا ألى سوق مرزوق وهناك يشتريه السلطان منهم ثم يبيعه بمدينة طرابلس بربح وافر ويأتي شيخهم في بعض الأوقات ألى قصر سلطان فزان وبعد أن يقيم به بضع أسابيع في أكرام يليق به يعود ألى بلاده وعليه برنس جميل يكون أهداه السلطان أليه » اه ويقول هورنمان أيضا أن الكثير من التبو من قبيلة رشاده كانوا يأتون ألى مرزوق بقصد التجارة ثم لما غزا سلطان فزان سنة ١٧٩٨ بلاد برنو كان معظم جنوده من التبو ومن ذلك الوقت أصبحت معايشة سكان تيبستى مرتبطة بالعلاقات التي بينهم وبين بلاد فزان لأنه لا يمكنهم الأستغناء عن أسواق فزان وبين البلدين المذكورين صلح مستمر تقريباً ولكننا نرى من جهة أخرى أن تيبستى كانت غنيمة لأغارات كثيرة شنتها عليها قبائل ولد سليمان والتوارك فيما بعد ومن كل ذلك وغيره أصبح هذا الجنس يتصف بالتحرز وقلة الثقة والعزلة والوحشية وغيرها من الصفات اللاصقة به

عدد السكان ـ لا يعرف بالتحقيق عدد التبو في تيبستى وعلم السائح ريشردسن من أحد سكان هذه البلاد أن الوادي الأصلي ببلادهم (وهو وادي بردای من غير شك) يمكن أن يكون سكانه خمسة آلاف ويظن

رولفس أن الأودية التسعة التي ببلاد تيستي وهي الأودية الكثيرة السكان بالنسبة لغيرها لا يزيد سكانها عن خمسة آلاف ويقول نختيجال وهو أكثر وقوفا على الحقائق من السابقين أن سكان تيستي يبلغون ١٢٫٠٠٠ نفس ويقول برت أن عدد التبو بأجمعهم أي المنتشرون في فزان وكانم وبرنو وغيرها نحو ألف ألف نفس ويظهر من حوادث وروايات كثيرة أن هذا التقدير أقرب للحقيقة من غيره والقبائل في القسم الشمالي من الصحراء الغربية كلهم رحل على العموم أما في القسم الجنوبي فكلهم متوطنون وأقوى هذه القبائل وأشهرها الرجيبات وأولاد بُوسْبَا وأولاد دِايمْ وكلهم بالشمال والمغاربة (طرارزه وبراكنه ودواويش) وكلهم في الجنوب وعلى الشاطئ الأيمن من نهر سنيغال

الطرق التجارية بالصحراء الكبرى ـ يقطع الصحراء في كل ارجائها طرق تترددعليها سكانها من غابر الأزمنة والمقصود بالطرق هنا آثار أقدام الأنسان والحيوان أي المداعس التي لا تكاد تكون ظاهرة في تلك الفيافي والقفار وعليها تسير القوافل ولعدم وضوحها كان من اللازم الاستعانة بالدليل الخرّيت او بكل مالدى أهالي الصحراء من الغرائز الطبيعية الخاصة بهم في تعرف الوجهة التي يجب اتباعها والعلامات التي يسترشدون بها تكون على العموم دقيقة بحيث تخفى تماماً على كل عين لم يسبق لها اعتياد ذلك ومع هذا فأن عظام الحيوانات وعظام المسافرين الذين هلكوا في الطريق عطشا تكون أحياناً

من الدلائل التى تسير بها القوافل عادة وليس بهذه الطرق من النقط الثابتة ألا الواحات والآبار والاستغدرات فهى التى تعين المنازل والمحطات فى تلك الأسفار الطويلة الشاقة وقل أن يصادف الأنسان بها سياحين منفردين ألا أذا كانوا رواداً أوجواسيس واختراق هذه الصحراء يكون عادة بالقوافل يرشدها دليل أو أدلاء كماسبق ويصل مجموع من بالقافلة الواحدة ألى ألفى نفس وهى تقبل كل من تقدم أليها طالباً مرافقتها من غير أن يسأل من أين أتى وألى أين يذهب ورئيس القافلة أوشيخها له الأمر والنهى المطلقين ومعه أعوان ينفذون أوامره ورواد لتعرف البلاد وكاتب للمعاملات التجارية وتحرير شروطها وكثيراً ما يكون مع القافلة مناد لأعلانها بما يجب ومؤذن وأمام للصلاة ويختلف طول المرحلة الواحدة من مراحلها بين ثلاثين وخمسة وثلاثين كيلو متراً وربما طالت ألى ستين كيلومتراً فى الأصقاع العديمة الماء أوالتى بها لصوص وقطاع طريق وتحمل القافلة من الزاد معها ما يكفيها فى سفرها وقرباً من جلود المعز أوالثيران وكلما صادفت بركا أوآباراً أخذت من الماء مايلزمها والطرق التى تتردد عليها القوافل بالصحراء أكثر من غيرها هى التى تخرج من شمال أفريقية (مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وفزان) ذاهبة نحو نهر السنيغال وبلاد السودان وأشهرها ما يأتى

الطريق من مراكش ألى سن لويس فى سنيغال وتبتدىء من وادى نون على ساحل الأوقيانوس ثم تنتهى عند صخرة أرجين ومن هناك يسهل الذهاب

ألى سن لويس وتخرج من أرجين شعبة تذهب ألى وَادَان ببلاد أدرار والطريق من مراكش ألى النيجر وتخرج كذلك من وادى نون متجهة ألى طَرْمَسُّون جنوبى وادى درعه مارة بأراضى الرجيبات وَزَمُّورْ وَإِسكدَرْ نا مارة بآبار قورين ثم تصل ألى وادان ببلاد أدرار ومن هنالك تسير نحو الشمال الشرقى حتى وَالاتا ببلادالهيط ومن والاتا المذكورة تسير بعض القوافل ألى جنّه وسَنْسَندِ نغ وسيغو سيكورو وهى مدن على ساحل النيجر الأعلى وبعضها يذهب مباشرة نحو تنبكتو وأَرَوَانْ وبوروم (وهما بلدتان على النيجر الأوسط عند المكان الذى يغير فيه هذا النهر مجراه متى سار نحو الجنوب الشرقى بعد أن يكون أوجد انحناءه الكبير الذى له جهة الشمال) وهنالك طريق آخر يخرج أيضاً من وادى نون ألى الشرق من أدرار مخترقا تاجا كُنْت وتندوف وإجيدى وبئر العباس ثم تصل ألى تاودينى أو ألى آبار تِليج حيث تتصل بالطريق الآتى من فاس المار بتافللت ومايارة والمرابطى وبعد هذا الأتصال تسير الطريق نحو أَروَان ومن هنالك ألى تنبكتو والطرق بين بلاد الجزائر والنيجر تجتمع كلها فى إِنصالح ببلاد تِيديكلت ومن هنالك تذهب قوافل ألى تنبكتو مباشرة مارة بمبروك أو ألى تنبكتو مارة بأروان المذكورة أو أنها تذهب نحو بوروم المتقدمة الذكر مارة بواحة تِمِسّاوْ وكليجيت وهنالك بين بلاد الجزائر والسودان الأوسط أيضاً طريق يخرج من أن صالح ماراً بابار الحَجَر وإِذ لِيس وجرامه وأغادس حيث تفترق نحو سكتو وكانو وغيرهما ولكن المسافر أذا

انتخب لسفره توغرت وورقله فان طريقه يكون أقصر ومن هناك يسير نحو الجنوب مباشرة ماراً بالبيوض و تيماسنين وأمجيذ وغيرها أما طرق القوافل التى بين بلاد طرابلس والسودان الأوسط فهى التى تبتدىء من غدامس ومرزوق وتجتمع فى غات ومن هناك تذهب ألى أغادس وسكتو وكانو وغيرها ثم الطريق الذى يخرج من مرزوق ألى برنو مباشرة ماراً بواحات كوارو بلماوأغادم وينتهى فى كوكا على بحيرة شادوهو الذى أصبح بحسب الاتفاق الأولى المعقود بين فرنساوانجلتره سنة ١٨٩٠ الحد الشرقى للصحراء الفرنسية

هــذا والطرق المذكورة هى الطرق الكبرى الرئيسة فى نقل المتاجر ويتفرع منها طرق أخرى كثيرة تربط واحات الصحراء الكبرى ببعضها واعلم أن طرق القوافل تبقى كما هى لاتغيرها القوافل أبداً ولكن يحصل أحيانا أن تضطر القوافل لأن تسير فى طريق طويل أوتترك طريقاً صيرها وقوع العداوة بين بعض القبائل غير مأمونة ولم يقع ألينا من الأنباء مانعلم منه فتح طرق جديدة للتجارة ألاالطريق التى رضى بها السلطان عبدالكريم سلطان وداى سنة ١٨١٠ لايجاد المواصلات التجارية بين أذراعاصمته ومدينة بنغازى مباشرة ولكنه حصل أن تغيرت تلك الطريق سنة ١٨٧٣ وأصبحت القوافل الآتيــة من وداى تترك طريق بنغازى متى وصلت ألى جالو ومن هناك تذهب ألى مصر وحدث مثل ذلك أيضاً فى القوافل التى كانت تأتى بالرقيق من بلاد السودان لأنها لخوفها من الفرنسويين كانت تبتعد عن بلاد

الجزائر وتذهب ألى مراكش أوطرابلس وقد بذل الأنجليز النازلون فى طرفايه عند رأس جوبى مساعى كثيرة كما سعى الأسبانيون النازلون على ساحل المحيط وعلى الخصوص الذين منهم فى مستعمرة ريُو أورو فى أن يجذبوا نحو نزلاتهم التجارية القوافل الآتية من داخل القارة غير أن مساعيهم خابت تماماً فيما يظهر وقد هم بعضهم باعادة المواصلات التجارية التى كانت قديماً بين بلاد أدرار ونزلة أرجين الفرنسوية الواقعة جنوب الرأس الأبيض لأن قوافل السودان الغربى التى تتردد بين تنبكتو ومراكش مارة ببلاد أدرار تقطع نحو ١٧٥٠ كيلومتراً بينما هى لا تقطع فى وصولها ألى أرجين ألا نحو ١٢٠٠ كيلومتر وبذلك تكسب تلك القوافل أولا قصر الطريق أى أنه بدل أن تتحمل مصاريف باهظة لسفر شاق محفوف بالأخطار مدته ستون يوماً فأنها لا تصرف ألا القليل فى سفر أسهل من الأول بكثير مقداره تسعة وثلاثون يوما أذا اختارت الطريق الثانى زيادة عن أن الحاصلات السودانية لا تصل ألى أسواق أوربا ألا بعد أن تكون جمارك مراكش تقاضت عليها ضريبة مضاعفة على دخولها (الرسم القانونى هناك عشرون فى المائة من قيمة الشيء ولكن التجار يدفعون فى الحقيقة من ٢٨ ألى ٣٠ فى المائة) وعند تصديرها (الرسم القانونى عشرة فى المائة ولكنه يبلغ فى الحقيقة من ١٢ ألى ١٥ فى المائة) وتنتقل هذه البضائع من يد ألى أخرى كلها تسعى فى الكسب منها أما أذا أمكن لتلك القوافل أبدال بضائعها فى أرجين بان تأخذ بدلها أشياء اعتادت على أخذها

من مراكش كانت الفائدة عظيمة للجانبين من غير شك وتصبح حاصلات السودان أرخص قيمة وأقل عناء فى جلبها ولصارت القوافل تشترى مصنوعات أوربا من اليد الأولى زيادة عن تجنبها مصاريف وأخطار سفر طويل شاق هذا وأشهر الأشياء التى تأخذها القوافل من مراكش هى السكر والشاى الأخضر والشمع والتبغ والأقمشة القطنية الزاهية الألوان والأقمشة البيضاء والشاش والكبابيد الصوفية والمناطق الصوفية والحريرية والمناديل الحريرية والحرير الخام والأشرطة الذهبية والسجاجيد والجلود المدبوغة والأسلحة النارية والبيضاء والبارود والرصاص والحديد والقصدير والأدوات المنزلية والنحاسية والقصديرية والخردوات والأشياء الزجاجية ولعبات الأطفال وغيرها أما ماتجلبه تلك القوافل معها فأهمه العاج الأبيض والأخضر وريش النعام وجلود الحيوانات والحبوب الزيتية والبهارات والشب والبخور والمسك والذهب والرقيق غير أن تجارة الرقيق قد أهملت الآن ألا قليلا

الطريق الحديدى الذى يقطع الصحراء ـ أن مسئلة بناء طريق حديدى يقطع الصحراء ويربط المستعمرات الفرنسية ببعضها أى بلاد الجزائر والسنيغال ويفتح للحاصلات التجارية مصرفا واسعا والأتصال السريع طريقا أمينا بداخل أفريقية مسألة من أكبر المسائل وأعظمها أهمية وشأنا وكان أول القول بذلك فى سنة ١٨٧٧ وقت أن أخذت الجرائد والمجلات والمحافل السياسية تتناقش فيما لذلك من الأهمية والفوائد وقد نظرت أليه الحكومة الفرنسية بعين

الرضى والقبول وفى سنة ١٨٧٩ ألف مسيو فريسينيه (M. de Freycinet) وزير الأشغال العمومية بفرنسا لجنة للنظر فى هذا الامر ودراسته ثم عهد ألى ضابط برتبة قائمقام يدعى فلتّر (Flatters) رئاسة بعثة لارتياد الصحراء والبحث عن الطريق المناسب لبناء سكة حديدية وقد سافرت تلك البعثة من بلدة ورقله بالجزائر فى شهر مارس من سنة ١٨٨٠ وما زالت تتقدم نحو الجنوب حتى وصلت ألى بحيرة بالصحراء الوسطى ألا أن ذلك الضابط لم يتمكن من الأتفاق مع أحد مشايخ التوارك هناك ليستمر فى السير ولما كانت الأقوات والذخائر التى معه قد قاربت الفراغ اضطر لأن يعدل عن قصده وعاد أدراجه ألى النقطة التى خرج منها فى ١٧ من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وبعد ذلك رأت اللجنة التى عهد أليها دراسة هذا المشروع أرسال بعثة ثانية فكلفت الضابط فلتّر المذكور بان يعاود السير جهة الجنوب ثانية فخرج من ورقله مرة ثانية فى شهر دسمبر من سنة ١٨٨٠ وبعد ثلاثة وخمسين يوما قطع أثناءها نحو ١٥٠٠ كيلومتر هاجمه الأهالى بشدة وقتلوا أغلب من كان فى بعثته وتمكن بعض من بقى على الحياة من العودة ألى بلاد الجزائر (راجع الكلام على ترجمة فلتر صحيفة ٤٣٩) فلهذا انصرفت الأفكار عن هذا المشروع وألقى فى زوايا الأهمال نوعا بضع سنوات وقد كان الناس فى القديم غايتهم الكبرى الوصول ألى مدينة تنبكتو التى كانوا يبالغون كثيراً فى أهميتها التجارية أما الآن فقد تغيرت الأحوال واتسعت دائرة الأملاك الفرنسوية فى السنيغال وفى حوض النيجر الأعلى ولا تزال آخذة فى الأتساع حتى أصبحت تنبكتو

المذكورة داخلة ضمن هذه الأملاك ولذلك يكون من الموافق جعل الخط الحديدى الذى يأتى من الشمال وينتهي عند النيجر ألى الشرق من الأملاك المذكورة لهذا نراهم قد انتخبوا بلدة بوروم الواقعة على نحو ٣٢٠ كيلومتراً ألى الشرق من تنبكتو وجعلوها نقطة الأنتهاء وقدأدرك الفرنسيون أيضاً أهمية أيجاد مواصلات مباشرة مع الممالك التى فى السودان الأوسط القريبة من بحيرة شاد وهى ممالك أغنى وأكثر سكانا بكثير عن الممالك الواقعة على النيجر الأعلى ولهذا فانهم أكملوا المشروع الأصلى وأضافوا أليه فرعا يخرج من بلدة أمجيد الواقعة وسط الصحراء سائراً نحو كوكا قاعدة برنو ولم تقف أطماع فرنسا عند هذا الحد فقط بل أنها ترى أيضاً من المهم أطالة خط كوكا حتى يصل ألى الكنغو الفرنسوى لترتبط كل المستعمرات الفرنسوية التى بأفريقية (الجزائر والسنيغال والكنغو) بطرق حديدية فتجعل منها مستعمرة واسعة واحدة هذا وقد انتهى الحال فى هذه المسألة بأن رسموا لذلك ثلاثة خطوط هى الآتية أولا الخط المعروف بالغربى ومبدؤه العين الصفراء (جنوبى مقاطعة وهران) ويمر بأجلى وغورارة وتوات ثم ينتهى عند منعطف النيجر (بوروم) ثانياً الخط الأوسط ويبتدىء من بسكره ويخترق واحات وادي رير ماراً بتغرت وورقله وتيماسنين وأمجيد وهناك يتفرع فيذهب ألى تمسآو ليصل ألى النيجر عند بوروم وفرع يذهب نحو أسيُو فيصل ألى كوكا على بحيرة شاد. ثالثا الخط الشرقى ومبدؤه خليج قابس من بلاد تونس عند بلدة بوغرار

ماراً بغدامس وغات ثم يمتد حتى جهات بحيرة شاد ولكل من هذه الخطوط الثلاثة أنصار ومعارضون وقد تناقشوا كثيراً فى الجرائد والمجلات وأبدوا أستحسانهم واستهجانهم وكان أهم الموانع التى تقوم أذ ذاك فى وجه الخط الغربى قربه جداً من دولة مراكش وأهم مايعترض الخط الشرقى كونه سيمر فى واحتين تابعتين للدولة العثمانية بخلاف الخط الأوسط فانه يكون أكثر الخطوط بعداً عن تأثير نفوذ البلاد المجاورة للجزائر وبذلك يكون خطافرنسويا حقيقيا كما يقول أنصار هذا الخط ولأخراج مشروع كهذا من القوة ألى العقل يجب أن لا تقف المسائل المالية عائقا فى سبيله والمسافة حتى بوروم المذكورة تبلغ ٢٦٠٠ كيلومتر تقريبا وهى نحو ٣٤٠٠ كيلومتر حتى كوكا وقالوا أن مايتكلفه الكيلومتر الواحد يبلغ نحو ٥٠٠ر٠٠٠ من الفرنكات وهذا المبلغ الجسيم لا يمكن الحصول عليه أبداً فى الحال من أيرادات هذه السكة الجديدة التى ستكون أيضاذات فوائد عسكرية وسياسية ويقول الفرنسويون أنه أذا ساعدت الظروف دولة مراكش وحفظت استقلالها ومدت نفوذها وحكومتها على الجهات الجنوبية من جبال أطلس كما هو مسعاها من القديم وتمكن العثمانيون الذين لا يدخرون وسعا من مد سلطانهم ألى مابعد حدود طرابلس وفزان فاذا حصل ذلك ضاق ميدان العمل على فرنسا لهذا يجب عليها انتهاز فرصة حرية الطريق للتمكن من مد نفوذها ألى الجنوب سيما وأن الأنجليز والألمان يسعون سعياحثيثا فى الاستيلاء على تجارة النيجر والسودان الأوسط فلا يجب على فرنسا كما يقول الفرنسويون

أن تجعل نفسها فى حالة تضيع منها بها مصارف عديدة مهمة تجارية كالمصارف التى توجدها هـذه الطريق بل الواجب عليها المبادرة بربط أجزاء دولتها الأفريقية ببعضها لتنجو فى المستقبل من مباراة الأمم الأخرى التى ترمى كلها ألى أنشاء أملاك استعمارية كبيرة فى أفريقية وأذا رأت أن من المهم أنشاء سكة جـديدة تقطع الصحراء فلا يجب عليها النظر ألى الفوائد التى تعود من تلك السكة فى الحـال بل الواجب النظر ألى الخطـأ الجسيم الذى ترتـكبه فيما أذا أهملت بناءها أو أخرته ألى زمن أطول بسبب المجادلات والمناقشات التى لا تجدى ثمرة هذا ملخص مايقوله الفرنسويون عن هذه السكة أوردناه لنعلم منـه مقدار حرص الأوربيين على أملاكهم والسعى فى أستدرار منافعها

الحالة السياسية بالصحراء الـكبرى ـ أعلم أن الصحراء المذكورة كانت حتى الأيام المتأخرة أرضا لامالك لها كما يقولون فى الأصطلاح السياسى الدولى هذا فيما عدا ما كان منها شمالا مجاوراً لمراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر أى تلك الأصقاع التى تتبع البلاد المذكورة تبعية أسمية قليلا أو كثيراً أما الآن فقد تغير الحال بالمرة ودخلت الصحراء فى منطقة العمل الذى تقوم به دول أوربا ومن وقت الأتفاق الذى تم بين فرنسا وأنجلتره (٥ أغسطس سنة ١٨٩٠) أصبح من الممكن أعتبار كل الصحراء الغربيـة والوسطى كأنها مستعمرات فرنسوية ولـكنه على كل حال امتلاك أسمى فقط ولا بد لصيرورته فعليا من مرور أزمنة طويلة وعلى هذا الأتفاق أصبح النفوذ

الفرنسوى يمتد على كل الصحراء الغربية من حدود مراكش ألى حدود السنيغال ولا يدخل فى ذلك قطعة أرض صغيرة على ساحل المحيط بين رأس مغادور شمالا والرأس الأبيض جنوبا التبعيتها الأسبانيا كما لا يدخل فى ذلك أيضا المستعمرة الأنجليزية الصغيرة الواقعة عند رأس جوبى أما الصحراء الوسطى الفرنسوية فأنها تحد شمالا ببلاد الجزائر وتونس وشرقا بخط لم يبين بعد يمر قرب غدامس وغات ويدخل ضمنه كل الطريق بين مرزوق وشادور بما دخلت فيه أيضا كل بلاد تيبستى ويحد من الجنوب بخط يمتد من بلدة بَرُّوَا التى على بحيرة شاد ألى بلدة ساى على النيجر وكلها حدود مبهمة جداً لأن أغلب الأصقاع الداخلة فيها لازالت غير مكتشفة تماما هذا وأن تمكنت فرنسا من الحصول على هذه الحدود بصفة رسمية لصارت الصحراء بأجمعها ألا أصقاعها الخالية المخيفة التى بالشرق منها أرضا فرنسوية صرفة

(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى وأوله الكلام على الديار المصرية)

تنبيه ـ وقع بهذا الجزء أغلاط كثيرة غالبها مطبعى خصوصاً بالملازم الأولى ولكنها لاتخفى على المطالع النبيه وكان المانع من النظر فيها لأصلاحها مشاغل خصوصيه فلذلك نعتذر للقراء ونرجو أن لا يقع مثلها فى الأجزاء التالية

تحريراً بالقاهرة فى ٢٨ يناير سنة ١٩١٢

اسماعيل رأفت

الفهرست

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت الفهرست ﴾

أسماء مشاهير المكتشفين والسياح الذين ذكرنا نتفاً من أحوالهم وأعمالهم بأسفل الصحائف مكتوبة بالحرف الأفرنجي لتسهل مراجعة ذلك على من يريده مرتبة حسب ورودها بصحائف الكتاب

بيان الخرائط الملحقة بهذا الجزء

(تمت)